

ص: ٣

الجزء السابع

١٨- سورة الكهف

قال مجاهد و قتادة: هي مكية، و هي مائة و عشرون آية في الكوفي و إحدى عشرة في البصرى و خمس في المدنيين.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا (٣)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ ابو بكر (لدنه) بإسكان الدال و إشمام الضمة، و كسر النون و الهاء و إيصالها بياء. الباقون بضم الدال و سكون النون و ضم الهاء من غير واو، إلا ابن كثير، فانه كان يصل الهاء بالواو.

و اعلم أن (لدن) اسم غير متمكن، و معناه (عند)، قال الله تعالى «مَنْ

ص: ٤

لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» «١» فالنون ساكنة في كل أحوالها، و الهاء إذا أتت بعد حرف ساكن لم يجز فيها إلا الضم نحو (منه) فالأصل (منهو) و (لهو) فهو كقول ابن كثير، غير أنهم حذفوا الواو اختصاراً، و إنما أسكن ابو بكر الدال استئقلاً للضم كما قالوا «في كرم زيد»: قد كرم زيد، فلما سكن الدال التقى ساكنان، النون و الدال، فكسر النون لالتقاء الساكنين، و كسر الهاء لمجاورة حرف مكسور، و وصلها بهاء كما تقول: مررت به، و لو فتح النون لالتقاء الساكنين لجاز، بعد أن أسكن الثانى كقول الشاعر:

عجبت لمولود و ليس له أب
و من ولد لم يلبده أبوان «٢»

يعنى آدم و عيسى. فلا يتوهم أن عاصماً كسر النون علامة للجزم، لان (لدن) لا تعرب. و حكى ابو زيد: جئت فلاناً لدن غدوة - بفتح الدال -.

يقول الله تعالى لخلقه قولوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي) خص برسالته محمداً (ص) و انتجبه لابلاغها عنه، و بعثه الى خلقه نبياً رسولا، و انزل عليه كتاباً قيماً، و لم يجعل له عوجاً. و قيل فى معنى قوله (قيماً) قولان: أحدهما - معتدلاً مستقيماً الثانى - أنه قيم على سائر الكتب يصدقها و يحفظها. و الأول قول ابن عباس. فعلى هذا «قيماً» مؤخر، و المراد به التقدم، و تقديره أنزل الكتاب قيماً، و لم يجعل له عوجاً أى اختلافاً. و قال الضحاك: معناه مستقيماً. و قال ابن إسحاق: معناه معتدلاً لا اختلاف فيه. و قال قتادة: أنزل الله الكتاب قيماً، و لم يجعل عوجاً. و فى بعض القراءات «و لكن جعله قيماً» و كسرت العين من قوله «عوجاً» لأن العرب تقول: عوجاً

(١) سورة ١١ هود آية ١

(٢) تفسير الطبرى ١١٩ / ١٥ و هو فى مجمع البيان ٣: ٤٤٤

ص: ٥

- بكسر العين - فى كل اعوجاج كان فى دين أو فيما لا يرى شخصه قائماً و لا يدرك عياناً منتصباً كالعوج فى الدين، و لذلك كسرت العين فى هذا الموضع. و كذلك العوج فى الطريق، لأنه ليس بالشخص المنتصب. فأما ما كان فى الاشخاص المنتصبه فان عينها تفتح كالعوج فى القناة و الخشبة و نحوها.

و قال ابن عباس: معنى قوله «وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا» أى لم يجعله ملتبساً. و لا خلاف بين أهل العربية ان قوله (قيماً) و إن كان مؤخراً فتقديره الى جنب الكتاب.

و إنما افتتح الله تعالى هذه السورة بذكر نفسه بما هو أهله، و بالخبر عن انزال كتابه على رسوله، ليخبر المشركين من أهل مكة بأن محمداً (ص) رسوله،

لأن المشركين كانوا سألوا رسول الله (ص) عن أشياء لقنوها إياهم اليهود، من قريظة و النضير، و أمرؤهم أن يسألوه عنها، و قالوا: إن أخبركم بها فهو نبي، و إن لم يخبركم فهو مقتول، فوعدهم رسول الله (ص) الجواب عنها، موعداً فأبطأ - على قول بعضهم - الوحي عنه بعض الإبطاء و تأخر مجيئ جبرائيل (ع) عنه، عن ميعاده القوم فتحدث المشركون بأنه اخلفهم موعده، و أنه مقتول، فأنزل الله هذه السورة جواباً عن مسألتهم، و افتتح أولها بذكره تكذيباً للمشركين فيما تحدثوا بينهم من احدثتهم - ذكر ذلك محمد بن إسحاق بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس - و كان الذين ذهبوا الى اليهود و سألوهم عن أمر النبي (ص) النضر بن الحارث بن كلدة، و عقبه بن أبي معيط، و كانت المسائل التى لقنوها إياها: أن قالوا: سلوه عن ثلاثة أشياء، فان أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، و إن لم يفعل فانه مقتول، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فانه كان لهم حديث عجيب. و سلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض و مغاربها، ما كان نبؤه؟ و سلوه عن الروح ما هو؟ فان أخبركم بذلك فانه نبي مبعوث، فاتبعوه، و إن لم يخبركم فانه مقتول. فرجعا الى مكة

ص: ٤

و اجتمعوا مع قريش فجاءوا الى رسول الله (ص) فسألوه عنها، فقال النبي (ص) أخبركم بذلك. و قال بعضهم: انه قال: أخبركم غداً بما سألتهم، و لم يستثن، و انصرفوا عن النبي (ص) فمكث رسول الله خمس عشرة ليلة لا ينزل الله اليه في ذلك وحيًا، و لا يأتيه جبرائيل (ع) حتى اوجف أهل مكة، و تكلموا في ذلك، فشق ذلك على رسول الله (ص) فأنزل الله عليه جبرائيل معه (سورة الكهف) يخبره فيها عما سألوه عنه من أمر الفتية، و الرجل الطواف، و انزل عليه «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...» «١» الآية.

فروي ابن إسحاق أن رسول الله (ص) أفتتح السورة، فقال «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ الْكِتَابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيَمًا» أي معتدلاً، لا اختلاف فيه.

و قوله «لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا» معناه أنزل على عبده القرآن معتدلاً مستقيماً لا عوج فيه، لينذرکم أيها الناس بأسأ شديداً من أمر الله. و معنى البأس العذاب العاجل و النكال الحاضر، و السطوة. و معنى «مِنْ لَّدُنْهُ» من عند الله، و هو قول ابن إسحاق، و قتادة. و مفعول «لينذر» محذوف، لدلالة الكلام عليه، و تقديره:

لينذرکم بأساً كلما قال «يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ» «٢» و تقديره يخوفكم أولياءه، و معنى «وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ» يعنى المصدقين بالله و رسوله «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ» يعنى ما أمرهم الله به من الطاعات، و هى الاعمال الصالحات، و الانتهاء عما نهاهم عنه «أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا» يعنى ثوباً جزيلاً من الله على ايمانهم بالله و رسوله، و عملهم فى الدنيا بالطاعات و اجتناب المعاصى، و ذلك الثواب هو الجنة.

و قوله «مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا» أى لابئين فيه ابدًا خالدين مؤبدين لا ينتقلون

(١) سورة الإسراء آية ٨٥

(٢) سورة آل عمران آية ١٧٥

ص: ٧

عنه و لا يتقلبون، و نصب (ماكنين) على الحال من قوله «أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا» فى هذه الحال، فى حال مكثهم فى ذلك الأجر.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٤ الى ٥]

وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)

آيتان.

يقول الله تعالى أنه يحذر ايضاً محمد (ص) القوم «الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» من مشركى قومه و غيرهم - عقاب الله، و عاجل نقمته و أليم عذابه على قولهم ذلك.

و قوله «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ» [معناه ما لقائلى القول هذا يعنى قولهم «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» به من علم] «١» يعنى ليس لهم بالله من علم. و معنى الكلام ما لهؤلاء القائلين هذا القول بالله من علم بأنه لا يجوز أن يكون له ولد. فلجهلهم بالله و عظمتهم قالوا ذلك.

و قوله «وَلَا لِآبَائِهِمْ» معناه و لا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مثل الذى هم عليه اليوم، ما كان لهم بالله و عظمتهم علم.

و قوله «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» نصب (كلمة) على التمييز، و تقديره كبرت كلمتهم التى قالوها كلمة، كما تقول: نعم رجلا عمرو، و نعم الرجل رجلا قام.

و قال بعضهم: نصب (كلمة) لأنها فى معنى: اكبر بها كلمة، كقوله

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

ص: ٨

«وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» «١» و هى فى النصب كقول الشاعر:

و لقد علمت إذا الرياح تروحت
هدج الرئال تكبهن شمالاً «٢»

أى تكبهن الرياح شمالاً، فكأنه قال كبرت تلك الكلمة. و روى عن بعض المكيين انه قرأ ذلك بالرفع، كقولهم: كبر قولك، و كبر شأنك، فعلى هذا لا يكون فى قوله (كبرت) مضمر، بل يكون صفة الكلمة، و الأول أقوى، لإجماع القراء على النصب، و هذا شاذ، و تأويل الكلام: عظمت الكلمة كلمة تخرج من أفواه هؤلاء القوم «الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» او الملائكة بنات الله.

و قوله «إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» معناه ليس يقول هؤلاء القائلون «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» إلا كذباً، و فرية افتروها على الله - عز و جل -.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٦ الى ٨]

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)

ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبية محمد (ص) «فلعلك» يا محمد قاتل نفسك و مهلكها على آثار قومك الذين قالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً...» «٣» تمرداً منهم على ربهم بأنهم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذى أنزلته عليك، فيصدقوا بأنه

(١) سورة ١٨، الكهف آية ٢٩

(٢) تفسير الطبرى ١١٩ / ١٥ و هو فى مجمع البيان ٣ / ٤٤٩

(٣) سورة ١٧، الإسراء آية ٩٠

ص: ٩

من عند الله - حزناً و تلهفاً و جداً- بادبارهم عنك و اعراضهم عن قبول ما أتيتهم به. و (أسفاً) نصب على المصدر. يقال بخع نفسه يبخعها بخعاً و بخوعاً، قال ذو الرمة:

ألا ايهدا الباخع الوجد نفسه
لشئ نحته عن يديه المقادر «١»

يريد (نحتة) فخفف. و ما ذكرناه قول قتادة و غيره. و قوله «أسفاً» قال قتادة: معناه غضباً و تقديره: فلعلك باخع نفسك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً يعنى غضباً. و قال مجاهد: معناه جزعاً. و فى رواية أخرى عن قتادة: حزناً عليهم.

و فى رواية ثالثة عن قتادة حذراً. و كسرت (إن) لأنها فى معنى الجزاء و لو فتحت لجاز قال الشاعر:

أ تجزع أن بان الخليط المودع
و حبل الصفا من عزة المتقطع «٢»

و هذا معاتبة من الله لرسوله على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم اليه من الايمان به و البراءة من الآلهة و الأنداد، و كان بهم رحيماً، و هو قول ابن إسحاق.

و قوله «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا» معناه انا جعلنا الذى على الأرض من انواع المخلوقات جمادها و حيوانها و نباتها «زِينَةً لَهَا» يعنى للأرض «لِنَبْلُوهُمْ أَنَّهُمْ» أى لنختبر عبادنا «أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» يعنى من اتبع أمرنا و نهينا و عمل فيها بطاعتنا، و هو قول مجاهد.

قوله تعالى «وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا» فيه اخبار من الله تعالى انا مخربوها بعد عمارتنا إياها بما جعلنا عليها من الزينة فنصيرها صعيداً جرزاً، و الصعيد

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٩٣ و تفسير الطبرى ١٥/ ١٢٠ و هو فى مجمع البيان ٣/ ٤٤٨

(٢) مر هذا البيت فى ١/ ٣٤٩ من هذا الكتاب.

ص: ١٠

ظهر الأرض، و الجرز الذى لا نبات عليه و لا زرع و لا غرس. و قيل انه أراد بالصعيد- هاهنا- المستوى من وجه الأرض. و قال ابن عباس: معناه نهلك كل شىء عليها زينة.

و قال مجاهد: «جرزاً» أى بلقماً. و قال قتادة: هو مالا شجر فيه و لا نبات. و قال ابن زيد: الجرز الأرض التى ليس فيها شىء، بدلالة قوله «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا» «١» يعنى الأرض التى ليس فيها شىء من النبات.

و الصعيد المستوى قال: و هو كقوله تعالى «لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَّا أَمْتًا» «٢» قال سيبويه: يقال جرزت الأرض فهى مجروزة و جرزها الجراد و النعم، و أرضون اجراز إذا كان لا شىء فيها، و يقال للسنة المجدبة جرز، و سنون أجزاز لجدوبها و يبسها و قلة أمطارها. قال الراجز:

قد جرفتن السنون الأجزاز «٣»

و يقال: أجزز القوم إذا صارت أرضهم جرزاً، و جرزوا هم أرضهم أكلوا نباتها كله.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٩ الى ١٠]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذِ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)

آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه (ص) «أَمْ حَسِبْتَ» يا محمد، و المراد به أمته أى

(١) سورة ٣٢، الم السجدة آية ٢٧

(٢) سورة ٢٠، طه آية ١٠٧

(٣) تفسير الطبرى ١٥ / ١٢١ و روايته (حرقتهن) بدل (جرفتهن)

ص: ١١

أحسبت «أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» بل ما خلقت من السموات و الأرض و ما بينهن من العجائب اعجب من اصحاب اهل الكهف، و حجتى بذلك ثابتة «١» على هؤلاء المشركين من قومك و غيرهم من جميع عبادى، و هو قول مجاهد و قتادة و ابن إسحاق. و قال قوم: معناه «أَمْ حَسِبْتَ» يا محمد «أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» فان الذى آتيتك من العلم و الحكمة أفضل منه، و هو قول ابن عباس، و قال الجبائى: المعنى أ حسبت «أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» و لو لم نعلمك ذلك لما علمته. و الأول أشبه، لأن الله تعالى جعل انزال سورة الكهف احتجاجاً على الكفار بما واطأهم عليه اليهود.

و المراد بالكهف فى الآيه كهف الجبل الذى أوى اليه القوم الذين قص الله شأنهم و ذكر اخبارهم فى هذه السورة.

و اختلفوا فى معنى «الرقيم» فقال قوم: هو اسم قرية - ذهب اليه ابن عباس - و فى رواية أخرى عنه: أنه واد بين غضبان، و ايلة، دون فلسطين، و هو قريب من ايلة. و قال عطية: «الرقيم» واد. و قال قتادة: «الرقيم» اسم الوادى الذى فيه اصحاب الكهف. و قال مجاهد: «الرقيم» كتاب تبيانهم. و فى رواية أيضاً عن ابن عباس أن «الرقيم» هو الكتاب. و قال سعيد بن جبير: هو لوح من حجارة كتبوا فيه قصص اصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف، و هو اختيار البلخى و الجبائى و جماعة. و قيل: جعل ذلك اللوح فى خزائن الملوك، لأنه من عجائب الأمور. و قيل بل جعل على باب كهفهم. و قال ابن زيد: الرقيم كتاب، و لذلك الكتاب خبر، فلم يخبر الله عن ذلك الكتاب و ما فيه، و قرأ قوله «وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» «٢» و قال: هو اسم جبل اصحاب الكهف،

(١) فى المخطوطة (قائمة) بدل (ثابتة)

(٢) سورة ٨٣، المطففين آية ١٩ - ٢١

روى ذلك عن ابن عباس. وقيل: إن اسم ذلك الجبل (تياحلوس) «١» وقيل تياحلوس «٢».

وقد روى عن ابن عباس أنه قال: كل القرآن أعلمه إلا (حنان) و (الأواه) و «الرقيم». واختار الطبرى أن يكون ذلك اسماً لكتاب أو لوح أو حجر كتب فيه.

والرقيم (فعل). أصله مرقوم، صرف الى فعيل مثل جريح بمعنى مجروح و قتيل بمعنى مقتول يقال: رقمت الكتاب أرقمه إذا كتبتة و منه الرقيم فى الثوب لأنه خط يعرف به ثمنه. وقيل للحبة أرقم لما فيها من الآثار، و تقول العرب عليك بالرقمة [بمعنى عليك برقمة الوادى حيث الماء] «٣» و دع الضفة أى الجانب و الضفتان جانبا الوادى، و لعل من ذهب الى أن الرقيم الوادى: ذهب الى رقمة الوادى.

وقوله «إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» معناه «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» حين «أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» أى حين جاء أصحاب الكهف الى الكهف، كهف الجبل هرباً بدينهم الى الله، قالوا إذ أووه «رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» رغبة منهم الى ربهم فى أن يرزقهم من عنده رحمة.

وقوله «وَ هَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» معناه انهم قالوا يسر لنا ما نبتغى و نلتمس من رضاك أى دلنا على ما فيه نجاتنا و الهرب من الكفر بك و من عبادة الأوثان التى يدعونها قوما «رشدًا» أى رشدًا الى العمل الذى تحب.

وقيل إن هؤلاء الفتية كانوا مسلمين على دين عيسى (ع) و كان ملكهم يعبد الأصنام، فهربوا بدينهم منه. و قال آخرون: هربوا من الملك بجناية اتهموا بها

(١) فى المخطوطة (بجلوس)

(٢) فى المخطوطة (بنا جلوس)

(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

فدخلوا الكهف.

و يجوز «رشدًا» - بضم الراء و تسكين الشين - غير أنه لم يقرأ به - هاهنا - أحد، لأن أواخر الآيات كلها على وزن (فَعَلَ) فلم يخالفوا بينها.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ١١ إلى ١٢]

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)

آيتان.

يقول الله تعالى «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ»، يعنى بالنوم، كما يقول القائل لآخر: ضربك الله بالفالج بمعنى أبلاك الله به. و قيل معناه منعناهم أن يسمعوا، والمعنى أنمناهم. وقوله «سِنِينَ عَدَدًا» معناه سنين معدودة. و نصب (سنين) على الظرف بقوله «فَضَرَبْنَا» و «عَدَدًا» بمعنى معدود، و العدّ المصدر و مثله نقضت الشيء نقضاً، و المنقوض نقض، و كذلك قبضته قبضاً، و المقبوض قبض.

و قوله تعالى «ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا» معناه بعثنا هؤلاء الفتية الذين أووا الى الكهف بعد ما ضربنا على آذانهم فيه سنين عدداً، من رقدتهم لينظر عبادى فيعلموا بالبعث أى الطائفتين اللتين اختلفتا فى قدر مبلغ مكث الفتية فى كهفهم رقوداً «أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا» بمعنى أصوب لقدّر لبيثهم فيه أمداً.

و الأمد الغاية قال النابغة:

سبق الجواد إذا استولى على الأمد «١»

ألا لمثلك او من أنت سابقه

و قال قوم: الحزبان جميعاً كانا كافرين. و قال آخرون: كان أحدهما مسلماً

(١) تفسير الطبرى ١٥ / ١٢٧ و مجمع البيان ٣ / ٤٥١

ص: ١٤

و الآخر كافراً، فالأول قول مجاهد. و قال: الحزبان من قوم الفتية. و قال قتادة:

أحدهما كان كافراً، و الآخر كان مؤمناً، و لم يكن لواحد منهما علم بمقدار زمان لبيثهم. و قال قوم: الحزبان هم اصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبيثهم. و قال قوم: احد الحزبين اصحاب الكهف، و الآخر أصحابهم و قومهم.

و معنى «أمداً» قال ابن عباس يعنى بعيداً. و قال مجاهد: يعنى عدداً.

و يحتمل نصب «أمداء» وجهين:

أحدهما- التمييز فى قوله (أحصى) كأنه قال أى الحزبين أصوب عدداً.

و الثانى- أن يكون نصباً بوقوع قوله «لبثوا» عليه، كأنه قال: أى الحزبين أحصى للبتهم غاية أى فى الأمد.

و الفتية جمع فتى مثل صبى و صبية و غلام و غلمة.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ١٣ الى ١٥]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَا لَهُمُ هُدًى (١٣) وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥)

ثلاث آيات فى عدد الكل- إلا الشامى- آخر الأولى «هدى» و عند الشامى شططاً.

يقول الله تعالى إنا نخبرك يا محمد و نقص عليك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا الى

ص: ١٥

الكهف على وجه الصحة. و القصص الخبر بمعانى يتلو بعضها بعضاً و أصله الاتباع من قولهم: قص أثره يقصه قصصاً إذا اتبعه، و منه قوله تعالى «وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ» أى اتبعى أثره. و النبأ الخبر. و فتية جمع فتى، و هو جمع لا يقاس عليه لأنه غير مطرد، و قد جاء غلام و غلمة و صبى و صبية، و لا يجوز غراب و غربة.

ثم أخبر عنهم بأنهم فتية آمنوا بربهم، و اعترفوا بتوحيده «وَ زِدْنَا لَهُمُ هُدًى» و المعنى و زدناهم المعارف بما فعلنا لهم من اللطاف لما فيها من الآيات التى رأوها، و من الربط على قلوبهم حتى تمسكوا بها.

و قوله «إِذْ قَامُوا فَقَالُوا» معناه حين قاموا بحضرة الملك الجبار، فقالوا هذا القول الذى أفصحوا فيه عن الحق فى الديانة و لم يستعملوا التقية، فقالوا: ربنا الذى نعبد هو الذى خلق السموات و الأرض لن ندعوا من دونه إلهاً آخر، فنوجه العبادة اليه، و متى قلنا غير ذلك و دعونا معه إلهاً آخر «لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا». و الشطط الخروج عن الحد بالغلو فيه، فقلنا شططاً أى غلوا فى الكذب و البطلان. قال الشاعر:

و يزعمن أن أودى بحقى باطلى

ألا يا قوم قد شطت عوادلى

و يلحيننى فى اللهو ألا أحبه

و للهو داع دائب غير غافل «١»

و منه أشط فلان فى السوم إذا تجاوز القدر بالغلو فيه يشط إشطاطاً و شططاً و شط منزل فلان يشط شطوطاً إذا جاوز القدر فى البعد، و شطت الجارية تشط شطاطاً و شطاطة إذا جاوزه القدر فى الطول.

و قوله «هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة» إخبار من الفتية بخضرة الملك على وجه الإنكار على قومه «إن هؤلاء» قومك اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها

(١) قائله الأحوص. مجاز القرآن ١/ ٣٩٤ و الكامل للمبرد ٤٩ و تفسير الطبرى ١٥/ ١٢٨ و اللسان و التاج (شطط).

ص: ١٦

«لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لَظَلَمُوا مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

معناه هلا يأتون على عبادتهم إياها بحجة واضحة و دلالة بينة. و حذف لدلالة الكلام عليه ثم قالوا: فمن اظلم لنفسه ممن يتخرص على الله كذباً، و يضيف إليه مالا اصل له. و فى ذلك دلالة على أن التقليد فى الدين لا يجوز و انه لا يجوز أن يقبل دين إلا بحجة واضحة. و فى قصة اصحاب الكهف دلالة على أنه لا يجوز المقام فى دار الكفر إذا كان لا يمكن المقام فيه إلا بإظهار كلمة الكفر و انه يجب الهجرة الى دار الإسلام أو بحيث لا يحتاجون الى التلطف بكلمة الكفر.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ١٦ الى ١٨]

وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (١٦) وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ إِذَا غَرَبَتْ تَقْرُبُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا (١٧) وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نَقَلْبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَلَّمْتُمْ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر و اهل الكوفة، و ابو بكر و الأعشى إلا يحيى و العليمى «مرفقاً» بفتح

ص: ١٧

الميم و كسر الفاء. الباقون - بكسر الميم و فتح الفاء - و قرأ ابن عامر و يعقوب (تزور) - بتخفيف الزاى و تسكينها و تشديد الراء من غير ألف - و قرأ أهل الكوفة بتخفيف الزاى و الف بعدها و تخفيف الراء. الباقون كذلك إلا أنهم شددوا الزاى. و قرأ أهل الحجاز «لمليت» بتشديد اللام. الباقون بتخفيفها و بالهمز.

قال ابو عبيدة: المرفق ما ارتفعت به و بعضهم يقول: المرفق. فأما فى اليدين فهو (مرفق) بكسر الميم و فتح الفاء، و هو قول الكسائى، و أجاز الفراء الفتح أيضاً.

و قال ابو زيد يقال: رفق الله عليك أهون المرفق و الرفق. قال ابو على: ما حكاه أبو زيد فى (المرفق) فانه جعله مصدراً، لأنه جعله كالرفق، و كان القياس الفتح لأنه من (يرفق) لكنه كقوله «مرجعكم» «١» «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ» «٢» و قال ابو الحسن: (مرفقاً) أى شيئاً يرتفقون به مثل المقطع. و (مرفقاً) جعله اسماً مثل المسجد أو يكون لغة يعنى فى اسم المصدر مثل المطلع و نحوه. و لو كان على القياس لفتحت اللام. و قال الحسن ايضاً: مرفق - بكسر الميم و فتحها - لغتان لا فرق بينهما انما هما اسمان مثل المسجد و المطبخ.

و من قرأ «تزور» فانه مثل تحمر و تصفر، و معناه تعدل و تميل قال عنترة:

و شكا الى بعبرة و تحمحم «٣»

فازور من وقع القنا بلبانه

و قرأ عاصم و الجحدري «تزوارة» مثل تحمار و تصفار.

(١) سورة ٣، آل عمران آية ٥٥ و سورة ٥، المائدة آية ٥١، ١٠٨ و سورة ٦، الانعام آية ٦٠، ١٦٤ و سورة ١٠، يونس آية ٢٣ و سورة ١١، هود آية ٤ و سورة ٢٩، العنكبوت آية ٨ و سورة ٣١، لقمان آية ١٥.

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٢

(٣) ديوانه ٣٠ من معلقته المشهورة (ج ٧ م ٣ من التبيان).

ص: ١٨

و من قرأ «تزاور» أراد تتزاور فأدغم التاء فى الراء.

و من خفف أراد ذلك، و حذَفَ إحدى التائين و هى الثانية مثل تساقط، و تساقط، و تظاهرون، و تظاهرون. قال أبو الزحف:

يقال: هو أزور عن كذا أى مائل. و فى فلان زور أى عوج، و الزور- بسكون الواو- هو المصدر، و مثله الجوشن، و الكلكل، و الكلكال، كل ذلك يراد به المصدر و قال ابو الحسن: قراءة ابن عامر «تزور» لا توضع فى ذا المعنى، انما يقال:

هو مزور عنى أى منقبض. و قال ابو على: يدل على أن (ازور) بمعنى انقبض- كما قال ابو الحسن- قول الشاعر:

و أزور من وقع القنا بلبانه «٢»

و الذى حسن القراءة به قول جرير:

و فى الاظغان عن طلع ازورار «٣»

عسفن على الاداعس من مهيل

فظاهر استعمال هذا (الاظغان) مثل استعماله فى (الشمس). و يقال: ملئ فلان وعياً و فرعاً، فهو مملؤ، و ملئ، فهو مملئ - بالتشديد، للتكثير من ملأت الإناء فهو ملآن، و امتلأ الحوض يمتلئ امتلاءً، و قولهم: تمليت طويلاً، و عانقت حبيباً، و مت شهيداً، و أبليت جديداً، فهو غير مهموز. قال ابو الحسن: الخفيفة أجود فى كلام العرب، لأنهم يقولون ملأته رعباً، فلا يكادون يعرفون (ملأتنى).

(١) ابو الزحف الكلبي مترجم فى الشعراء ٤٦٢، و البيت فى مجاز القرآن ١ / ٣٩٥ و تفسير القرطبي ١٠ / ٢٥٠ و جمهرة اشعار العرب ١ / ٤٢٣، ٣ / ٣٧٠ و اللسان و التاج (زور، سمهد، عشنزر).

(٢) قد مر فى الصفحة التى قبلها

(٣) ديوانه (دار بيروت) ١٨٢ و روايته (على إلا ما عز من حبي).

قال ابو على: يدل على قول أبى الحسن قولهم (فيماً بيتنا اقطاً و سمناً) و قال الأعشى:

و قد ملأت بكر و من لف لفيها

و قال الآخر:

لا تملأ الدلو و عرق فيها

و قولهم: (امتألت) يدل على (ملىء) لأن مطاوع (فعلت) (افتعلت) و قد انشدوا فى التثقيل قول المخبل السعدى:

فملاً من كعب سلاسله

و قوله «وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ» خطاب من اهل الكهف بعضهم لبعض، و دعاء بعضهم بعضاً الى أن يأووا الى الكهف، رجاء من الله أن ينشر لهم من رحمته و يبسطها عليهم، و يهيئ لهم من أمرهم مرفقاً أى شيئاً يرتفق به و يستعان به كالمقطع و المجزر.

و قوله «وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» (ما) فى موضع نصب و معناه و إذ اعتزلتموهم و ما يعبدون من دون الله من الأصنام و الأوثان، و يحتمل الاستثناء أمرين:

أحدهما- أن يكون متصلاً، فيجوز على ذلك أن يكون فيهم من يعبد الله مع عبادة الوثن، فيكون اعتزالهم للأوثان دون الله.

و الثانى - يجوز أن يكون جميعهم كان يعبد الأوثان دون الله فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً.

و قوله «فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ» أى اجعلوه مأواكم و مقركم «ينشر» الله «لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» ما ترتفقون به.

ص: ٢٠

و قوله «فَأَوْوَا» جواب (إذ) كما تقول: إذ فعلت قبيحاً، فتب.

و قوله «و تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ» أى تعدل عنهم و تميل، يقال: ازور ازوراراً، و فيه زور أى ميل.

و قوله «وَ إِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - تقطعهم فى ذات الشمال أى انها تجوزهم منحرفة عنهم، من قولك قرضته بالمقراض أى قطعته.

الثانى - تعطيمهم اليسير من شعاعها ثم تأخذه بانصرافها، من قرض الدراهم التى تسترد.

و قال مجاهد: تقرضهم تتركهم. و قال ابو عبيدة كذلك هو فى كلامهم يقال: قرضت الموضع إذا قطعته و جاوزته. و قال الكسائى و الفراء: هو المجاوزة يقال: قرضنى فلان يقرضنى و جازنى يجوزنى بمعنى واحد، قال ذو الرمة:

الى قرض يقرض أجواز مشرف شمالا و عن ايمانن الفوارس «١»

و القرض يستعمل فى أشياء غير هذا، فمنه القطع للشوب و غيره، و منه سمي المقراض، و منه قرض الفار. و قال ابو الدرداء: (إن قارضتهم قارضوك و إن تركتهم لم يتركوك) و معناه إن طعنت فيهم و عبتهم فعلوا بك مثله و إن تركتهم منه لم يتركوك.

و القرض، من يتقارض الناس بينهم الأموال، و قد يكون ذلك فى الثناء تنشى عليه كما يشنى عليك. و القرض بلغة أهل الحجاز المضاربة، و القرض قول الشعر القصيد منه خاصة دون الرجز، و قيل للشعر قريض. و من ذلك قول الأغلج العجلي:

(١) ديوانه ٣١٣ و تفسير الطبرى ١٥ / ١٣٠ و تفسير القرطبي ١٠ / ٤٦٩ و الصحاح و التاج، و اللسان (قرض) و مجمع البلدان ٤ / ٤٦٣ و مجاز القرآن ١ / ٤٠٠ و غيرها.

ص: ٢١

أ رجزاً يريد أو قريضاً

و المعنى فى الآيه ان الشمس لا تصيبهم البتة أو فى اكثر الأمر، فتكون صورهم محفوظة. و قيل ان الكهف الذى كانوا فيه كان محاذياً لبنات النعش إذا جازت خط نصف النهار.

و الفجوة: المتسع من الأرض. و قال قتادة: فى قضاء منه، و تجمع فجوات و فجاء ممدود، و قيل الفجوة متسع داخل الكهف بحيث لا يراه من كان ببابه، و كان الكلب بباب الفجوة.

و قوله «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» أى أدلته و براهينه «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ» معناه من يسمه الله هادياً و يحكم بهدايته «فَهُوَ الْمُهْتَدِ». و يحتمل أن يكون أراد:

من يهده الله الى الجنة، فهو المهتدى فى الحقيقة. و يحتمل أن يكون: من يلطف الله له بما يهتدى عنده، فهو المهتدى «و من يضل» أى يحكم بضلاله أو يسميه ضالاً أو من يضلّه عن طريق الجنة، و يعاقبه «فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا» أى معيناً و ناصرأ يرشده إلى الجنة و الثواب.

ثم قال تعالى «وَ تَحْسَبُهُمْ» يعنى و تحسب يا محمد أهل الكهف إذا رأيتهم «إيقاظاً» أى منتبهين «و هم رقاد» أى نيام. و قيل انهم كانوا فى مكان موحش منه، أعينهم مفتوحة يتنفسون و لا يتكلمون. و واحد (رقود) راقداً أى نائم.

و قوله «وَ تَقَلَّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشَّمَالِ» اخبار منه تعالى عما يفعل بهم و كيفية حفظ أجسادهم بأن يقلبهم من جنب الى جنب الى اليمين تارة و الى الشمال أخرى.

و قوله «وَ كَلَّبَهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ» قال ابن عباس: الوصيد الفناء، و به قال مجاهد و قتادة و الضحاك. و فى رواية أخرى عن ابن عباس: انه هو الباب إذا

ص: ٢٢

أغلقتة، و منه «نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ» «١».

و يجمع (وصيد) و صائد و وصد، و فى واحده لغتان: وصيد، و أصيد.

و أوصدت و آصدت. و ليس أحدهما مؤخوذاً من الآخر، بل هما لغتان مثل ورخت الكتاب و أرخته، و وكدت الأمر و أكدته.

و قوله «لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً» نصب على المصدر، و معناه لو أشرفت عليهم لاعرضت عنهم هرباً استيحاشاً للموضع «وَ كَلَّمْتَهُمْ مِنْهُمْ رُغْباً» نصب على الحال. و المعنى لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة لتلا يصل اليهم احد حتى يبلغ الكتاب اجله فيهم، فينتبهون من رقدتهم بإذن الله عند ذلك من أمرهم. و قيل انه: كانت اضفارهم قد طالت، و كذلك شعورهم، فلذلك يأخذ الرعب منهم. و قال الجبائى: نومهم ثلاثمائة سنة و تسع سنين - لا تتغير أحوالهم و لا يطعمون و لا يشربون - معجزة لا تكون إلا للنبي. و قيل النبي كان أحدهم، و هو الرئيس الذى اتبعوه و آمنوا به.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ١٩ الى ٢٢]

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لِيَتَلَطَّفَ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ نُفْلِحُوا إِذَا أَبدَأَ (٢٠) وَ كَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُذِّبُوا وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُذِّبُوا رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كُذِّبُوا قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَ لَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)

(١) سورة ٩٠ البلد آية ٢٠.

ص: ٢٣

قرأ «بورقكم» - بسكون الراء - أبو عمرو وحده و أبو بكر عن عاصم الباقون بكسر الراء. و روى عن أبي عمرو «بورقكم» بإدغام القاف فى الكاف. و فى (ورقكم) اربع لغات - فتح الواو و كسر الراء - و هو الأصل. و فتح الواو و سكون الراء. و كسر الواو و سكون الراء. و الإدغام. فالورق الدراهم، و يقال أيضاً بفتح الراء، و يجمع أوراق. و رحل وراق كثير الدراهم. فأما ما يكتب فيه فهو (الورق) بفتح الراء لا غير. و الورق الغلمان الملاح. و قيل الورق - بفتح الراء - المال كله المواشى و غيرها قال العجاج:

اغفر خطاياى و طوح ورقى

فى قصة أهل الكهف اعتبار و دلالة على أن من قدر على نقض العادة - بتلك المعجزة - قادر لا يعجزه شىء، و إن التدبير يجرى بحسب الاختيار، لا بإيجاب الطبائع، كما يتوهمه بعض الجهال، لأنه على تدبير مختار، كما يدل على تدبير عالم.

و وجه التشبيه فى قوله «وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ» أى كما حفظنا أحوالهم تلك المدة «بعثناهم» من تلك الرقدة، لان أحد الامرين كالآخر فى أنه لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

بين الله تعالى أنه بعث أهل الكهف بعد نومهم الطويل و رقدتهم البعيدة ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مقامهم، فيتنبهوا بذلك على معرفة صانعهم إن كانوا كفاراً.

ص: ٢٤

و إن كانوا مؤمنين تثبتوا زيادة على ما معهم، و يزدادوا يقيناً الى يقينهم. و قال البلخى:

اللام فى قوله «ليتساءلوا» لام العاقبة، لأن التساؤل بينهم قد وقع. ثم اخبر تعالى أن قائلاً منهم قال: للباقيين «كم لبثتم» مستفهماً لهم، فقالوا فى جوابه: «لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» و إنما أخبروا بذلك من غير أن يعلموا صحته، لأن الاخبار فى مثل هذا عن غالب الظن و على ذلك وقع السؤال، لان النائم لا يدرى، و لا يتحقق مقدار نومه إلا على غالب الظن. و قيل أنهم لما ناموا كان عند طلوع الشمس فلما انتبهوا كانت الشمس دنت للغروب بقليل. فذلك قالوا: يوماً أو بعض يوم - ذكره الحسن -.

و قيل أيضاً إن الخبر بأنهم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ليس ينافى أنهم لبثوا مدة طويلة، لان المدة الطويلة تأتى على قصيرة و تزيد عليها لا محالة. ثم قالوا «ربكم اعلم بما لبثتم» و معناه ان الذى خلقكم اعرف بمدته لبثكم على التحقيق. و الأعلّم هو من كانت علومه اكثر أو صفاته فى كونه عالماً أزيد. و قيل: إن الأعلّم هو من كانت معلوماته اكثر، و هذا ليس بصحيح، لأنه يلزم انه عالم من اجل العلوم.

ثم قال بعضهم لبعض «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكى طَعَاماً» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما - قال قتادة: «ازكى» أجل و خير.

و الثانى - ايها أنمى طعاماً بأنه طاهر حلال، لأنهم كانوا يذبحون للأوثان، و هم كفار أرجاس. و قيل معناه ايها اكثر فان الزكاة و النماء الزيادة. «فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لِيَتَلَطَّفْ» فى شرائه و إخفاء أمره «وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا» أى لا يعلمن بمكانكم أحداً. و قيل: المعنى و إن ظهر عليه فلا يوقعن إخوانه فيما وقع فيه لأنهم «إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ» و يعلموا بمكانكم «يرجموكم». قال الحسن: معناه يرموكم بالحجارة.

و قال ابن جريج: يشتموكم و يؤذوكم بالقول القبيح «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ» أى

ص: ٢٥

يردوكم فى عبادة الأصنام. و متى فعلتم ذلك «لن تفلحوا» بعد ذلك «أبداً» و لا تفوزوا بشيء من الخير.

ثم قال: «وَ كَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» و معناه انا كما فعلنا بهم ما مضى ذكره، مثل ذلك أظهرنا عليهم و اطلعنا عليهم، ليعلم الذين يكذبون بالبعث «أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» و يزداد المؤمنون ايماناً، و التقدير، ليستدلوا بما يؤديهم الى العلم بأن الوعد فى قيام الساعة حق كما قبضت أرواح هؤلاء الفتية تلك المدة. ثم بعثوا كأنهم لم يزالوا أحياء على تلك الصفة.

و قوله «إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» يجوز أن تكون (إذ) نصباً ب «يعلموا» فى وقت منازعتهم. و يجوز أن يكون بقوله «أغترنا» و التقدير: و كذلك اطلعنا إذ وقعت المنازعة فى أمرهم. و المعنى انهم لما ظهروا عليهم و عرفوا خبرهم أماتهم الله فى الكهف، فاختلف الذين ظهروا على أمرهم من اهل مدينتهم من المؤمنين و هم الذين غلبوا على أمرهم. و قيل رؤساؤهم الذين استولوا على أمرهم. فقال بعضهم: ابنوا عليهم مسجداً ليصلى فيه المؤمنون تبركاً بهم «١». و قيل إن النزاع كان فى ان بعضهم قال: قد ماتوا فى الكهف. و بعضهم قال: لا بل هم نيام كما كانوا، فقال عند ذلك بعضهم: إن الذى خلقهم و أنامهم و بعثهم اعلم بحالهم و

كيفية أمرهم، فقال عند ذلك الذين غلبوا على أمرهم من رؤسائهم لنتخذن عليهم مسجداً. و روى انهم لما جاءوا الى فم الغار دخل صاحبهم اليهم و أخبرهم بما كانوا عنه غافلين مدة مقامهم، فسألوا الله

(١) و فى المخطوطة زيادة و قال بعضهم: «ابنوا عليهم مسجدا» ليصلوا فيه إذا انتبهوا). (ج ٧ م ٤ من التبيان)

ص: ٢٤

تعالى ان يعيدهم الى حالتهم الاولى فأعادهم اليها، و حال بين من قصدهم و بين الوصول اليهم بأن أضلهم عن الطريق الى الكهف الذى كانوا فيه، فلم يهتدوا اليهم. و قيل انهم لما دخلوا الغار سدوا على نفوسهم بالحجارة فلم يهتد احد اليهم لذلك

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)

يقول الله لنبيه (ص) انه سيقول قوم من المختلفين فى عدد اصحاب الكهف فى هذا الوقت: انهم ثلاثة رابعهم كليهم، و طائفة أخرى يقولون: خمسة سادسهم كليهم رجماً بالغيب، و تقول طائفة ثالثة: انهم سبعة و ثامنهم كليهم. و ذهب بعضهم الى انهم سبعة لدخول و او العطف بعده فى قوله «وَاثْمُنُهُمْ كُلُّهُمْ» و لم يقل ذلك فى الاول. و هذا ليس بشيء، لأنه انما لم يدخل الواو فى الاول، لأنه جاء على الصفة بالجملة، و الثانى على العطف على الجملة. قال الرمانى: و فرق بينهما، لأن السبعة أصل للمبالغة فى العدة، كما قال (عز و جل): «اسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ

ص: ٢٧

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» «١» و حكى البلخى عن بعض أهل العلم أنه قال: الواجب أن يعد فى الحساب: واحد اثنان ثلاثة اربعة، فإذا بلغت الى السبعة قلت: و ثمانية - بالواو - اتباعاً للآية.

و قوله «رَجْمًا بِالْغَيْبِ» قال قتادة: معناه قذفاً بالظن. و قال المؤرج: ظناً بالغيب بلغة هذيل. و قال قوم: ما لم تستيقنه فهو الرجم بالغيب قال الشاعر:

و أجعل منى الحق غيباً مرجماً «٢» و قال زهير:

و ما هو عنها بالحديث المرجم «٣»

و ما الحرب إلا ما علمتم و ذقتم

ثم قال تعالى لنبيه (ص): قل لهم يا محمد: ربي اعلم بعدتهم، من الخائضين في ذلك و القائلين في عددهم بغير علم. ثم قال تعالى: ليس يعلم عددهم إلا قليل من الناس، و هم النبي و من أعلمه الله من نبيه. و قال ابن عباس: أنا من القليل الذين يعلمون ذلك: كانوا سبعة و ثامنهم كليهم.

ثم قال تعالى، ناهياً لنبيه - و المراد به أمته - «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا».

قال ابن عباس و قتادة و مجاهد و الضحاك: معناه إلا بما أظهرنا لك من أمرهم، و المعنى انه لا يجوز أن تمارى و تجادل إلا بحجة و دلالة، و اخبار من الله، و هو المراء الظاهر.

و قال الضحاك: معناه حسبك ما قصصنا عليك. و قال البلخي: و في ذلك دلالة على أن المراء قد يحسن إذا كان بالحق و بالصحيح من القول. و إنما المذموم منه ما كان باطلا و الغرض المبالغة لا بيان الحق. و المراء الخصومة و الجدل.

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨

(٢) قد مر هذا البيت كاملاً في ١/ ٢٠٥ من هذا الكتاب و قد نسبه هناك الى عمير بن طارق. و روايته (الظن) بدل (الحق)

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٨١ و هو في تفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٣

ص: ٢٨

و قوله «وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ» يعنى فى أهل الكهف. و فى مقدار عددهم «منهم» يعنى من اهل الكتاب «أحداً» و لا تستفهم من جهتهم. و هو قول ابن عباس و مجاهد و قتادة.

و قوله «وَلَا تَقُولَنَّ لِيْءٍ اِنِّىْ فاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا اِلَّا اَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ» نهى من الله تعالى لنبيه ان يقول: انى افعل شيئاً فى الغد إلا أن يقيد قوله بمشيئة الله، فيقول:

ان شاء الله، لأنه لا يأمن اخترامه، فيكون خبره كذباً. و إذا قيده بقوله إن شاء الله، ثم لم يفعل، لم يكن كاذباً. و المراد بالخطاب جميع المكلفين، و متى اخبر المخبر عن ظنه و عزمه بأنه يفعل شيئاً فيما بعد ثم لم يفعل لا يكون كاذباً، لأنه اخبر عن ظنه و هو صادق فيه. و قال قوم «إِلَّا اَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ». معناه إلا أن يشاء الله أن يلجئنى الى تركه. و قال الفراء: قوله «إِلَّا اَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ» بمعنى المصدر، فكأنه قال إلا مشيئة الله و المعنى إلا ما يريد الله. و إذا كان الله تعالى لا يشاء إلا الطاعات فكأنه قال: لا تقل انى افعل إلا الطاعات و ما يقرب الى الله. و هذا وجه حسن. و لا يطعن فى ذلك جواز الاخبار عما يريد فعله من المباحات التى لا يشاؤها الله، لأن هذا النهى ليس نهى تحريم، و انما هو نهى تنزيه، لأنه لو لم يقل ذلك لما أثم بلا خلاف و انما هو نهى تحريم فيما يتعلق بالقبيح فانه لا يجوز أن يقول انى افعل ذلك بحال. و الآية تضمنت أن لا يقول الإنسان انى افعل غداً شيئاً إلا أن يشاء الله. فأما أن يعزم عليه من ذكر ذلك، فلا يلزم المشيئة فيه إلا ندباً، بغير الآية.

و قوله «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ» قال الحسن: معناه انه إذا نسي أن يقول: إن شاء الله، ثم ذكر فليقل ان شاء الله. و قال ابن عباس: له ان يستثنى و لو الى سنة. و قال بعضهم: و له أن يستثنى بعد الحنث إلا انه لا تسقط عنه الكفارة فى اليمين، إلا ان يكون الاستثناء موصولاً بالإجماع. و قال الحسن له أن يستثنى ما لم يقم من

ص: ٢٩

مجلسه الذى هو فيه، فان قام بطل استثناءه. و قال قوم «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ» أمراً ثم تذكرته، فان لم تذكره فقل «عسى أن يَهْدِينِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا».

و قال بعضهم: عسى أن يعطينى ربي من ارشد ما هو أولى من قصة اصحاب الكهف.

و الذى نقوله: ان الاستثناء متى لم يكن متصلاً بالكلام أو فى حكم المتصل، لم يكن له تعلق بالأول و لا حكم له، و انه يجوز دخول الاستثناء بمشيئة الله فى جميع انواع الكلام: من الامر، و النهى، و الخبر، و الأيمان، و غير ذلك. و متى استثنى ثم خالف لم يكن حائثاً فى يمينه و لا كاذباً فى خبره. و متى هو استثناءه بعد مدة بعد انفصال الكلام لم يبطل ذلك حنثه و لزمته الكفارة. و لو لم نقل ذلك أدى الى ان لا يصح يمين و لا خبر و لا عقد، فان الإنسان متى شاء استثنى فى كلامه و يبطل حكم كلامه.

و

قد روى عن النبي (ص) انه قال: (من حلف على أمر يفعله ثم رأى ما هو خير له فليحنث و ليكفر عن يمينه)

و لو كان الاستثناء جائزاً بعد مدة، لكان يقول فليستثنى و لا يحتاج الى الكفارة و لا يلزمه الحنث.

و قد روى فى اخبارنا مثل ما حكيناه عن ابن عباس. و يشبه أن يكون المراد به أنه إذا استثنى و كان قد نسي من غير تعمد فانه يحصل له ثواب المستثنى دون أن يؤثر فى كلامه، و هو الأشبه بابن عباس و أليق بعمله و فعله، فان ما حكى عنه بعيد جداً. و قال المبرد، و جماعة: إن قوله «وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» ضم الاستثناء إلى الكلام الذى قبله. ثم قال «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسَى» استأنف كلاماً آخر و قصة أخرى. و قال الجبائى هذا استئناف كلام من الله، و أمر منه لنبيه (ص) أنه إذا أراد فعلاً من الافعال فنسيه فليذكر الله و ليقول عسى أن يهدينى ربي لأقرب مما نسيته رشداً. و قال عكرمة: «اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ» معناه إذا نسيت أمراً فاذكر ربك تذكره، و هذا يدل على أنه لم يرد اليمين

ص: ٣٠

فى الاستثناء.

و

قيل سبب نزول ذلك أن قريشاً لما جاءت و سألت النبي (ص) عن قصة اصحاب الكهف و قصة ذى القرنين، فقال لهم: غداً أخبركم، فأبطأ عنه جبرائيل.

و قيل تأخر عنه اياماً ثم أتاه بخبرهم.

و هذا ليس بصحيح، لأنه لو كان كذلك بأن وعدهم بأن يخبرهم غداً ثم لم يخبرهم لكان كذباً، و هو منه محال. و قال ابراهيم: إذا حلف الحالف و الكلام متصل فله استثناءه إذا قال ان شاء الله. و قال الكسائي و الفراء: التقدير: و لا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً إلا أن تقول ان شاء الله فأضمر القول. و انما كان الاستثناء مؤثراً إذا كان الكلام متصلاً لأنه يدل على انه يؤل كلامه، و إذا لم يكن متصلاً فقد استقرت نيته و ثبتت فلا يؤثر الاستثناء مؤثراً إذا كان الكلام متصلاً لأنه يدل على انه يؤل كلامه، و راعياً يتبعهم، حكاه قطرب. و قال اخبر عن الكلب و أراد صاحبه، كقوله «وَسئَلِ الْقَرْيَةَ». و انما أراد أهلها. [و هذا لا يصح مع ظاهر قوله «وَكَلْبُهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ»] و قال الجبائي: لما اجتازوا على الراعى، فقال لهم اين تريدون قالوا: نفر بديننا، فقال الراعى: انا أولى بذلك، فتبعهم و تبعه الكلب. و فى اصحاب الحديث من يقول:

ان الكلب خاطبهم بالتوحيد و الاعتراف بما اعترفوا به، و لذلك تبعهم. و هذا خرق عادة يجوز أن يكون الله فعله لطفاً لهم، و معجزة لبعضهم على ما حكى ان بعضهم كان نبياً، و هو رئيسهم، فيكون ذلك معجزة له، غير انه ليس بمقطوع به.

و قوله «عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا» معناه قل يا محمد عسى ان يعطينى ربي من الآيات على النبوة ما يكون اقرب و أدل من قصة اصحاب الكهف.

(١) كان فى هذه الفقرات المتقدمة و ما بعدها، اخطاء كثيرة و نقص واضح فى المطبوعة فصحح على المخطوطة و لكثرة الاخطاء نبهنا عليها جملة.

ص: ٣١

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة و الكسائي «ثلاثمائة سنين» مضافاً. الباقر بالتثوين، قال الفراء:

من العرب من يضع (سنين) في موضع (سنة) فهي في موضع خفض على قراءة من أضاف قال عنترة:

فيها اثنتان و أربعون حلوبة
سوداً كخافية الغراب الأسحم «١»

فمن نون نصب سنين ب «لبثوا» و تقديره سنين ثلاثمائة، ف (سنين) مفعول (لبثوا) و (ثلاثمائة) بدل، كما تقول خرجت أياماً خمسة و صمت سنين عشرة. و ان شئت نصبت «ثلاثمائة» ب (لبثوا) و جعلت (سنين) بدلاً و مفسرة لها. و من أضاف قال ابن خالويه: هي قراءة غير مختارة، لأنهم لا يضيفون مثل هذا العدد إلا الى الافراد فيقولون ثلاثمائة درهم و لا يقولون ثلاثمائة دراهم قال ابو علي الفارسي قد جاء مثل ذلك مضافاً الى الجمع، قال الشاعر:

فما زودوني غير سحق عمامة
و خمس مئى منها قسى و زائف «٢»

(١) ديوانه (دار بيروت) ٧١ من معلقته الشهيرة

(٢) لسان العرب قسا نسبه الى مزرد

ص: ٣٢

جمع على فعل. و قد كسر القاف كما كسر في (حلي) و قرأ ابن عامر، «و لا تشرك» بالتاء على الخطاب. الباقيون بالياء على الخبر، فمن قرأ على النهي قال تقديره «لا تشرك» ايها الإنسان. و من قرأ على الخبر، فلتقدم الغيبة. و هو قوله «ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ»، و الهاء للغيبة. و قرأ الحسن «تسع و تسعون» «١» بفتح التاء - يقال تسع بكسر التاء و فتحها، و هما لغتان. و الكسر اكثر و افصح.

قوله «و لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ اِزْدَادُوا تِسْعًا» الآية معناه إخبار من الله تعالى و بيان عن مقدار مدة لبثهم يعني أصحاب الكهف الى وقت انتباههم. ثم قال لنبه، فان حاجك المشركون فيهم من أهل الكتاب، فقل «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» و هو قول مجاهد، و الضحاک، و عبيد بن عمير، كما قال «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا» «٢» و من قرأ بالتاء، قال معناه لا تتسبن احداً الى عالم الغيب. و يحتمل أن يكون المعنى لا يجوز لحاكم أن يحكم إلا بما حكم الله به أو بما دل على حكم الله، و ليس لأخذ أن يحكم من قبل نفسه، فيكون شريكاً لله في أمره و حكمه.

وقيل إن معناه «قُلِ اللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» الى أن ماتوا. و حكى عن قتادة أن ذلك حكاية عن قول اليهود فإنهم الذين قالوا لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين و ازدادوا تسعاً. و قوى ذلك بقوله «قُلِ اللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» فذكر تعالى أنه العالم بذلك دون غيره. و قد ضعف جماعة هذا الوجه قالوا: لان الوجه الأول أحسن، لأنه ليس لنا أن نصرف اخبار الله الى أنه حكاية إلا بدليل قاطع، و لأنه معتمد الاعتبار الذى بينه الله (عز و جل) للعباد.

و قوله «لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» فالغيب يكون للشئ بحيث لا يقع

(١) سورة ٣٨ (ص) آية ٢٣

(٢) سورة ٧٢- الجن - آية ٢٦

ص: ٣٣

عليه الإدراك، و لا يغيب عن الله تعالى شئ،، لأنه لا يكون بحيث لا يدركه. و قيل «عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» «١» معناه ما يغيب عن احساس العباد و ما يشاهدونه. و قيل ما يصح ان يشاهد و ما لا يصح أن يشاهد. و قوله «أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ» «٢» معناه ما أسمعهم و ما أبصره بأنه لا يخفى عليه شئ فخرج التعجب على وجه التعظيم له تعالى.

و قوله «مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ» اى ليس للخلق و قيل إنه راجع الى اهل الكهف اى ليس لهم من دون الله ولى و لا ناصر «و لا يشرك» يعنى الله «فى حكمه» بما يخبر به من الغيب «احداً».

ثم قال لنبينه (ص) «أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ» اى اقرأ عليهم ما أوحى الله اليك من اخبار اصحاب الكهف و غيرهم.

و قوله «لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ» اى لا مغير لما أخبر الله تعالى به، لأنه صدق و لا يجوز أن يكون بخلافه «وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً» و معناه ملتجأ تهرب اليه و قال مجاهد: ملجأ، و قال قتادة: موئلاً. و قيل: معدلاً. و هذه الأقوال متقاربة المعنى و هو من قولهم لحدث الى كذا اى ملت اليه، و منه اللحد، لأنه فى ناحية القبر و ليس بالشق الذى فى وسطه، و منه الإلحاد فى الدين، و هو العدول عن الحق فيه.

(و سنين) فيه لغتان تجمع جمع السلامة و جمع التكسير فالسلامة هذه سنون و رأيت سنين و جمع التكسير بتنوين النون تقول هذه سنون و صمت سنيماً و عجت من سنين. و قوله «وَ اَزْدَادُوا تِسْعاً» يعنى تسع سنين، فاستغنى بالتفسير فى الاول عن إعادته هاهنا.

(١) سورة ٦ الانعام آية ٧٣ و سورة ١٣- الرعد- آية ١٠ و غيرهما كثيراً فى القرآن

(٢) سورة ١٩ مريم آية ٣٨ (ج ٧ م ٥ من التبيان)

ص: ٣٤

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَنصِفُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وحده «بالغدوة والعشى» بضم الغين والواو، وإسكان الدال. الباقون بفتح الغين والدال، ومع الالف، ولا يجوز عند أهل العربية إدخال الالف واللام على غدوة، لأنها معرفة، ولو كانت نكرة لجاز فيها الاضافة ولا يجوز غدوة يوم الجمعة كما يجوز غداة يوم الجمعة.

وقال ابو علي النحوي من أدخل الالف واللام، فانه يجوز- وإن كان معرفة- أن تنكر، كما حكى أبو زيد لقبته فينة. و الفينة بعد الفينة، ففينة مثل غدوة في التعريف، و مثل قولهم: اما النضرة، فلا نضرة، فأجرى مجرى ما يكون سائغاً في الجنس.

و من قرأ بالغداة، فقوله أبين. و قال ابن خالويه: العرب تدخل الالف واللام على

ص: ٣٥

المعرفة إذا جاءوا بما فيه الالف واللام ليزدوج الكلام، قال الشاعر:

شديداً بأعباء الخلافة كاهله «١»

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا

فادخل الالف واللام على اليزيد لما جاور الوليد، فلذلك أدخل ابن عامر الالف واللام في (الغدوة) لما جاور العشى. و العرب تجعل (بكرة و غدوة و سحر) معارف إذا أرادوا اليوم بعينه. أمر الله تعالى نبيه (ص) بالصبر على جملة المؤمنين الذين يدعون الله بالغداة والعشى، و الصبر على ثلاثة اقسام: صبر واجب مفروض و هو ما كان على أداء الواجبات التي تشق على النفس و تحتاج الى التكلف. و الثاني- ما هو مندوب فان الصبر عليه مندوب اليه. و الثالث مباح جائز، و هو الصبر على المباحات التي ليست بطاعة لله.

و قوله «يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» معناه يريدون تعظيمه و القرية اليه دون الرياء و السمعة، فذكر الوجه بمعنى لأجل التعظيم، كما يقال أكرمته لوجهك أى لتعظيمك لان من عادتهم أن يذكروا وجه الشيء و يريدون به الشيء المعظم. كقولهم هذا وجه الرأى أى هذا الرأى الحق المعظم.

و قوله «وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ» معناه لا تتجاوز عيناك الى غيرهم و لا تتصرف و قيل انها نزلت فى سلمان و أصحابه الى سواهم من أرباب الدنيا الممرحين فيها «تريد» بذلك «زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا» نزلت فى عيينة بن حصين. و قيل فى معناه ثلاثة أقوال:

أحدها- لا تطع من صادفناه غافلا عن ذكرنا كقولهم احمدت فلانا أى صادفته محموداً فهو من باب صادفناه على صفة.

الثانى - لا تطع من سميناه غافلا، و نسبناه الى الغفلة كقولهم أكفناه أى

(١) مر تخريجه فى ٢٠٨ / ٤ من هذا الكتاب

ص: ٣٦

نسبناه الى الكفر.

و الثالث- لا تطع من أغفلنا قلبه أى جعلناه غافلا بتعرضه للغفلة. و قيل لم يسمه الله بما يسم به قلوب المؤمنين مما ينبى عن فلاحهم، كما قال «كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» «١».

«وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ» يعنى الذى أغفلناه عن ذكرنا «أَتَّبَعَ هَوَاهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا» معناه تجاوزاً للحق و خروجاً عنه، من قولهم أفرط إفراطاً إذا أسرف، فاما فرط فمعناه قصر عن التقدم الى الحق الذى يلزمه. و قيل معناه و كان أمره سرفا. ثم أمر الله نبيه (ص) أن يقول لهم الذى أتيتكم به هو الحق من ربكم الذى خلقكم «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَ مَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» صورته صورة الأمر و المراد به التهديد و هو أكد فى التهدد من جهة أنه كأنه مأمور بما يوجب اهانتة. ثم أخبر أنه أعد للظالمين العصاة ناراً أحاط بهم سرادقها فالسرادق المحيط بما فيه مما ينقل معه و الأصل سرادق الفسقاط قال رؤية:

سرادق المجد إليك ممدود «٢»

يا حكم بن المنذر بن الجارود

و قال ابن عباس سرادقها حائط من نار يطيف بهم، و قيل سرادقها دخانها قبل وصولهم اليها. و قيل السرادق ثوب يدار حول الفسقاط.

وقوله «وَإِنْ يَسْتَعِينُوا» معناه إن طلبوا الغوث والنجاة، و طلبوا ماء لشدة ما هم فيه من العذاب «يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ» والمهل كل شيء أذيب حتى ماع، كالصفر والرصاص والذهب والحديد، وغير ذلك - في قول ابن مسعود - وقال مجاهد: هو القيح والدم. وقال ابن عباس هو دردى الزيت.

(١) سورة ٥٨، المجادلة، آية ٢٢

(٢) تفسير القرطبي ٣٩٣ / ١٠ و مجاز القرآن ٣٩٩ / ١ واللسان (سردق) و سيبويه ٢٧٢ / ١

ص: ٣٧

وقال سعيد بن جبير هو الشيء الذى قد انتهى حره «يَشْوَى الْوُجُوهَ» أى يحرقها من شدة حره إذا قربت منه. ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك بأنه «يُسَسِّ الشَّرَابُ» يعنى ذلك المهل «وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» وقيل معناه المتكأ من المرفق، كما قال أبو ذؤيب:

بات الخلى وبت الليل مرتفقاً
كان عينيّ فيها الصاب مذبوح «١»

وقيل هو من الرفق. وقال مجاهد معناه مجتمعاً كأنه ذهب به الى معنى مرافقة.

ثم أخبر تعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات من الطاعات و يجتنبون المعاصى بأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً و لا يبطل ثوابه. وقيل فى خبر «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» ثلاثة أقوال:

أحدها - ان خبره قوله «أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ» و يكون قوله «إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا» اعتراضاً بين الاسم والخبر.

الثانى - ان يكون الخبر إنا لا نضيع أجره، إلا انه وقع المظهر موقع المضمّر.

و الثالث - أن يكون على البدل، فلا يحتاج الأول الى خبر، كقول الشاعر:

إن الخليفة ان الله سربله
سربال ملك به ترجى الخواتيم

فأخبر عن الثانى و أضرب عن الأول.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٣١ الى ٣٤]

أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا (٣٤)

(١) ديوان الهذليين ١٠٤ / ١ و تفسير الطبري ١٤٨ / ١٥ و مجاز القرآن ١ / ٤٠٠ و تفسير القرطبي ٣٩٥ / ١٠ و التاج و اللسان و الصحاح (صوب) و غيرها

ص: ٣٨

أربع آيات في الكوفي و البصري و ثلاث في المدني تمام الثانية (زرعاً).

قرأ عاصم و أبو جعفر و روح «و كان له ثمر». «و احيط بثمره» بفتح التاء و الميم فيهما، وافقهم رويس في الاولى. و قرأ أبو عمرو - بضم التاء و سكون الميم - فيهما. الباقر بضمهما فيهما.

قال أبو علي: التمر ما يجتنى من ذى الثمر و جمعه ثمرات مثل رحبة و رحبات، و رقبة و رقبات، و يجوز في جمع (ثمرة) ضربان: أحدهما - على ثمر، بكبرة و بقر و الاخر - على التكسير، فتقول ثمار كرقبة و رقاب، فيشبه المخلوقات بالمصنوعات و شبه كل واحد منهما بالآخر. و يجوز في القياس أن يكسر (ثمار) الذى هو جمع ثمرة على ثمر، ككتاب و كتب، و يجوز أن يكون ثمر جمع ثمرة كبدة و بدن و خشبة و خشب، و يجوز أن يكون ثمر واحداً كعناق و طناب، فعلى جميع هذه الوجوه يجوز

ص: ٣٩

اسكان العين منه. و مثله في قوله «و أُحِيطَ بِثَمَرِهِ». و قال بعض أهل اللغة:

التمر المال، و التمر المأكول. و جاء في التفسير (إن الثمر النخل و الشجر) و لم يرد به التمر. فالتمر - على ما روى عن جماعة من السلف - الأصول التى تحمل الثمرة لا نفس الثمرة بدلالة قوله «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا» أى فى الجنة و النفقة انما تكون على ذوات الثمر فى الأكثر، فكأن الآية التى أرسلت عليها اصطلمت الأصول و اجتاحتها، كما قال تعالى فى صفة الجنة الاخرى «فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» «١» أى كالليل فى سواده لاحتراقها بعد أن كانت كالنهار فى بياضها. و حكى عن أبى عمرو، إن الثمرة و الثمر أنواع المال من الذهب و الفضة و غيرها يقال: فلان مثمر أى كثير المال، ذهب اليه مجاهد و غيره.

أخبر الله تعالى في الآية الأولى عما للمؤمنين الذين آمنوا و عملوا الصالحات الذين أخبر عنهم بأنه لا يضيع عملهم الحسن، و ما قد أعدّ لهم، فقال «لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ» و الجنات جمع جنة، و هى البستان الذى فيها الشجر. و معنى (عدن) أى موضع إقامة، و إنما سمي بذلك. لأنهم يبقون فيها بقاء الله دائماً و أبداً، و العدن الإقامة.

و قيل: هو اسم من أسماء الجنة - فى قول الحسن - و يقال عدن بالمكان يعدن عدناً إذا أقام فيه، فسمى الجنة عدناً من إقامة الخلق فيها. ثم وصف هذه الجنة، فقال «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» و قيل فى معنا ذلك قولان: أحدهما - إن أنهار الجنة فى أخاديد من الأرض، فلذلك قال من تحتهم.

الثانى - انهم على غرف فيها فالأنهار تجرى من تحتهم، كما قال تعالى «وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ» «٢».

(١) سورة ٦٨ - القلم - آية ٢٠

(٢) سورة ٣٤ سبأ آية ٣٧

ص: ٤٠

و قوله «يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» أى يجعل لهم فيها حلياً من زينة من أساور، و هو جمع أسوار على حذف الزيادة، لأن مع الزيادة أساوير، فى قول قطرب.

و قيل هو جمع اسورة، و اسورة جمع سوار، يقال بكسر السين و ضمها - فى قول الزجاج - و السوار زينة تلبس فى الزند من اليد. و قيل هو من زينة الملوك يسور فى اليد و يتوج على الرأس.

«وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خَضِراً مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ» فالسندس ما رقّ من الديباج واحده سندسة و هى الرقيقة من الديباج، على أحسن ما يكون و أفخره، فلذلك شوق الله اليه. و الإستبرق الغليظ من الديباج. و قيل هو الحرير قال المرقش:

تراهن يلبسن المشاعر مرة
و إستبرق الديباج طوراً لباسها «١»

و قوله تعالى «متكئين» نصب على الحال «فيها» يعنى فى الجنة «عَلَى الْأَرَائِكِ» جمع أريكة، و هى السرير قال الشاعر:

خدوداً جفت فى السير حتى كأنما
يباشرن بالمعزاء مس الأرائك «٢»

و قال الأعشى:

منها و بين أريكة الانضاد «٣»

بين الرواق و جانب من سيرها

أى السرير فى الحجلة. و قال الزجاج: الأرائك الفرش فى الحجال. ثم قال تعالى إن ذلك «نِعْمَ الثَّوَابُ» و الجزاء على الطاعات «وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا» يعنى

(١) تفسير القرطبي ٣٩٧ / ١٠ و تفسير الطبرى ١٤٨ / ١٥ و هو فى مجمع البيان ٣ / ٤٦٦

(٢) قائله ذو الرمة ديوانه ٤٤٢ و مجاز القرآن ١ / ٤٠١ و تفسير الطبرى ١٤٨ / ١٥

(٣) ديوان الاعشيين (طبع بيانة) ٣٤٤ و تفسير الطبرى ١٤٨ / ١٥ و مجاز القرآن ١ / ٤٠١.

ص: ٤١

حسنت الجنة مرتفقاً، فلذلك أنت الفعل، و معنى «مرتفقاً» اى مجلساً. و هو نصب على التمييز. ثم قال «وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ» أى اضرب رجلين لهم مثلاً «جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ» أى جعلنا النخل مطيفاً بهما يقال حفه القوم يريد إذا طافوا به «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا» اعلام بأن عمارتهما كاملة متصلة لا يفصل بينهما إلا عمارة. و أعلمنا أنهما كاملتان فى تأدية كل حملها من غلتها، فقال «كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا» أى طعمها و ما يؤكل منها «وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا» أى لم تنقص بل أخرجت ثمرها على الكمال و التمام، قال الشاعر:

لوى يده الله الذى هو غالبه «١»

يظلمنى مالى كذا و لوى يدي

أى ينقصنى مالى. و قال الحسن: معناه لم ينقص «وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا» أى شققنا نهراً بينهما، و فائدتهما أنهما يشربان من نهر واحد. «وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ» و قرئ (ثمر) قال مجاهد هو ذهب، و فضة. و قال ابن عباس و قتادة: هو صنوف الأموال، يقال: ثمار و ثمر مثل حمار و حمر، و يجوز أن يكون جمع ثمر، مثل خشب و خشب، و انما قال «كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ» على لفظ كلتا، لأنه بمنزلة (كل) فى مخرج التوحيد. و لو قال آتتا، على الجنتين كان جائزاً قال الشاعر فى التوحيد:

و كلاهما قد خط لى فى صحيفتى

فلا العيش أهواه و لا الموت أروح «٢»

و يجوز كلاهما فى الحديث قال الشاعر:

كلا عقبيه قد تشعت رأسها

من الضرب فى جنبى تقال مباشر

و الالف و اللام فى كلتا ليست ألف التثنية، و لذلك يجوز أن تقول الاثنان

(١) مر تخريجه فى ٥٠٨ / ٢

(٢) البيت فى مجمع البيان غير منسوب (ج ٧ م ٦ من التبيان)

ص: ٤٢

قام، و يجوز ان يقال كل الجنة آتت. و لا يجوز كل المرأة قامت، لان بعض الامراة ليس بامراة و بعض الجنة جنة، فكأنه قال كل جنة من جملة ما آتت.

و قوله «فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ» أى يقول احد الرجلين لصاحبه يعنى صاحبهى الجنيتين اللتين ضرب بهما المثل، يقول لصاحبه الآخر «وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ» أى يراجعه الكلام «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا» أى أجمع مالا و أعز عشيرة و اكثر انصاراً، و قد فسرناه فيما مضى و إنما قال «وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا» و النهر يتفجر من موضع واحد لان النهر يمتد حتى يصير التفجر كأنه فيه كله، فالتخفيف و التثقيب فيه جائزان و منه «حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا» «١» يخفف و يتقل على ما مضى القول فيه.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٥ الى ٣٧]

وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (٣٧)

آيتان فى عدد إسماعيل و شامى و ثلاثة فى ما عداه لأنهم عدوا ابدأ ايةً و لم يعدّها إسماعيل و لا الشامى و ثلاثة آيات فى الكوفى و المدنى الاول و اثنان فى المدنى الأخير.

قرأ اهل الحجاز و ابن عامر «خيراً منهما» بزيادة ميم على التنبيه.

(١) سورة ١٧- الإسراء آية ٩٠

ص: ٤٣

الباقون بلا ميم.

اخبر الله تعالى عن أحد الرجلين اللذين ضرب بهما المثل، و هو صاحب الجنتين انه دخل جنته و هى البستان الذى يجنه الشجر و يحفه الزهر، «وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ» أى باخس لها حقها بارتكاب القبيح و الإخلال بالواجب اللذين يستحق بهما العقاب و يفوته بهما الثواب، فلما رأى هذا الجاهل ما راقه و شاهد ما أعجبه، و كبر فى نفسه توهم أنه يدوم، و أن مثله لا يفنى، فقال «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» أى تهلك هذه الجنة أبداً «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً» يعنى يوم القيامة أى تقوم، كما يدعيه الموحدون. ثم قال «وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي» وجدت «خَيْرًا مِنْهَا» يعنى من الجنة، و من قرأ «منهما» أراد الجنتين «منقلباً» أى فى المرجع اليه. و انما قال هذا مع كفره بالله تعالى، لأن المعنى ان رددت الى ربي، كما يدعى من رجوعى، فلى خير من هذه، تحكما سولته له نفسه، لا مطمع فيه. و قال ابن زيد: شك، ثم قال على شكه فى الرجوع الى ربه ما أعطانى هذه الأولى عنده خير منها «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ» أى يراجعه الكلام «أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا» و معنى خلك من تراب أن أصلك من تراب إذ خلق أباك آدم (ع) من تراب، فهو من تراب و يصير الى التراب، و قيل لما كانت النطفة يخلقها الله بمجرى العادة من الغذاء، و الغذاء نبت من التراب، جاز أن يقال: خلك من تراب، لان أصله تراب كما قال من نطفة، و هو فى هذه الحال خلق سوى حى، لكن لما كان أصله كذلك جاز أن يقال ذلك.

و فى الآية دلالة على ان الشك فى البعث و النشور كفر، و الوجه فى خلق البشر و غيره من الحيوان و تنقله من تراب الى نطفة، ثم الى علقة، ثم الى صورة، ثم الى طفولية، ثم الى حال الرجولية، ما فى ذلك من الاعتبار الذى هو دال على تدبير مدبر

ص: ٤٤

مختار يصرف الأشياء من حال الى حال، لان ما يكون فى الطبع يكون دفعة واحدة كالكتابة التى يوجد بها بالطباع من لا يحسن الكتابة، فلما انشأ الخلق حالا بعد حال دل على أنه عالم مختار.

و (المحاورة) مراجعة الكلام و (المنقلب) المعاد، و (التسوية) جعل الشئ على مقدار سواه، فقوله «سواك رجلا» أى كملك رجلا.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٨ الى ٤١]

لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَا لَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ
مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ
مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلِبًا (٤١)

أربع آيات بلا خلاف.

قرأ نافع - في رواية المسيبي - وابن عامر، و ابو جعفر، و رويس، و البرجمي، و العبسي «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» بإثبات الالف في
الوصل، و هي قراءة ورش عن نافع.

و الباقرن بغير الف في الوصل. و لم يختلفوا في الوقف أنه بألف. و قد جاء الإثبات في الوصل، قال الأعشى:

فكيف أنا و انتحالي القوافي بعد المشيب كفي ذاك عارا «١»

(١) ديوانه (دار بيروت) ٨٤ و طبع (بيانه) ٤١ و القرطبي ١٠ / ٤٠٥ و روايته (فما انا أم ما انتحالي القوافي)

ص: ٤٥

غير ان ذلك من ضرورة الشعر، و يجوز في «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» خمسة أوجه في العربية.

أحدها - لكن هو الله - بالتشديد - من غير الف في الوصل و الوقف.

الثاني - بالف في الوصل و الوقف.

الثالث - لكننا بإظهار النونين و طرح الهمزة.

الرابع - لكن هو الله ربي بالتخفيف.

الخامس - لكن انا على الأصل. و قال الكسائي: العرب تقول: أن قائم بمعنى أنا قائم، فهذا نظير «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ» و من قرأ لكنا
في الوصل احتمال أمرين:

أحدهما - أن يجعل الضمير المتصل مثل المنفصل الذي هو نحن، فيدغم النون من «لكن» - لسكونها - في النون من علامة
الضمير، فيكون على هذا بإثبات الالف وصلا و وقفاً، لان أحداً لا يحذف الالف من (انا فعلنا).

وقوله «هو الله» فهو ضمير علامة الحديث و القصة. كقوله «فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ» «١» وقوله «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» و التقدير: الامر: الله احد، لأن هذا الضمير يدخل على المبتدأ و الخبر، فيصير المبتدأ و الخبر فى موضع خبر و عاد على الضمير الذى دخلت عليه (لكن) على المعنى، و لو عاد على اللفظ لقال: لكننا هو الله ربنا.

و دخلت (لكن) مخففة على الضمير، كما دخلت فى قوله «إِنَّا مَعَكُمْ» «٢» و الوجه الاخر - أن يكون على ما حكاه سيبويه أنه سمع من يقول أعطنى بيضة فشد و ألحق الهاء بالتشديد للوقف، و الهاء مثل الالف فى سبساء، و الياء فى (عيهل) و اجرى الهاء مجراها فى الإطلاق، كما كانت مثلهما فى نحو قوله:

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٩٧

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٤

ص: ٤٦

و بكى النساء على حمزة «١»

صفية قومی و لا تجزعى

و هذا الذى حكاه سيبويه ليس فى شعر، فكذلك الآية يكون الالف فيها كالهاء، و لا تكون الهاء للوقف لأن هاء الوقف لا يبين بها المعرب، و لا ما ضارع المعرب فعلى احد هذين الوجهين يكون قول من اثبت الالف فى الوصل أو عليهما جميعاً، و لو كانت فاصلة، لكان مثل «فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا» «٢» و فى (أنا) فى الوصل ثلاث لغات أجودها (أنا قمت) كقوله «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» بغير ألف فى اللفظ، و يجوز (أنا قمت) بإثبات الالف، و هو ضعيف جداً و حكوا أن قمت بإسكان النون، و هو ضعيف أيضاً و أما «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» بإثبات الالف فهو الجيد، لان الهمزة قد حذف من انا فصار اثبات الالف عوضاً عن الهمزة، و حكى أن أياً قرأ «لكن انا هو الله» قال الزجاج و هو الجيد البالغ، و ما قرأه القراء ايضاً جيد.

و قوله «قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ» تحتمل (ما) أن تكون رفعاً، و تقديره قلت الأمر ما شاء الله، و يجوز ان تكون نصباً على معنى الشرط و الجزاء. و الجواب مضمرة و تقديره أى شىء شاء الله كان، و تضرر الجواب، كما تضرر جواب (لو) فى قوله «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» «٣» و المعنى لكان هذا القرآن. و معنى «لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» لا يقدر أحد إلا بالله، لان الله هو الذى يفعل القدرة للفعل.

و قوله «إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلُّ» منصوب بأنه مفعول ثان ل (ترنى) و «أنا» تصلح لشئيين: أحدهما - ان تكون توكيداً للنون و الياء. و الثانى - ان تكون فصلا كما تقول: كنت انت القائم يا هذا، و يجوز رفع (اقل) و به قرأ عيسى بن عمر على

(١) البيت فى مجمع البيان ٣ / ٤٧٠

(٢) و سورة ٣٣- الأحراب آية ٤٧

(٣) سورة ١٣- الرعد- آية ٣٣

ص: ٤٧

ان يكون (أنا) مبتدأ و (اقل) خبره. و الجملة فى موضع المفعول الثانى- ل (ترنى) و قوله «غوراً» قرأه البرجمى بضم الغين- هاهنا- و فى الملك، و انما جاز ان يقع المصدر فى موضع الصفة فى ماء غور، للمبالغة، كما تقول فى الحسن وجهه: نور ساطع، و قال الشاعر:

تظل جياده نوحاً عليه مقلدة أعتها صفونا «١»

حكى الله تعالى عن الذى قال لصاحبه «أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ» أنه قال «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» و معناه لكن أنا هو الله ربي إلا أنه حذف الهمزة، و القى حركتها على الساكن الذى قبلها، فالتقت النونان، و أدغمت إحداهما فى الاخرى، كما قال الشاعر:

و يرميني بالطرف أى انت مذنب و يقليني لكن إياك لا ألقى «٢»

أى لكن أنا. و قوله «وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا» أى لا أشرك بعبادتي أحداً مع الله بل أوجهها إليه خالصة له وحده. و إنما استحال الشرك فى العبادة، لأنها لا تستحق إلا بأصول النعم التى لا توازيها نعمة منعم، و ذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله. ثم قال له «وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ» و المعنى هلا حين دخلت جنتك «قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» لاحد من الخلق «إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلٌ مِنْكَ مَالًا وَ وُلْدًا فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي» بمعنى ان يعطينى خيراً من جنتك جنة فى الدار الآخرة «وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا» أى على جنتك حساباً من السماء. قال ابن عباس، و قتادة: عذاباً. و قيل ناراً من السماء تحرقها.

و قيل أصل الحساب السهام التى ترمى لتجرى فى طلق واحد، و كان ذلك من رمى الأساورة. و الحساب المرامى الكثيرة مثل كثرة الحساب واحده حسابانة.

(١) قيل ان البيت لعمر بن كلثوم من معلقته و هو فى أمالى السيد المرتضى ١ / ١٠٥ ، ٢٠١

(٢) تفسير القرطبي ١٠ / ٤٠٥ ، و مجمع البيان ٣ / ٤٧٠

ص: ٤٨

و قوله «فَتُصْبِحُ صَعِيداً زَلْقاً» أى تراباً محترقاً. و الزلق الذى لا نبات فيها.

و قال الزجاج: الصعيد الطريق الذى لا نبات فيه أى ملساء ما أنبتت من شىء قد ذهب.

و قال الزجاج: المعنى و يرسل عليها عذاب حساب بما كسبت يداك، لان الحسابان هو الحساب.

و قوله «أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَها غَوْرًا» أى ذاهباً فى باطن غامض. و المعنى غائراً، فوضع المصدر موضع الصفة و نصب على الحال و لذلك لا يثنى و لا يجمع.

و قوله «فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا» أى لا تقدر على طلب الماء إذا غار، و الطلب تقليب الأمر لوجدان ما يهلك. قال الرماني هذا أصله، ثم قيل للمريد من غيره فعلا: طالب لذلك الفعل بإرادته او أمره و المفكر فى المعنى (طالب) لادراك ما فيه و كذلك السائل.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير، و ابن عامر، و نافع و عاصم «الولاية» بفتح الواو «لله الحق» بكسر القاف، و قرأ حمزة بكسرهما. و قرأ ابو عمرو: بفتح الواو، و ضم القاف. و قرأ الكسائي بكسر الواو و ضم القاف. و قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً «و لم يكن» بالياء

ص: ٤٩

الباقون بالتاء.

من قرأ بالتاء فلتنأنيث الفئمة، و الفئمة الجماعة، و قد يسمى الرجل الواحد فئمة، كما ان الطائفة تكون جماعة و واحداً. قال ابن عباس فى قوله «وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ» فالطائفة قد تكون الرجل الواحد.

و من قرأ بالياء فلقوله «ينصرونه» و لأن التأنيث غير حقيقى. و اما (الولاية) بفتح الواو، و كسرهما فلغتان مثل الوكالة و الوكالة و الدلالة و الدلالة. و قال قوم:

هما مصدران فالمكسور مصدر الوالى من الامارة و السلطان. و المفتوح مصدر الولىّ ضد العدو، تقول: هذا ولى بين الولاية.

و اما قوله «الحق» فمن خفض قال الحق هو الله فخفضه نعتاً لله، و احتج بقراءة ابن مسعود «هنالك الولاية لله و هو الحق» و فى قراءة أبى «هنالك الولاية الحق لله» و من رفع جعله نعتاً للولاية، و أجاز الكوفيون و البصريون النصب بمعنى أحق ذلك حقاً، و الحق اليقين بعد الشك.

قوله «وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ» معناه هلكت ثمرهم عن آخرها، و لم يسلم منها شيء كما يقال أحاط بهم العدو إذا هلكوا عن آخرهم و الاحاطة ادارة الحائط على الشيء.

و منه قوله «وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ» «١» أى لا يعلمون معلوماته، و الحد محيط بجميع الحدود.

و قوله «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا» أى يتحسر على ما أنفق فى عمارتها «وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» معناه حيطانها قائمة لا سقوف عليها، لأنها انهارت

(١) سورة ٢- البقرة- آية ٢٥٦ (ج ٧ م ٧ من التبيان)

ص: ٥٠

فصارت فى قرارها، و خوت فصارت خاوية من الأساس. و مثله قولهم وقعت:

الدار على سقوفها أى أعلاها على أسفلها. و قيل خاوية على بيوتها، و العروش الابنية أى قد ذهب شجرها و بقيت جدرانها، لا خير فيها. و قيل العروش السقوف، فصارت الحيطان على السقوف.

و قوله «وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا» اخبار منه تعالى عما يقول صاحب الجنة الهالكة، و انه يندم على ما كان منه من الشرك بالله. ثم قال تعالى «وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ» أى جماعة «يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال العجاج:

كما يجوز الفئنة الكمى

و قوله تعالى «وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا» قال قتادة: معنا ما كان ممتنعاً. و قيل معناه ما كان منتصراً بان يسترد بدل ما كان ذهب منه.

وقوله (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ) اخبار منه تعالى ان فى ذلك الموضوع الولاية بالنصرة و الاعزاز لله (عز و جل) لا يملكها احد من العباد يعمل بالفساد فيها، كما قد مكن فى الدنيا على طريق الاختبار، فيصح الجزاء فى غيرها.

وقوله (هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً) انما قال هو خير ثواباً مع أنه لا يثيب أحد إلا الله لامرين:

أحدهما- انه على رد ادعاء الجهال انه قد يثيب غير الله، فتقديره لو كان غيره يثيب، لكان هو خير ثواباً.

و الثانى انه خير جزاء على العمل. و عاقبة ما يدعو اليه خير من عاقبة ما لا يدعو اليه. و الولاية بفتح الواو ضد العداوة، و بكسرهما الامارة و السلطان. و قرأ عاصم و حمزة «عقباً» بسكون القاف. الباقون بضميتين و هما لغتان بمعنى العاقبة، و هو نصب على التمييز (و هنالك) اشارة الى يوم القيامة. و المعنى ان يوم القيامة تتبين نصره الله،

ص: ٥١

لأوليائه. و (عقباً) أى عاقبة يقال عقبى الدار، و عقب الدار، و عقب الدار، و عاقبة الدار بمعنى واحد.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَ النَّبُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ أَمْلاً (٤٦)

آيتان بلا خلاف.

أمر الله تعالى نبيه (ص) أن يضرب المثل للدنيا تزهداً فيها، و ترغيباً فى الآخرة بأن قال: إن مثلها كمثل ماء أنزله الله من السماء «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ» أى نبت بذلك الماء المنزل من السماء نبات، فالتفت بعضه ببعض يروق حسناً و غضاضة.

ثم عاد (هشيماً) أى مكسوراً مفتتاً «تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ» فتقلبه من موضع الى موضع فانقلاب الدنيا بأهلها كانقلاب هذا النبات. ثم قال «وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا» اراده «مقتدراً» أى قادراً، لا يجوز عليه المنع منه. و التذرية تطيير الريح الأشياء الخفيفة على كل جهة، يقال: ذرته الريح تذروه ذرواً، و ذرته تذريره و أذرته إذراء قال الشاعر:

فيذكر من أخرى القطة فتزلق «١»

فقلت له صوب و لا تجهده

و أذريت الرجل عن الدابة إذا ألقىته عنها، و الهشيم النبات اليابس المتفتت.

و قال الحسن: معنى «وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا» أى كان قادراً ان يكونه قبل أن يكون، و قبل أن يكون. و هو اخبار عن الماضى و دلالة على المستقبل، و هذا المثل للمتكبرين الذين اغتروا بأموالهم، و استنكفوا من مجالسة فقراء المؤمنين، فأخبرهم الله أن ما كان من الدنيا لا يراد به الله، فهو كالنبت الحسن على المطر لا مادة له فهو يروق ما خالطه ذلك الماء، فإذا انقطع عنه عاد هشيماً تذرره الرياح لا ينتفع به.

و قوله «الْمَالُ وَ الْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» اخبار منه تعالى أن كثرة الأموال التى يتمولها الإنسان و يملكها فى الدنيا. و البنين الذين يرزقهم الله زينة الحياة الدنيا، أى جمال الدنيا و فخرها «وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» يعنى الطاعات لله تعالى، لأنه يبقى ثوابها أبداً، فهى خير من نفع منقطع لا عاقبة له، و الباقيات يفرح بها و يدوم خيرها، و هى صالحات بدعاء الحكيم اليها و أمره بها. و قال ابن عباس «الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» الطاعات لله. و

روى فى أخبارنا أن من الباقيات الصالحات، و الأمور الثابتات: القيام بالليل لصلاة الليل.

و الأمل الرجاء، و معنى «خير أملاً» أن الرجاء للعمل الصالح و الأمل له خير من الأمل للعمل الطالح.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٤٧ الى ٤٩]

وَ يَوْمَ نُسِـرُ الْجِبَالِ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمُ أَحَدًا (٤٧) وَ عُرْضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَ وَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)

ثلاث آيات قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمر و «تسير» لتأنيث الجبال و رفع الجبال، لأنه اسم ما لم يسم فاعله، و لأنه قال «وَ سِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا» «١»، و لأن ايباً قرأ «و يوم سيرت الجبال»، فإذا كان الماضى (سيرت) كان المضارع تسير. الباقون «نسير» بالنون، اخبار من الله تعالى عن نفسه. و نصب الجبال و هو مفعول به ل (نسير) و حجتهم قوله «وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمُ أَحَدًا» و نصب «وَ يَوْمَ نُسِـرُ» بإضمار فعل، و تقديره و اذكر يا محمد (ص) يوم نسير الجبال. و قوله «وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» أى ظاهرة فلا يتستر منها شىء، لان الجبال إذا سيرت عنها و صارت دكا ملساء ظهرت و برزت. و قيل «وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» أى يبرز ما فيها من الكنوز و الأموات، فهو مثل

قول النبى (ص) (ترمى الأرض بافلاذ كبدها)

و أجاز بعض البصريين ان ينصب «و يوم» بقوله «و الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا» فى يوم تسيير الجبال ف «الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» قيل الطاعات. و قيل الصلوات الخمس و قيل سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر.

و

روى عن أبى جعفر (ع) أنه قال (القيام بالليل لصلاة الليل).

و سمع بعضهم عزى صديقاً له، فقال: ابنك كان زينة الدنيا، و لو بقى كان سيدياً مثلك، و إذ استأثر الله به، فجعله من الباقيات الصالحات، و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً و خير أملاً، فتسلى بذلك.

يقول الله تعالى لنبية (ص) اذكر يوم نسير الجبال، و التسيير تطويل السير

(١) سورة ٧٨- النبأ- آية ٢٠

ص: ٥٤

و قد يكون بمعنى ان يجعله يسير، و هذا هو معنى تسيير الجبال، و انما يسيرها [الله تعالى، و يخبر به، لما فى ذلك من الاعتبار فى الدنيا. و قيل يسيرها] «١» بأن يجعلها هباء منبثاً، و معنى «و تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» أى لا شىء يسترها، يحشر الخلائق حتى يكونوا كلهم على صعيد واحد، و يرى بعضهم بعضاً، و كل ذلك من هول يوم القيامة، أخبر الله به للاعتبار به و الاستعداد بما يخلص من أهواله.

و قوله «و حَشَرْنَاهُمْ» أى بعثناهم و أحييناهم بعد أن كانوا أمواتاً «فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» أى لم نترك واحداً منهم لا نحشره. و المغادرة الترك، و منه الغدر ترك الوفاء، و منه الغدير لترك الماء فيه. و قيل: نغادر نخلف. و قيل: أغدرت و غادرت واحد.

و قوله «و عَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا» قيل معناه انهم يعرضون صفاً بعد صف كالصفوف فى الصلاة. و قيل المعنى انهم يعرضون على ربهم لا يخفى منهم أحد فكأنهم صف واحد. و قيل: انهم يعرضون، و هم صف، و يقال لهم «لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» يعنى جئتم الى الموضع الذى لا يملك الأمر فيه أحد إلا الله، كما خلقناكم أول مرة لا تملكون شيئاً. و

روى عن النبى (ص) أنه قال (يحشرون حفاة عراة عزلاً) فقالت عائشة: أ فما يحتشمون يومئذ، فقال النبى (ص) (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

و يقال لهم أيضاً «بل زعمتم» فى دار الدنيا «أَلَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا» يعنى يوم القيامة، و انكم أنكرتم البعث و النشور.

ثم قال تعالى «و وَضِعَ الْكِتَابُ» يعنى الكتب التى فيها أعمالهم مثبتة «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ» أى يخافون من وقوع المكروه بهم و الإشفاق الخوف من وقع المكروه مع تجويز ألا يقع، و أصله الرقة، و منه الشفق: الحمرة الرقيقة التى

ص: ٥٥

تكون في السماء، و شفقة الإنسان على ولده رفته عليه. و قوله «وَيَقُولُونَ» الواو واو الحال و تقديره قائلين «با وَيَلْتَنَا» و هذه لفظة، من وقع في شدة دعا بها و «ما لهذا الكتاب» اى شىء لهذا الكتاب «لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً» اى لا يترك صغيرة و لا كبيرة من المعاصي «إلا أحصاها» بالعدد و حواها. و (لا يغادر) فى موضع نصب على ل حال «وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حَاضِرًا» اخبار منه تعالى أنهم يجدون جزاء ما عملوا فى ذلك الموضع، و لا يبخس الله أحداً حقه فى ذلك اليوم و لا ينقصه ثوابه الذى استحقه. و قيل معناه و وجدوا أعمالهم مثبتة كلها و يعاقب كل واحد على قدر معصيته.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٠ الى ٥٢]

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَسْخَدُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ما أشهدتهم خلق السموات و الأرض و لا خلق أنفسهم و ما كنت متخذ المضلين عضداً (٥١) وَ يَوْمَ يَقُولُ نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وَ جعلنا بينهم موبقاً (٥٢)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة وحده «و يوم نقول» بالنون، على أن الله تعالى هو المخبر عن نفسه بذلك، لأنه قال قبل ذلك «وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا، وَ يَوْمَ يَقُولُ» حمله على ما تقدم، و الجمع و الافراد بذلك المعنى. الباقون بالياء، بمعنى قل يا محمد

ص: ٥٦

يوم يقول الله أين شركائى الذين زعمتم، و لو كان بالنون لكان الأشبه بما بعده ان يكون جمعاً، فيقول شركاؤنا، فأما قوله «الَّذِينَ زَعَمْتُمْ» فالراجع الى الموصول محذوف، و المعنى الذين زعمتموهم إياهم أى زعمتموهم شركاء، فحذف الراجع من الصلة، و لا بد من تقديره كقوله «أ هذا الذى بعث الله رسولا» «١» يقول الله تعالى لنبيه و اذكر الوقت الذى قال الله فيه «لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» و انهم «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» و قد فسرناه فيما تقدم. «٢» و قيل: إنما كرر هذا القول فى القرآن لأجل ما بعده مما يحتاج الى اتصاله به، فهو كالمعنى الذى يفيد أمراً فى مواضع كثيرة، و الاخبار عنه باخبار مختلفة، كقولهم برهان كذا كذا و برهان كذا كذا، للمعنى الذى يحتاج الى أحكامه فى أمور كثيرة.

و قوله «كَانَ مِنَ الْجِنِّ» قيل معناه صار من الجن المخالفين لأمر الله.

و قال قوم: ذلك يدل على أنه لم يكن من الملائكة، لأن الجن جنس غير الملائكة، كما ان الانس غير جنس الملائكة و الجن، و من زعم انه كان من الملائكة يقول:

معنى كان من الجن يعنى من الذين يستترون عن الأبصار «٣» لأنه مأخوذ من الجن وهو الستر، ومنه الجن لأنه يستتر الإنسان. وقال ابن عباس: نسب الى الجنان التي كان فيها، كقولك كوفى و بصرى، وقال قوم: بل كانت قبيلته التي كان فيها يقال لهم الجن، وهم سبط من الملائكة. فنسب اليهم. وقال ابن عباس: لو لم يكن إبليس في الملائكة ما أمر بالسجود. وقال وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. و روى عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى «كَانَ مِنَ الْجِنِّ»

(١) سورة ٢٥ - الفرقان - آية ٤١

(٢) سورة البقرة آية ٣٤ المجلد الاول صفحة ١٤٧ و قد مر أيضاً فى ٣٨٣ / ٤ فى تفسير آية ١٠ من سورة الاعراف

(٣) فى المخطوطة (الإنسان) بدل (الأبصار)

ص: ٥٧

قال: كان إبليس من الملائكة فلما عصى لعن فصار شيطاناً. و من قال إن إبليس له ذرية و الملائكة لا ذرية لهم و لا يتناكحون و لا يتناسلون عول على خبر غير معلوم.

فأما الاكل و الشرب فى الملائكة و لو علم انه مفقود، فانا لا نعلم أن إبليس كان يأكل و يشرب، فأما من قال إن الملائكة رسل الله، و لا يجوز عليهم أن يرتدوا. فلا نسلم لهم أن جميع الملائكة رسل الله، و كيف نسلم ذلك، و قد قال الله تعالى «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا» «١» فأدخل (من) للتبعيض، فدل على أن جميعهم لم يكونوا رسلا أنبياء، كما انه تعالى قال «وَمِنَ النَّاسِ» «٢» فدل على أن جميع الناس لم يكونوا أنبياء. و قوله «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» معناه خرج عن أمر ربه الى معصيته بترك السجود لآدم. و أصل الفسق الخروج الى حال تضر، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها و فسقت الفارة إذا خرجت من حجرها قال رؤية:

يهوين فى نجد و غوراً غائراً
فواسقاً عن قصدها جواتراً «٣»

و قال ابو عبيدة: هذه التسمية لم أسمعها فى شىء من أشعار الجاهلية، و لا أحاديثها، و انما تكلمت بها العرب بعد نزول القرآن، قال المبرد: و الأمر على ما ذكر أبو عبيدة، و هى كلمة فصيحة على السنة العرب، و أوكد الأمور ما جاء فى القرآن.

و قال قطرب: معنا «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» عن رده أمر ربه، كقولهم كسوته عن عرى و أطعمته عن جوع، ثم خاطب تعالى الخلق الذين أشركوا بالله غيره، فقال «أَفَتَتَّخِذُونَهُ يُعْنَى إبليس وَ ذُرِّيَّتُهُ أَوْلِيَاءَ» أى أنصاراً توالونهم من دون الله «وهم»

(٣) ملحق ديوانه ١٩٠ و مجاز القرآن ١ / ٤٠٦ و تفسير الطبرى ٥١ / ١٥٨ و الكشاف ٣ / ١١٠ و اللسان و التاج (فسق) و غيرها.

(ج ٧ م ٨ من التبيان)

ص: ٥٨

يعنى إبليس «و ذريته عدو لكم» يريدون بكم الهلاك و الدمار «بئس» البديل «لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» و نصب (بدلاً) على التمييز.

ثم قال «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ» و قيل معناه ما أشهدتهم ذلك مستعيناً بهم، و قيل معناه ما أشهدت بعضهم خلق بعض. و وجه اتصال ذلك بما قبله اتصال الحجة التى تكشف حيرة الشبهة، لأنه بمنزلة ما قيل إنكم قد أقبلتم على اتباع إبليس و ذريته حتى كأن عندهم ما تحتاجون اليه، فلو أشهدتهم خلق السموات و الأرض و خلق أنفسهم، فلم يخف عليهم باطن الأمور و ظاهرها لم تزيدوا على ما أنتم عليه فى أمركم.

ثم قال تعالى «وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا» يعنى اعواناً، و هو قول قتادة و هو من اعتضد به إذا استعان به. و فى عضد خمس لغات، و هى عَضُدٌ و عَضُدٌ و عَضِدٌ و عَضُدٌ و عَضُدٌ.

ثم اخبر تعالى عن حالهم يوم القيامة فقال و اذكر يوم يقول الله تعالى للمشركين نادوا شركائى الذين زعمتم - على وجه التقرير و التوبيخ - و استغيثوا بهم، فدعوهم يعنى المشركين يدعون أولئك الشركاء الذين عبدوهم مع الله، فلا يستجيبون لهم ثم قال تعالى «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا» قال ابن عباس أى مهلكاً، و به قال قتادة و الضحاک و ابن زيد، و هو من أوبقته ذنوبه أى أهلكته. و قال الحسن معنا «موبقاً» أى عداوة، كأنه قال عداوة مهلكة. و قال أنس بن مالك: هو واد فى جهنم من قيح و دم. و حكى الكسائى وبق يبق و بوقاً، فهو وابق إذا هلك، و حكى الزجاج: و بق الرجل يوبق وبقاً. و الوبق مصدر وبق.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَ لَمْ يَجِدُوهَا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَ يُسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥)

ص: ٥٩

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة «قبلا» بضم القاف و الباء. الباقيون بكسر القاف و فتح الباء.

فمن قرأ بضم القاف و الباء أراد جمع قبيل نحو قميص و قمص. و قال قوم: القبيلة بنو أب. و القبيل يعبر بها عن الجماعة و إن اختلفت أنسابهم و احتجوا بقول النابغة:

جوانح قد أيقن أن قبيله
إذا ما التقى الجمعان أول غالب «١»

و جمع القبيلة قبائل. و القبائل أيضاً قبائل الرأس، و هى عروق مجرى الدمع من الرأس، و سمي أيضاً شئوناً، واحدها شأن. و من قرأ بكسر القاف و فتح الباء أراد مقابلة، أى معاينة. و يحتمل أيضاً الضم، ذلك، ذكره الفراء و الزجاج، و هما لغتان.

أخبر الله تعالى عن المجرمين و العصاة أنهم إذا شاهدوا نار جهنم و رأوها «فظنوا» أى علموا «أنهم مواقعوها» و لم يجدوا عن دخولها معدلاً و لا مصرفاً، لأن معارفهم ضرورية، فالظن هاهنا بمعنى العلم. و قد يكون الظن غير العلم، و هو ما قوى عند الظان كون المظنون على ما ظنه مع تجويزه أن يكون على خلافه.

و الاجرام قطع العمل الى الفساد. و أصله القطع، يقال: هذا زمن الجرام أى زمن الصرام يعنى زمان قطع الثمرة عن النخل. و الموافقة ملابسة الشيء بشدة، و منه وقائع الحروب و أوقع به ايقاعاً. و توقعوا توقعاً. و التوقع الترقب لوقوع الشيء، و المصرف

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٠

ص: ٦٠

المعدول. و هو الموضوع الذى يعدل اليه، صرفه عن كذا يصرفه صرفاً. و الموضوع مصرف قال ابو كثير:

أ زهير هل عن شيبه من مصرف
أم لا خلود لبازل متكلف «١»

و قوله «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» اخبار من الله تعالى انه نقل المعانى فى الجهات المختلفة فى هذا القرآن، فتصريف المثل فيه تنقيله فى وجوه البيان على تمكين الأفهام. و المعنى بينا للناس من كل مثل يحتاجون اليه. ثم اخبر تعالى عن حال الإنسان فقال «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» أى خصومة.

و الجدال شدة الفتل عن المذهب بطريق الحجاج. و أصله الشدة، و منه الأجدل الصقر لشدته، و سير مجدول شديد الفتل.

وقوله «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» معناه ما منعهم من الايمان بعد مجيء الدلالة و ان يستغفروا ربهم على ما سبق من معاصيهم إلا طلب ان يأتيهم سنة الأولين، من مجيء العذاب من حيث لا يشعرون، او مقابلة من حيث يرون. و إنما هم بامتناعهم من الايمان بمنزلة من يطلب هذا حتى يؤمن كرهاً، لأنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، كما يقول القائل لغيره ما منعك ان تقبل قولي إلا ان تضرب، إلا انك لم تضرب، لأن مشركى العرب طلبوا مثل ذلك، فقالوا «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِيْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ» «٢».

(١) ديوان الهذليين ١٠٤ / ٢ و تفسير الطبرى ١٥ / ١٦٠ و اللسان (صرف) و شواهد الكشاف ١٩٢ و مجاز القرآن ١ / ٤٠٧

(٢) سورة الانفال آية ٣٢

ص: ٦١

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ مَا أَنْذَرْتُهُمْ هُزُوعًا (٥٦) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا (٥٨)

ثلاث آيات بلا خلاف أخبر الله تعالى أنه لم يرسل رسله الى الخلق، إلا مبشرين لهم بالجنة إذا أطاعوا، و مخوفين لهم من النار إذا عصوا، فالبشارة الاخبار بما يظهر سروره فى بشرة الوجه يقال بشره تبشيراً و بشاره، و أبشره إشاراً إذا استبشر بالأمر.

و منه البشر لظهور بشرته. ثم قال «وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ» أى يناظر الكفار دفعاً عن مذاهبهم بالباطل. و ذلك انهم ألزموه أن يأتيهم أو يريهم العذاب على ما توعدهم ما هو لاحق بهم إن أقاموا على كفرهم. و الباطل المعنى الذى معتقده على خلاف ما هو به، كالمعنى فى انه ينبغى أن تكون آيات الأنبياء على ما تقتضى الأهواء، كالمعنى فى أنه: يجب عبادة الأوثان على ما كان عليه الكبراء «لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» و الإدحاض الاذهاب بالشىء الى الهلاك: و دحض هو دحضاً. و مكان دحض أى مزلق مزل، لا يثبت فيه خف و لا حافر، و لا قدم، قال الشاعر:

ص: ٦٢

و حاد كما حاد البعير عن الدحض «١»

وردت و نحن اليشكرى حذاره

ثم اخبر تعالى عنهم أنهم «اتخذوا آيات الله» و دلالتة و ما خوفوا به من معاصيه «هزوا» أى سخرية يسخرون منه. ثم قال تعالى «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ» اى من أظلم لنفسه ممن نبه على أدلته و عرفه الرسل إياها «فَأَعْرَضَ عَنْهَا» جانباً، و لم ينظر فيها «وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ» أى نسى ما فعله من المعاصى التى يستحق بها العقاب. و قال البلخى: معناه تذكر و اشتغل عنه استخفافاً به، و قلة معرفة بعاقبته، لا انه نسيه.

ثم قال تعالى «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً» و هى جمع كنان كراهية أن يفقهوه، و قيل لثلا يفقهوه «وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا» أى تقلا. و قد بينا معنى ذلك فيما مضى و جملته أنه على التشبيه فى جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه كقوله «وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا» «٢» و المعنى كأن قلوبهم فى أكنة عن أن تفقه، و فى آذانهم وقراً أن تسمع، و كأنه مستحيل أن يجيبوا الداعى الى الهدى. و يقوى ذلك قوله «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا» فدل انه كان يسمعا حتى صح إعراضه عنها. و قال البلخى: يجوز ان يكون المراد انا إذا فعلنا ذلك ليفقهوا فلن يفقهوا، لأنه شبههم بذلك و يجوز ان يكون المراد بذلك الحكاية عنهم انهم قالوا ذلك، كما حكى تعالى «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ» «٣» ثم قال إن كان الأمر على ذلك فلن يهتدوا إذا أبداً.

(١) تفسير الطبرى ١٥ / ٦١

(٢) سورة ٣١ - لقمان آية ٧

(٣) سورة ٤١، حم السجدة (فصلت) آية ٥

ص: ٦٣

و قوله «وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى» مع ما جعلنا فيهم «فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا» و لا يرجعون اليها، بسوء اختيارهم، و سوء توفيقهم، من الله جزاء على معاصيهم، و ذلك يختص بمن علم الله أنه لا يؤمن منهم، و يجوز أن يكون الجعل فى الآية بمعنى الحكم و التسمية، ثم قال «و ربك» يا محمد «الْغُفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ» يعنى الساتر على عباده إذا تابوا، ذو الرحمة بهم «لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا» عاجلاً «لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ» لكن لا يؤاخذهم، لأن لهم موعداً و عدهم الله ان يعاقبهم فيه و هو يوم القيامة «لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً» اى ملجأ - فى قول ابن عباس و قتادة و ابن زيد - و قال مجاهد:

يعنى محرزاً. و قال ابو عبيدة: يعنى منجاً ينجيهم، و يقال: لا و ألت نفسه بمعنى لا نجت قال الأعشى:

و قد يحاذر منى ثم ما يئل «١»

و قد اخالس رب البيت غفلته

و قال الآخر:

للعامريين و لم تكلم «٢»

لا وألت نفسك خليتها

أى لا نجت نفسك:

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٩ الى ٦١]

وَ تِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١)

(١) ديوانه ١٤٧ و تفسير الطبري ١٥ / ١٦٣ و تفسير القرطبي ١١ / ٨ و مجاز القرآن ١ / ٤٠٨

(٢) تفسير الطبري ١٥ / ١٦٢ و تفسير القرطبي ١١ / ٨ و مجمع البيان ٣ / ٤٧٥

ص: ٦٤

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ عاصم «لمهلكهم» بفتح الميم و اللام، في رواية أبي بكر عنه. و في رواية حفص - بفتح الميم و كسر اللام - الباقون بضم الميم و فتح اللام، من فتح الميم و اللام جعله مصدراً، لهلك يهلك مهلكاً، مثل طلع مطلعاً، و من كسر اللام جعله وقت هلاكهم أو موضع هلاكهم مثل مغرب الشمس. و حكى سيبويه عن العرب: أتت الناقة على مضربها و منتجها - بالكسر - أي وقت ضرابها و نتاجها. و إن في الف (لمضرباً) بفتح الراء أي ضرباً جعلها مصدراً و من ضم الميم و فتح اللام - و هو الاختيار - فلان المصدر من (أفعل) و المكان يجيء على (مفعل) كقوله «أَدْخَلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ» «١» كذلك: أهلكه الله مهلكاً، و كل فعل كان على (فعل يفعل) مثل ضرب يضرب فالمصدر مضرب بالفتح، و الزمان و المكان (مفعل) بكسر العين، و كل فعل كان مضارعه (يفعل) بالفتح نحو يشرب و يذهب، فهو مفتوح أيضاً نحو المشرب و المذهب.

و كل فعل كان على (فعل يفعل) بضم العين في المضارع نحو يدخل و يخرج، فالمصدر و المكان منه بالفتح نحو المدخل و المخرج إلا ما شذ منه نحو المسجد، فانه من سجد يسجد، و ربما جاء في (فعل يفعل) المصدر بالكسر كقوله «إِلَى اللَّهِ

مَرْجِعُكُمْ» «٢» أى رجوعكم، و نحو قوله «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ» «٣» و نحو قوله «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» «٤» فهذا مصدر و ربما جاء على المعيش مثل المحيض كما قال الشاعر:

(١) و سورة ١٧- الإسراء- آية ٨٠

(٢) سورة- ٥- المائدة آية ٥١، ١٠٨

(٣) سورة ٢- البقرة آية ٢٢٢

(٤) سورة ٧٨ (عم)- النبأ- آية ١١

ص: ٦٥

اليك

و مرّ أيام نتفن ريشى

أشكوا شدة المعيش

اخبر الله تعالى أن تلك القرى أهلكتناهم يعنى أهل القرية، و لذلك قال:

(هم): و لم يقل (ها) لأن القرية هى المسكن مثل المدينة و البلدة. و البلدة لا تستحق الهلاك، و انما يستحق العذاب أهلها، و لذلك قال «لما ظلموا» يعنى أهل القرية الذين أهلكتناهم. و الإهلاك اذهاب الشىء بحيث لا يوجد، فقيل هؤلاء أهلكتوا بالعذاب. و الإهلاك و الإتلاف واحد، و قولهم الضائع هالك من ذلك لأنه بحيث لا يوجد. و قوله «وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ» أى لوقت إهلاكهم- فى من ضم الميم- أو لوقت هلاكهم- فى من فتحها- «موعداً» أى ميقاتاً و أجلاً فلما بلغوه جاءهم العذاب. و الموعد الوقت الذى وعدوا فيه بالإهلاك.

و قوله «وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ» معناه و اذكر إذ قال موسى لفتاه لما فى قصته من العبرة بأنه قصد السفر فوق الله (عز و جل) فى رجوعه أكثر مما قصد له ممن أحب موسى أن يتعلم منه و يستفيد من حكمته التى وهبها الله له. و قيل إن فتى موسى (ع) كان يوشع بن نون. و قيل ابن يوشع، و سمي فتاه لملازمته إياه «لا أبرح» أى لا أزال كما قال الشاعر:

بحمد الله منتطقاً مجيداً «١»

و أبرح ما أدام الله قومى

أى لا أزال، و لا يجوز أن يكون بمعنى لا أزل، لان التقدير، لا أزال أمشى حتى أبلغ. و معنى (لا يزال يفعل كذا) أى هو دائم فيه. و قيل انه كان وعد بلقاء الخضر عند مجمع البحرين.

و قوله «أَوْ أَمْضَى حَقْبًا» معناه لا أبرح حتى ابلغ مجمع البحرين الى أن

(١) قائله خداس بن زهير. تفسير القرطبي ٩ / ١١ و مجمع البيان ٣ / ٤٧٩ و اللسان (نطق). (ج ٧ م ٩ من التبيان)

ص: ٦٦

امضى حقبا. قال ابن عباس: و الحقب الدهر. و قيل هو سنة بلغة قيس. و قيل سبعون سنة - ذكره مجاهد - و قال عبد الله بن عمر: هو ثمانون سنة. و قال قتادة:

الحقب الزمان. و قال قتادة: مجمع البحرين: بحر فارس و الروم.

و قوله «فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا» يعنى بين البحرين «نَسِيَا حَوْتَهُمَا» و انما نسيه يوشع بن نون و أضافه اليهما، كما يقال نسي القوم زادهم، و انما نسيه بعضهم. و قيل نسي يوشع أن يحمل الحوت، و نسي موسى أن يأمره فيه بشيء.

و قوله «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ» يعنى الحوت «فِي الْبَحْرِ سَرَبًا» قال ابن عباس و ابن زيد و مجاهد: أحيا الله الحوت، فاتخذ طريقه فى البحر مسلكا. و قيل ان الحوت كانت سمكة مملحة فطفرت من موضعها الى البحر ذاهبة. و قال الفراء: كان مالحا، فلما حيا بالماء الذى أصابه من العين، وقع فى البحر. و وجد مذهبه، فكان كالسرب.

و روى عن أبى بن كعب أن مجمع بينهما إفريقية، و أراد الله أن يعلم موسى أنه و إن آتاه التوراة، فانه قد أتى غيره من العلم ما ليس عنده، فوعده بلقاء الخضر. و قوله «مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا» يعنى موسى و فتاه بلغا مجمع البحرين. و قال قتادة قيل لموسى آية لقياك إياه أن تنسى بعض متاعك، و كان موسى و فتاه تزودا حوتا مملوحا حتى إذا كانا حيث شاء الله، رد الله الى الحوت روحه فسرب فى البحر، فذلك قوله «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا» أى مذهبا يقال سرب يسرب سربا إذا مضى لوجهه فى سفر غير بعيد و لا شاق و هى السربة فإذا كانت شاقة، فهى (السبأ) ة بالهمزة. و

روى ان الله تعالى بعث ماء من عين الجنة، فأصاب ذلك الماء تلك السمكة فحييت و طفرت الى البحر و مضت.

و روى عن ابن عباس أنه قال: لما وفد موسى الى طور سيناء، قال رب أى عبادك أعلم؟ قال الذى يبغى علم الناس الى علمه، لعله يجد كلمة تهديه الى هدى أو ترده عن ردى. قال رب من هو؟ قال الخضر تلقاه عند الصخرة التى

ص: ٦٧

عندها العين التي تتبع من الجنة. و قال الحسن: كان موسى سأل ربه هل أحد أعلم مني من الآدميين فأوحى الله اليه: نعم عبدى الخضر (ع)، فقال موسى (ع): كيف لى بلاقائه؟ فأوحى الله اليه أن يحمل حوتاً فى متاعه و يمضى على وجهه حتى يبلغ مجمع البحرين، بحر فارس و الروم، و هما المحيطان بهذا الخلق. و جعل العلم على لقائه أن يفقد حوته، فإذا فقدت الحوت فاطلب حاجتك عند ذلك فإنك تلقى الخضر عند ذلك.

و قال الحسن كان الحوت طرياً. و قال ابن عباس: كان مملوحاً. قال الحسن:

فمضى على وجهه هو و فتاه حتى «بَلَّغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيًا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا» يعنى الحوت. ثم «قال لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا» ففتش متاعه ففقد الحوت، قال «أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ» و كانت الصخرة عند مجمع البحرين «فَأِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ مَا أَنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ» يعنى الحوت و انقطع الكلام. فقال موسى (ع) عند ذلك «عجباً» كيف كان ذلك. و قال لفتاه «ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدًّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا» و قال الزجاج: يحتمل أن يكون ذلك من قول صاحبه فانه أخبر بأن اتخاذه الحوت طريقاً فى البحر كان عجباً.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٢ الى ٦٤]

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ مَا أَنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدًّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)

ثلاث آيات

ص: ٦٨

اخبر الله تعالى ان موسى و فتاه لما جاوزا أى خرجا من ذلك الموضع.

و المجاوزة الخروج عن حدّ الشيء، يقال: تجاوز الله عن فلان أى تجاوز عن عقابه بمعنى أزل الله العقاب عنه.

و الفتى الرجل الشاب و جمعه فتية و فتيان مثل صبية و صبيان. و انما أضيف الى موسى، لأنه كان يلزمه ليتعلم منه العلم و صحبه فى سفره. و قيل انه كان يخدمه، و العرب تسمى الخادم للرجل فتى، و إن كان شيخاً، و الأمة فتاة و إن كانت عجوزاً، و يسمى التلميذ فتى، و إن كان شيخاً، و الفتى عند العرب السخى على الطعام و على المال و الشجاع. و (الغداء) طعام الغداة و (العشاء) طعام العشى. و التغدى أكل طعام الغداة و التعشى أكل طعام العشى، و (النصب) التعب و الوهن الذى يكون عند الكد، و مثله الوصب. فقال له فتاه فى الجواب «أَ رَأَيْتَ» الوقت الذى «أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ» أى أقمنا عندها «فَأِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ» ثم قال «وَ مَا أَنْسَانِيَهُ» يعنى الحوت «إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» أى وسوسنى و شغلنى بغيره حتى نسيت، فلذلك اضافة الى الشيطان، لما كان عند فعله. و معنى «وَ مَا أَنْسَانِيَهُ» أى الحوت، يعنى نسيت أن اذكر كيف اتخذ سبيله فى البحر. و جاز نسيان مثل ذلك مع كمال العقل لأنه كان معجزاً. و ضم الهاء من (أنسانيه) حفص عن عاصم، لان الأصل فى حركة الهاء الضم. و من كسرهما فلأن ما قبلها (ياء) فحركها بما هو من جنسها.

وقوله «وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا» يعنى أن موسى (ع) لما رأى الحوت قد حياى و هو يسلك الطريق الى البحر، عجب منه و من عظم شأنه، و هو قول ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابن زيد.

وقوله «ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ» حكاية عما قال موسى عند ذلك من أن ذلك الذى كنا نطلب من العلامة، يعنى نسيانك الحوت، لأنه قيل له: صاحبك الذى تطلبه

ص: ٦٩

- و هو الخضر - حيث ينسى الحوت. ذكره مجاهد. فارتدا يقصان أى يتبعان آثارهما حتى انتهيا الى مدخل الحوت. ذكره ابن عباس. و قيل نسي ذكر الحوت لموسى (ع) فرجعا الى الموضع الذى حبيت فيه السمكة و هو الذى كان يطلب منه العلامة فيه. و قيل الصخرة موضع الوعد.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): آية ٦٥]

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥)

آية.

قوله «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا» أى صادفاه و ادركاه، و هو الوجود، و منه وجدان الضالة أى مصادفتها و إدراكها. و العبد المملوك من الناس، فكل انسان عبد لله، لأنه مالك له، و قادر عليه و على أن يصرفه أتم التصريف، و هو يملك الإنسان و ما يملك و قوله «آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا» أى أعطيناه رحمة أى نعمة من عندنا «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» و التعلم تعريض الحى لأن يعلم، إما بخلق فى قلبه، و إما بالبيان الذى يرد عليه كما أن من أرى الإنسان شيئاً فقد عرضه، لان يراه، إما بوضع الرؤية فى بصره عند من قال الإدراك معنى، أو بالكشف له عن المرئى.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٦ الى ٦٧]

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧)

آيتان.

قال ابو على يحتمل أن (رشدًا) منصوباً على انه مفعول له و يكون متعلقاً

ص: ٧٠

ب (اتبع) كأنه قال اتبعك للرشد، أو طلب الرشد على أن تعلمنى، فيكون على هذا حالاً من قوله (اتبعك) و يجوز أن يكون مفعولاً به، و تقديره اتبعك على أن تعلمنى رشداً مما علمته، و يكون العلم الذى يتعدى الى مفعول واحد يتعدى بالتضعيف الى مفعولين. و المعنى على ان تعلمنى امراً ذا رشد أو علماً ذا رشد.

«قال له» يعنى لذلك العبد الذى علمه الله العلم «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا». و الاتباع و الاتقياد واحد، اتبعه فى مسيره، و اتبعه فى مذهبه، و اتبعه فى أمره و نهيه، و اتبعه فيما دعاه اليه، و الرشد- بفتح الراء و الشين- قراءة أبى عمرو. الباقون- بضم الراء و سكون الشين- إلا ابن عامر- فى رواية ابن ذكوان- فانه ضمهما، و هما لغتان، مثل أسد و أسد، و وثن و وثن. و اختلفوا فى الذى كان يتعلم موسى منه، هل كان نبياً؟ أم لا؟ فقال الجبائى: كان نبياً، لأنه لا يجوز ان يتبع النبى من ليس بنبى، ليتعلم منه العلم، لما فى ذلك من الغضاضة على النبى. و قال ابن الأخشاد: و يجوز أن لا يكون نبياً على أن لا يكون فيه وضع من موسى. و قال قوم: كان ملكاً. و قال الرماني: لا يجوز أن يكون إلا نبياً، لان تعظيم العالم المعلم فوق تعظيم المتعلم منه. و قيل إنه سمي (خضراً) لأنه كان إذا صار فى مكان لا نبات فيه اخضر ما حوله، و كان الله تعالى قد اطّلع من علم بواطن الأمور على ما لم يطلع عليه غيره.

فان قيل: كيف يجوز أن يكون نبى اعلم من نبى؟ فى وقته.

قيل عن ذلك ثلاثة اجوبة:

أحدها- انه يجوز أن يكون نبى اعلم من نبى فى وقته عند من قال: ان الخضر كان نبياً.

و الثانى- أن يكون موسى اعلم من الخضر بجميع ما يؤدى عن الله على عباده،

ص: ٧١

و فى كل ما هو حجة فيه، و انما خص الخضر بعلم ما لا يتعلق بالأداء.

الثالث- إن موسى استعلم من جهة ذلك العلم فقط، و إن كان عنده علم ما سوى ذلك.

فقال الخضر لموسى (ع) «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» و معناه ينقل عليك الصبر و لا يخف عليك، و لم يرد أنه لا يقدر عليه، لأن موسى (ع) كان قادراً متصرفاً، و انما قال له ذلك لأن موسى كان يأخذ الأمور على ظواهرها، و الخضر كان يحكم بما أعلمه الله من بواطن الأمور، فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك، و لو أراد نفي الاستطاعة التى هى القدرة لما قال: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» لأنه دل على انه لهذا لا يصبر و لو كان على نفي القدرة، سواء علم أو لم يعلم لم يستطع.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٨ الى ٧٠]

وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٤٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَ لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٤٩) قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)

ثلاث آيات بلا خلاف.

هذا حكاية ما قال الخضر لموسى (ع) حين قال «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» أى كيف تصبر على ما لم تعلم من بواطن الأمور، و لا تخبرها، فقال له موسى (ع) عند ذلك «ستجدنى» أى ستصادفنى إن شاء الله صابراً، و لم يقل ذلك على وجه التكذيب، لكن لما اخبر به على ظاهر الحال فقيده بالمشيئة لله، لأنه جوز

ص: ٧٢

أن لا يصبر فيما بعد بأن يعجز عنه ليخرج بذلك من كونه كاذباً «وَ لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» أى لا أخالف او أمرى، و لا اتركها. فقال الخضر: «فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي» و اقتفيت اثرى «فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» معناه لا تسألنى عن باطن امر حتى أكون انا المبتدئ لك بذلك.

و الصبر تجرع مرارة تمنع النفس عما تنازع اليه. و أصله حبس النفس عن امر من الأمور. و (الذكر) العلم، و الذكر ادراك النفس للمعنى بحضوره كحضور تقيضه، و يمكن ان يجامعه علم يصحبه او جهل او شك. و «خبراً» نصب على المصدر. و التقدير لم تخبره خبراً. و قرأ نافع «تسألن» بتشديد النون. الباقون بتخفيفها و إثبات الياء إلا ابن عامر، فانه حذف الياء. قال أبو على قول ابن كثير و من اتبعه: انهم عدوا (تسأل) الى المفعول الذى هو المتكلم مثل (لا تضربنى) و (لا تظلمنى) و نافع إنما فتح اللام، لأنه لما ألحق الفعل النون الثقيلة بنى الفعل معها على الفتح و حذف الياء، و كسرت النون ليدل على الياء المحذوفة.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٧١ الى ٧٤]

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَ حَرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَ لَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَ قَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكْرًا (٧٤)

أربع آيات

ص: ٧٣

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً «ليغرق أهلها» بالياء، و رفع أهلها. الباقون بالتاء و نصب الأهل. فمن قرأ بالتاء و نصب الأهل، فلقوله «أ حَرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ» بذلك «أهلها» أى فعلت ذلك و غرضك إهلاك أهلها على وجه الإنكار. و من قرأ بالياء أسند الغرق الى الأهل، فكأنه قال: فعلت ذلك ليغرقوهم. و قرأ اهل الكوفة و ابن عامر «زكية» بلا الف. و قرأ الباقون زكية بألف. و قرأ ابن عامر و نافع - فى رواية الاصمعى عنه و ابو بكر عن عاصم - «نكراً» بضم النون و الكاف.

الباقون بتخفيف الكاف.

قال الكسائي (زكية، و زكية) لغتان مثل قاسية و قسيبة. قال أبو عمرو: الزاكية التي لم تذب قط، و الزكية التي إذا أذبت تابت، و (النكر) بالنتقيل و التخفيف لغتان مثل الرعب و الرعب.

أخبر الله تعالى عن موسى (ع) و صاحبه الذي تبعه ليتعلم منه أنهما ذهبا حتى إذا بلغا البحر، فركبا في السفينة فخرق صاحبه السفينة أى شق فيها شقاً، لما أعلمه الله من المصلحة فى ذلك، فقال له موسى منكرأً لذلك على ظاهر الحال: «أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا» أى غرضك بذلك أن تغرق أهلها الذين ركبوها. و يحتمل أن يكون قال ذلك مستفهماً أى فعلت ذلك لتغرق أهلها أم لغير ذلك. و الاول أقوى لقوله بعد ذلك «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا» فالأمر المنكر- فى قول مجاهد و قتادة- و قال ابو عبيدة: داهية عظيمة و انشد:

لقد لقي الأقران منه نكراً
داهية دهباء إداً إمراً» ١

(١) تفسير القرطبي ١١ / ١٩ و مجاز القرآن ١ / ٤٠٩ و تفسير الطبرى ١٥ / ١٦٩ و اللسان و الصحاح و التاج (أمر) و شواهد الكشاف ٣٠ (ج ٧ م ١٠ من التبيان)

ص: ٧٤

و من سكن (النكر) فعلى لغة من سكن (رسل). و (الإمر) مأخوذ من الأمر، لأنه الفاسد الذى يحتاج أن يؤمر بتركه الى الصلاح، و منه رجل إمر إذا كان ضعيف الرأى، لأنه يحتاج أن يؤمر حتى يقوى رأيه. و منه أمر القوم إذا كثروا حتى احتاجوا الى من يأمرهم و ينهاهم، و منه الأمر من الأمور أى الشىء الذى من شأنه ان يؤمر فيه، و لهذا لم يكن كل شىء أمراً.

فقال له الخضر «أَلَمْ أَقُلْ» لك فيما قبل «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» أى لا يخفّ عليك ما تشاهده من أفعالى و يتقل عليك، لأنك لا تعرف المصلحة فيه، و لم يرد بالاستطاعة المقدره، لأن موسى كان قادراً فى حال ما خاطبه بذلك، و لم يكن عاجزاً، و هذا كما يقول الواحد منا لغيره أنا لا أستطيع النظر اليك، و انما يريد أنه يتقل على، دون نفى القدرة فى ذلك. فقال له موسى فى الجواب عن ذلك «لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ» و روى أنه قال ذلك لما رأى الماء لا يدخل السفينة مع خرقها، فعلم أن ذلك لمصلحة يريد بها الله، فقال «لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ» و قيل فى معنى نسيت ثلاثة أقوال:

أحدها- ما حكى عن أبى بن كعب، أنه قال: معناه بما غفلت من النسيان الذى هو ضد الذكر.

و الثانى - ما روى عن ابن عباس أنه قال معناه: بما تركت من عهدك.

الثالث - لا تؤاخذنى بما كأتى نسيته، و لم ينسه فى الحقيقة - فى رواية أخرى - عن أبى بن كعب الانصارى.

وقوله «وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا» قيل معناه لا تغشى، من قولهم رهقه الفارس إذا غشبه و أدركه، و غلام مراهق إذا قارب أن يغشاه حال البلوغ.

و الارهاق ادراك الشىء بما يغشاه. و قيل معنى أرهقه الأمر إذا ألحقه إياه.

ص: ٧٥

ثم أخبر تعالى انهما مضيا «حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا» أى رأيا غلاماً «فَقَتَلَهُ» قال له موسى «أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً» و معناه طاهرة من الذنوب. و من قرأ «زكية» فمعناه بريئة من الذنوب. و ذلك انها كانت صغيرة لم تبلغ حد التكليف على ما روى فى الاخبار. و قوله «بَغَيْرِ نَفْسٍ» أى بغير قود، ثم قال له «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا» أى منكراً. و قيل معناه جئت بما ينبغى أن ينكر، و قال قتادة النكر أشد من الأمر، و انما قيل لما لا يجوز فعله منكراً، لأنه مما تنكر صحته العقول و لا تعرفه.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٧٥ الى ٧٧]

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)

ثلاث آيات بلا خلاف.

معنى قوله «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» تحقيق ما قال له أولا مع نهيته عن العود لمثل سؤاله، لأنه لا يجوز أن يكون توبيخاً، لأنه جار مجرى الذم فى أنه لا يجوز على الأنبياء (ع) فقال له موسى فى الجواب عن ذلك «إِنْ سَأَلْتِكِ» أى ان استخبرتك عن شىء تعمله بعد هذا «فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا» و معناه إقرار من موسى بأن صاحبه قد قدم اليه ما يوجب العذر عنده، فلا يلزمه ما أنكره. و

روى عن النبي (ص) أنه تلا هذه الآية، فقال: (استحى نبي الله

ص: ٧٦

موسى).

و العذر وجود ما يسقط اللوم من غير جهة التكفير بتوبة و اجتناب كبير لوقوع سهو لم يتعرض له.

و فى (لدى) خمس قراءات، فقرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر و حمزة و الكسائى بالثقل.

الثانى - بضم الدال و تخفيف النون قرأ به نافع.

الثالث - قرأ ابو بكر بضم اللام و سكون الدال و اشمام من غير إشباع.

الرابع - قرأ الكسائى عن أبى بكر بضم اللام و سكون الدال.

الخامس - فى رواية عن أبى بكر بفتح اللام و سكون الدال: و هذه كلها لغات معروفة.

ثم أخبر الله تعالى عنهما ايضاً أنهما مضيا حتى «أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا» أى طلبا منهم ما ياكلانه فامتنعوا من تضييفهما «فَوَجَدَا فِيهَا» يعنى القرية «جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ. فَأَقَامَهُ» و معناه وجدا حائطاً قارب أن ينقض فشبّه بحال من يريد أن يفعل فى التبانى، كما قال الشاعر:

يريد الرمح صدر أبى براء
و يرغب عن دماء بنى عقيل «١»

و مثله ترانى آثارهما، و دار فلان ينظر الى دار فلان. و قال سعيد بن جبير:

معنى قوله «فأقامه» انه رفع الجدار بيده فاستقام. و الانتقاض السقوط بسرعة، يقال انقضت الدار إذا سقطت و تهدمت قال ذو الرمة:

فانقض كالكوكب الدرى منصلتا

فقال له موسى «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا» و قد قرأ ابن كثير و أبو عمرو

(١) تفسير الطبرى ١٥ / ١٧١ و القرطبى ١١ / ٢٦ و مجاز القرآن ١ / ٤١٠ و الكشف ١ / ٥٧٧ و اللسان (رود) و غيرها و قد مر فى ٦ / ١٢١ من هذا الكتاب

ص: ٧٧

«لتخذت» الباقون «لاتخذت» يقال: تخذ يتخذ بالتخفيف قال الشاعر:

و قد تخذت رجلى لدى جنب غرزها

نسيفاً كافحوص القطاة المطرق «١»

المطرق التى تريد أن تبيض، و قد تعسر عليها، و الأفحوص و المفحص عش الطائر، و ابن كثير يظهر الذال، و ابو عمرو يدغم. و الباقون على وزن (افتعلت) مثل اتقى يتقى. و قد حكى تقى يتقى خفيفاً، قال الشاعر:

جلاها الصيقلون فاخلصوها

خفافاً كلها يتقى بأثر

و من ادغم فلقرب مخرجيهما و من اظهر فلتنغير مخرجيهما و قال الفراء فى قوله «لَوْ شِئْتَ» قال موسى لو شئت لم تقمه حتى يقرونا، فهو الأجر و انشدوا فى «يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ» قول الشاعر:

إن دهرأ يلف شملى بجمل

لزمان يهم بالإحسان «٢»

أى كأنه يهم، و انما هو سبب الإحسان المؤدى اليه و قال آخر:

يشكو الى جملى طول السرى

صبراً جميلاً فكلانا مبتلى «٣»

و الجمل لم يشك شيئاً. و قال عنتره:

و شكا الى بعيرة و تحتحم «٤»

و كل ذلك يراد به ما ظهر من الامارة الدالة على المعانى.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٧٨ الى ٨٢]

قالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنْبِتُكَ بِنَآوِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاتًا وَ أَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

(١) مجاز القرآن ١/ ٤١١ و تفسير الطبري ١٥/ ١٧٢ و الاصمعيات ٤٧ و اللسان و التاج (فحص، طرق، نسف).

(٢) تفسير الطبري: ١/ ١٧١ و القرطبي ١١/ ٢٤ و مجمع البيان ٣/ ٤٨٧

(٣) مر هذا البيت في ١١٢/ ٦ من هذا الكتاب

(٤) ديوانه ٣٠ من معلقته، و تفسير الطبري ١٥/ ١٧٢

ص: ٧٨

خمس آيات بلا خلاف قرأ أهل المدينة و ابو عمرو «أَنْ يُبَدِّلَهُمَا» - بفتح الياء و تشديد الدال - هنا- و في التحريم «أَنْ يبدله» و في نون «أَنْ يبدلنا» بالتشديد فيهن. الباكون بالتخفيف. فاما التي في سورة النور «وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ» فخففها ابن كثير و ابو بكر و يعقوب. و شدده الباكون. و قرأ ابن عامر و ابو جعفر و يعقوب «رحمًا» بضم الحاء. الباكون بإسكانها.

و روى العبسي (ما لم تسطع) بتشديد الطاء. الباكون بتخفيفها.

قال ابو علي (بدل، و أبدل) متقاربان مثل (نزل، و انزل) إلا ان (بدل) ينبغي ان يكون أرجح، لقوله تعالى «لَا تُبَدِّلْ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ» «١» و لم يجيء.

الابدال كما جاء التبديل، و لم يجيء الابدال في موضع من القرآن، و قد جاء

(١) سورة ١٠- يونس- آية ٦٤

ص: ٧٩

«وَ إِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ» «١» فهذا قد يكون بمعنى الابدال كما ان قوله الشاعر:

فلم يستحبه عنك ذاك مجيب «٢»

بمعنى فلم يجبه. و قال قوم. أبدلت الشيء من الشيء إذا أزلت الأول و جعلت الثانى مكانه. كقول أبى النجم:

عزل الأمير للأمير المبدل «٣»

و بدلت الشيء من الشيء إذا غيرت حاله و عينه. و الأصل باق، كقولهم بدلت قميصى جبة، و استدلوا بقوله «كُلُّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا» «٤» فالجلد الثانى هو الاول، و لو كان غيره لم يجز عقابه. و اما (رحم و رحم) فلغتان مثل العمر و العمر، و الرعب و الرعب. و حكى لغة ثالثة - بفتح الراء و اسكان الحاء - كما يقال:

أطال الله عمرك و عمرك. و المعنى و اقرب رحمة و عطفاً، و قري و قرابة قال الشاعر:

و لم تعوج رحم من تعوجاً «٥»

و قال آخر:

يا منزل الرحم على إدريس «٦»

حكى الله تعالى عن صاحب موسى انه قال له «هذا فراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ» و معناه هذا وقت فراق اتصال ما بينى و بينك، فكرر (بين) تأكيداً، كما يقال: أخزى الله

(١) سورة ٤- النساء - آية ١٩

(٢) مر هذا البيت كاملاً فى ١/ ٣٦، ٨٦ و ٢/ ١٣١ و ٣/ ٨٨ و ٤/ ١٨٢ و ١١٩ و ٦/ ٢٣٣

(٣) تفسير الطبرى ١٨ / ١١٠

(٤) سورة ٤- النساء- آية ٥٥

(٥) تفسير الطبرى ١٦ / ٤

(٦) مجمع البيان ٣ / ٤٨٥ و بعده (و منزل اللعن على إبليس). و هو فى القرطبى / ٣٧ إديسا، ابليسا

ص: ٨٠

الكاذب منى و منك أى أخزى الله الكاذب منا. و قيل فى «هذا» انها اشارة الى احد شيئين:

أحدهما- هذا الذى قلته فراق بينى و بينك.

و الثانى- هذا الوقت فراق بينى و بينك. ثم قال له «سَأَنْبِتُكَ» أى سأخبرك «بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» و لم يخف عليك رؤيته، ثم بين واحداً واحداً، فقال «اما» السبب فى خرقى «السفينة» انها «فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ» أى للفقراء الذين لا شىء لهم يكتفيهم، قد أسلمتهم قلة ذات أيديهم «يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ» أى يعملون بها فى البحر و يتعيشون بها «فَأَرَدْتُ أَنْ أُعِيْبَهَا» و السبب فى ذلك انه «كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» فقبل إن الملك كان يأخذ السفينة الصحيحة، و لا يأخذها إذا كانت معيبة. و قد قرئ فى الشواذ «يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيْحَةٍ غَصْبًا» روى ذلك عن أبى، و ابن مسعود.

و الوراء و الخلف واحد، و هو تقيض جهة القدم على مقابلتها و قال قتادة:

وراءهم- هاهنا- بمعنى أمامهم. و منه قوله «مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» «١» و «مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ» «٢» و ذلك جائز على الاتساع، لأنها جهة مقابلة لجهة، فكان كل واحد من الجهتين وراء الآخر قال لبيد:

أليس ورائى ان تراخت منيتى لزوم العصا تحنو عليها الأصابع «٣»

و قال آخر:

ا يرجوا بنو مروان سمعى و طاعنى و قومى تميم و الفلاة ورائيا «٤»

و قال الفراء: يجوز ذلك فى الزمان دون الأجسام، تقول: البرد و الحر وراونا

(١) سورة الجاثية آية ٩

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠١

(٣) البيت فى مجمع البيان ٤٦٧ / ٣

(٤) قائله سوار بن المضرب تفسير الطبرى ٢١٦ و تفسير القرطبي / ٣٥، و اكثر كتب النحو

ص: ٨١

و لا تقول: زيد وراءك. و قال الرماني و غيره: يجوز فى الأجسام التى لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر. و قرأ ابن عباس «و كان أمامهم ملك» و قال الزجاج (وراءهم) خلفهم، لأنه كان رجوعهم عليه. و لم يعلموا به.

ثم قال «و أمَّا الغلامُ فكانَ أبواه مُؤمِنينِ فَخَشِينا أنْ يُرهِقَهُما طُغياناً وَ كُفراً» و قيل: إن قوله «فَخَشِينا» من قول الخضر. و قيل: انه من قول الله تعالى، و معناه علمنا. و قيل: معنى خشينا كرهنا، فبين أن الوجه فى قتله ما لأبويه من المصلحة فى ثبات الدين، لأنه لو بقى حياً لأرهبهما طغياناً و كُفراً أى أوقعهما فيه، فيكون ذلك مفسدة، فأمر الله بقتله لذلك، كما لو أماته. و فى قراءة أبى «و اما الغلام فكان كافراً و كان أبواه مؤمنين». ثم قال «فَأَرَدْنَا أنْ يُبَدِّلَهُما» يعنى أن يبدل الله لأبويه خيراً من هذا الغلام (زكاة) يعنى صلاحاً و طهارة (و أقرب رحماً) أى أبرّ بوالديه من المقتول - فى قول قتادة - يقال: رحمه رحمة و رحماً. و قيل: الرحم و الرحم القرابة قال الشاعر:

و لم يعوج رحم من تعوجا «١»

و قال آخر:

و كيف بظلم جارية و منها اللين و الرحم «٢»

وقيل معناه وأقرب أن يرحما به. ثم أخبر الخضر عن حال الجدار الذي اقامه وأعلم انه (فَكَانَ لِعُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) فقال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد: كانت صحف من علم. وقال الحسن: كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه الحكم. وقال قتادة وعكرمة: كان كنز مال. والكنز في اللغة هو

(١) تفسير الطبري ٤ / ٦

(٢) تفسير القرطبي ٣٧ / ١١ (ج ٧ م ١١ من التبيان)

ص: ٨٢

كل مال مذخور من ذهب وفضة وغير ذلك.

وقوله «وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا» يعني أبا اليتيمين فأراد الله «أن يبلغا أشدهما» يعني كمالهما من الاحتلام وقوة العقل «وَيَسْتَخْرِجَانَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ» أي نعمة من ربك. ثم قال صاحب موسى: وما فعلت ذلك من قبل نفسي وأمرى بل بأمر الله فعلت. ثم قال «ذلك» الذي قلته لك «تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» وتقل عليك مشاهدته واستبشعته.

و في الآية دلالة على وجوب اللطف، لان مفهومه أنه تدبير من الله في عبادته لم يكن يجوز خلافه، و قد عظم الله شأنه بما يفهم منه هذا المعنى.

وقال الجبائي: لا يجوز أن يكون صاحب موسى الخضر، لأن خضراً كان من الأنبياء الذين بعثهم الله من بني إسرائيل بعد موسى. قال: ولا يجوز أيضاً أن يبقى الخضر الى وقتنا هذا، كما يقوله من لا يدري، لأنه لا نبي بعد نبينا، ولأنه لو كان لعرفه الناس، ولم يخف مكانه.

و هذا الذي ذكره ليس بصحيح، لأننا لا نعلم أولاً أن خضراً كان نبياً، ولو ثبت ذلك لم يمتنع أن يبقى الى وقتنا هذا، لأن تبقيته في مقدور الله تعالى، ولا يؤدي الى انه نبي بعد نبينا، لأن نبوته كانت ثابتة قبل نبينا. و شرعه - إن كان شرعاً خاصاً - انه منسوخ بشرع نبينا. و إن كان يدعو الى شرع موسى أو من تقدم من الأنبياء، فان جميعه منسوخ بشرع نبينا (ص) فلا يؤدي ذلك الى ما قال. و قوله:

لو كان باقياً لرئى و لعرف غير صحيح، لأنه لا يمتنع أن يكون بحيث لا يتعرف الى احد، فهم و إن شاهدوه لا يعرفونه.

و في الناس من قال: إن موسى الذي صحب الخضر ليس هو موسى بن عمران

ص: ٨٣

و انما هو موسى بن ميثا، رجل من بني إسرائيل. و الله اعلم بذلك.

روى عن جعفر بن محمد (ع) فى قوله تعالى «وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا» قال:

سطران و نصف و لم يتم الثالث، و هى (عجباً للموقن بالرزق كيف يتعب و عجباً للموقن بالحساب كيف يغفل و عجباً للموقن بالموت كيف يفرح) و فى بعض الروايات زيادة على ذلك (أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله)

و ذكر أنهما حفظا، لصلاح أبيهما، و لم يذكر منهما صلاح. و كان بينهما و بين الأب الذى حفظا به سبعة أباء، و كان سياحاً. و استشهد على أن الخشية بمعنى العلم بقوله تعالى «إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» «١» و قوله «وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا» «٢» أى علمت. و استشهد على أنه بمعنى الكراهية بقول الشاعر:

يا فقعى لم أكلته لمه
لو خافك الله عليه حرمة «٣»

قال قطرب يريد لو كره أن تأكله لحرمة عليك.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ٨٧]

وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا (٨٧)

(١) سورة البقرة آية ٢٢٩

(٢) سورة النساء آية ١٢٤

(٣) مر هذا الرجز فى ٢ / ٢٤٥ من هذا الكتاب.

ص: ٨٤

خمس آيات كوفى و حجازى و ست بصرى و شامى. عدّ إسماعيل و الكوفيون و البصرى و الشامى «من كل شىء سبباً آية و عدّ المدنى الآخر و المكى و البصرى و الشامى، عندها قوماً، آية جعلوا (فاتبع سبباً) بعض الآية الأولى و لم يعد أهل الكوفة «قوماً» آخر آية بان جعلوا آخر الآية حسناً».

قرأ ابن عامر وأهل الكوفة «فأتبع» بقطع الهمزة، وفتحها، وتخفيف التاء وسكونها، فيهن الباقون «فاتبع» جعلوها ألف وصل و شددوا التاء، وفتحوها. وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة إلا حفصاً و أبو جعفر «حامية» بالف وتخفيف الهمزة. الباقون «حمئة» بلا الف، مهموز. قال أبو علي النحوي (تبع) فعل يتعدى الى مفعول واحد، فإذا نقلته بالهمزة يتعدى الى مفعولين. قال الله تعالى «وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً» «١» وقال «وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً» «٢» لما بنى الفعل للمفعولين قام أحد المفعولين مقام الفاعل و اما (اتبعوا) فافتعلوا، فتعدى الى مفعول واحد، كما تعدى افعلوا اليه، مثل شويته و اشتويته، و حفرتة و احتفرتة. و قوله «فَأَتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ» «٣» تقديره فاتبعوهم جنودهم فحذف أحد المفعولين، كما حذف من قوله «لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ» «٤» و من قوله

(١) سورة ٢٨ (القصص) آية ٤٢

(٢) سورة ١١ (هود) آية ٦٠

(٣) سورة ٢٦ (الشعراء) آية ٦١

(٤) سورة ٨ (الكهف) آية ٢

ص: ٨٥

«لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» «١» و المعنى لا يكادون يفقهون أحداً، و لينذر الناس بأساً شديداً، فمن قطع الهمزة فتقديره فاتبع أمره سبباً أو اتبع ما هو عليه سبباً [و السبب هاهنا الطريق مثل السبيل. و السبب الحبل. و السبب القرابة]. «٢» و قال ابو عبيدة «فى عين حمئة» بالألف ذات حمأة. و قال ابو علي من قرأ حمئة بغير الف فهى فعلة. و من قرأ [حاميه] «٣» فهى فاعلة من حميت فهى حامية، قال الحسن: يعنى حارة. و يجوز فيمن قرأ (حامية) أن تكون فاعلة من الحمأة، فخفف الهمزة و قلبها ياء على قياس قول أبى الحسن. و إن خفف الهمزة على قول الخليل كانت بين بين. و قرأ ابن عباس «فى عين حمئة» و قال هى ماء و طين.

و تقول العرب: حمأت البئر إذا أخرجت منها الحمأة، و احمأتها إذا طرحت فيها الحمأة.

و حمئت تحمأ و معنى حمئة صار فيها الحمأة. فاما قولهم هذا حم لفلان، ففيه أربع لغات حمو و حمو و حماء و حم. و ذكر اللحياني لغة خامسة و سادسة: الحمو مثل العفو، و الحمأ مثل الخطأ. و كل قرابة من قبل الزوج، فهم الاحماء و كل قرابة من قبل النساء فهم الأختان و الصهر يجمعهما، و أم الرجل خنته و أبوه خنته و أم الزوج حماة و أبوها حمو. و قال ابو الأسود الدؤلى شاهد لابي عمرو فى عين حمئة:

تجىء بحمأة و قليل ماء

تجىء بملئها طوراً و طوراً

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) يسألونك يا محمد عن ذى القرنين و اخباره و سيرته، و كان السائل عن ذلك قوماً من اليهود. و قيل كانوا قوماً من مشركى العرب، فقل لهم يا محمد «سَأْتَلُوا عَلَيْكُمْ» يعنى سأقرأ عليكم من خبره ذكراً.

(١) سورة ١٨ (الكهف) آية ٩٤

(٢) هذه الجملة التى بين القوسين كانت متأخرة فى المطبوعة عن هذا الموضع اسطر

(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

ص: ٨٤

ثم قال تعالى مخبراً له «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ» أى بسطنا يده فيها و قويناه «وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً» و معناه علماً يتسبب به الى ما يريد- فى قول ابن عباس و قتادة و ابن زيد و الضحاك و ابن جريج- «و قيل آتيناها من كل شىء سبباً» يعنى ما يتوصل به الى مراده. و يقال للطريق الى الشىء سبب و للحبل سبب و للباب سبب «فَاتَّبَعَ سَبَباً» أى سبباً من الأسباب التى أوتى. و من قرأ بقطع الهمزة أراد فلحق سبباً، يقال ما زلت أتبعه حتى اتبعته أى لحقته.

و قوله «فاتبع سبباً» قال مجاهد و قتادة و الضحاك و ابن زيد: معناه طرقاتاً من المشرق و المغرب. و قيل معنى «وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً» ليستعين به على الملوك و فتح الفتوح، و قتل الاعداء فى الحروب «فاتبع سبباً» أى طريقاً الى ما أريد منه.

و قيل سمي (ذى القرنين) لأنه كان فى رأسه شبه القرنين. و قيل سمي بذلك لأنه ضرب على جانبى رأسه. و قيل: لأنه كانت له ضفيرتان. و قيل لأنه بلغ قرنى الشمس مطلعها و مغربها. و قيل: لأنه بلغ قطرى الأرض من المشرق و المغرب.

و قوله «حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» أى فى عين ماء ذات حمأة- فى قول ابن عباس و مجاهد و قتادة و سعيد بن جبير- و من قرأ «حامية» أراد حارة، فى قول الحسن. و قرئ به فى احدى الروايتين عن ابن عباس كقول أبى الأسود الدؤلى.

تجىء بحمأة و قليل ماء

تجىء بملئها طوراً و طوراً

و قال ابو على الجبائى، و البلخى: المعنى وجدها كأنها تغرب فى عين حمئة، و إن كانت تغيب وراءها. قال البلخى لان الشمس اكبر من الأرض بكثير، و أنكر ذلك ابن الأخشاد. و قال: بل هى فى الحقيقة تغيب فى عين حمئة على ظاهر القرآن.

و قوله «وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ

ص: ٨٧

فِيهِمْ حُسْنًا» معناه إما أن تعذبهم بالقتل لاقامتهم على الشرك بالله «وَأِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» بان تأسرههم فتعلمهم الهدى و تستنقذهم من العمى، فقال ذو القرنين - لما خيره الله في ذلك «أَمَّا مَنْ ظَلَمَ» نفسه بأن عصى الله و أشرك به «فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ» يعنى بالقتل و يرد فيما بعد «إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ» يوم القيامة «عَذَابًا نُّكَرًا» أى عظيماً منكرًا تنكره النفس من جهة الطبع، و هو عذاب النار، و هو أشد من القتل في الدنيا.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٨ الى ٩١]

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَ سَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَ قَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)

خمس آيات في الكوفي و البصرى و أربع في المدنيين عدا «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا» آية.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر «فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ» بالنصب و التنوين و الباقون بالرفع، و الاضافة. فمن أضاف احتمل أن يكون أراد فله جزاء الطاعة، و هى الحسنى.

و يحتمل أن يكون أراد فله الجنة و أضافه الى الحسنى و هى الجنة، كما قال «وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ» «١» و من نون أراد فله الحسنى أى الجنة، لأن الحسنى هى الجنة لا محاله.

و نصبه يحتمل أمرين:

أحدهما- ان يكون نصباً على المصدر في موضع الحال أى فلهم الجنة يجزون

(١) سورة ٦٩ الحااقة، آية ٥١

ص: ٨٨

بها جزاء.

و الثانى - قال قوم: هو نصب على التمييز و هو ضعيف، لان التمييز يقبح تقديمه كقولك تفقأ زيد شحماً، و تصيب عرقاً. و له دن خللاً، و لا يجوز له خللاً دن، و أما عرقاً فما أحد اجازته إلا المازنى. و شاهد الاضافة قوله «لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ» «١» و الحسنى هاهنا الجزاء. لما حكى الله تعالى ما قال ذو القرنين إن من ظلم نعبه، و إن له عند الله عذاباً نكراً، أخبر ان من صدق بالله و

وَحَدَهُ وَعَمَلَ الصَّالِحَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا «فَلَهُ جِزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا» اى قولاً جميلاً ثم قال «ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ» اى الموضع الذى تطلع منه مما ليس وراءه أحد من الناس فوجد الشمس «تَطَّلَعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا» اى انه لم يكن بتلك الأرض جبل ولا شجر، ولا بناء، لأن أرضهم لم يكن يبنى عليها بناء، فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم يغورون فى المياه والاسراب، وإذا غربت تصرفوا فى أمورهم- فى قول الحسن و قتادة وابن جريج- و قال قتادة هى الزنج.

وقوله «كذلك» معناه كذلك هم. ثم قال «وَقَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا» اى كذلك علمناهم و علمناه. و يحتمل أن يكون المراد كذلك. اتبع سبباً الى مطلع الشمس، كما اتبعه الى مغربها.

وقوله «ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا» يعنى طريقاً و مسلکا لجهاد الكفار. و قال الحسن ان ذا القرنين كان نبياً ملك مشارق الأرض و مغاربها. و قال عبد الله بن عمر كان ذو القرنين و الخضر نبیین و كذلك لقمان كان نبياً.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٢ الى ٩٥]

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَاْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)

(١) سورة ٣٤ (سبأ) آية ٢٧

ص: ٨٩

أربع آيات.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو و عاصم فى رواية حفص «السدين»- بالفتح- الباقون بالضم. و قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً وحده «بفقهون» بضم الياء و كسر القاف.

الباقون بفتح الياء و القاف. و قرأ عاصم وحده «يأجوج و مأجوج» بالهمز. الباقون بلا همز. و قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً «خرجا» بالف. الباقون «خرجا» بغير الف.

اخبر الله تعالى عن حال ذى القرنين أنه اتبع طريقاً الى جهاد الكفار الى ان بلغ بين السدين و وصل الى ما بينهما، و هما الجبلان اللذان جعل الردم بينهما- فى قول ابن عباس و قتادة و الضحاك. و السد وضع ما ينتفى به الخرق، يقال: سده يسده سداً فهو ساد، و الشىء مسدود، و انسداداً، و منه سدد السهم، لأنه سد عليه طرق الاضطراب. و منه السداد الصواب، و السد الحاجز بينك و بين الشىء. قال الكسائى:

الضم و الفتح فى السد بمعنى واحد. و قال أبو عبيدة و عكرمة: (السد) - بالضم - من فعل الله، و بالفتح من فعل الأدميين.

و قوله «وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا» يعنى دون السدين «قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» اى لا يفهمونه. و من ضم الياء أراد لا يفهمون غيرهم، لاختلاف (ج ٧ م ١٢ من التبيان)

ص: ٩٠

لغتهم عن سائر اللغات، و انما قال «لا يكادون» لأنهم فقهوا بعض الشىء عنهم، و إن كان بعد شدة، و لذلك حكى عنهم أنهم قالوا «إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» و الفقه فهم متضمن المعنى، و الفهم للقول هو الذى يعلم به متضمن معناه يقال: فقه يفقه و فقه يفقه.

و قوله «قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» حكاية عما قال القوم الذين وجدهم ذو القرنين من دون السدين، فقالوا إن هؤلاء مفسدون فى الأرض أى فى تخريب الديار، و قطع الطرق، و غير ذلك.

«فهل نجعل لك خراجا» فمن قرأ بالألف، فانه أراد الغلة. و من قرأ بلا ألف أراد الأجر «عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ» يعنى بيننا و بين يأجوج و مأجوج «سدا» قال لهم ذو القرنين «مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ» من الأجر الذى تعرضون على «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا» فالردم أشد الحجاب - فى قول ابن عباس -، يقال: ردم فلان موضع كذا يردمه ردماً، و ردم ثوبه تردماً إذا أكثر الرقاع فيه، و منه قول عنترة:

أم هل عرفت الدار بعد توهم «١»

هل غادر الشعراء من متردّم

اى هل تركوا من قول يؤلف تأليف الثوب المرقع. و قيل الردم السد المترابك و قرأ ابن كثير «مكنى» بنونين. الباكون بنون واحدة مشددة. من شدد أدغم كراهية المثلين. و من لم يدغم قال: لأنها من كلمتين، لان النون الثانية للفاعل، و الياء للمتكلم، و هو مفعول به.

و قوله «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» أى برجال بينون، و (الخرج) المصدر لما يخرج من

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٥ و هو مطلع معلقته، و تفسير الطبرى ١٦/١٧ و القرطبي ١١/٥٩

ص: ٩١

المال، و الخراج الاسم لما يخرج عن الأرض و نحوها. و ترك الهمزة في (يأجوج و مأجوج) هو الاختيار، لان الأسماء الاعجمية لا تهمز مثل (طالوت، و جالوت، و هاروت، و ماروت). و من همز قال: لأنه مأخوذ من أجيح النار و من الملح الأجاج، فيكون (مفعولاً) منه في قول من جعله عربياً، و ترك صرفه للتعريف و التأنيث، لأنه اسم قبيلة و لو قال: لو كان عربياً لكان هذا اشتقاقه و لكنه أعجمي فلا يشتق لكان أصوب قال رؤبه:

لو ان يأجوج و مأجوج معاً
و عاد عاد و استجاشوا تبعاً^١»

فترك الصرف في الشعر، كما هو في التنزيل، و جمع يأجوج يآجيج، مثل يعقوب و يعاقيب لذكر الحجل، و ولد القبيح السلك و الأنثى سلكتة و من جعل (يأجوج و مأجوج) فاعولاً جمعه يواجيج بالواو، مثل طاغوت و طواغيت. و هاروت و هواريت. و اما مأجوج في قول من همز، ف (مفعول) من أج، كما أن يأجوج (يفعول) منه. فالكلمتان على هذا من أصل واحد في الاشتقاق، و من لم يهزم يأجوج، كان عنده (فاعول) من (يج) كما ان مأجوج (فاعول) من (مج) فالكلمتان على هذا من أصلين، و ليسا في أصل واحد، كما كانا كذلك فيمن همزهما، و إن كانا من العجمي فهذه التقديرات لا تصح فيهما. و انما مثل بها على وجه التقدير على ما مضى. و قال الجبائي و البلخي و غيرهما: إن يأجوج و مأجوج قبيلان من ولد آدم.

و قال الجبائي: قيل: انهما من ولد يافث بن نوح، و من نسلهم الأتراك. و قال سعيد ابن جبير: قوله «مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» معناه يأكلون الناس. و قال قوم: معناه انهم سيفسدون، ذهب اليه قتادة.

(١) ديوانه ٩٢ و مجاز القرآن ١ / ٤١٤ تفسير الطبري ١٦ / ١٢ و القرطبي ١١ / ٥٥ و اللسان و التاج (أجج)

ص: ٩٢

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٦ الى ٩٨]

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ «الصدفين» - بضم الصاد و الدال - ابن كثير، و ابو عمرو، و ابن عامر، الباقون - بفتح الصاد و الدال - إلا أبا بكر عن عاصم، فانه ضم الصاد و سكن الدال. و قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً «قال آتوني» قصرأ. الباقون ممدوداً. و قرأ حمزة وحده «فما استطاعوا» مشددة الطاء بالإدغام، و هو ضعيف - عند جميع النحويين - لان فيه جمعاً بين ساكنين.

حكى الله تعالى عن ذى القرنين أنه قال للقوم الذين شكوا اليه افساد يأجوج و مأجوج فى الأرض و بذلوا له المال، فلم يقبله، و قال لهم اعينونى برجال و اعطونى و جيئوا بزبر الحديد، لا عمل منه - فى وجوه يأجوج و مأجوج - الردم.

و الزبرة الجملة المجتمعة من الحديد و الصفر و نحوهما، و أصله الاجتماع، و منه (الزبور) و زبرت الكتاب إذا كتبتة، لأنك جمعت حروفه. و الحديد معروف حدته تحديداً إذا أرهفته، و منه حد الشيء، نهايته. و قال ابن عباس و مجاهد: زبر الحديد قطع الحديد. و قال قتادة: فلق الحديد.

ص: ٩٣

و قوله «حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ» تقديره انهم جاءوا بزبر الحديد و طرحوه حتى إذا ساوى بين الصدفين مما جعل بينهما أى وازى رءوسهما. و الصدفان جبلان - فى قول ابن عباس، و مجاهد، و الضحاک، و ابراهيم - و قيل: هما جبلان كل واحد منهما منعزل عن الآخر كأنه قد صدف عنه، و فيه ثلاث لغات - ضم الصاد و الدال و فتحهما و تسكين الدال و ضم الصاد - قال الراجز:

قد أخذت ما بين عرض الصدفين ناحيتها و أعالي الركنين «١»

و قال ابو عبيدة: الصدفان جانباً الجبل. و قوله «قَالَ أَنْفُخُوا» يعنى قال ذو القرنين انفخوا النار على الحديد، و الزبر فنفخوا «حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً» أى مائعاً مثل النار، قال لهم «آتونى» اى اعطونى. و قرئ بقطع الهمزة و وصلها، فمن قطع، فعلى ما قلناه، و من وصل خفض و قصر، و قيل معناه جيئونى «أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا» نصب (قطراً) ب (أفرغ) و لو نصبه ب (آتونى) لقال أفرغه. و القطر النحاس فى قول ابن عباس و مجاهد و الضحاک و قتادة - و أراد بذلك أن يلزمه. و قال ابو عبيدة:

القطر الحديد المذاب و انشد:

حساماً كلون الملح صاف حديده جرازاً من أقطار الحديد المنعت «٢»

و قال قوم: هو الرصاص النقر، و أصله القطر، و كل ذلك إذا أذيب قطر كما يقطر الماء.

و قوله فما استطاعوا أن يظهره أى لم يقدرُوا أن يعلوه «وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا» من أسفله - فى قول قتادة.

و فى (استطاع) ثلاث لغات، استطاع يستطيع، و استطاع يسطيع، بحذف

ص: ٩٤

الناء، و استناع يستيع بحذف الطاء، استنقلوا اجتماعهما من مخرج واحد. فأما اسطاع يسطيع، فهي من أطاع يطيع، جعلوا السين عوضاً من ذهاب حركة العين.

ثم «قال» ذو القرنين «هذا» الذي يسهل فعله من الردم بين الجبلين نعمة «من ربي» عليكم «فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي» لإهلاكه عند أشراط الساعة «جَعَلَهُ دَكَّاءً» أى مذكوكاً مستويماً بالأرض، من قولهم: ناقة دكا، لاسنام لها، بل هي مستوية السنام. و من قرأ «دكاً» منوناً أراد دكه دكاً، و هو مصدر. و من قرأ بالمد أراد جعل الجبل أرضاً دكاً منبسطة و جمعها دكاءات. و قال ابن مسعود: فى حديث مرفوع إن ذلك يكون بعد قتل عيسى الدجال. و قيل إن هذا السد وراء بحر الروم بين جبلين هناك يلى مؤخرهما البحر المحيط. و قيل: إنه وراء دربند، و بحر خزران من ناحية (أرمينية و آذربيجان) يمضى اليه. و قيل: ان مقدار ارتفاع السد مئتي ذرع و إنه من حديد يشبه الصمت و عرض الحائط نحو من خمسين ذراعاً.

و قوله «وَ كَانَ وَعَدُ رَبِّي حَقًّا» معناه ما وعد الله بأنه يفعله، لا بد من كونه، فانه حق لا يجوز ان يخلف وعده و

روى ان رجلا جاء الى رسول الله (ص) فقال: انى رأيت سد يأجوج و مأجوج، فقال (ص) فكيف رأيتة قال رأيتة كأنه رداء محبر، فقال له رسول الله (ص) قد رأيتة.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٩ الى ١٠١]

وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نَفَخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)

ص: ٩٥

ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال تلك الأمم انهم تركوا أى بقوا و لم يخترموا، بل أديموا على الصفات التى يبقون بها «يومئذ يموج» بعضهم «فى بعض» فلو اقتطعوا عنها لكان قد أخذوا عن تلك الأحوال، و بعض الشيء ما قطع منه، يقال:

بعضته أى فرقته بأن قطعتة ابعاضاً، و البعض جزء من كل، فان شئت قلت البعض مقدار من الكل و إن شئت قلت: هو مقدار ينقص بأخذه من الجميع، و (الموج) اضطراب الماء بتراكب بعضه على بعض، و المعنى انهم يموجون فى بناء السد، و يخوضون فيه متعجبين من السد. و معنى «يومئذ» يوم انقضاء السد، فكانت حال هؤلاء كحال الماء الذى يتموج باضطراب أمواجه.

و الترك فى الحقيقة لا يجوز على الله إلا أنه يتوسع فيه فيعبر به عن الإخلال بالشىء بالترك.

و قوله «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ» فالنفخ إخراج الريح من الجوف باعتماد، يقال نفخ نفخاً و منه انتفخ إذا امتلأ ريحاً و منه النفاخة التى ترتفع فوق الماء بالريح. و الصور قال عبد الله بن عمر فى حديث يرفعه: انه قرن ينفخ فيه، و مثله روى عن ابن عباس و أبى سعيد الخدرى. و قيل انه ينفخ فيه ثلاث نفخات: الاولى - نفخة الفزع التى يفزع من فى السماوات و الأرض. و الثانية - نفخة الصعق. و الثالثة - نفخة القيام لرب العالمين، و قال الحسن: الصور جمع صورة فيحيون بأن ينفخ فى الصور الأرواح، و هو قول أبى عبيدة.

و قوله «فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا» يعنى يوم القيامة يحشرهم الله أجمع «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا» أى أبرزناها و أظهرناها حتى يروها فإذا استبانة و ظهرت

ص: ٩٤

قيل أعرضت، و منه قول عمرو:

كأسياف بايدي مصلتنا»١

و أعرضت اليمامة و اشمخرت

و قوله «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي» شبه الله أعين الكفار الذين لم ينظروا فى أدلة الله و توحيده و لم يعرفوا الله، بأنها كانت فى غطاء. و معناه كأنها فى غطاء، «وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا» معناه إنه كان يتقل عليهم الاستماع. و قال البلخى: يجوز أن يكون المراد إنهم لا يسمعون، كما قال تعالى «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً» «٢» و انما أراد بذلك هل يفعل أم لا؟ لأنهم كانوا مقرين بأن الله قادر، لأنهم كانوا مقرين بعبسى (ع)

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٢ الى ١٠٤]

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)

و آيتان فى المدنيين.

قرأ الأعشى و يحيى بن يعمر إلا النصار

«أ فحسب» بتسكين السين و ضم الباء، و هى قراءة على (ع)

الباقون بكسر السين و فتح الباء.

يقول الله تعالى لنبية (ص) «أ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بتوحيد الله و جحدوا

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ١٦

(٢) سورة ٥ (المائدة) آية ١١٥

ص: ٩٧

ربوبيته «أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ» أى انصاراً يمنعونهم من عقابى لهم على كفرهم، و قد أعددت «جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا» أى مأوى و منزلاً- فى قول الزجاج و غيره- و قال قوم: النزل الطعام جعل الله لهم طعاماً و النزل الربع. و من ضم الباء من «أحسب» معناه حسبهم على اتخاذهم عباد الله من دونه أولياء أن جعل لهم جهنم نزلاً و مأوى. و قيل بل هم لهم اعداء يعنى، الذين عبدوا المسيح و الملائكة ثم أمر نبيه (ع) أن يقول «لَهُمْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ» أى نخبركم بالأخسرين «أعمالاً» و هم «الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» و إن أفعالهم طاعة و قربة و قيل انهم اليهود و النصارى، و قيل الرهبان منهم.

و

روى عن أمير المؤمنين (ع) انه قال: هم أهل حروراء من الخوارج و سأله ابن الكوا عن ذلك، فقال (ع): انت و أصحابك منهم و هم «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى جاز عنهم و هلك

، و هم مع ذلك «يحسبون» أى يظنون أنهم يفعلون الافعال الجميلة و الحسان هو الظن و هو ضد العلم.

و فى الآية دلالة على أن المعارف ليست ضرورية، لأنهم لو عرفوا الله تعالى ضرورة لما حسبوا غير ذلك، لأن الضروريات لا يشك فيها.

و قوله «بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» نصب على التمييز. و من قرأ «أ فحسب» بضم الباء و سكون السين كان عنده «أَنْ يَتَّخِذُوا» فى موضع رفع، و من جعلها فعلاً ماضياً جعل (أَنْ) فى موضع نصب بوقوع حسب عليه.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٥ الى ١٠٧]

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧)

ص: ٩٨

ثلاث آيات بلا خلاف.

أخبر الله تعالى عن الكفار الذين تقدم وصفهم بأنهم الذين جحدوا أدلة ربهم وأنكروا «لقاءه» أى لقاء ثوابه وعقابه فى الآخرة من حيث أنكروا البعث والنشور بأنهم «قد حبطت أعمالهم» لأنهم أوقعوها على غير الوجه الذى أمرهم الله به «فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا» وصفهم الله بأنهم لا وزن لهم، كما يقال فى التحقير للشىء: هذا لا شىء من حيث أنه لا يعتد به و يقال للجاهل لا وزن له لخفته وسرعة طيشه و قلة تثبته فيما ينبغى أن يتثبت فيه. و قال قوم: معناه لا نقيم لهم وزناً لطاعتهم، لأنهم أحببوا. و قال البلخى: معناه إن أعمالهم لا يستقيم وزنها لفسادها. ثم قال: و إنما كان «ذلك» كذلك، لان جهنم «جزاؤهم بما كفروا» أى جحدوا الله و اتخذوا آياته و رسله هزواً أى سخرية، يقال هزئ يهزأ هزواً، فهو هازئ.

ثم أخبر عن حال الذين صدقوا النبى و آمنوا بالله و عملوا الصالحات إن «لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا» أى مأوى. و الفردوس البستان الذى يجمع الزهر و الثمر و سائر ما يمتع و يلد، و قال كعب: هو البستان الذى فيه الأعناب. و قال مجاهد:

الفردوس البستان بالرومية. و قال قتادة: هو أطيب موضع فى الجنة.

و

روى انه أعلى الجنة و أحسنها فى خبر مرفوع.

و قال الزجاج: الفردوس البستان الذى يجمع محاسن كل بستان.

ص: ٩٩

و قوله «نزلًا» أى مأوى و قيل نزلاً أى ذات نزول. و حكى الزجاج أن الفردوس الأودية التى تنبت ضرباً من النبات. و النزول - بضم النون و الزاى - من النزول و النزول بفتحهما الربع.

قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٨ الى ١١٠]

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِائِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً «قبل أن ينفذ» بالياء. الباقون بالتاء. فمن قرأ بالتاء، فلتأنيث الكلمات، و من قرأ بالياء، فلان التأنيث ليس بحقيقي. و قد مضى نظائر ذلك.

اخبر الله تعالى عن أحوال المؤمنين الذين وصفهم بالأعمال الصالحة و أن لهم جنات الفردوس جزاء على أعمالهم بأنهم خالدون في تلك الجنات. و نصب «خالدين» على الحال.

و قوله «لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلاً» أى لا يطلبون عنها التحول و الانتقال الى مكان غيرها. و قال مجاهد: الحول التحول أى لا يبغيون متحولاً. و قد يكون معناه التحول من حال الى حال، و يقال حال عن مكانه حولاً مثل صغر صغراً او كبر كبراً.

ثم أمر نبيه (ص) أن يقول لجميع المكلفين: قل لو كان ماء البحر مداداً في

ص: ١٠٠

الكثر لكتابة كلمات الله لند ماء البحر و لم تنفذ كلمات الله بالحكم، و البحر مستقر الماء الكثير الواسع الذى لا يرى جانبه من وسطه و جمعه أبحر و بحار و بحور، و المداد هو الجائى شيئاً بعد شىء على اتصال. و المداد الذى يكتب به. و المداد المصدر، و هو مجيء شىء بعد شىء. و قال مجاهد: هو مداد العلم.

و الكلمة الواحدة من الكلام، و لذلك يقال للقصيد: كلمة، لأنها قطعة واحدة من الكلام، و الصفة المفردة: كلمة. و (مداداً) نصب على التمييز، و هذا مبالغة لوصف ما يقدر الله تعالى عليه من الكلام و الحكم. ثم قال قل لهم «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» لست بملك.

أكل و اشرب «يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ» أى يوحى الى أن معبودكم الذى يحق له العبادة واحد «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ «يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ» لقاء ثوابه أو عقابه و يرجو معناه يأمل. و قيل معناه يخالف «فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا» أى طاعة يتقرب بها اليه «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا» غيره: من ملك و لا بشر و لا حجر، و لا مدر و لا شجر، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. و قال سعيد بن جبيرة معنى «لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» أى لا يرائى بعبادة الله غيره. و قال الحسن: لا يعبد معه غيره. و قيل إن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن. و قال ابن جريج قال حى بن اخطب: تزعم يا محمد إنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، و تقول و من يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً، فكيف يجتمعان، فنزل قوله تعالى «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي» و نزل «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...» «١» الآية.

(١) سورة ٣١ (لقمان) آية ٢٧

ص: ١٠١

هى مكية فى قول قتادة و مجاهد و هى ثمان و تسعون آية فى المدنى الأول و الكوفى و البصرى و الشامى. و تسع و تسعون فى المكى و المدنى الأخير و فى عدد إسماعيل.

[سورة مريم (١٩): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (١) ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)

ثلاث آيات فى الكوفى خاصة عدوا «كهيعص» آية. و آيتان فى الباقي.

قرأ ابو عمرو «كهيعص» بامالة الهاء و فتح الياء، و قرأ ابن عامر إلا الداجونى عن هشام و حمزة إلا العبسى و خلف فى اختياره بفتح الهاء، و امالة الياء. و قرأ الكسائى و يحيى و العليمى و العبسى بامالة الهاء و الياء. الباقيون بفتحهما، و هم أهل الحجاز و الداجونى عن هشام و عاصم إلا يحيى و العليمى و يعقوب و ابو جعفر بقطع الحروف على أصله و يظهر الدال من هجاء (صاد) عند ذلك. و كذلك أهل الحجاز و عاصم

ص: ١٠٢

و يعقوب. قال أبو على امالة هذه الحروف سائغه، لأنها ليست بحروف معنى و انما هى اسماء لهذه الأصوات. و قال سيبويه: قالوا (با، يا) لأنها اسماء ما يتهجأ به، فلما كانت اسماء غير حروف جازت فيها الامالة كما جازت فى الأسماء، و يدل ذلك على انها اسماء انك إذا أخبرت عنها أعربت بها [و إن كنت لا تعربها اسماء قبل ذلك] «١» فكما أن اسماء العدد قبل أن تعربها اسماء كذلك هذه الحروف. و إذا كانت اسماء ساغت فيها الامالة. فاما من لم يمل فعلى مذهب أهل الحجاز، و كلهم أخفى (نون، عين) إلا حفصاً عن عاصم فانه بينها. و قال ابو عثمان بيان النون مع حروف الفم لحن إلا أن هذه الحروف تجرى على الوقف عليها، و القطع لها مما بعدها، فحكمها البيان، و إن لا تخفى، فقول عاصم هو القياس فيها، و كذلك اسماء العدد حكمها على الوقف، و على انها منفصلة عما بعدها. و قال ابو الحسن تبيين النون أجود فى العربية، لأن حروف العدد و الهجاء منفصل بعضها عن بعض. و روى عن أبى عمرو و اليزيدى- فى رواية أبى عمرو- عنه كسر الهاء و الياء. و قال قلت له لم كسرت الهاء؟ قال: لثلاث تلتبس بهاء التنبيه، فقلت لم كسرت ليا؟ قال: لثلاث تلتبس ب (يا) التى للنداء إذا قلت: ها زيد و يا رجل. و من أدغم الدال فى الدال، فلنقرب مخرجهما، و من اظهر، فلأنهما لبسا من جنس واحد، و لبسا أختين.

و قرأ الحسن بضم الهاء، حكى سيبويه أن فى العرب من يقول فى الصلاة بما ينحو نحو الصلوة الضم، و حكى (هايا) بإشمام الضم. قال الزجاج من حكى ضم الياء، فهو شاذ لأنه اجتمعت الرواة على ان الحسن ضم الهاء لا غير و قد بينا فى أول سورة البقرة أخلاف العلماء فى أوائل أمثال هذه السور و شرحنا أقوالهم، و بينا أن أقوى ما قيل فيه انها اسماء السور، و هو قول الحسن و جماعة، و قيل

ان كل حرف منها حرف من اسم من

(١١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

ص: ١٠٣

اسماء الله تعالى، فالكاف من كبير، والهاء من هاد، والعين من عالم، والصاد من صادق، والياء من حكيم. و روى ذلك عن علي (ع)

و ابن عباس وغيرهما. و

روى عن علي (ع) انه دعا فقال اللهم سألتك يا كهيعص.

و قوله «ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا» رفع (ذكر) على أنه خبر للابتداء و تقديره هذا او فيما يتلى عليكم «ذكر رحمة» أى نعمة ربك «عبده» منصوب ب (رحمة). و قال الفراء الذكر مرفوع ب (كهيعص) و المعنى ذكر ربك عبده برحمته، فهو تقديم و تأخير، و نصب «زكريا» لأنه بدل من (عبده).

«إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» أى حين دعا ربه دعاء خفياً أى سراً غير جهر، لا يريد به رياء، ذكره ابن جريج. و اصل النداء مقصور من ندى الصوت بندى الحلق

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٤ الى ٦]

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)

ثلاث آيات بلا خلاف قرأ ابو عمرو و الكسائي «يرثني» جزماً على أنه جواب الأمر. الباكون بالرفع على أنه صفة ل (ولياً). فمن رفع قال «ولياً» نكرة فجعل «يرثني» صلة له، كما تقول أعزني دابة اركبها، و لو كان الاسم معرفة، لكان الاختيار الجزم، كقوله «فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ» «١» و النكرة كقوله

(١) سورة ٧ (الاعراف) آية ٧٢ و سورة ١ (هود) آية ٦٤

ص: ١٠٤

«خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ» (١) و قال مجاهد: من جزم جاز أن يقف على «ولياً». و من رفع لم يجز لأنه صلة، و لان المفسرين قالوا: تقديره «هب لي» الذي «يرثني» أى وارثاً فكل ذلك يقوى الرفع.

حكى الله تعالى ما نادى به زكريا و دعى ربه به، و هو أن قال «رب» أى يا رب و أصله ربي، و انما حذف الياء تخفيفاً و بقيت الكسرة تدل عليها «إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي» أى ضعف، و الوهن الضعف، و هو نقصان القوة، و يقال: و هن الرجل يهن وهناً إذا ضعف، و منه قوله (لَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) (٢) و إنما أضاف الوهن الى العظم، لأن العظم مع صلابته إذا كبر ضعف، و تناقص، فكيف باللحم و العصب. و قيل شكا البطش و هو قلة العطس و هو لا يكون إلا بالعظم. و قوله (وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) معناه انتشر الشيب فى الرأس، كما ينتشر شعاع النار، و هو من أحسن الاستعارات. و الاشتعال انتشار شعاع النار، و الشيب مخالطة الشعر الأبيض للأسود فى الرأس و غيره من البدن، و هو مثل الشائب الذى يخالط الشيء من غيره (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) تمام حكاية ما دعا به زكريا، و انه قال لم أكن يا رب بدعائى إياك شقياً أى كنت أدعوك وحدك و اعترف بتوحيديك. و قيل معناه انى إذا دعوتك اجبتنى، و الدعاء طلب الفعل من المدعو، و فى مقابلته الاجابة، كما أن فى مقابلة الأمر الطاعة. و يحتمل نصب «شيباً» أمرين:

أحدهما- ان يكون نصباً على الصدر كأنه قال شاب شيباً.

و الثانى- التمييز كقولهم تصببت عرقاً و امتلأت ماء و قوله «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي» قال مجاهد و أبو صالح، و السدى: الموالى هاهنا العصبية. و قيل خفت الموالى بنى عمى الدين، لأنهم كانوا شرار بنى إسرائيل، و انما قيل لبنى العم

(١) سورة ٩ (التوبة) آية ١٠٤

(٢) سورة ٣ (آل عمران) آية ٣٩

ص: ١٠٥

موالى لأنهم الذين يلونه فى النسب بعد الصلب. و قيل معنى الموالى الأولياء ان يرثوا علمى دون من كان من نسلى و انشدوا فى أن الموالى بنو العم قول الشاعر:

لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا» (١)

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا

و المولى المَعْتَق، و المَعْتَق، و المولى الناصر، و المولى الولى و المولى الاولى.

و روى عن عثمان أنه قرأ «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ» بفتح الخاء و تشديد الفاء.

وقوله «وَكَانَتْ أُمَّرَأَتِي عَاقِرًا» يعنى لا تلد، و يقال للمرأة التى لا تلد: عاقر و الرجل الذى لا يولد له: عاقر قال الشاعر:

لبئس الفتى إن كنت اسود عاقراً
جباناً فما عذرى لدى كل محضر «٢»

و العقر فى البدن الجرح و منه أخذ العاقر، لأنه نقص أصل الخلقة إما بالجراحة، و إما بامتناع الولادة، و منه العقار، لان فساده نقص لأصل المال. و قوله «يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» و الميراث تركة الميت ما كان يملكه لمن بعده من مستحقيه بحكم الله فيه، يقال: ورث يرث ارثاً و ميراثاً و توارثوا توارثاً و ورثه توريثاً، و أورثه علماً و مالا. و (الآل) خاصة الرجل الذين يؤل أمرهم اليه.

و قد يرجع اليه أمرهم بالقرابة تارة و بالصحبة أخرى، و بالدين و الموافقة، و منه قيل (آل النبي) (ص).

و قوله «يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» قال أبو صالح: معناه يرثنى مالى، و يرث من آل يعقوب النبوة. و قال الحسن يرثنى العلم و النبوة، و قال مجاهد يرث علمه. و قال

(١) قد مر تخريجه انظر ٣ / ١٨٧ من هذا الكتاب. و البيت فى تفسير الشوكانى ٣ / ٣١١

(٢) قائله عامر بن الطفيل ديوانه ٦٤ و تفسير الشوكانى ٣ / ٣١١ و القرطبي ١١ / ٧٨ و تفسير الطبرى ١٦ / ٣٢ و غيرها.

(ج ٧ م ١٤ من التبيان)

ص: ١٠٦

السدى: يرث نبوته و نبوة آل يعقوب، و كان آل يعقوب أخواله، و هو يعقوب ابن ماثان، و كان قيم الملك منهم، و كان زكريا من ولد هارون بن عمران أخى موسى ابن عمران. قال مقاتل: يعقوب بن ماثان أخو عمران أبى مريم، و هما ابنا ماثان.

و قوله «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» و الجعل على اربعة اقسام:

أحدها - بمعنى الأحداث كقولهم جعل البناء أى أحدثه.

و الثانى - أحداث ما يتغير به كقولهم: جعل الطين خزفاً أى أحدث ما به يتغير الثالث - ان يحدث فيه حكما كقولهم: جعل فلان فلاناً فاسقاً أى بما أحدث فيه من حكمه و تسميته.

الرابع - أن يحدث ما يدعوه الى ان يفعل كقولهم: جعله يقتل زيدا أى بما أمره به و دعاه الى قتله.

و معنى «وَأَجْعَلُهُ رَبًّا رَضِيًّا» أى اجعل ذلك الولي الذي يرثني مرضياً عندك ممتثلاً لأمرى عاملاً بطاعتك.

و فى الآية دلالة على ان الأنبياء يورثون المال بخلاف ما يقول من خالفنا انهم لا يورثون، لأن زكريا صرح بدعائه و طلب من يرثه و يحجب بنى عمه و عصبته من الولد.

و حقيقة الميراث انتقال ملك المورث الى ورثته بعد موته بحكم الله. و حمل ذلك على العلم و النبوة على خلاف الظاهر، لان النبوة و العلم لا يورثان، لأن النبوة تابعة للمصلحة لا مدخل للنسب فيها، و العلم موقوف على من يتعرض له و يتعلمه، على أن زكريا إنما سأل ولياً من ولده يحجب مواليه من بنى عمه و عصبته من الميراث و ذلك لا يليق إلا بالمال، لان النبوة و العلم لا يحجب الولد عنهما بحال، على أن اشتراطه ان يجعله (رضياً) لا يليق بالنبوة، لان النبى لا يكون إلا رضياً معصوماً، فلا معنى لمسألته ذلك، و ليس كذلك المال، لأنه يرثه الرضى و غير الرضى. و استدلال المخالف بهذه

ص: ١٠٧

الآية على أن البنت لا تحوز المال دون بنى العم و العصبه، لان زكريا طلب ولياً يمنع مواليه، و لم يطلب ولية. و هذا ليس بشيء، لان زكريا إنما طلب ولياً، لان من طباع البشر الرغبة فى الذكور دون الإناث من الأولاد، فلذلك طلب الذكر، على أنه قيل ان لفظ الولي يقع على الذكر و الأنتى، فلا نسلم أنه طلب الذكر بل يقتضى الظاهر أنه طلب ولدأ سواء كان ذكراً او أنتى.

و الوراء الخلف و الوراء القدام ممدود و كذلك الوراء ولد الولد ممدود.

و الورى مقصوراً: داء فى الجوف. و الورى أيضاً الخلق مقصور، و كلهم قرأ «ورائى» ممدوداً ساكن الياء إلا ما رواه ابن مجاهد عن قنبل بفتح الياء مع المدّ. و روى عن شبلى عن ابن كثير (ورائى) مقصوراً مثل هداى بغير همز، و فتح الياء.

قال أبو على لا أعلم أحداً من اهل اللغة حكى القصر فى هذه اللفظة، و لعلها لغة جاءت، و قد جاء فى الشعر قصر الممدود، و قياسه رد الشىء الى أصله، و اللام فى هذه الكلمة همزة، و ليس من باب الورى. و قال ابو عبيدة و غيره «مِنْ وَرَائِي» يعنى من قدامى، و مثله «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ» «١» أى بين أيديهم. و حكى عن الثورى وراء الرجل خلفه و قدامه. و قوله «وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ» «٢» أى قدامه.

و قوله «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ» فان الخوف لا يكون من الأعيان و إنما يكون من معان فيها، فقولهم خفت الله أى خفت عقابه، و خفت الموالى خفت تضييعهم مالى و إنفاقه فى معصية الله.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٧ الى ١٠]

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ الْأَى تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)

(١) سورة ١٨ (الكهف) آية ٨٠

(٢) سورة ١٤ (ابراهيم) آية ١٧

ص: ١٠٨

أربع آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة «نُبَشِّرُكَ» و في آخرها «١» (لتبشر به) بالتحفيف فيهما الباقيون بالثقل. وقرأ حمزة و الكسائي (عتيا، و صليا، و بكيا، و جثيا) بكسر أوائلهن وافقهما حفص إلا في بكيا الباقيون بضم أوائلهن. من كسر أوائل هذه الحروف فلمجاورة الياء. و الأصل الضم، لأنه جمع فاعل مثل جالس و جلوس، و كذلك صال و صلى، و الأصل صلوى و يكون على وزن فعول، فانقلبت الواو ياء و أدغمت الياء في الياء. و الأصل في «عتيا» عتوا، لأنه من عتا يعتو «و بكيا» من بكى يبكى، كما قال تعالى «وَعَتُوا عَتُوا كَبِيرًا» «٢» و انما قيل «عتيا» هاهنا بالياء، لأنه جمع عات، و أصله عاتو فانقلبت الواو ياء، لانكسار ما قبلها فبنوا الجمع على الواحد في قلب الواو (ياء) لان الجمع أثقل من الواحد. و قوله «وَعَتُوا عَتُوا» مصدر، و المصدر يجرى مجرى الواحد حكماً: و إن كان في اللفظ مشاركاً للجمع، لأنك تقول: قعد يقعد قعوداً، و قوم قعود. و في حرف أبى «و قد بلغت من الكبر عسياً» يقال للشيوخ إذا كبر عسى يعسو، و عتا يعتو إذا يبس.

وقرأ حمزة و الكسائي «و قد خلقناك» على الجمع. الباقيون - بالياء - على التوحيد

(١) آخر هذه السورة آية ٩٨

(٢) سورة ٢٥ (الفرقان) آية ٢١

ص: ١٠٩

فمن قرأ بالنون فلقوله «وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا» و من قرأ بالياء فلقوله «هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» و لم يقل علينا، و هما سواء في المعنى. هذا حكاية ما قال الله تعالى لذكرى حين دعاه، فقال له «يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ» و البشارة الاخبار بما يظهر سروره في بشرة الوجه، يقال: بشره بشارة، و تبشيراً و أبشر بالأمر ابشاراً إذا استبشر به.

وقوله «بِغْلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى» فالغلام اسم للذكر أول ما يبلغ، وقيل: إنه منه اشتق اغتلم الرجل إذا اشتدت شهوته للجماع. وقيل انما سمي يحيى، لان الله تعالى أحياه بالايمن - فى قول قتادة - وقوله (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) قال ابن عباس: معناه لم تلد مثله العواقر ولداً. وقال مجاهد: لم نجعل له من قبل مثلاً. وقال ابن جريج و قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن اسلم، و السدى: معناه لم يسم أحداً باسمه. وقيل انه لم يسم احداً من الأنبياء باسمه قبله، فقال زكريا عند ذلك (أَنْتَى يَكُونُ لى غُلَامًا) أى كيف يكون لى غلام (وَ امْرَأَتى عاقِرًا) لا يلد مثلها «وَ قَدْ بَلَغْتُ» أنا ايضاً «من» السن و «الْكَبِيرِ عَتِيًّا» فالعتى و العسى واحد، يقال عتا عتوا و عتياً، و عسى يعسو عسياً و عسواً فهو عات و عاس بمعنى واحد، و العاسى هو الذى غيَّره طول الزمان الى حال البيس و الجفاف. و قال قتادة: كان له بضع و سبعون سنة، فقال الله تعالى له «كذلك» هو ان الامر على ما أخبرتك «قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» أى ليس يشق على خلق الولد من بين شيخ و عاقر لاني قادر على كل شىء و كيف يعسر على ذلك «وَ قَدْ خَلَقْتُكَ» يا زكريا «من قبل» ذلك «وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا» اى لم تكن موجوداً و من نفى ان يكون المعدوم شيئاً استدل بذلك، فقال لو كان المعدوم شيئاً لما نفى ان يكون شيئاً قبل ذلك و حمل قوله «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ» «١» على المجاز، و المعنى انها إذا وجدت كانت

(١) سورة ٢٢ (الحج) آية ١

ص: ١١٠

شيئاً عظيماً، و من قال: المعدوم شىء قال: أراد و لم يكن شيئاً موجوداً. و لم يكن قول زكريا «أَنْتَى يَكُونُ لى وَ لَدًا» على وجه الإنكار بل كان ذلك على وجه التعجب من عظم قدرة الله. و قيل: انه قال ذلك مستخبراً، و تقديره أبتلك الحال أو بقلبه الى حال الشباب، ذكره الحسن، فقال زكريا عند ذلك يا «رَبِّ اجْعَلْ لى آيَةً» أى دلالة و علامة استدل بها على وقت كونه، فقال الله تعالى له «آيَتِكَ» أى علامتك على ذلك «أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا» فقال ابن عباس اعتقل لسانه من غير مرض ثلاثة ايام. و قال قتادة و السدى و ابن زيد اعتقل لسانه من غير خرس. و فى زكريا ثلاث لغات (زكرياء) ممدود (و زكريا) مقصور و (زكرى) مشدد. [و قرئ بالمقصور و المدور دون اللغة الثالثة] «١».

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ١١ الى ١٥]

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَاةً وَ كَانَ تَقِيًّا (١٣) وَ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

خمس آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى ان زكريا «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ» و هو الموضع الذى يتوجه اليه للصلاة. و قال ابن زيد محرابه مصلاه. و الأصل فيه مجلس الاشراف الذى

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

ص: ١١١

يحارب دونه ذباً عن أهله «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ» قيل: معناه أشار إليهم وأوماً بيده يقال:

أوحى يوحي إحياء و وحى يحيى وحيًا مثل أومى يومى إيماء، و ومى يمى ومياً. و الإيحاء إلقاء المعنى الى النفس فى خفى بسرعة من الأمر. و أصله السرعة من قولهم: الوحي الوحا أى الإسراع. و قيل: كتب لهم على الأرض، و الوحي الكتابة.

و قوله «أَنْ سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» أى اوحى إليهم بأن سبحوا، و معناه صلوا بكرة و عشياً- فى قول الحسن و قتادة- و قيل للصلاة تسبيح، لما فيها من الدعاء و التسبيح، و يقال: فرغت من سبحتى أى صلاتى.

و قوله «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ» يعنى التوراة التى أنزلتها على موسى «بِقُوَّة» أى بجدّ «وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» معناه أعطيناه الفهم لكتاب الله حتى حصل له عظيم الفائدة. و روى عن معمر: أن الصبيان، قالوا ليحيى أذهب بنا نلعب، فقال ما للعب خلقت، فانزل الله «وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا».

و قوله «وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا» معناه و آتيناه رحمة من عندنا- فى قول ابن عباس و قتادة و الحسن- و قال الفراء: فعلنا ذلك رحمة لأبويه «وَ زَكَاةً» أى و صلاحاً.

و قال الضحاك رحمة منا لا يملك إعطاءها احد غيرنا. و قال مجاهد: معناه تعظفاً.

و قال عكرمة: معناه محبة. و اصل الحنان الرحمة، يقال: حنانك و حنانيك قال امرؤ القيس:

و يمنعه بنو شمجى بن جرم
معيزهم حنانك ذا الحنان «١»

و قال الآخر:

فقلت حنان ما أتى بك هاهنا
أ ذو نسب ام انت بالحي عارف «٢»

أى أمرنا حنان، و تحنن علينا تحنناً أى تعطف قال الشاعر:

فان لكل مقام مقالا «١»

تحنن على هداك المليك

و حننت عليه أحن حنينا، و حناناً، و حنت على الرجل امرأته. و قال ابو عبيدة معمر ابن المثنى أكثر ما يستعمل بلفظة التشبية، قال طرفة:

حنانيك بعض الشر أهون من بعض «٢»

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا

و قوله «و زكاة» أى و عملاً صالحاً زكياً- فى قول قتادة و الضحاك و ابن جريج- و قال الحسن معناه: و زكاة لمن قبل عنه حتى يكونوا أزكياً. و قال الجبائى:

معناه آتيناہ تحننا على العباد و رقة قلب عليهم ليحرص على دعائهم الى طاعة ربهم «و زكاة» اى إنا زكيناہ بحسن النناء عليه، كما يزكى الشهود الإنسان (وَ كَانَ تَقِيًّا) أى يتقى معاصى الله و ترك طاعته (وَ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ) اى كان باراً محسناً الى والديه، (وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا) متكبراً (عصياً) فعيل بمعنى فاعل، ثم قال تعالى «وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) فى يوم القيامة، و معناه ان رحمة الله و سلامه اللذين هما تفضل من الله، هما على يحيى يوم ولد، و إن رحمة الله و سلامه اللذين هما جزاء لأعماله الصالحة، هما عليه يوم يموت و يوم يبعث حيا، فى الآخرة. قال قوم معناه: أمان الله له و سلامه يوم ولد من عبث الشيطان له و اغوائه إياه، و يوم يموت من عذاب القبر و هول المطلع، و يوم يبعث حيا من عذاب النار و احوال المحشر

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ١٦ الى ٢٠]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)

(١) قائله الحطيئة تفسير الشوكاني ٣ / ٣١١ و تفسير الطبرى ١٦ / ٣٨ و القرطبي ١١ / ٨٧

(٢) ديوانه (دار بيروت) ٦٤ و تفسير الطبرى ١٦ / ٣٨ و القرطبي ١١ / ٨٧.

ص: ١١٣

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو عمرو و نافع فى رواية ورش و قالون عنه (ليهب لك) بالياء (ربك غلاماً) الباقون (لأهب) بالهمزة على الحكاية، و تقديره قال ربك لأهب لك.

و قال الحسن: معناه لأهب لك ياذن الله (غُلاماً زَكِيًّا) اى صار بالبشارة كأنه وهب لها. و ضعف ابو عبيدة قراءة أبى عمرو، لأنها خلاف المصحف. قال ابن خالويه:

حجة أبى عمرو أن حروف المد و اللين و ذوات الهمز يحول بعضها الى بعض، كما قرئ (ليلا) بالياء - و الأصل الهمزة: (لثلا) قال ابو علىّ النحوى: من قرأ - بالياء - يجوز أن يكون أراد الهمزة، و انما قلبها ياء على مذهب أبى الحسن أو جعلها بين بين فى قول الخليل. و فى قراءة أبى و ابن مسعود (ليهب) بالياء، و هو الأجود، و معنى «زَكِيًّا» نامياً على الخير و البركة يقول الله تعالى لنبىه محمد (ص) «أذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيْمَ» و الذكر إدراك النفس المعنى بحضوره فى القلب، و الاذكار إحضار النفس للمعنى، و قد يكون الذكر قولاً يحضر المعنى للنفس، و المراد بالكتاب - هاهنا - القرآن و إنما سمي كتاباً، لأنه مما يكتب.

(ج ٧ م ١٥ من التبيان)

ص: ١١٤

و قوله «إِذٍ ائْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا» فالانتباز اتخاذ الشىء بإلقاء غيره عنه، و الأصل الإلقاء من قولهم: نبذه وراء ظهره أى ألقاه، و فى هذا الطعام نبذ من شعير اى مقدار كف منه، و النبذ الطرح. و قال قتادة: معنى ائتبذت انفردت. و قيل: معناه اتخذت مكاناً تنفرد فيه بالعبادة. و قيل معناه تباعدت. و قوله «مَكَاناً شَرْقِيًّا» يعنى الموضع الذى فى جهة الشرق، قال جرير:

هبت جنوباً فذكرى ما ذكرت لكم عند الصفاة التى شرقى حوراناً «١»

و قال السدى: معنى «فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً» أى حجاباً من الجدران.

قال ابن عباس: انما جعلت النصارى قبلتهم الى المشرق، لان مريم اتخذت من جهة المشرق موضع صلاتها. و قال ابن عباس: معنى «مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا» أى من الشمس جعله الله لها ساتراً.

و قوله «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا» قال الحسن و قتادة و الضحاك و السدى، و ابن جريج، و وهب بن منية: يعنى جبرائيل (ع) و سماه الله (روحاً) لأنه روحانى لا يشبه شيئاً من غير الروح. و خص بهذه الصفة تشريفاً له. و قيل لأنه تحيا به الأرواح بما يؤديه اليهم من أمر الأديان و الشرائع.

و قوله «فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا» أى تمثل لها جبرائيل فى صورة البشر «سويًّا» أى معتدلاً، فلما رآته مريم «قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا» تخاف عقوبة الله.

فان قيل كيف تعوذت منه إن كان تقياً؟ و التقى لا يحتاج أن تعوذ منه، و انما يتعوذ من غير التقى!! قيل المعنى فى ذلك إن التقى للرحمن إذا تعوذ بالرحمن منه ارتدع عما يسخط

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٩٣ و روايته (ذكرتكم) بدل (ذكرت لكم)

ص: ١١٥

الله، ففى ذلك تخويف و ترهيب، كما يقول القائل: إن كنت مؤمناً، فلا تظلمنى، و تكون هى غير عالمة بأنه تقى أم لا، فلما سمع جبرائيل منها هذا القول، قال لها:

«إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ» ارسلنى الله لا بشرك بأنه يهب «لَكَ غُلَامًا» ذكراً «زَكِيًّا» طاهراً من الذنوب. و قيل: نامياً فى أفعال الخير. فقالت مريم عند ذلك متعجبة من هذا القول: «أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ» أى كيف يكون ذلك «وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا» بالجماع على وجه الزوجية «وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا» أى لم أكن زانية- فى قول السدى و غيره-، و (البعى) التى تطلب الزنا، لأن معنى تبغيه تطلبه، و «لم أك» أصلها لم أكن لأنه من (كان، يكون) و إنما حذف النون، لاستخفافها على ألسنتهم، و لكثرة استعمالهم لها، كما حذفوا الالف فى (لم أبل) و أصله (لم أبالى) لأنه من المبالاة و كقولهم: (لا أدري) و قولهم: (أيش) و أصله أى شىء، و مثله: لا أب لسانتك و أصله لا أباً لسانتك، و مثله كثير.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٢١ الى ٢٥]

قال كذلك قال ربك هو على هين و لنجعل له آية للناس و رحمة منا و كان أمراً مقضياً (٢١) فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً (٢٢) فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى ميت قبل هذا و كنت نسياً منسياً (٢٣) فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً (٢٤) و هزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً (٢٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة و حفص عن عاصم «نسياً» بفتح النون. الباقون بكسرهما، و هما

ص: ١١٦

لغتان. و قرأ نافع و حمزة و الكسائي و حفص «من تحتها» على أن (من) حرف جر.

الباقون «من تحتها» يعنى الذى تحتها قال ابو علىّ النحوى: ليس المراد بقوله «من تحتها» الجهة السفلى، و انما المراد من دونها، بدلالة قوله «قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا» و لم يكن النهر محاذياً لهذه الجهة. و إنما المعنى جعل دونك.

و قرأ «تساقط» - بالتاء و ضمها، و كسر القاف مخففة السين - حفص عن عاصم.

و قرأ حمزة «تساقط» بفتح التاء و تخفيف السين. الباقون، و هم ابن كثير و نافع و ابو عمرو، و ابن عامر و الكسائي و ابو بكر عن عاصم، بفتح التاء و تشديد السين و فتح القاف. و قرأ يعقوب و العليمى و نصير - بياء مفتوحة، و تشديد السين و فتح القاف - و كلهم جزم الطاء.

حكى الله تعالى ما قال لها جبرائيل حين سمع تعجبها من هذه البشارة «قَالَ كَذَلِكَ» يعنى الله تعالى قال ذلك «قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» أى سهل متأت لا يشق على ذلك «وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ» أى نجعل خلقه من غير ذكر آية باهرة، و علامة ظاهرة للناس «وَرَحْمَةً مِنَّا» أى و نجعله نعمة من عندنا «وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا» أى و كان خلق عيسى من غير ذكر أمراً قضاه الله و قدره و حتم كونه أى هو المحكوم بأنه يكون، و ما قضاه الله بأنه كائن، فلا بد من كونه.

و قوله (فحملته) يعنى حملت عيسى فى بطنها، و الحمل رفع الشىء من مكانه، و قد يكون رفع الإنسان فى مجلسه، فيخرج عن حد الحمل. و يقال له (حمل) بكسر الحاء لما يكون على الظهر، و بالفتح لما يكون فى البطن (فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) أى انفردت به مكاناً بعيداً، و معناه قاصياً، و هو خلاف الدانى. قال الراجز:

منى كذى القاذورة المقلى «١»

لتقعدن مقعد القصى

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ٤٢

ص: ١١٧

يقال قضا المكان يقصوه قصواً إذا تباعد، و اقصيت الشيء إذا أبعدته، و آخرته إقصاء. و قوله «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ» أى جاء بها المخاض و هو مما يعدى تارة بالباء و أخرى بالألف. مثل ذهبته و آتيتك بعمر و آتيتك عمراً. و خرجت به و أخرجه قال زهير:

و جار سار معتمداً إليكم
و أجاءته المخافة و الرجاء «١»

أى جاءت به. قال الكسائي تميم تقول: ما أجاءك الى هذا و ما أشاء بك اليه.

أى صيرك تشاء. و من أمثالهم (شر أجاءك الى مخة عرقوب) و تميم تقول: شر أشاءك الى مخة عرقوب. و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و السدى: معنى «فَأَجَاءَهَا» الجأها. و قال السدى: إنها قالت فى حال الطلق «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا» استحياء من الناس «وَكُنْتُ نَسِيًا مَّنْسِيًّا» فالنسى الشيء المتروك حتى ينسى - بالفتح و الكسر - مثل الوتر و الوتر. و قيل النسى - بالفتح - المصدر، يقال: نسيت الشيء نسياً و نسياناً - و بالكسر - الاسم إذا كان لقي لا يؤبه به، و قيل النسى خرقة الحيض التى تلقيها المرأة، قال الشاعر:

كأن لها فى الأرض نسياً تقصه
إذا ما غدت و إن تكالملك تبلت «٢»

أى نسياً تركته، و معنى (تبلت) أى تقطع كلامها رويداً رويداً و تقف و تصدق.

و قوله «فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا» قال ابن عباس و السدى و الضحاك و قتادة: المنادى كان جبرائيل (ع). و قال مجاهد و الحسن و وهب بن منية، و سعيد بن جبیر و ابن زيد و الجبائي: كان المنادى لها عيسى (ع).

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٣ و تفسير الشوكاني ٣ / ٣١٧ و الطبرى ١٦ / ٤٢ و القرطبي ١١ / ٧٢

(٢) الطبرى ١٦ / ٤٤ و مجمع البيان ٣ / ٥٠٩

ص: ١١٨

و قوله «أَلَا تَحْزَنِي» أى لا تغتمى «قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا» قال ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبیر: السرى هو النهر الصغير. و قال قوم: هو النهر بالسريانية. و قال آخرون: هو بالنبطية. و قال ابراهيم و الضحاك و قتادة: هو النهر الصغير بالعربية،

مثل قول ابن عباس، و قال البراء بن عازب: هو الجدول. و قال الحسن و ابن زيد: السرى عيسى (ع). و قيل للنهر (سرى) لأنه يسرى بجريانه كما قيل جدول لشدة جريه. قال لييد:

فتوسطا عرض السرى فصدعا
مسجورة متجاوز أقدامها «١»

و قال آخر:

سلم ترى الدالى منه ازورا
إذا يعج فى السرى هرهرا «٢»

و قوله «وَهْزَى إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ» معناه هزى النخلة اليك، و دخلت الباء تأكيدا، كما قال تعالى «تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ» «٣». قال الشاعر:

نضرب بالبيض و نرجو بالفرج «٤»

أى نرجو الفرج، و قال آخر:

بواديمان ينبت السدر صدره
و أسفله بالمرخ و الشبهان «٥»

و فى رواية ينبت الشث حوله. و قوله (تساقط عليك) من شدد، أراد تتساقط فأدغم احد التاءين فى السين، و من خفف حذف احد التاءين. و من قرأ - بالياء -

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ٤٧ و القرطبي ١١ / ٩٤

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٩٤ و روايته (يعب) بدل (يعج)

(٣) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٠

(٤) قائله النابعة الجعدى تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ١٩٣

(٥) تفسير الطبرى ٤٨ / ١٦

ص: ١١٩

أسند الفعل الى الجذع. و من قرأ- بالتاء- أسنده الى النخلة. و من قرأ تساقط أراد من المساقطة. و قرأ ابو حيويه (تسقط عليك). و روى عنه (يسقط) و هو شاذ و المعانى متقاربة. و قال ابو على: من قرأ (تساقط) عدى (فاعل) كما عدى (يتفاعل) و هو مطاوع (فاعل) قال الشاعر:

كما يتطالع الدين الغريم «١»

تطالعنا خيالات لسلمى

و انشد ابو عبيدة:

و آخر يومى فلم أعجل «٢»

تخاطأت النبل أحشاه

قال فى موضع (اخطأت) كقوله (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا) «٣» و معنى الآية يتوقع عليك رطباً جنياً. و الجنى المجنى (فعليل) بمعنى (مفعول) و هو المأخوذ من الثمرة الطرية، اجتناه اجتناء، إذا اقتطعه، قال ابن اخت جذيمة:

إذ كل جان يده الى فيه «٤»

هذا جنای و خياره فيه

و فى نصب (رطباً) قولان:

أحدهما- قال المبرد: هو مفعول به، و تقديره هزى بجذع النخلة رطباً تساقط عليك.

و قال غيره: هو نصب على التمييز و العامل فيه تساقط.

و قال ابو على: يجوز أن يكون نصباً على الحال، و تقديره تساقط عليك ثمر النخلة رطباً، فحذف المضاف الذى هو الثمرة، و نصب رطباً على الحال.

و قيل: لم يكن للنخلة رأس و كان فى الشتاء، فجعله الله تعالى آية، و انما تمت الموت قبل تلك الحال التى قد علمت انها من قضاء الله لكرهتها أن يعصى الله بسببها

(١) البيت فى مجمع البيان ٥٠٧ / ٣

(٢) مر تخريجه فى ٤٧٢ / ٦ من هذا الكتاب

(٣) سورة النساء آية ٣

(٤) تفسير الطبرى ٤٩ / ١٦

ص: ١٢٠

إذا كان الناس يتسرعون الى القول فيها بما يسخط الله. و قال قوم: انها قالت ذلك بطبع البشرية خوف الفضيحة. و قال قوم: المعنى فى ذلك انى لو خيرت قبل ذلك بين الفضيحة بالحمل و الموت لاخترت الموت.

و اختلفوا فى مدة حمل عيسى، فقال قوم: كان حمله ساعة و وضعت فى الحال.

و قال آخرون: حملت به ثمانية أشهر و لم يعش مولود لثمانية أشهر غيره (ع)، فكان ذلك آية له. و فى بعض الروايات أنه ولد لستة أشهر. و قوله «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ» يدل على طول مكث الحمل، فاما مقداره فلا دليل يقطع به.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

فَكُلِّى وَ اشْرَبِى وَ قَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنَّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فى الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنَّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠)

خمس آيات بلا خلاف.

لما قال جبرائيل لمريم «هُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا» قال لها بعد ذلك «فَكُلِّى» من ذلك الرطب «وَ اشْرَبِى» من السرى «وَ قَرِّى

ص: ١٢١

عَيْنًا» و نصبه على التمييز كقوله «فَإِنْ طِبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا» «١» و قيل فى معنا «قَرَى عَيْنًا» قولان: أحدهما- لتبرد عينك برد سرور بما ترى.

الثانى- لتسكن سكون سرور برؤيتها ما تحب، يقال قررت به عينا أقر قرورا و هى لغة قريش. و أهل نجد يقولون: قررت به عينا- بفتح العين- أقر قرارا، كما يقولون قررت بالمكان- بالفتح.

و قوله (فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا) قال الجبائى: كان الله تعالى أمرها بأن تنذر لله تعالى الصمت، فإذا كلمها احد تومى بأنها نذرت صوما صمتا، لأنه لا يجوز ان يأمرها بان تخبر بأنها نذرت و لم تنذر، لأن ذلك كذب. و قال انس بن مالك و ابن عباس و الضحاك: تريد بالصوم الصمت.

و قال قتادة: يعنى صمتا عن الطعام و الشراب و الكلام أى إمساكا. و انما أمرها بالصمت ليكفيها الكلام ولدها بما يبرئ ساحتها- فى قول ابن مسعود و ابن زيد و وهب ابن منية و قيل: من كان صام فى ذلك الوقت لا يكلم الناس، فاذن لها فى هذا المقدار من الكلام، فى قول السدى.

فان قيل كيف تكون نذرت الصمت و ألا تكلم أحدا مع قولها و اخبارها عن نفسها بأنها نذرت و هل ذلك إلا تناقض؟

قيل من قال: انه أذن لها فى هذا القدر فحسب، يقول: انها نذرت لا تكلم بما زاد عليه. و من قال: انها نذرت نذرا عاما، قال: أو مت بذلك و لم تتلفظ به. و قيل:

أمرها الله أن تشير اليهم بهذا المعنى، و انها ولدته بناحية بيت المقدس، و فى موضع يعرف ب (بيت لحم).

(١) سورة ٤ النساء آية ٣ (ج ٧ م ١٦ من التبيان)

ص: ١٢٢

ثم اخبر الله تعالى عن حال مريم أنها أتت بعيسى الى قومها تحمله، فلما رأوها قالوا لها «لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا» أى عملا عجيبا قال الراجز:

مسوساً مدوداً حجريا

قد اطعمتنى دقلا حوليا

قد كنت تفرين به الفريا»^١»

قال قتادة و مجاهد و السدى: معنى الفرى العظيم من الأمر. و قيل الفرى القبيح من الافتراء، فقال لها قومها «يا أُخْتِ هَارُونَ» و قيل فى هارون الذى نسبت اليه بالاخوة أربعة أقوال:

فقال قتادة: و كعب و ابن زيد و المغيرة بن شعبة يرفعه الى النبى (ص): انه كان رجلا صالحاً فى بنى إسرائيل ينسب اليه من عرف بالصلاح.

و قال السدى: نسبت الى هارون أخى موسى (ع) لأنها كانت من ولده كما يقال يا أخا بنى فلان.

و قال قوم: كان رجلا فاسقاً معلناً بالفسق، فنسبت اليه.

و قال الضحاک: كان أخاها لأبيها و أمها، و كان بنو إسرائيل يسمون أولادهم بأسماء الأنبياء كثيراً. و قوله «ما كان أبوكِ امرأً سوءٍ و ما كانتِ أمُّكِ بغيًّا» اى لم يكن أبواك إلا صالحين، و لم يكونا فاجرين، فكيف خالفتيهما «فأشارتُ إليه» اى أوامت عند ذلك مريم الى عيسى (ع) أن كلموه، و استشهدوه على براءة ساحتى «فقالوا» فى جوابها «كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» قال قوم: دخلت (كان) هاهنا زائدة و نصب (صبيًّا) على الحال. و انشد أبو عبيدة فى زيادة (كان):

الى كناس كان مستعدة

و قال آخر:

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ٥١ و القرطبى ١١ / ١٠٠.

ص: ١٢٣

و جيران لنا كانوا كرام»^١»

فكيف إذا رأيت ديار قومی

و المعنى و ديار جيران كرام و (كانوا) فضلة، فلذلك لم تعمل. و قيل معنى (كان) صار و انشد لزهير:

و قد كان كون الليل مثل الارندج

أجزت اليه حرة أرجية

اي قد صار. و قال المبرد: معنى (كان) حدث. و قال الزجاج: معناه على الشرط، و تقديره من كان فى المهد صبياً كيف نكلمه على التقديم و التأخير. و قال قتادة: المهد حجر أمه، و أصله ما وطئ للصبي. و قيل: انهم غضبوا عند اشارتها الى ذلك، و قالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها، فلما تكلم عيسى، قالوا: إن هذا الامر عظيم - ذكره السدى - فقال عيسى (ع) عند ذلك «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ» قال عكرمة: معناه فيما مضى «وَجَعَلَنِي نَبِيًّا» لان الله أكمل عقله و أرسله الى عبادته و لذلك كانت له تلك المعجزة - فى قول الحسن و أبى على الجبائى - و قال قوم:

معناه «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» سيؤتىنى الكتاب و يجعلنى نبياً فيما بعد، و كان ذلك معجزة لمريم على براءة ساحتها على قول من أجاز اظهار المعجزات على يد غير الأنبياء من الصالحين. و قال ابن الاخشاذ: كان ذلك إنذاراً لنبوته. و قال الجبائى معنى «وَجَعَلَنِي نَبِيًّا» أى و جعلنى ربيعاً لان النبى هو الرفيع.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٣١ الى ٣٥]

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلْدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥)

(١) قائله الفرزدق. ديوانه (دار بيروت) ٢ / ٢٩٠ و قد مر فى ٣ / ١٥٥ من هذا الكتاب.

ص: ١٢٤

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ الكسائى «آتانى، و اوصانى» بالامالة. الباقون بالتفخيم، فمن أمال، فلان هذه الألف تنقلب ياء فى (أوصيت) فأمال لمكان الياء. و من لم يمل، فلمكان الألف.

و الامالة فى (آتانى) احسن من الامالة فى (أوصانى) لأن فى (أوصانى) حرفاً مستعليماً يمنع من الامالة، و مع ذلك، فهو جائز كصنى و طغى. و قرأ عاصم و ابن عامر و يعقوب «قول الحق» بالنصب على المصدر. الباقون بالرفع على أنه خبر الابتداء. و

تقديره ذلك الذى تلوناه من صفته «قول الحق» وقيل هو تابع ل (عيسى) كأنه قيل كلمة الحق و روى عن عبد الله انه قرأ «قول الحاق» بمعنى قول الحق و معناه يحق نحو العاب و العيب و الذام و الذيم.

لما حكى الله تعالى عن عيسى أنه قال لقومه «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا» أخبر أنه قال «وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا» قال مجاهد: معناه معلماً للخير أينما كنت.

وقيل نفاعاً، و البركة نماء الخير، و المبارك الذى ينمى الخير به. و التبرك طلب البركة بالشىء و أصله التبرك من البرك و هو ثبوت الطير على الماء.

وقوله «وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ» معناه أمرنى بهما. و الوصية التقدم فى الأمر الذى يكون بعد ما وقت له، كتقدم الإنسان فى التدبير بعد خروجه، و كتقدمه فى أموره بعد موته. و الصلاة فى أصل اللغة: الدعاء، و فى الشرع عبارة عن هذه العبادة

ص: ١٢٥

التي فيها الركوع و السجود. و قيل عبارة عن عبادة افتتاحها التكبير و خاتمتها التسليم.

و قيل فى معنى الزكاة - هاهنا - قولان: أحدهما - زكاة المال. و الثانى - التطهير من الذنوب.

«ما دُمْتُ حَيًّا» أى أوصانى بذلك مدة حياتى «وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي» أى و أوصانى بأن أكون باراً بوالدى أى محسناً إليها «وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا» أى متجبراً، لم يحكم على بالتجبر، و الشقاء، و لم يسمنى بذلك «وَ السَّلَامُ عَلَيَّ» أى و الرحمة من الله بالسلامة و النعمة بها على «يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا».

و قوله «ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ» أى الذى تلوناه من صفة عيسى «قَوْلَ الْحَقِّ» أى كلمة الحق «الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» أى يشكون فيه «ما كان لله أن يتخذ من ولد» اخبار منه تعالى بأنه لم يكن لله أن يتخذ من ولد على ما يقوله النصارى.

ثم قال منزلها لنفسه عن ذلك «سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» أى يفعله لا يشق عليه بمنزلة ما يقال كن فيكون، و قد بينا فيما مضى و حكينا ما قال بعضهم إن قول (كن) عند خلق ما يريد خلقه ليعلم الملائكة أنه لا يتعذر عليه شىء يريد فعله.

و السلام مصدر سلمت سلاماً، و معناه عموم العافية و السلامة. و السلام جمع سلامة.

و السلام اسم من اسماء الله و سلام يبتدأ به فى النكرة، لأنه يكثر استعماله، تقول: سلام عليكم و السلام عليكم، و أسماء الأجناس يحسن الابتداء بها، لأن فائدتها واحدة، و لما جرى ذكر (سلام) أعيد - هاهنا - بالألف و اللام ليرد على الاول.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَسْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)

ص: ١٢٦

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو و نافع و يعقوب إلا روحاً «و أن الله» بفتح الهمزة الباقون بكسرهما. من نصب الهمزة احتمل أربعة أوجه:

أحدها- إن المعنى و قضى الله «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ» فى قول ابى عمرو بن العلاء و الثانى - أنه معطوف على كلام عيسى، أى و أوصانى «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ» و الثالث- قال الفراء: إنه معطوف على «ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» و ذلك «أن الله». و يكون موضعه الرفع بأنه خبر المبتدأ.

الرابع - و لان الله ربي و ربكم فاعبدوه. و العامل فيه (فاعبدوه).

و من كسر (إن) استأنف الكلام. و يقوى الكسر انه روى ان أيبأ قرأ «ان الله» بلا واو و يجوز ان يكون عطفاً على قوله «قال إني عبدُ الله» و قوله «هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» معناه عبادتكم لله وحده لا شريك له هو الصراط المستقيم الذى لا اعوجاج فيه.

و قوله «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ» فالاختلاف فى المذهب هو ان يعتقد كل قوم خلاف ما يعتقد الآخرون. و الأحزاب جمع حزب. و الحزب الجمع المنقطع فى رأيه عن غيره، يقال تحزب القوم إذا صاروا أحزاباً. و حزب عليهم

ص: ١٢٧

الأحزاب أى جمع. و المعنى فى الآية اختلف الأحزاب من أهل الكتاب فى عيسى (ع)، فقال قتادة و مجاهد قال قوم: هو الله و هم البعقوبية. و قال آخرون:

هو ابن الله و هم النسطورية. و قال قوم: و هو ثالث ثلاثة و هم الاسرائيلية. و قال قوم:

هو عبد الله و هم المسلمون.

ثم قال تعالى «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» بآيات الله، و جحدوا وحدانيته من حضور يوم عظيم يعنى يوم القيامة.

و قوله «أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا» معناه ما أسمعهم و ابصرهم على وجه التعجب، و المعنى انهم حلوا فى ذلك محل من يتعجب منه، و فيه تهديد و وعيد أن سيسمعون ما يصدع قلوبهم و يردون ما يهيلهم. و قال الحسن و قتادة: المعنى لأن كانوا فى

الدنيا صماً عمياً عن الحق، فما أسمعهم به، و ما أبصرهم به يوم القيامة «يَوْمَ يَأْتُونَنَا» أى يوم يأتون المقام الذى لا يملك أحد فيه الامر و النهى غير الله.

ثم قال تعالى «لَكِنَّ الظَّالِمُونَ» أنفسهم بارتكاب معاصيه و جحد آياته و الكفر بأنبيائه «اليوم» يعنى فى دار الدنيا «فِي ضَلَالٍ» عن الحق و عدول عنه «بعيد» من الصواب. ثم قال لنبيه (ص) «وَأَنْذِرْهُمْ» يا محمد أى خوفهم هول «يَوْمَ الْحَسْرَةِ» أى اليوم الذى يتحسر فيه الناس على ما فرطوا فيه من طاعة الله، و على ما ارتكبوا من معاصيه فى الوقت الذى «قُضِيَ الْأَمْرُ» و حكم بين الخلائق بالعدل «وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ» اليوم عما يفعل بهم من العقاب على معاصيهم، و هم لا يصدقون بما يقال لهم و يخبرون به. ثم اخبر تعالى عن نفسه، فقال «إِنَّا نَحْنُ نَزَّتُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا» أى يعود إلينا التصرف فى الأرض و فيمن عليها من العقلاء، و غيرهم، لا يبقى لاحد ملك «وَأِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» أى يردون يوم القيامة الى الموضع الذى لا يملك الامر و النهى غيرنا.

ص: ١٢٨

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٤١ الى ٤٥]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

خمس آيات فى الكوفى و البصرى، و ست آيات فى المدنيين عدوا «فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ» آية.

امر الله تعالى نبيه (ص) أن يذكر ابراهيم فى الكتاب الذى هو القرآن، و سماه كتاباً، لأنه مما يكتب. و المعنى اقصص عليهم أو اتل عليهم. و كذلك فيما بعد. ثم قال «انه» يعنى ابراهيم «كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا» و الصديق هو الكثير التصديق بالحق حتى صار علماً فيه. و كل نبى صديق لكثرة الحق الذى يصدق فيه مما هو علم فيه و امام يقتدى به، من توحيد الله و عدله، حين «قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ» و الأصل يا ابتي، فحذف ياء الاضافة و بقيت كسرة التاء تدل عليها. و قيل ان التاء دخلت للمبالغة فى تحقيق الاضافة، كما دخلت فى (علامة، و نسابة) للمبالغة فى الصفة. و مثله يا أمت. و الوقف بالتاء لهذه العلة. و أجاز الزجاج الوقف بالهاء. و قيل ان التاء عوض من ياء الاضافة.

و قوله «لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» من امور الدنيا

ص: ١٢٩

و إنما هو حجر منقور، او صنم معمول «يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ» بمعرفة الله و توحيده و وجوب اخلاص العبادة له، و قبح الاشراك «مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي» على ذلك و اقتد بى «أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا» معتدلاً غير جائر بك عن الحق الى الضلال «يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا» أى عاصياً (فعل) بمعنى فاعل.

«يا أبتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ» قال الفراء: أخاف بمعنى أعلم - هاهنا - ومثله «فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا» «١» أى علمنا «أَنْ يَمَسَّكَ» أى يلحقك عذاب من الله على إشراكك معه فى العبادة غيره. و متى فعلت ذلك كنت ولياً للشيطان و ناصراً و مساعداً، و نصب «فتكون» عطفاً على (ان يمسك). و قيل: إن معناه أنه يلزمك ولاية الشيطان لعبادتك له ذمّاً لك و تقريعاً، إذا ظهر عقاب الله لك، و سخطه عليك. و قيل: فتكون موكولاً الى الشيطان، و هو لا يغنى عنك شيئاً. و قال قوم: هذه المخاطبة من ابراهيم كان لأبيه الذى هو والده. و الذى يقوله أصحابنا انه كان جده لأمه، لأن آباء النبي (ص) كلهم كانوا مسلمين الى آدم، و لم يكن فيهم من يعبد غير الله تعالى،

لقوله (ص) (لم يزل الله ينقلنى من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات)

و الكافر لا يوصف بالطهارة، لقوله تعالى «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» «٢» قالوا و أبوه الذى ولده كان اسمه تاريخ، و هذا الخطاب منه كان لآزر

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٤٦ الى ٥٠]

قالَ أ رَاغِبٌ أَنْتَ عَنِّ يَا إِلَهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لئنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَ أَعْتَزَلْتُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَ ادْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَ وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨١

(٢) سورة ٩ التوبة آية ٢٩ (ج ٧ م ١٧ من التبيان)

ص: ١٣٠

خمس آيات بلا خلاف.

لما حكى الله تعالى ما قال ابراهيم لأبيه، و توبيخه له على عبادة الأصنام، و تقريعه إياه على ذلك، حكى فى هذه الآيات ما أجاب به أبوه، فانه قال له يا ابراهيم «أ رَاغِبٌ أَنْتَ عَنِّ يَا إِلَهَتِي» و معناه أ زاهد فى عبادة آلهتى، و الرغبة اجتلاب الشيء لما فيه من المنفعة و الرغبة فيه نقيض الرغبة عنه. و الترغيب الدعاء الى الرغبة فى الشيء. ثم قال له مهدداً «لئنْ لَمْ تَنْتَه» أى لم تمتنع من ذلك، يقال نهاه فانتهى. و أصله النهاية، فالنهي زجر عن الخروج عن النهاية المذكورة. و التناهي بلوغ نهاية الحد. و قوله «لأرجمك» قال الحسن: معناه لأرمينك بالحجارة حتى تباعد عني. و قال السدى و ابن جريج و الضحاك: معناه لأرمينك بالذم و العيب. و قوله «وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا» قيل فى معناه قولان:

قال الحسن و مجاهد «ملياً» دهرأ [قال الفراء: و يقال: كنت عنده ملوة و ملوة و ملوة- بتثليث الميم- و ملاوة بالفتح و ملاوة بالضم أى] «١» دهرأ ملاوة، و كله من طول المقام

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

ص: ١٣١

و به قال سعيد بن جبير و السدى، و هو بمعنى الملاوة من الزمان و هو الطويل منه.

و الثانى - قال ابن عباس و قتادة و عطية و الضحاک: معنى «ملياً» سويأً سليماً من عقوبتى، و هو من قولهم: فلان ملئ بهذا الأمر إذا كان كامل الأمر فيه مضطرباً به، فقال له ابراهيم «سَلَامٌ عَلَيْكَ» أى سلامة عليك، أى إكرام و بر بحق الأبوة و شكر التربية. و قال ذلك على وضع التواضع له و لين الجانب لموضعه «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي» قال قوم: انما وعده بالاستغفار على مقتضى العقل، و لم يكن قد استقر بعد قبج الاستغفار للمشركين. و قال قوم: معناه سأستغفر لك إذا تركت عبادة الأوثان و أخلصت العبادة لله تعالى. و معنى قوله «إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا» إن الله كان عالماً بى لطيفاً، و الخفى اللطيف بعموم النعمة، يقال: تحفنى فلان إذا أكرمنى و أطفنى، و حفى فلان بفلان حفاوة إذا ابره و أطفه. و الحفى أذى يلحق باطن القدم للطفه عن المشى بغير نعل ثم قال «وَاعْتَزَلْتُمْ» أى أتحنى عنكم جانباً، و اعتزل عبادة «مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. وَادْعُوا رَبِّي» وحده (عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً).

و قوله (فَلَمَّا اعْتَزَلْتُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قيل انه اعتزلهم بأن خرج الى ناحية الشام (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) أى لما اعتزلهم آنسنا وحشته بأولاد كرام على الله رسل لله، و جعلناهم كلهم أنبياء معظمين (وَ وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا) أى من نعمتنا (وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) قال ابن عباس و الحسن:

معناه الثناء الجميل الحسن من جميع أهل الملل، لان أهل الملل على اختلافهم يحسنون الثناء عليهم، و تقول العرب: جاءنى لسان من فلان تعنى مدحه أو ذمه قال عامر ابن الحارث:

من علو لا عجب منها و لا سخر

انى اتتنى لسان لا أسر بها

ص: ١٣٢

جاءت مرجمة قد كنت احذرها

لو كان ينفعني الإشفاق و الحذر «١»

وقيل: معناه انا جعلناهم رسل الله يصدقون عليه أعالي الصفات.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٥١ الى ٥٥]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَ نادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَ وهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر (مخلصاً) - بفتح اللام - بمعنى أخلصه الله للنبوة.

الباقون - بالكسر - بمعنى أخلص هو العبادة لله.

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) (و اذكر) موسى (في الكتاب) الذي هو القرآن. و سماه كتاباً لما ذكرناه: أنه يكتب. و اخبر أن موسى كان مخلصاً بطاعته وجه الله تعالى دون رياء الناس، و انه لم يشرك في عبادته سواه. و من فتح اللام أراد ان الله أخلصه لطاعته بمعنى أنه لطف له ما اختار عنده اخلاص الطاعة. و انه لم يشب ذلك بمعصيته له، و أنه مع ذلك كان رسولا لله تعالى الى خلقه، قد حمله رسالة يؤديها اليهم (وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) و هو العلي برسالة الله الى خلقه، و بما نصب له من المعجزة الدالة

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٦٢ و هو في مجمع البيان ٣ / ٥١٦

ص: ١٣٣

على تعظيمه و تبجيله، و عظم منزلته. و هو مأخوذ من النبأ، و هو الخبر بالأمر العظيم.

ثم اخبر الله تعالى انه ناداه (مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ) فانه قال له (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) و الطور جبل بالشام ناداه من ناحيته اليمنى، و هو يمين موسى (ع).

و قوله (وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) معناه قربناه من الموضع الذي شرفناه و عظمناه بالحصول فيه ليسمع كلامه تعالى. و قال ابن عباس و مجاهد. قرب من أهل الحجب حتى سمع صريف القلم. و قيل معناه إن محله منا محل من قربه مولاه من مجلس كرامته. و قيل

قربه حتى سمع صرير القلم الذى كتب به التوراة. و قوله (نجيا) معناه انه اختصه بكلامه بحيث لم يسمع غيره، يقال: ناجاه يناجيه مناجاة إذا اختصه بإلقاء كلامه اليه. و اصل النجوة الارتفاع عن الهلكة، و منه النجاة ايضاً، و النجاء السرعة، لأنه ارتفاع فى السير، و منه المناجاة. و قال الحسن: لم يبلغ موسى (ع) من الكلام الذى ناجاه شيئاً قط. ثم اخبر تعالى انه وهب له من رحمته و نعمته عليه أخاه هارون نبياً، شد أزره كما سأله.

ثم قال لنبيه محمد (ص) (وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ) الذى هو القرآن ايضاً (إسماعيل) ابن ابراهيم و أخبر (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) بمعنى إذا وعد بشيء و فى به، و لم يخلف (و كان) مع ذلك (رسولاً) من قبل الله الى خلقه (نبياً) معظماً بالاعلام المعجزة. و أنه «كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ» قال الحسن: أراد بأهله أمته، و المفهوم من الأهل فى الظاهر اقرب أقرابه. و «كان» مع هذه الأوصاف «عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا» قد رضى اعماله لأنها كلها طاعات لم يكن فيها قبائح.

و انما أراد بذلك أفعاله الواجبات و المندوبات دون المباحات، لان المباحات لا يرضاها الله و لا يسخطها. و اصل (مرضى) مرضو فقلبت الضمة كسرة و الواو ياء و أدغمت فى الياء.

ص: ١٣٤

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَ بُكْيًا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)

خمس آيات.

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) «اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ» الذى هو القرآن «إدريس» و اخبر انه كان كثير التصديق بالحق، و كان «نبياً» معظماً مبجلاً مؤيداً بالمعجزات الباهرة. ثم أخبر تعالى أنه رفعه مكاناً علياً. قال انس بن مالك:

رفعه الله الى السماء الرابعة. و روى ذلك عن النبي (ص)

و به قال كعب و مجاهد، و ابو سعيد الخدرى. و قال ابن عباس و الضحاك: رفعه الله الى السماء السادسة.

و اصل الرفع جعل الشيء فى جهة العلو، و هى نفيض السفلى، يقال: رفعه يرفعه رفعاً، فهو رافع و ذاك مرفوع. و العلى العظيم العلوّ و العالى العظيم فيما يقدر به على الأمور، فلذلك وصف تعالى بأنه على. و الفرق بين العلىّ و الرفيع أن العلى قد يكون بمعنى الاقتدار و علو المكان. و (الرفيع) من رفع المكان لا غير. و لذلك

لا يوصف تعالى بأنه رفيع. و قوله «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» «١» انما وصف الدرجات بأنها رفيعة. و انما أخذ من علو معنى الصفة بالاعتدال، لأنها بمنزلة العالى المكان.

ثم اخبر تعالى عن الأنبياء الذين تقدم وصفهم فقال «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ» فان حملنا (من) على التبويض لم تدل على أن من عداهم لم ينعم عليهم، بل لا يمتنع أن يكون انما افردهم بأنه أنعم عليهم نعمة مخصوصة عظيمة رفيعة، و إن كان غيرهم ايضاً قد أنعم عليهم بنعمة دونها. و إن حملنا (من) على انها لتبيين الصفة لم يكن فيه شبهة، لأن معنى الآية يكون أولئك الذين أنعم الله عليهم من جملة النبيين.

و قوله «مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ» [لان الله تعالى بعث رسلا ليسوا من ذرية آدم بل هم من الملائكة كما قال «يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ» «٢» و قوله «وَمِمَّنْ حَمَلْنَا» فى السفينة «مَعَ نُوحٍ» أى أبوهم نوح و هو من ذرية آدم كما قال «٣» «وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ» يعنى يعقوب «وَمِمَّنْ هَدَيْنَا» هم الى الطاعات فاهتدوا اليها و اجتبيناهم اى اخترناهم و اصطفيناهم «إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ» اى أعلامه و أدلته «خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا» أى سجدوا له تعالى و بكوا، و بكى جمع باك و نصبيها على الحال، و تقديره: خروا ساجدين باكين. و بكى (فعلول) و يجوز ان يكون جمع باك على (فعلول). و يجوز ان يكون مصدرًا بمعنى البكاء. قال الزجاج: لا يجوز النصب على المصدر، لأنه عطف على قوله «سجداً». و إنما فرق ذكر نسبهم، و كلهم لآدم، لبيان مراتبهم فى شرف النسب، فكان لإدريس شرف القرب من آدم، لأنه جد نوح.

و كان ابراهيم من ذرية من حمل مع نوح، لأنه من ولد سام بن نوح. و كان إسماعيل

(١) سورة ٢٠ المؤمن آية ١٥

(٢) سورة ٢٢ الحج آية ٧٥

(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

و إسحاق و يعقوب من ذرية ابراهيم، لما تباعدوا من آدم حصل لهم شرف ابراهيم، و كان موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى من ذرية إسرائيل، لأن مريم من ذريته و قيل انما وصف الله صفة هؤلاء الأنبياء ليقند بهم و يتبع اثارهم فى اعمال الخير ثم اخبر تعالى انه خلف من بعد المذكورين خلف، و الخلف - بفتح اللام - يستعمل فى الصالحين، و بتسكين اللام فى الطالح قال لبيد:

و بقيت فى خلف كجلد الأجر «١»

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم

وقال الفراء والزجاج: يستعمل كل واحد منهما فى الآخر.

وفى الآية دلالة على أن المراد بالخلف من لم يكن صالحاً، لأنه قال «أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ» وقال القرطى تركوها. وقال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز: أخروها عن مواقيتها. وهو الذى رواه أصحابنا. وقال قوم خلف - بفتح اللام - إذا خلف من كان من أهله - و بسكون اللام - إذا كان من غير أهله.

ثم قال تعالى «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» والغى الشر والخيبة - فى قول ابن عباس وابن زيد - قال الشاعر:

فمن يلقى خيراً يحمد الناس أمره
و من يغو لا يعدم على الغى لائماً» ٢

أى من يخب. وقال عبد الله بن مسعود: الغى واد فى جهنم. وقيل معناه يلقون مجازاة غيهم. ثم استثنى من جملتهم من يتوب فيما بعد و يرجع الى الله و يؤمن به و يصدق أنبياءه، و يعمل الاعمال الصالحة من الواجبات و المندوبات، و يترك القبائح فان «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» من ضم الياء أراد أن الله يدخلهم الجنة بأن يأمرهم بدخولها، فضم لقوله «وَلَا يُظْلَمُونَ» ليتطابق اللفظان. و من فتح الياء أراد أنهم

(١) مر تخريجه فى ٢٥ / ٥ من هذا الكتاب

(٢) مر هذا البيت فى ٢ / ٣١٢، ٤ / ٣٩١، ٥ / ٥٤٨ / ٦ / ٣٣٦

ص: ١٣٧

يدخلون بأمر الله. و المعنيان واحد. و قوله «وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا» معناه لا يبخسون شيئاً من ثوابهم بل يوفر عليهم على التمام و الوفاء.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٦١ الى ٦٥]

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

خمس آيات بلا خلاف.

«جنات» فى موضع نصب بدلا من قوله «الجنة» فى قوله «يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» و كان يجوز الرفع بتقدير هى جنات. و الجنة البستان الذى يجنه الشجر، فإذا لم يكن فى البستان شجر، و يكون من خضرة، فهو روضة، و لا يسمى جنة. و انما قيل «جنات» على لفظ الجمع، لان كل واحد من المؤمنين له جنة تجمعها الجنة العظمى.

و العدن الإقامة يقال: عدن بالمكان يعدن عدناً إذا أقام به. و الإقامة كون بالمكان على مرور الازمان. و الوعد الاخبار بما يتضمن فعل الخير، و نقيضه الوعيد، و هو الاخبار عن فعل الشر. و قد يقال: وعدته بالشر، و وعدته بالخير، و أوعده بالشر. و أوعده (ج ٧ م ١٨ من التبيان)

ص: ١٣٨

لا يكون إلا فى الشر، و المراد بالوعد- هاهنا- الموعود. و معنى مأتيا مفعولا. و يجوز فى مثل هذا (آتياً) و (مأتياً) لأن ما أتيته، فقد أتاك و ما أتاك فقد أتيته، كما يقال أتيت على خمسين سنة و أتت على خمسون سنة. و قيل معناه إنه كقولك أتيت خير فلان و أتاني خير فلان.

و قوله «بِالْغَيْبِ» معناه أن الجنة التى وعدهم بها ليست حاضرة عندهم بل هى غائبة. و قوله «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا» معناه لا يسمعون فى تلك الجنة القول الذى لا معنى له يستفاد، و هو اللغو. و قد يكون اللغو الهذر من الكلام. و اللغو، و اللغا بمعنى واحد قال الشاعر:

عن اللغا و رفث التكلم «١»

و قوله «إِلَّا سَلَامًا» يعنى لكن سلاماً و تحية من بعضهم لبعض، قال ابو عبيدة:

تقديره لا يسمعون فيها لغواً إلا انهم يسمعون سلاماً. و قال الزجاج: المعنى لا يسمعون كلاماً يؤثمهم إلا كلاماً يسلمهم، فيكون استثناء منقطعاً.

و قوله «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» قيل معناه فى مقدار اليوم من أيام الدنيا، فذكر (الغداة و العشى) ليدل على المقدار، لأنه ليس فى الجنة ليل، و لا نهار.

و قيل: انما ذكر ذلك، لأن اسلم الأكلات اكلة الغداة و العشى، فهو اسلم من الأكل دائماً أى وقت وجده، أو تكون أكلته واحدة.

و قوله «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» معناه انما نملك تلك الجنة من كان تقياً في دار الدنيا بترك المعاصي، و فعل الطاعات. و انما قال «نورث» مع انه ليس بتمليك نقل من غيرهم اليهم، لأنه مشبه بالميراث من جهة أنه تمليك بحال استؤنفت عن حال قد انقضت من أمر الدنيا. كما ينقضى حال الميت من أمر الدنيا.

(١) مر تخريجه في ٢/ ١٣٢، ١٦٤، ٢٣٠

ص: ١٣٩

و قيل: انه أورثهم من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا.

و قوله «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» قيل في معناه

أن النبي (ص) استبطأ جبرائيل (ع) فقال (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا) فأتاه بهذا الجواب وحيأ من الله بأنا لا ننزل إلا بأمر الله،

و هو قول ابن عباس و الربيع و قتادة و الضحاك و مجاهد و ابراهيم.

و قوله «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ» قال ابن عباس و الربيع و قتادة و الضحاك و أبو العالية: له ما بين أيدينا: الدنيا، و ما خلفنا: الآخرة، و ما بين ذلك: ما بين النفختين.

و قوله «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» أى ليس الله تعالى ممن ينسى و يخرج عن كونه عالماً، لأنه عالم لنفسه، و تقديره - هاهنا - و ما نسيك و إن أخر الوحي عنك.

و قوله «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» معناه إن الله تعالى هو المالك المتصرف فى السموات و الأرض، ليس لأحد منعه منه «وَمَا بَيْنَهُمَا» يعنى و له ما بين السموات و الأرض.

ثم قال لنبيه (ص) «فَاعْبُدْهُ» وحده لا شريك له «وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ» أى اصبر على تحمل مشقة عبادته، و قال لنبيه (ص) «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» أى مثلاً و شبهاً. و هو قول ابن عباس و مجاهد و ابن جريج. و قيل المعنى انه لا يستحق احد ان يسمى إلهاً إلا هو. و من أدغم اللام فى التاء، فلان مخرج اللام قريب من مخرج التاء. و قال ابو على: ادغام اللام فى الطاء و الدال و التاء و الصاد و الزاى و السين جائز لقرب مخرج بعضها من بعض.

ص: ١٤٠

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٦٤ الى ٧٠]

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٤٤) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا (٤٧) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٤٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٤٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ نافع و ابن عامر و عاصم «أولا يذكر» خفيفاً. الباقون بالتشديد. من شدد:

أراد أولاً يتذكر، فأدغم التاء في الذال لقرب مخرجيهما. و من خفف، فلقوله «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ» «١» و الخفيفة دون ذلك في الكثرة في هذا المعنى. هذا حكاية من الله تعالى عن قول من ينكر البعث و النشور من الكفار، و هم المعنيون بقوله «أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ» بأنهم يقولون على وجه الإنكار و الاستبعاد: أ إذا متنا يخرجنا الله احياء و يعيدنا كما كنا؟! فقال الله تعالى منها على دليل ذلك «أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ».

من شدد أراد أ و لا يتفكر، و من خفف أراد او لا يعلم «أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ» هذا «وَلَمْ يَكُ شَيْئًا» موجوداً، فمن قدر على أن يخلق و يوجد ما ليس بشيء، فيجعله شيئاً موجوداً، فهو على إعادته بعد عدمه الى الحالة الاولى أقدر.

ثم اقسام تعالى فقال «فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ» أى لنبعثنهم من قبورهم مقرنين

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٥٥ و سورة ٨٠ عبس آية ١٢

ص: ١٤١

بأوليائهم من الشياطين. و يحتمل (الشياطين) أن يكون نصباً من وجهين:

أحدهما- ان يكون مفعولاً به بمعنى و نحشر الشياطين.

الثانى - ان يكون مفعولاً معه بمعنى لنحشرنهم مع الشياطين «ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» جمع جاثى و هو الذى يرك على ركبتيه. و قوله «ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا» يعنى تمرداً أى نبداً بالأكبر جرماً فالأكبر، فى قول أبى الأحوص، و مجاهد. و الشيعة هم الجماعة المتعاونون على أمر واحد من الأمور، و منه تشايح القوم إذا تعاونوا، و يقال للشجاع: شيع أى معان، و فى رفع (أيهم) ثلاثة أقوال:

أولها الحكاية على تقدير، فيقال لهم أيهم أشد على الرحمن عتياً؟ فليخرج.

الثانى - انه مبنى على الضم، و معناه الذى هو أشد على الرحمن عتياً، إلا أنه مبنى لما حذف منه (هو). و اطرده الحذف به فصار كبعض الاسم. فالأول قول الخليل.

و الثاني مذهب سيبويه.

و الثالث - أن يكون (لنزعن) معلقة كتعليق علمت أيهم في الدار، و هو قول يونس. و أجاز سيبويه النصب على أن يكون (أى) بمعنى الذى. و ذكر انها قراءة هارون الأعرج.

و قوله «وَلَمْ يَكُ شَيْئاً» أى لم يكن شيئاً موجوداً كائناً. ثم أخبر تعالى أنه اعلم بالذين عملوا المعاصى و ارتكبوا الكفر و الكبائر، و الذين هم اولى بالنار صلياً، لا يخفى عليه خافية.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٧١ الى ٧٥]

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَ رءْيًا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أضعْفُ جُنْدًا (٧٥)

ص: ١٤٢

خمس آيات.

قرأ نافع و ابن عامر «و ربا» بغير همز. الباقيون بهمز، من همز فمعناه المنظر الحسن (فعيل) من الرؤية، و من لم يهمز احتمل أن يكون خفف الهمزة كما قالوا فى البريئة بريئة و يحتمل أن يكون مأخوذاً من الرى، و هو امتلاء الشباب و النظارة، أى ترى الرى فى وجوههم. و قرأ سعيد بن جبير «و ربا» جعله من الرى و قرئ بالزاي، و معناه ما يتزيا به.

و قرأ ابن كثير «مقاماً» - بضم الميم - الباقيون بفتحها. فالمقام - بضم الميم - مصدر الاقامة. و بفتحها المكان، كقوله «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» «١» و قرأ يعقوب الحضرمى و عاصم و الجحدرى و ابن أبى ليلى و ابن عباس «ثم ننجى» بفتح التاء بمعنى هناك ننجى المتقين. و الباقيون (ثم) بضم التاء حرف عطف.

يقول الله تعالى للمكلفين انه ليس منكم أحد إلا و هو يرد جهنم، فان الكناية فى قوله «إِلَّا وَارِدُهَا» راجعة الى جهنم بلا خلاف، إلا قول مجاهد، فانه قال: هى كناية عن الحمى و الأمراض. و روى فى ذلك خبراً عن النبى (ص) عن أبى هريرة. و قال قوم: هو كناية عن القيامة. و أقوى الأقوال الأول، لقوله تعالى «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا» يعنى فى جهنم.

و اختلفوا فى كيفية ورودهم اليها، فقال قوم- و هو الصحيح-: إن ورودهم هو وصولهم اليها و اشرافهم عليها من غير دخول منهم فيها، لأن الورد فى اللغة هو الوصول الى المكان. و أصله ورود الماء، و هو خلاف الصدور عنه. و يقال: ورد الخبر بكذا، تشبيهاً بذلك. و يدل على أن الورد هو الوصول الى الشيء من غير دخول فيه قوله تعالى «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ» و أراد وصل اليه. و قال زهير:

فلما وردن الماء زرقاً جمامه
وضعن عصي الحاضر المتخيم «١»

و قال قتادة و عبد الله بن مسعود: ورودهم اليها، هو ممرهم عليها. و قال عكرمة يردها الكافر دون المؤمن، فخص الآية بالكافرين. و قال قوم شذاذ: ورودهم إليها: دخولهم فيها و لو تحلة القسم. روى ذلك عن ابن عباس و كان من دعائه: اللهم أزحني من النار سالماً و ادخلني الجنة غانماً. و هذا الوجه بعيد، لان الله قال «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» «٢» فبين تعالى أن من سبقت له الحسنى من الله يكون بعيداً من النار، فكيف يكون مبعداً منها مع أنه يدخلها. و ذلك متناقض، فإذا المعنى بورودهم أشرافهم عليها، و وصولهم اليها.

و قوله «كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا» معناه إن ورودهم الى جهنم على ما فسرناه حتم من الله و قضاء قضاء لا بد من كونه. و الحتم القطع بالأمر، و ذلك حتم من الله قاطع. و الحتم و الجزم و القطع بالأمر معناه واحد. و المقضى الذى قضى بأنه يكون.

ثم قال تعالى «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا» معاصى الله و فعلوا طاعاته من دخول النار «وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ» أى ندعهم فيها و نقرهم على حالهم «جثياً» باركين على ركبهم «فى جهنم». ثم قال «وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ» أى إذا قرئت على المشركين

(١) هو زهير ابن أبى سلمى. ديوانه (دار بيروت): ٧٨

(٢) سورة ٢١ الأنبياء آية ١٠١.

أدلة الله الظاهرة و حججه الواضحة «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بوحدانيته و جحدوا أنبياءه للذين صدقوا بذلك مستفهمين لهم و غرضهم الإنكار عليهم «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا» أى منزل اقامة فى الجنة او فى النار «وَأَحْسَنُ نَدِيًّا» أى مجلساً و قيل معناه أوسع مجلساً و احسن ندياً، فالندى المجلس الذى قد اجتمع فيه أهله، يقال: ندوت القوم اندوهم ندواً إذا جمعهم فى مجلس. و فلان فى ندى قومه و ناديهم بمعنى واحد و أصله مجلس الندى و هو الكرم، و قال حاتم:

و دعوت فى اولى الندى و لم

ينظر إلى بأعين خزر»١»

و المراد بالفريقين فريق المشركين و فريق المؤمنين، فيفتخرون على المؤمنين بكثرة نعمهم و حسن أحوالهم و حال مجلسهم، فقال الله تعالى «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئِيًّا» و الأثاث المتاع و الرئى المنظر، و هو قول ابن عباس.

و قال ابن الأحمر: واحد الأثاث اثاثه كحمام و حمامة. و قال الفراء: لا واحد له، و يجمع آتة و أثث. و يجوز فى «رئيا» ثلاثة أوجه فى العربية: رئيا بالهمز قبل الياء، و ريثا بياء قبل الهمزة و هو على قولهم راعنى على وزن راعنى، و ريا بترك الهمزة - فى قول الزجاج - و يجوز أن يكون من الزاى انشد لابن دريد:

اهاجتك الضغائن يوم بانوا

بذى الزى الجميل من الأثاث»٢»

ثم قال تعالى لنبيه (ص) «قُلْ» يا محمد «مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ» عن الحق و العدول عن اتباعه «فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا» أى يمدهم و يحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة، كما قال «وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «٣» و انما ذكر بلفظ الامر ليكون

(١) تفسير الطبرى ٧٧ / ١٦ و اللسان (خزر)

(٢) القرطبي ١١ / ١٤٣ و الشوكانى ٣ / ٣٣٦ و قد نسبوه الى (محمد بن نمير الثقفى) و روايته (اشاقتك) و يمكن أن يكون هذا غير ذاك.

(٣) سورة البقرة آية ١٥.

ص: ١٤٥

أكد كأنه ألزم نفسه إلزاماً كما يقول القائل: أمر نفسى، و يقول من زارنى فلاكرمه، فيكون ألزم من قوله أكرمه. و يجوز أن يكون أراد «فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا» فى عذابهم فى النار، كما قال «وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا» «١» و قوله «حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ» أى شاهدوا ما وعدهم الله به «إما العذاب» و العقوبة على المعاصى «و إما» القيامة و المجازاة لكل أحد على ما يستحقه «فسيعلمون» حينئذ و يتحققون «مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَ أضعفُ جُنْدًا» الكفار أم المؤمنين. و فى ذلك غاية التهديد فى كونهم على ما هم عليه. و قيل العذاب - هاهنا - المراد به ما وعد المؤمنون به من نصرهم على الكفار فيعذبونهم قتلا و اسراً، فسيعلمون

بالنصر و القتل انهم أضعف جنداً من جند النبي و المسلمين، و يعلمون بمكانهم من جهنم و مكان المؤمنين من الجنة، من هو شر مكاناً.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٧٤ الى ٨٠]

وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (٧٤) أَمْ فَارَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَ وَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَ نَرِيهِ مَا يَقُولُ وَ يُأْتِنَا فَرْدًا (٨٠)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى انه «يزيد الذين اهتدوا» الى طاعة الله و اجتناب معاصيه

(١) سورة ١٩ مريم آية ٨٠ (ج ٧ م ١٩ من التبيان)

ص: ١٤٦

«هدى» و وجه الزيادة لهم فيه ان يفعل بهم الألطاف التي يستكثرون عندها الطاعات بما يبينه لهم من وجه الدلالات و الأمور التي تدعو الى أفعال الخيرات.

و قيل: زيادة الهدى هو بايمانهم بالناسخ و المنسوخ. و اخبر تعالى أن «الباقيات الصالحات» و هي فعل جميع الطاعات و اجتناب جميع المعاصي. و قيل: هو قول: سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله اكبر و لله الحمد، و

روى عن أبي عبد الله (ع) أن الباقيات الصالحات القيام آخر الليل لصلاة الليل و الدعاء في الاسحار.

و سميت باقيات بمعنى أن منافعتها تبقى و تنفع أهلها في الدنيا و الآخرة، بخلاف ما نفعه مقصور على الدنيا فقط. و قوله «خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا» أى أكثر ثواباً من غيرها. و قيل معناه خير ثواباً من مقامات الكفار التي لها عندهم الافتخار. و قيل: خير من اعمال الكفار على تقدير: إن كان فيها خير. و قوله «وَ خَيْرٌ مَرَدًّا» أى خير نعيماً ترده الباقيات الصالحات على صاحبه، كأنه ذاهب عنه لفقده له، فترده عليه حتى يجده في نفسه.

و قوله «أَمْ فَارَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا، وَ قَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَ وَلَدًا» قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي - في قول ابن عباس، و خباب ابن الأرت، و مجاهد - و قال الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة، فانه قال - استهزاء - لأوتين مالا و ولداً في الجنة، ذكره الكلبي. و قيل أراد في الدنيا، يعنى إن أقمت على دين آبائى و عبادة آلهتى «لأوتين مالا و ولداً».

و قرأ حمزة و الكسائي «و ولداً» بضم الواو. الباقون بفتحها. و قيل في ذلك قولان:

أحدهما - انهما لغتان كالعدم و العدم، و الحزن و الحزن، قال الشاعر:

فليت فلاناً كان في بطن أمه
و ليت فلاناً كان ولد حمار «١»

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٨١ و القرطبي ١١ / ١٤٦، ١٥٥ و تفسير الشوكاني ٣ / ٣٣٧

ص: ١٤٧

و قال الحارث بن حلزة:

و لقد رأيت معاشراً
قد ثمروا مالا و ولدا «١»

و قال رؤبة:

الحمد لله العزيز فردا
لم يتخذ من ولد شيء ولدا «٢»

و الثاني - إن (قيساً) تجعل (الولد) بالضم جمعاً، و بالفتح واحداً، كقولهم: اسد و اسد، و وثن و وثن.

فقال الله تعالى «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» أى اشرف على علم الغيب و عرفه حتى قال ما قال؟! و هذه الف الاستفهام دخلت على الف الوصل المكسورة فسقطت المكسورة مثل «أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ» «٣» و قوله «أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» قال قتادة:

معناه آتخذ عهداً للرحمن بعد صالح قدمه؟. و قال غيره: معناه «أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» أى قولاً قدمه اليه بما ذكره.

ثم قال تعالى «كَلَّا» أى حقاً و هو قسم «سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ» أى ننبئه ليوافق عليه يوم القيامة «وَنُمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا» أى نُؤخر عنه عذابه، و لا نعاجله.

و يجوز أن يكون المراد إنا نطيل عذابه.

و قوله «و نَرْتُهُ مَا يَقُولُ» قال ابن عباس و قتادة و ابن زيد: نرثه نحن المال و الولد بعد إهلاكنا إياه و إبطالنا ما ملكناه «و يَأْتِينَا فَرْدًا» أى يجيئنا يوم القيامة فرداً لا أحد معه، و لا شىء يصحبه.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٨١ الى ٨٥]

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥)

(١) نفس المصادر المتقدمة فى الصفحة قبلها.

(٢) تفسير الطبرى ٨١ / ١٦

(٣) سورة ٣٧ (الصافات) آية ١٥٣

ص: ١٤٨

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن نهيك «كلا سيكفرون»- بضم الكاف- بمعنى جميعاً سيكفرون. الباقيون بفتح الكاف.

اخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم و وصفهم بأنهم «اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً» عبدوها و وجهوا عبادتهم نحوها «لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» و الاتخاذ أعداد الشىء لىأتيه فى العاقبة، فهؤلاء اتخذوا الآلهة ليصيروا الى العز فصاروا بذلك الى الذل، فسخط الله عليهم و أذلهم. و العز الامتناع من الضيم عزّ يعزّ عزاً، فهو عزيز أى منيع من أن ينال بسوء. فقال الله تعالى «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ» أى حقاً ليس الأمر على ما قالوه بل سيكفرون بعبادتهم. و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- إن معناه سيجحدون أن يكونوا عبدوها، لما يرون من سوء عاقبتها.

و هذا جواب من أجاز وقوع القبائح و الكذب من أهل الآخرة.

الثانى - سيكفرون ما اتخذوه آلهة بعبادة المشركين لها، كما قال الله تعالى «تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ» «١» أى بأمرنا و إرادتنا «و يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- قال مجاهد: يكونون عوناً فى خصومتهم و تكذيبهم.

الثانى - قال قتادة يكونون قرناءهم فى النار يلعنونهم و يتبرءون منهم.

ثم قال تعالى لنبيه (ص) (ألم تر) يا محمد (أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) أى لما سلط الكفار الشياطين على نفوسهم و قبلوا منهم و اتبعوهم خلينا بينهم و بينهم حتى أغووهم، و لم نحل بينهم بالإلجاء، و لا بالمنع، و عبر عن ذلك بالإرسال على ضرب من المجاز. و مثله قوله (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) «١» و يحتمل ان يكون أراد به يرسل الشياطين عليهم فى النار بعد موتهم يعذبوهم و يلعنونهم، كما قال (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ) «٢» و يقال أرسلت الباز و الكلب على الصيد إذا خليت بينه و بينه. و قوله «تَوَزُّؤُهُمْ أَزًّا» أى تزعجهم ازعاجاً. و الاز الإزعاج الى الامر، أزه أزاً و أزيماً إذا هزه بالازعاج الى أمر من الأمور.

ثم قال تعالى «فَلَا تَعْجَلْ» على هؤلاء الكفار «إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا» الأيام و السنين. و قيل الأنفاس.

و قوله (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدَاءً) أى اذكر يوم نحشر الذين اتقوا معاصى الله و فعلوا طاعاته الى الرحمن وفداءً أى ركبناً فى قدومهم، و وحده لأنه مصدر وفد، و يجمع وفوداً، تقول: وفدت أفد وفداً فأنا وفاد. و قيل: انهم يؤتون بنوق لم ير مثلها، عليها رجال الذهب و أزمتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يصيروا الى أبواب الجنة - فى قول ابن عباس - و قيل: معناه يحشروهم الله جماعة جماعة.

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٨٦ الى ٩٢]

وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخْرُ الْجِبَالُ هُدًّا (٩٠)

أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)

قرأ الكسائي و نافع (يكاد) بالياء. الباقر بالتاء. و قرأ ابن كثير و نافع و الكسائي و حفص (ينفطرن) بياء و تاء من: تظفر يتظفر
تظفراً. الباقر (ينفطرن) من انظر كقوله (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ). و تظفر مطاوع فطر. و التشديد يفيد التكثر اخبر الله تعالى أنه
يسوق المجرمين الى جهنم ورداً يوم القيامة. و السوق الحث على السير، ساقه يسوقه سوقاً، فهو سائق و منه الساق، لاستمرار
السير بها، و منه السوق لأنه يساق به البيع و الشراء شيئاً بعد شيء. و قال الفراء: يسوقهم مشاة. و قال الأخفش: عطاشاً. و قيل
افراداً. و معنى (وردأ) أى عطاشاً، كالإبل التى ترد عطاشاً الماء، إلا أن هؤلاء يمنعون منه، لأنه لا يشرب من الحوض الا مؤمن.
و هو قول ابن عباس و الحسن و قتادة.

و قوله (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ) أى لا يقدرون عليها، و الملك القدرة على ماله التصرف فيه أن يصرفه أتم التصريف فى الحقيقة أو
الحكم.

و قوله (إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) أى عملاً صالحاً- فى قول ابن جريج- فموضع (من) نصب على أنه استثناء منقطع، لأن
المؤمن ليس من المجرمين. و قد قيل: انه نصب على حذف اللام بمعنى لا يملك المتقون الشفاعة إلا لمن اتخذ عند الرحمن

ص: ١٥١

عهداً. و العهد المراد به الايمان. و الإقرار بوحدانيته و تصديق أنبيائه، فان الكفار لا يشفع لهم. و قال الزجاج (من) فى موضع
رفع بدلا من الواو و النون فى قوله (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ). و المعنى لا يملك الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً و هو
الايمان.

ثم اخبر تعالى عن الكفار بأنهم (قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) كما قال النصارى:

إن المسيح ابن الله، و اليهود قالت عزيز ابن الله. فقال الله لهم على وجه القسم (لَقَدْ جِئْتُمْ) بهذا القول (شَيْئًا إِدًّا) أى منكراً
عظيماً- فى قول ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابن زيد، قال الراجز:

داهية دهياء إدّاً إمراً» ١

لقد لقي الاعداء منى نكراً

و قال الآخر:

فى لهب منه و حبل إد» ٢

ثم قال تعالى تعظيماً لهذا القول «تَكَادُ السَّمَاوَاتُ» و قرئ بالتاء و الياء. فمن قرأ بالتاء فلتأنيث السموات و من ذكر، فلأن التأنيث غير حقيقي. و قال ابو الحسن:

معنى تكاد السموات تريد كقوله «كِدْنَا لِيُوسُفَ» أى أردنا، و انشد:

كادت و كدت و تلك خير إرادة لو عاد من لهو الصباية ما مضى «٣»

و مثله قوله تعالى (أَكَادُ أَحْفِيهَا) أى أريد و معنى (تكاد) فى الآية تقرب لان السموات لا يجوز ان يتفطرن و لا يردن لذلك، و لكن هممن بذلك، و قربن منه اعظماً لقول المشركين. و قال قوم: معناه على وجه المثل، لان العرب تقول إذا أرادت امرأ عظيماً منكرأ: كادت السماء تنشق و الأرض تنخسف، و أن يقع السقف.

(١) مر تخريجه فى ٧ / ٧٣ من هذا الكتاب

(٢) تفسير الطبرى ١٦ / ٨٦

(٣) تفسير القرطبي ١١ / ١٨٤ و هو فى مجمع البيان ٣ / ٥٣٠

ص: ١٥٢

فلما افتروا على الله الكذب، ضرب الله المثل لكذبتهم بأهول الأشياء، و قريب من هذا قول الشاعر:

ألم تر صدعاً فى السماء مبيناً على ابن لبيني الحارث بن هشام «١»

و قريب منه ايضاً قول الشاعر:

و أصبح بطن مكة مقشعراً كان الأرض ليس بها هشام «٢»

و قال آخر:

و قال آخر:

لما اتى خبر الزبير تواضعت

سور المدينة و الجبال الخشع «٤»

و قال قوم: المعنى لو كان شيء يتفطر استعظماً لما يجرى من الباطل لتفطرت السموات و الأرض استعظماً، و استنكاراً لما يضيفونه الى الله تعالى من اتخاذ الولد، و مثله قوله «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» «٥» و معنى يتفطرن يتشققن و الانفطار الانشقاق فى قول ابن جريج، يقال: فطر ناب البعير إذا انشق، و قرئ ينفطرن بمعنى يتشققن منه، يعنى من قولهم اتخذ الرحمن ولداً، و المراد بذلك تعظيماً و استنكاراً لهذا القول، و انه لو كانت السموات يتفطرن تعظيماً لقول باطل لانشقت لهذا القول، و لو كانت الجبال تخر لأمر، لخرت لهذا القول. و (الهدى) تهدم بشدة صوت.

و قوله «أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا» أى لأن دعوا، أو من ان دعوا، او المعنى ان السموات تكاد ينفطرن و الجبال تنهد و الأرض تنشق لدعواهم لله ولداً، أى

(١) مر هذا البيت فى ٣٠٧ / ٦

(٢) مجمع البيان ٥٣٠ / ٣

(٣) مر تخريجه فى ٣٠٧ / ٦

(٤) مر تخريجه فى ٣١٢ ، ٢٠٤ / ١

(٥) سورة ١٣ الرعد آية ٣٣

ص: ١٥٣

لتسميتهم له ولداً، فهؤلاء سموا لله ولداً كما جعلوا المسيح ابن الله. و المشركون جعلوا الملائكة بنات الله. و قيل: معناه ان جعلوا للرحمن ولداً، لان الولد يستحيل عليه تعالى.

ثم اخبر تعالى انه لا ينبغي له ان يتخذ ولداً، و لا يصلح له، كما قال ابن احمر:

فى رأس حلقاء من عنقاء مشرفة
ما ينبغي دونها سهل و لا جبل «١»

و قال الآخر فى الدعاء بمعنى التسمية:

ألا ربّ من تدعو نصيحاً و إن تغب
تجده بغيب غير منتصح الصدر «٢»

و قال ابن احمر ايضاً:

هوى لها مشقفاً حشراً فشبّرقها
و كنت أدعو قذاها الإئتمد الفرد «٣»

قوله تعالى: [سورة مريم (١٩): الآيات ٩٣ الى ٩٨]

إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧)

وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

ست آيات بلا خلاف.

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ٥٦، ٨٧

(٢) تفسير الطبرى ١٦ / ٨٧

(٣) تفسير الطبرى ١٦ / ٨٧ (ج ٧ م ٢٠ من التبيان)

يقول الله تعالى ليس كل من فى السموات و الأرض من العقلاء إلا و هو يأتى الرحمن عبداً مملوكاً لا يمكنهم جرده، و لا الامتناع منه، لأنه يملك التصرف فيهم كيف شاء. ثم قال تعالى إنه «لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا» أى علم تفاصيلهم و أعدادهم فكأنه عددهم، لا يخفى عليه شىء من أحوالهم. ثم قال: و جميعهم يأتى الله يوم القيامة فرداً مفرداً، لا أحد معه و لا ناصر له و لا أعوان، لان كل احد مشغول بنفسه لا يهتمه هم غيره. ثم قال تعالى «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى آمنوا بالله و وحدانيته و صدقوا أنبياءه، و عملوا بالطاعات سيجعل الله لهم وداً أى سيجعل بعضهم يحب بعضاً، و فى ذلك أعظم السرور و أتم النعمة، لأنها كمحبة الوالد لولده البار به. و قال ابن عباس و مجاهد: «سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» فى الدنيا. و قال الربيع بن أنس إذا أحب الله عبداً طرح محبته فى قلوب أهل السماء، و فى قلوب أهل الأرض. ثم قال لنبية (ص) «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلسَانِكَ» يعنى القرآن «لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ» لمعاصى الله بالجنة «وَ تُنذِرَ بِهِ» أى تخوف به (قَوْماً لُدًّا) أى قوماً ذوى جدل مخاصمين - فى قول قتادة - و هو من اللدد، و هو شدة الخصومة، و منه قوله تعالى «وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» «١» أى أشد الخصام خصومة و هو جمع ألد، ك (أصم، و صم) قال الشاعر:

إن تحت الأحجار حزماً و عزماً
و خصيماً ألدّاً معلاق «٢»

ثم اخبر الله تعالى فقال «وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ» أى هل تدرك احداً منهم «أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً» قال ابن عباس و قتادة و الضحاک: الرکز الصوت. و قال ابن زيد: هو الحسّ، و المراد - هاهنا - الصوت، و منه الرکز، لأنه يحسّ به حال من تقدم بالكشف عنه، قال الشاعر:

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٠٤

(٢) قائله المهلهل. اللسان (علق) و رايته (وجوداً) بدل (و عزماً)

عن ظهر غيب و الأنيس سقامها «١»

فتوجست رکز الأنيس فراعها

و المعنى: إنا قد أهلكنا امماً كثيرة أعظم منهم كثرة، و اكثر أموالا و أشد خصاماً فلم يغنهم ذلك لما أردنا إهلاكهم، فكيف ينفع هؤلاء ذلك، و هم أضعف منهم فى جميع الوجوه، و بين ان حكم هؤلاء حكم أولئك فى ان لا يبقى لهم عين و لا أثر

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ٨٩.

ص: ١٥٧

٢٠- سورة طه

و هى مكية فى قول قتادة و مجاهد. و هى مائة و خمس و ثلاثون آية فى الكوفى و اربع فى المدنيين و اثنان فى البصرى.

[سورة طه (٢٠): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن ليشقى (٢) إلا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلاً ممن خلق الأرض و السماوات العلى (٤)

الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى (٥)

خمس آيات فى الكوفى، لأنهم عدوا (طه) آية و أربع فى الباقيين.

قرأ ابو عمرو (طه) بفتح الطاء و امالة الهاء. و قرأ حمزة و الكسائى و خلف و ابو بكر إلا الأعشى و البرجمى بامالتهما. الباقيون بفتحهما. و قرأ عيسى بن عمر ضد قراءة أبى عمرو- بكسر الطاء و فتح الهاء- و قرأ الحسن بإسكان الهاء، و فسره يا رجل.

و قرأ ابو جعفر بتقطيع الحروف، و رواه الأصمعى عن نافع، و روى عن نافع بين

ص: ١٥٨

الكسر و الفتح فى الحرفين، و روى الفتح فيهما، و هو الأظهر.

فمن فخم فلأنها لغة النبى (ص) و هى لغة اهل الحجاز، و من أمال، فهو حسن. قال ابو عمرو: أملت الهاء لئلا تلتبس بهاء الكناية. و قد بينا فى أول سورة البقرة معنى أوائل السور و اختلاف الناس فيه، و أن أقوى ما قيل فيه: إنها اسماء للسور و مفتاح لها. و قال قوم: هو اختصار من كلام خص بعلمه النبى صلى الله عليه و آله.

و قال ابن عباس و سعيد بن جبير و الحسن و مجاهد: معنى (طه) بالسريانية يا رجل.

و منهم من قال هو بالنبطية. و قال الحسن: هو جواب المشركين لما قالوا: انه شقى فقال الله تعالى يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، و قيل: إن طه بمعنى يا رجل في لغة عكّ و انشد لمتمم بن نويرة:

هتفت بظه في القتال فلم يجب
فخفت عليه ان يكون موثلاً «١»

و قال آخر:

إن السفاهة طه من خلاتكم
لا بارك الله في القوم الملاعين «٢»

و من قرأ (طه) بتسكين الهاء تحتمل قراءته أمرين:

أحدهما- ان تكون الهاء بدلا من همزة طاء، كقولهم في أرقب هرقب، و الآخر ان يكون على ترك الهمز (ط) يا رجل، و تدخل الهاء الوقف. و الشقاء استمرار ما يشق على النفس، يقال: شقى يشقى شقاً، و هو شقى و نقبض الشقاء السعادة.

و قيل في قوله «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» قولان:

أحدهما- قال مجاهد و قتادة: إنه نزل بسبب ما كان يلقي من التعب و السهر في قيام الليل.

(١) تفسير الطبري ١٦ / ٩٠ و القرطبي ١١ / ١٦٥ و الشوكاني ٣ / ٣٤٣

(٢) تفسير الطبري ١٦ / ٩٠ و القرطبي ١١ / ١٦٦ و الكشاف ٣ / ٣٩

ص: ١٥٩

و الثاني- قال الحسن: انه جواب للمشركين لما قالوا: انه شقى.

و قوله «إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى» معناه لكن أنزلناه تذكرة أى ليتذكر به من يخشى الله و يخاف عقابه، يقال: ذكره تذكيراً و تذكرة، و مثله «و ما لأحد عنده من نعمة تُجزى إلا ابتغاء وجه ربه، و ما فعله إلا ابتغاء وجه ربه، و مثله قول القائل: ما جئت لأسوءك إلا إكراماً لزيد، يريد ما جئت إلا إكراماً لزيد، و كذلك المصادر التي تكون عللاً لوقوع الشيء نحو جئتك ابتغاء الخير أى لابتغاء الخير. و قوله «تَنْزِيلًا مِّمَّنْ» معناه نزل تنزيلاً. و قيل تقديره «إِلَّا تَذْكِرَةً ... تَنْزِيلًا مِّمَّنْ»

خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى» أى أبدعهن وأحدثهن و «العلی» جمع علیا، مثل ظلمة و ظلم، و ركة و ركب، و مثل الدنيا و الدنى.

و القصوى و القصى.

و قوله «الرحمن» رفع بأنه خير مبتدأ، لأنه لما قال «تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ» بينه فكأنه قال: هو الرحمن، كقوله «بَشْرًا مِّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ» «٢» و قال ابو عبيدة: تقديره «ما أنزلنا عليك القرآن... إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَنْ يَخْشَى» لا لتشقى. [و يحتمل أن يكون المراد ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى] «٣» و ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى.

«الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- انه استولى عليه، و قد ذكرنا فيما مضى شواهد ذلك.

الثانى - قال الحسن «استوى» لطفه و تدبيره، و قد ذكرنا ذلك أيضاً فيما مضى، و أوردنا شواهد فى سورة البقرة «٤» فأما الاستواء بمعنى الجلوس على الشيء

(١) سورة ٩٢ الليل آية ١٩ - ٢٠

(٢) سورة ٢٢ الحج آية ٧٢

(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

(٤) فى تفسير آية ٢٩ من سورة البقرة، المجلد الاول صفحة ١٢٤

ص: ١٦٠

فلا يجوز عليه تعالى، لأنه من صفة الأجسام، و الأجسام كلها محدثة. و يقال: استوى فلان على مال فلان و على جميع ملكه أى احتوى عليه. و قال الفراء: يقال: كان الأمر فى بنى فلان ثم استوى فى بنى فلان أى قصد اليهم و ينشد:

ثوانى و استوين من النجوع «١»

أقول و قد قطع بنا شرورى

أى خرجن و اقبلن

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٦ الى ١٠]

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى إن «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى» المعنى انه مالك لجميع الأشياء و اجتزى بذكر بعض الأشياء عن ذكر البعض لدلالته عليه، كما قال «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ» «٢» و لم يقل و على ظهورهم، لان المفهوم انهم يذكرون الله على كل حال. و مثله قوله «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» «٣»

(١) لم أجده في مظانه، و هذه رواية المخطوطة أما المطبوعة فإنها اشارت الى خلاف في روايته كما يلي: (ظعن) بدل (قطعن) و (سروراً) بدل (شرورى) و (سوامد) بدل (ثوانى) و (الضجوع) بدل (النجوع)

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٩١

(٣) سورة ٩ التوبة آية ٦٣

ص: ١٦١

لما كان رضا أحدهما رضا الآخر، و مثله قوله «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» «١» و لم يقل ينفقونها لدلالته على ذلك و «الثرى» التراب الندى، فله تعالى «مَا تَحْتَ الثَّرَى» الى حيث انتهى، لأنه مالكة و خالقه و مدبره، و كل شىء ملكه يصح، و الله تعالى مالكة بمعنى أن له التصرف فيه كيف شاء.

و قوله «وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى» معناه و إن تجهر بالقول لحاجتك لسمعه أى تجهر به، فانه تعالى يعلم السر و أخفى من السر. و لم يقل و أخفى منه، لأنه دال عليه، كما يقول القائل: فلان كالقيل أو أعظم، و هذا كالحبة أو أصغر.

و الجهر رفع الصوت يقال: جهر يجهر جهراً، فهو جاهر و الصوت مجهور، و ضده الهمس. و (السر) ما حدث به الإنسان غيره فى خفية، و أخفى منه ما أضمره فى نفسه و لم يحدث به غيره- هذا قول ابن عباس- و قال قتادة و ابن زيد و سعيد بن جبير: السر ما أضمره العبد فى نفسه. و أخفى منه ما لم يكن و لا أضمره أحد. و قال قوم: معناه يعلم السر و الخفى. و ضعف هذا لأنه ترك الظاهر و عدول بلفظة (أفعل) الى غير معناها من غير ضرورة، و لان حمله على معنى أخفى أبلغ إذا كان بمعنى أخفى من السر، فاما قول الشاعر:

تمنى رجال ان أموت و إن امت

فتلك سبيل لست فيها بأوحد»٢»

انما حمل على ان المراد (بأوحد) احد، لان الوحدة لا يقع فيها تعاضم، فأخرجه الشاعر مخرج ما فيه تعاضم ورد المعنى الى الواحد. ثم اخبر تعالى بانه «اللّه» الذى تحقق له العبادة «لا إله» يحق له العبادة «إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» و انما ذكر الحسنى بلفظ التوحيد و لم يقل الاحاسن، لان الأسماء مؤنثة يقع عليها (هذه) كما

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٥

(٢) تفسير الطبرى ١٦/٩٣ (ج ٧ من ٢١ من التبيان)

ص: ١٦٢

يقع على الجماعة (هذه) كأنه اسم واحد للجميع قال الشاعر:

و سوف يعتنبيه إن ظفرت به
رب كريم و بيض ذات اطهار»١»

و فى التنزيل «حَدَائِقُ ذَاتَ بَهْجَةٍ» «٢» «و مَآرِبُ أُخْرَى» «٣» فقد جاز صفة جمع المؤنث بصفة الواحد.

و قوله و هل «أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى» خطاب للنبي (ص) و تسلية له مما ناله من أذى قومه. و التثبيت له بالصبر على امر ربه، كما صبر اخوه موسى (ع) حتى نال الفوز فى الدنيا و الآخرة.

و قوله «إِذْ رَأَى نَارًا» اى حديث موسى حين رأى ناراً «فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا» اى البثوا مكانكم «إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» اى رأيت ناراً. و الإيناس وجدان الشيء الذى يؤنس به، لأنه من الانس و يقال: آنس البازى إذا رأى صيداً قال العجاج:

آنس خربان فضاء فانكدر

وكان في شتاء، و قد امتنع عليه القدح و ضل عن الطريق، فلذلك قال «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» و قوله «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ» فالقبس الشعلة، و هو نار في طرف عود أو قصبه، يقول القائل لصاحبه: اقبسنى ناراً فيعطيه إياها في طرف عود أو قصبه أى لعل آتاكم بنار تصطلون به أو أجد من يدلنى على الطريق الذى أضللناه أو ما استدل به عليه و يقال اقبسته ناراً إذا أعطيته قبساً منها، و قبسته للعلم، فرق بين النوعين، و الأصل واحد و كلاهما يستضاء به.

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ٩٣ و مجمع البيان ٣ / ٤

(٢) سورة ٢٧ النمل آية ٦٠

(٣) سورة ٢٠ طه آية ١٨

ص: ١٦٣

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ١١ الى ١٥]

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) خمس آيات.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو «انى أنا ربك» بفتح الهمزة و الياء. الباكون بكسرها و سكون الياء إلا نافعاً فإنه فتح الياء. و قرأ ابن كثير و ابو عمرو و نافع و عاصم و حمزة و الكسائي «طوى» بضم الطاء مصروفاً. و روى بكسر الطاء غير مصروف ابو زيد عن أبى عمرو. و قال: هى أرض. و قرأ «و انا اخترناك» بالتشديد بالف حمزة، و أصله و انا اخترناك و النون و الالف نصب ب (إن) و (ان) مع ما بعدها فى موضع نصب بتقدير، نودى «إنا اخترناك». و قرأ الباكون «و أنا اخترتك» على التوحيد ف (أنا) رفع بأنه ابتداء و «اخترتك» خبره. و فى قراءة أبى «و إننى اخترتك» فهذه تقوى قراءة حمزة و الكسائي.

من لم يصرف «طوى» يجوز أن يكون اعتقد انه معدول عن (طاو) و هو معرفة، و يجوز أن يكون نكرة، لأنه اسم البقعة.

يقول الله تعالى لنبية (ص) إن موسى (ع) لما أتى النار التى آنسها نودى، فقيل له يا موسى. و النداء الدعاء على طريقة يا فلان، و هو مد الصوت بندا على هذه الطريقة

ص: ١٦٤

يقال: صوت نداء، و ذلك أنه بندا يمتد «إنى انا ربك» فيمن فتح الهمزة.

فالمعنى نودى بأنى أنا، و لما حذف الباء فتح. و من كسرهما فعلى الاستئناف أو على تقدير قيل له إني أنا ربك الذى خلقتك و دبرك «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» و انما علم موسى (ع) أن هذا النداء من قبل الله تعالى بمعجزة أظهرها الله، كما قال فى موضع آخر «نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ» حتى قيل له «يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» «١» و قيل السبب الذى لأجله أمر بخلع النعلين فيه قولان:

أحدهما -

ليباشر بقدميه بركة الوادى المقدس فى قول على (ع)

و الحسن و ابن جريج.

و قال كعب و عكرمة: لأنها كانت من جلد حمار ميت. و حكى البلخى أنه امر بذلك على وجه الخضوع و التواضع، لان التحفى فى مثل ذلك أعظم تواضعاً و خضوعاً.

و الخلع نزع الملبوس يقال: خلع ثوبه عن بدنه و خلع نعله عن رجله. و قد ينزع المسمار، فلا يكون خلعاً، لأنه غير ملبوس و يقال: خلع عليه رداءه كأنه نزع عن نفسه و ألبسه إياه. و الوادى سفح الجبل. و يقال للمجرى العظيم من مجارى الماء واد و أصله عظم الامر. و وديته إذا أعطيته ديته، لأنها عطية عن الأمر العظيم من القتل.

و المقدس المبارك - فى قول ابن عباس و مجاهد - و قيل هو المطهر، قال امرؤ القيس:

كما شبّرق الولدان ثوب المقدس «٢»

يريد بالمقدس: العابد من النصارى، كالقسيس و نحوه و (شبرق) أى شق.

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٣٠ - ٣١

(٢) شرح ديوانه: ١٢٠ و صدره:

فأدركنه يأخذن بالساق و النسا

و قيل فى معنى (طوى) قولان:

أحدهما- قال ابن عباس و مجاهد و ابن زيد: هو اسم الوادى.

و قال الحسن: لأنه طوى بالبركة مرتين، فعلى هذا يكون مصدر طويته طوى، و قال عدى بن زيد:

أعاذل ان اللوم فى غير كنهه علىّ طوى من غيك المتردد»١

و قوله «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ» اى اصطفتيك «فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» اليك من كلامى و اصغ اليه و تثبت «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» اى لا إله يستحق العبادة غيرى «فاعبدنى» خالصاً، و لا تشرك فى عبادتى احداً «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» اى لتذكرنى فيها بالتسبيح و التعظيم - فى قول الحسن و مجاهد- و قيل: معناه لأن أذكرك بالمدح و الثناء. و قيل المعنى متى ذكرت ان عليك صلاة كنت فى وقتها أو فات وقتها، فأقمها. و قرئ- بفتح الراء- قال أبو على: يحتمل أن يكون قلب الكسرة فتحة مع ياء الاضافة.

ثم اخبر الله تعالى بأن الساعة يعنى القيامة «آيَةً» اى جائية «أَكَادُ أَخْفِيهَا» معناه أكاد لا أظهرها لاحد- فى قول ابن عباس و الحسن و قتادة- اى لا أذكرها بأنها آية، كما قال تعالى «لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً» ٢» و قيل «أخفيها» بضم الألف بمعنى أظهرها، و انشد بيتاً لأمرئ القيس بن عباس الكندى:

فان تدفنوا الداء لا نخفه و إن تبعثوا الحرب لا تقعد»٣

فضم النون من نخفه- ذكره ابو عبيدة- قال أنشدنيه ابو الخطاب هكذا، و أنشده

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ٩٦ و مجمع البيان ٤ / ٤

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦

(٣) شرح ديوان امرئ القيس: ٧٧ و الطبرى ١٦ / ١٠٠ و القرطبي ١١ / ١٨٢ و الشوكانى ٣ / ٣٤٧ و غيرها

الفراء بفتح النون. و قال أبو بن كعب: المعنى «أَكَادُ أَخْفِيهَا» من نفسى. قال ابن الانبارى تأويله من نفسى «أَكَادُ أَخْفِيهَا» أى من قبلى، كما قال «تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ» «١». و قوله «لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» أى تجازى كل نفس بحسب عملها، فمن عمل الطاعات أثيب عليها، و من عمل المعاصى عوقب بحسبها

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ١٦ الى ٢٠]

فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَ أَهْسُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَ لِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَفْقَاهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قوله «فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا» نهى متوجه الى موسى من الله تعالى و المراد به جميع المكلفين، نهاهم الله ان يصددهم عن ذكر الساعة، و المجازاة فيها من لا يصدق بها من الكفار. و (الصدّ) الصرف عن الخير يقال: صدّه عن الايمان و صدّه عن الحق، و لا يقال: صدّه عن الشر، و لكن يقال: صرفه عن الشر، و منعه منه.

و قوله «وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ» يعنى من لا يؤمن بالقيامة و (الهوى) ميل النفس الى الشىء بأريحية تلحق فيه. و هواء الجو ممدود، و هوى النفس مقصور.

و قوله «فتردى» معناه فتهلك، يقال: ردى يردى ردى، فهو ردى. إذا هلك، أى ان صدت عن الساعة بترك التأهب لها هلكت، و تردى هلك بالسقوط.

و قوله «وَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى» قال الفراء: (تلك) تجرى مجرى (هذه) و هى بمعنى الذى و (بيمينك) صلته و تقديره، و ما الذى بيمينك يا موسى و أنشد:

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٩

ص: ١٦٧

أمنت و هذا تحملين طليق «١»

عدس ما لعباد عليك اماراة

يعنى الذى تحملين. و هو فى صورة السؤال لموسى عما فى يده اليمنى. و الغرض بذلك تنبيهه له عليها ليقع المعجز بها بعد التثبت فيها، و التأمل لها.

و قوله «قَالَ هِيَ عَصَايَ» جواب من موسى ان الذى فى يدي «عَصَايَ اتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا» فى مشيى «وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي» اى اخطب بها ورق الشجر اليابس لترعاه غنمى يقال: هش يهش هشاً: قال الراجز:

أهش بالعصا على اغنامى
من ناعم الأراك و البشام «٢»

(وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى) اى حوائج آخر من قولهم: لا أرب لى فى هذا أى لا حاجة. و للعرب فى واحدها ثلاث لغات: مأربة بضم الراء و فتهحا و كسرهما.

و قوله «قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى» حكاية عما امر الله تعالى موسى بأن يلقي العصا من يده و أن موسى ألقاها، فلما ألقاها صارت فى الحال حية تسعى، خرق الله العادة فيها و جعلها معجزة ظاهرة باهرة.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٢١ الى ٢٥]

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥)

خمس آيات بلا خلاف.

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ١٠٢ و اكثر كتب النحو يأتون به شاهداً على أن (هذا) أسم موصول بمعنى الذى.

(٢) تفسير الشوكانى ٣ / ٣٤٩ و القرطبي ١١ / ١٨٧ و الطبرى ١٦ / ١٠٢

ص: ١٦٨

اخبار الله تعالى أن العصا حين صارت حية تسعى خاف موسى منها فقال الله له «خذها» يا موسى فانا «سنعيدها» الى ما كانت أول شىء فى يدك عصى. و معنى «خذها» تناولها بيدك. و (الخوف) انزعاج النفس يتوقع الضرر، خافه خوفاً، فهو خائف و ذاك مخوف. و ضد الخوف الأمن و مثل الخوف الفزع و الذعر، و الاعادة ردّ الشىء ثانية الى ما كان عليه أول مرة. و مثل الاعادة التكرير و الترييد. و المعنى سنعيدها خلقتها الاولى، و قد يقال: الى سيرتها. و السيرة مرور الشىء فى جهة، من سار

يسير سيرة حسنة أو قبيحة. و كان مستمر على حال العصا فأعيدت الى تلك الحال. و نظير السيرة الطريقة. و قيل المعنى: سعيدها الى سيرتها، فانتصب بإسقاط الخافض.

و قوله «وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيِّضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» قيل فى معناه قولان: أحدهما - الى جنبك، قال الراجز:

اضمه للصدر و الجناح «١»

الثانى - الى عضدك و اصل الجنوح الميل، و منه جناح الطائر، لأنه يميل به فى طيرانه حيث شاء. و الجنب فيه جنوح الأضلاع. و اصل العضد من جهته تميل اليد حيث شاء صاحبها. و قال ابو عبيدة: الجناحان الناحيتان.

و قوله «تَخْرُجُ بَيِّضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» اى من غير برص - فى قول ابن عباس و مجاهد و الحسن و قتادة و السدى و الضحاك - و قوله «آيَةٌ أُخْرَى» قيل فى نصبها قولان: أحدهما - على الحال. و الاخر على المفعولية، اى نعطيك آية أخرى، فحذف لدلالة الكلام عليه، فالآية الاولى قلب العصا حية و الاخرى اليد البيضاء من غير سوء. و قيل انه أمره ان يدخل يده فى فمها فيقبض عليها، فادخل يده فى فمها

(١) تفسير القرطبي ١١ / ١٩١

ص: ١٦٩

فصارت يده بين الشعبتين اللتين كانتا فى العصا، و صارت الحية فى يده عصاً كما كانت.

و قوله (لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) معناه قلب العصا حية لنريك من آياتنا و حججنا الكبرى منها، و لو قال الكبير على الجمع كان وصفاً لجميع الآيات، و كان جائزاً.

ثم قال تعالى له (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ) اى امض اليه و ادعه الى الله، و خوفه من عقابه، فانه طغى، أى تجاوز قدره فى عصيان الله، و تجاوز به قدر معاصى الناس، يقال: طغى يطغى طغياناً، فهو طاغ، و نظيره البغى على الناس، و هم الطغاة و البغاة.

فقال عند ذلك موسى يا (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) اى وسع لى صدرى، و منه شرح المعنى اى بسط القول فيه.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠)

خمس آيات.

و هذا أيضاً اخبار عما سأل الله تعالى موسى، فانه سأل ان ييسر له أمره، أى يسهله عليه و يرفع المشقة عنه و يضع المحنة، يقال: يسره تيسيراً، فهو ميسر و نقيضه التعسير، و منه اليسر و اليسير. و الحل نفي العقد بالفرق، حله يحله حلاً، فهو حال و الشئ محلول. و ضد الحل العقد، و نظيره الفصل و القطع. و العقدة جملة مجتمعة يصعب حلها متفلكة، عقد يعقد عقداً و عقدة، فهو عاقد و الشئ معقود، (ج ٧ م ٢٢ من التبيان)

ص: ١٧٠

و يقال: انه كان فى لسان موسى (ع) رثة و هى التى لا يفصح معها بالحروف شبه التمتمة و غيرها. و قيل: إن سبب العقدة فى لسانه أنه طرح جمرة فى فيه لما أراد فرعون قتله، لأنه أخذ لحيته و هو طفل فنتفها، فقالت له آسية: لا تفعل، فانه صبي لا يعقل، و علامته انه أخذ جمرة من طست فجعلها فى فيه. ذكره سعيد بن جبير و مجاهد و السدى.

و قوله «يَفْقَهُوا قَوْلِي» أى يفقهوه إذا حللت العقدة من لسانى أفصحت بما أريد. و سألته أيضاً أن يجعل له وزيراً يؤازره على المضى الى فرعون و يعاضده عليه، و الوزير حامل الثقل عن الرئيس، مشتق من الوزر الذى هو الثقل، و اشتقاقه أيضاً من الوزر، و هو الذى يلجأ اليه من الجبال و المواضع المنيعه. و قوله «هَارُونَ أَخِي» قيل فى نصب (هارون) و جهان:

أحدهما - على انه مفعول (اجعل) الاول و (وزيراً) المفعول الثانى على جهة الخبر.

و الوجه الثانى - ان يكون بدلا من (وزيراً) و بياناً عنه. فقيل: ان الله حل اكثر ما كان بلسانه إلا بقيه منه بدلالة قوله «وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» «١» فى قول أبى على.

و قال الحسن: ان الله استجاب دعاءه، فحل العقدة من لسانه. و هو الصحيح، لقوله تعالى «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» و يكون قول فرعون «وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» «٢» انه لا يأتى ببيان يفهم كذباً عليه ليغوى بذلك الناس و يصرف به وجوههم عنه.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٣١ الى ٣٦]

أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى (٣١) وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)

(١، ٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥٢

ص: ١٧١

ست آيات.

قرأ ابن عامر وحده «اشدد به ازرى» بقطع الهمزة «و اشركه» بضم الألف. الباقون بوصل الهمزة الأولى، و فتح الثانية. فوجه قراءة ابن عامر: أنه جعله جزاء. الباقون جعلوه: دعاء. و ضم الف (اشركه) فى قراءة ابن عامر ضعيف، لأنه ليس اليه اشركه فى النبوة بل ذلك الى الله تعالى. و الوجه فتح الهمزة على الدعاء إلا ان يحمل على أنه أراد اشراكه فى أمره فى غير النبوة و ذلك بعيد، لأنه جاء بعده ما يعلم به مراد موسى، لأنه قال «وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي» «١» فقال الله تعالى «سَسُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ» «٢».

قوله «اشدُّدُ بِهِ أَزْرِي» فالشد جمع يستمسك به المجموع يقال: شده يشده شداً، فهو شاد و ذاك مشدود، و مثله الربط و العقد. و الأزر الظهر يقال: آزرنى فلان على أمرى أى كان لى ظهراً، و منه المئزر، لأنه يشد على الظهر، و الإزار لأنه يشد على الظهر، و التأزير لأنه تقوية من جهة الظهر. و يجوز ان يكون أزر لغة فى وزر، مثل أرخت و ورخت، و أكدت و وكدت. و قوله «وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» فلاشراك الجمع بين الشيتين فى معنى على انه لهما، يجعل جاعل. و قد أشرك الله بين موسى و هارون فى النبوة. و قوَى الله به أزره، كما دعاه.

و قوله «كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا» فالتسبيح التنزيه لله عما لا يجوز عليه من وصفه بما لا يليق به، فكل شيء عظم به الله بنفى ما لا يجوز عليه، فهو تسبيح، مثل:

سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله اكبر. و قوله «وَ نَذْكُرُكَ كَثِيرًا» معناه

(١، ٢) سورة ٢٨ القصص آية ٣٥-٣٦

ص: ١٧٢

نذكرك بحمدك و الثناء عليك بما أوليتنا من نعمك، و مننت به علينا من تحميل رسالتك «إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا» أى عالمًا بأحوالنا و أمورنا. فقال الله تعالى إجابة له «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» أى أعطيت مناك فيما سألته. و السؤال المنى فيما يسأله الإنسان، مشتق من السؤال. و يجوز بالهمز و ترك الهمز.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٣٧ الى ٤٤]

وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ الْفَيْتُ عَلَىكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَ لِتَصْنَعِ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)

ثمان آيات بلا خلاف. إلا أن في تفصيلها خلافاً لا تطول بذكره.

لما أخبر الله تعالى موسى بأنه قد آتاه ما طلبه وأعطاه سؤله، عدد ما تقدم

ص: ١٧٣

ذلك من نعمه عليه ومنه لديه. فقال «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى» و المنّ نعمة يقطع صاحبها بها عن غيره باختصاصها به. يقال: منّ عليه يمناً إذا أنعم عليه نعمة يقطعه إياها. وأصله القطع، ومنه قوله «لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» «١» أى غير مقطوع.

و حبل منين: أى منقطع. و المرة الكرة الواحدة من المر، و ذلك ان نعمة الله (عز و جل) عليه مستمرة، فذكره الاجابة مرة و قبلها مرة أخرى. و قوله (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى) أى كانت هذه النعمة عليك حين أوحينا الى أمك ما يوحى، قال قوم: أراد انه ألهمها ذلك. و قال الجبائي: رأيت فى المنام أن اذفيه فى التابوت، ثم اذفيه فى اليم، و القذف هو الطرح، و اليم البحر قال الراجز:

كنازح اليم سقاه اليم «٢»

و قيل: المراد به هاهنا النيل. و قوله «فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ» جزاء و خبر أخرج مخرج الامر و مثله «اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ» و التقدير فاطرحيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل. و قوله «يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ» يعنى فرعون. و كان عدواً لله بكفره وحدانيته و ادعائه الربوبية، و كان عدو موسى، لتصوره أن ملكه ينقرض على يده.

و قوله «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» معناه إني جعلت من رآك أحببك حتى أحببك فرعون، فسلمت من شره، و احببتك امرأته آسية بنت مزاحم فتبنتك.

و قوله (و لتصنع على عيني) قال قتادة: معناه لتغذى على محبتي و ارادتي، و تقديره و أنا أراك، يجرى أمرك على ما أريد بك من الرفاهة فى غذائك، كما يقول القائل لغيره: أنت منى بمرءاً و مستمع أى انا مراعى لاحوالك. و قوله «إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ» قيل ان موسى امتنع أن يقبل ثدى مرضعة

(٢) مر تخريجه في ٥٥٧ / ٤ من هذا الكتاب

ص: ١٧٤

الا ثدى امه لما دلتهم عليها أخته، فلذلك قال (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ).

وقوله «وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ» و

روى عن النبي (ص) أن قتله النفس كان خطأ.

و قال جماعة من المعتزلة: انه كان صغيرة. و قال أصحابنا: انه كان ترك مندوب اليه، لان الله تعالى قد كان حكم بقتله لكن ندبه الى تأخير قتله الى مدة غير ذلك، و انما نجاه من الفكر فى قتله، كيف لم يؤخره الى الوقت الذى ندبه اليه.

و قال قوم: أراد نجيناك من القتل لأنهم طلبوه ليقتلوه بالقبطى.

و قوله (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) أى اختبرناك اختباراً. و المعنى انا عاملناك معاملة المختبر حتى خلصت للاصطفاء بالرسالة، فكل هذا من اكبر نعمه. و قيل: الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة حتى خلصه الله منها: أولها- أن امه حملته فى السنة التى كان فرعون بذبح فيها الأطفال، ثم القاؤه فى اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدى امه، ثم جره لحية فرعون حتى هم بقتله، ثم تناوله الجمره بدل الدرّة، فدرأ الله بذلك. عنه قتل فرعون، ثم مجيء رجل من شيعته يسعى ليخبره بما عزموا عليه من قتله. و ذلك عن ابن عباس فالمعنى على هذا و خلصناك من المحن تخليصاً. و قيل معناه اخلصناك إخصاصاً. ذكره مجاهد.

و قوله «فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ» يعنى أقمت سنين عند شعيب، يعنى أحوالا اجيراً له ترعى غنمه، فمنا عليك و جعلناك نبياً حتى «جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ» أى فى الوقت الذى قدر لإرسالك، قال الشاعر:

نال الخلافة إذ كانت له قدراً
كما اتى ربه موسى على قدر «١»

و قال الجبائى معنى «وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا» أى شددنا عليك التعب فى أمر المعاش

(١) مر تخريجه فى ٣٠٧ / ١ من هذا الكتاب

ص: ١٧٥

حتى رعبت لشعيب عشر سنين، و يؤكد قوله «فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ» و هي مدينة شعيب «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» و قوله «وَ اصْطَنَعْتُكَ» أى اصطفتك بألطف التي فعلتها بك، اخترت عندها الإخلاص لعبادتي. و قوله «لنفسى» أى لتصرف على ارادتي و محبتي يقال: اصطنعه يصطنعه اصطناعاً، و هو (افتعال) من لصنع، و الصنع اتخاذ الخير لصاحبه. و وجه قوله «لنفسى» يعنى محبتي، لان المحبة لما كانت أخص شىء بالنفس حسن أن يجعل ما اختص بها مختصاً بالنفس على هذا الوجه.

و قوله «أَذْهَبُ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِي» أى بعلاماتي و حججى «وَ لَا تَتِيَا» أى لا تفترا، يقال: ونى فى الامر بنى ونياً إذا فتر فيه، فهو و ان و متوان. و قيل:

معناه لا تضعفا قال العجاج:

فما ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى و ما غير^(١)

و قوله «فِي ذِكْرِي. أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» أى عتا و خرج عن الحد فى المعاصى «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» معناه ادعوا الى الله و الى الايمان به و بما جئتما به، على الرجاء و الطمع، لا على اليأس من فلاحه. فوقع التعبد لهما على هذا الوجه، لأنه أبلغ فى دعائه الى الحق، بالحرص الذى يكون من الراجى للأمر. و قال السدى: معنى قوله «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا» أى كنياه. و قيل: انه كانت كنية فرعون أبا الوليد. و قيل: أبا مرة. و قيل: معناه و قرأه و قارياه. و قوله «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ» معناه ليتذكر «أو يخشى» معناه أو يخاف. و المعنى انه يكون أحدهما إما ذكر أو الخشية. و قيل المعنى على رجائكما او طمعكما. لأنهما لا يعلمان هل يتذكر لا. و (لعل) للترجى إلا انه يكون لترجى المخاطب تارة و لترجى المخاطب أخرى

(١) مر تخريجه فى ٤ / ٣٤٤ من هذا الكتاب

ص: ١٧٤

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٤٥ الى ٥٠]

قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَ أَرَى (٤٦) فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩)

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)

ست آيات بلا خلاف.

لما امر الله موسى و هارون (ع) أن يمضيا الى فرعون و يدعوا الى الله «قالا اننا نخاف أن يفرط علينا» و معناه ان يتقدم فينا بعذاب، و يعجل علينا، و منه الفارط المتقدم امام القوم الى الماء، قال الشاعر:

قد فرط العجل علينا و عجل «١»

و منه الافراط الإسراف، لأنه تقدم بين يدي الحق. و التفریط التقصير في الأمر، لأنه تأخير عما يجب فيه التقدم. فالأصل فيه التقدم «أَوْ أَنْ يَطْغَى» أو يعتو علينا و يتجبر، فقال الله تعالى لهما «لَا تَخَافَا» و لا تخشيا «إِنِّي مَعَكُمَا» أى عالم بأحوالكما، لا يخفى على شىء من ذلك، و إني ناصر لكما، و حافظ لكما «اسمع» ما

(١) تفسير الشوكاني ٣ / ٣٥٥ و القرطبي ١١ / ١٩٨

ص: ١٧٧

يقول لكما «وارى» ما يفعل بكما. و قال ابن جريج «إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ» ما يحاوركما به «و أرى» ما تجيئان به. فالسامع هو المدرك للصوت. و الرائي المدرك للمريثات. ثم أمرهما بأن يأتياه، و يقولوا له «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» بعنا الله اليك و الى قومك لندعوكم الى توحيد الله و اخلاص عبادته، و يأمرك أن ترسل «مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» اى تخليهم و تفرج عنهم، و تطلقهم من اعتقالك «و لَا تُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ» اى بمعجزة ظاهرة، و دلالة واضحة من عند ربك «و السلام» يعنى السلامة و الرحمة «عَلَى مَنْ اتَّبَع» طريق الحق و (الهدى)، و (على) بمعنى اللام و تقديره السلامة لمن اتبع. و المعنى ان من اتبع طريق الهدى سلم من عذاب الله.

و قوله (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا) معناه قولاً: (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ) بآيات الله و اعرض عن اتباعها. و فى الكلام محذوف، و تقديره فأتياه فقولا له ذلك. قال «فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى» و قيل: انه: قال فمن ربكما؟ على تغليب الخطاب، و المعنى فمن ربك و ربه يا موسى، فقال موسى مجيباً له «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» و معناه أعطى كل شىء حتى صورته التى قدر له ثم هداه الى مطعمه و مشربه و مسكنه و منكحه، الى غير ذلك من ضروب هدايته - فى قول مجاهد - و قيل: معناه أعطى كل شىء مثل خلقه من زوجة، ثم هداه لمنكحه من غير أن رأى ذكراً اتى أنتى قبل ذلك. و حذف المضاف و اقام المضاف اليه مقامه و غير ذلك من هدايته. و قرأ نصير عن الكسائي «خلقته» بفتح اللام و الخاء، على انه فعل ماض. الباقون بسكونها على انه مفعول به. و المعنى إنه خلق كل شىء على الهيئة التى بها ينتفع و التى هى أصلح الخلق له، ثم هداه لمعيشته و منافعه لدينه و دنياه.

(ج ٧ م ٢٣ من التبيان)

ص: ١٧٨

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٥١ الى ٥٥]

قَالَ فَمَا بِالْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولَى النَّهْيِ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة (مهدياً) على التوحيد. الباقر «مهادياً» على الجمع، وهو مثل فرش و فراش. و من قرأ «مهدياً» قال ليوافق رؤس الآي. و المعنى «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ» مستقراً يمكنكم من التصرف عليها. و قال الزجاج: القرن اهل كل عصر فيهم نبي أو إمام او عالم يقتدى به، و إن لم يكن واحد منهم لم يسم قرناً.

حكى الله تعالى ما قال فرعون لموسى «فَمَا بِالْقُرُونِ الْأُولَى» و هى الأمم الماضية، و كان هذا السؤال منه معاياة لموسى، فأجابه موسى بأن قال «عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي» لأنه لا يخفى عليه شيء من المعلومات. و قوله «فى كتاب» اى اثبت ذلك فى الكتاب المحفوظ لتعرفه الملائكة. و (الأولى) تأنيث (الأول) و هو الكائن على صفة قبل غيره. فإذا لم يكن قبله شيء، فهو قبل كل شيء، و أراد ذاك على ما فى معلوم الله من أمرها. و قيل انه أراد من يؤدبهم و يجازيهم. و قيل: ان معنى «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسَى» اى لا يذهب

ص: ١٧٩

عليه شيء، و العرب تقول لكل ما ذهب على الإنسان مما ليس بحيوان: ضله، كقولهم:

ضل منزله إذا أخطأه يضل به غير الف، فإذا ضل منه حيوان فيقولون: أضل - بألف بغيره أو ناقته أو شاته بالألف. و الأصل فى الاول ضل عنه. و قرأ الحسن «يضل» بضم الياء و كسر الضاد.

و قوله «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا» موضع (الذى) رفع بدل عن قوله «رَبِّي. وَ لَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا» أى جعله لكم مستقراً تستقرون عليه «وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا» معناه انه جعل لكم فى الأرض سبلا تسلكوا فيها فى حوائجكم من موضع الى موضع، و انهج لكم الطرق «وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى» كل ذلك من صفات قوله «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ» جميع ما ذكر صفاته. و قوله «كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ» لفظه لفظ الامر و المراد الاباحة.

وقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى) أى أن فى جميع ما عدناه دلالات لأولى العقول، و النهى جمع نهية نحو كسية و كسى، و هو شحم فى جوف الضب، و انما خص أولى النهى، لأنهم أهل الفكر و الاعتبار و أهل التدبير و الاعتاض. و قيل لهم: اهل النهى، لأنهم ينهون النفوس عن القبائح و قيل لأنه ينتهى الى رأيهم.

وقوله (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ) يعنى من الأرض خلقناكم و فى الأرض نعيدكم إذا امتناكم (وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) دفعة اخرى إذا حشرناكم.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أْبَى (٥٦) قَالَ أَ جِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠)

ص: ١٨٠

خمسة آيات بلا خلاف.

قوله (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا) تقديره أرسناه آياتنا التى أعطيناها موسى و أظهرناها عليه (كلها) لما يقتضيه حال موسى (ع) معه، و لم يرد جميع آيات الله التى يقدر عليها، و لا كل آية خلقها الله، لان المعلوم أنه لم يرد به جميعها. و قوله (فَكَذَّبَ وَ أْبَى) معناه نسب الخبر الذى أتاه الى الكذب (وَ أْبَى) امتنع مما دعى اليه من توحيد الله و اخلاص عبادته و الطاعة لما أمر به. و قال فرعون لموسى (أُ جِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى) و السحر حيلة يخفى سببها و يظن بها المعجزة، و لذلك يكفر المصدق بالسحر، لأنه لا يمكنه العلم بصحة النبوة مع تصديقه بأن الساحر يأتى بسحره بتغيير النبات. ثم قال فرعون لموسى (فلنأتينك) يا موسى (بسحر) مثل سحر (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى) أى عدنا مكاناً نجتمع فيه و وقتنا نأتى فيه (مَكَانًا سُوًى) أى مكاناً عدلاً بيننا و بينك - فى قول قتادة و السدى - و قيل معناه مستويًا يتبين الناس ما بيننا فيه - ذكره ابن زيد - و قيل:

معناه يستوى حالنا فى الرضا به. و فيه إذا قصر لغتان - كسر السين، و ضمها - و إذا فتحت السين مددته نحو قوله (إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ) «١» و مثله عدى و عدى. و طوى و طوى، و ثنى و ثنى. و قال أبو عبيدة: (سوى) النصف و الوسط قال الشاعر:

سوى بين قيس قيس غيلان و الفزر «٢»

و إن أبانا كان حل ببلدة

(١) سورة آل عمران آية ٦٤

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ١٩٨ و الطبري ١٦ / ١١٩

ص: ١٨١

قيس و فزر قبيلتان هنا. و الفزر القطيع من الشاء. و القيس الفردة. و القيس مصدر قاس خطاه قيساً إذا سوى بينها و يقال جارية تميس ميساً و تقيس قيساً، فمعنى تميس تتبختر. و سأل رجل اعرابياً: ما اسمك قال محمد، قال: و الكنية، قال: ابو قيس. قال قبحك الله أ تجمع بين اسم النبي و الفرد.

و قرأ ابن عامر و عاصم و حمزة (سوى) بضم السين، الباقون بالكسر.

فقال له موسى «مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ» و هو يوم عيد كان لهم - في قول قتادة و ابن جريج و السدى و ابن زيد و ابن إسحاق - و قال الفراء «يَوْمُ الزَّيْنَةِ» يوم شرف كانوا يتزينون بها. و قوله «وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى» يحتمل أن يكون في موضع رفع، و تقديره موعدكم حشر الناس. و يحتمل ان يكون في موضع جر و تقديره يوم يحشر الناس.

و قوله «فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ» أى اعرض عن موسى على هذا الوعد «فَجَمَعَ كَيْدَهُ» من السحر و «اتى» يوم الموعد. و قرأ هبيرة عن حفص عن عاصم «يوم» بفتح الميم على الظرف. الباقون بضمها على أنه خبر (موعدكم) فجعلوا الموعد هو اليوم بعينه.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٦١ إلى ٦٦]

قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوَصَفَّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥)

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)

ص: ١٨٢

ست آيات بلا خلاف.

قرأ «فيسحيتكم» - بضم الباء و كسر الحاء - أهل الكوفة إلا أبا بكر. الباقون بفتح الباء و الحاء. و هما لغتان. يقال: سحت و أسحت إذا استأصل. و قرأ ابو عمرو «إن هذين» بتشديد (إن) و نصب (هذين). و قرأ نافع و حمزة و الكسائي و ابو بكر عن عاصم - بتشديد (ان) و الالف في (هذان). و قرأ نافع و حمزة و الكسائي و أبو بكر عن عاصم - بتشديد (ان) و الالف في

(هذان). و قرأ ابن كثير (ان) مخففة (هذان) مشددة النون. و قرأ ابن عامر بتخفيف نون (إن) و تخفيف نون (هذان). و قرأ ابو عمرو وحده «فاجمعوا» بهمزة الوصل. الباقيون بقطع الهمزة من أجمعت الأمر إذا عزمت عليه، قال الشاعر:

يا ليت شعري و المنى لا تنفع
هل اغدون يوماً و أمرى مجمع «١»

و قيل: إن جمعت و أجمعت لغتان في العزم على الأمر يقال: جمعت الأمر، و أجمعت عليه، بمعنى أزمعت عليه و فى الكلام حذف، لان تقديره انهم حضروا و اجتمعوا يوم الزينة، فقال لهم حينئذ موسى يعنى للسحرة الذين جاءوا بسحرهم «لا تفتروا عَلَى اللَّهِ» اى لا تكذبوا عليه كذباً بتكذيبى، و تقولوا إن ما جئت به السحر. و الافتراء اقتطاع الخبر الباطل بإدخاله فى جملة الحق و أصله القطع من فراه يفريه قريباً. و افترى افتراء، و الافتراء و الافتعال و الاختلاق واحد و قوله «فَيْسُحَّتْكُمْ بَعْدَابٍ» قال قتادة و ابن زيد و السدى معناه فيستأصلكم بعداب. و السحت استقصاء الشعر فى الحلق: سحته سحتاً و اسحته

(١) مر تخريجه فى ٥ / ٤٦٨ من هذا الكتاب

ص: ١٨٣

اسحاتاً لغتان، قال الفرزدق:

و عض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال إلا مسحتاً أو مجلف «١»

و ينشد (مسحت) بالرفع على معنى لم يدع أى لم يبق. و من نصب قال أو مجلف، كذلك روى مسحتاً و مجلف. و سئل الفرزدق على ما رفعت إلا مسحتاً أو مجلف. فقال للسائل على ما يسوؤك و ينوؤك. و يقال: سحت شعره إذا استقصى حلقه. و المعنى إن العذاب إذا أتى من قبل الله أخذهم و اهلكهم عن آخرهم.

و قوله «وَ قَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى» أى انقطع رجاء من افترى الكذب. و الخيبة الامتناع على الطالب ما أمل، و الخيبة انقطاع الرجاء يقال: رجع بخيبة، و هو إذا رجع بغير قضاء حاجته. و أشد ما يكون إذا أمل خيراً من جهة، فانقلب شراً منها.

و قوله «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ» معناه اختلفوا فيما بينهم. و التنازع محاولة كل واحد من المختلفين نزع المعنى عن صاحبه، تنازعا فى الامر تنازعا، و نازعه منازعة.

و قوله «وَأَسْرُوا النَّجْوَى» أى اخفوها فيما بينهم. قال قتادة: انهم قالوا:

إن كان هذا ساحراً فسنگلبه، و إن كان من السماء، فله أمره. و قال: وهب بن منية: لما قال لهم «وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى» قالوا: ما هذا بقول ساحر. و قيل: أسرارهم كان أنهم قالوا: ان غلبنا موسى اتبعناه. و قيل أسروا النجوى دون موسى و هارون بقوله «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ...» الآية. و هو قول السدى. و قوله «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» قيل فيه أوجه:

أولها - إنه ضعف عمل (إن) لأنها تعمل و ليست فعلاً لشبهها بالفعل، و ليست

(١) مر تخريجه فى ٥٢٣ / ٣ و فى ديوان الفرزدق طبع (دار صادر، دار بيروت) ٢٦ / ٢ (مجرف) بدل (مجلف) و هو خطأ

ص: ١٨٤

بأصل فى العمل، كما انها لما خففت لم تعمل أصلاً.

و الثانى - «إن هذان» أشبه (الذين) فى البناء، لأن أصله الذى فزادوا نوناً للجمع، و تركوه على حالة واحدة فى النصب و الجر و الرفع. فكذلك كان أصله (هذا) فيه ألف مجهولة فزادوا نوناً للتثنية و تركوها على حالة واحدة فى الأحوال الثلاثة.

و الثالث - إن (ان) بمعنى (إنه) إلا انها حذفت الهاء.

و الرابع - انه لما حذفت الألف من (هذا) صارت ألف التثنية عوضاً منها، فلم تنزل على حالها. و هى لغة بنى الحارث بن كعب، و خثعم، و زبيد، و جماعة من قبائل اليمن. و قال بعض بنى الحارث بن كعب:

مساغاً لناباه الشجاع لصمما «١»

و اطرق اطراق الشجاع و لو يرى

و قال آخر:

قد بلغا فى المجد غايتها «٢»

إن أباه و أبا أباه

و قال آخر:

تزود منا بين أذناه ضربة

دعته الى هابى التراب عقيم «٣»

الخامس- و قال المبرد و إسماعيل بن إسحاق القاضى: أحسن ما قيل فى ذلك ان (ان) تكون بمعنى نعم و يكون تقديره نعم هذان لساحران، فيكون ابتداء و خبراً قال الشاعر:

ظل العواذل بالضحى

يلحيننى و ألومهنه

(١) تفسير القرطبي ٢١٥ / ١١ و تفسير الطبرى ١١٩ / ١٦

(٢) تفسير القرطبي ٢١٧ / ١١ و الشوكانى ٣ / ٣٦١

(٣) تفسير القرطبي ٢١٧ / ١١ و مجمع البيان ١٦ / ٤

ص: ١٨٥

و يقلن شيب قد علاك

و قد كبرت فقلت انه «١»

و وجه قراءة حفص انه جعل (إن) بمعنى (ما) و تقديره: ما هذان ساحران.

و روى ان ابن مسعود قرأ (ان هذان ساحران) بغير لام. و قرأ أبى (إن هذان إلا ساحران). و من جعل (ان) بمعنى (نعم) جعل حجته فى دخول اللام فى الخبر قول الشاعر:

خالى لانت و من جرير خاله

ينل العلا و تكرم الأخوال «٢»

و قال آخر:

ترضى من اللحم بعظم الرقبة «٣»

ام الحليس لعجوز شهرية

هذه الآية حكاية عن قول فرعون أنه قال لهم «إن هذين» يعنى موسى و هارون «لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى» قال مجاهد: معناه يذهبا بطريقة اولى العقل و الاشراف و الأنساب. و قال ابو صالح:

و يذهبا بسرارة الناس. و قال قتادة: و يذهبا ببني إسرائيل، و كانوا عدداً يسيراً. و قال ابن زيد: معناه و يذهبا بالطريقة التى أنتم عليها فى السيرة [و قيل: المعنى يذهبان بأهل طريقتكم المثلى. و الأمثل الأشبه بالحق الثابت، و الصواب الظاهر. و هو الاولى به] «٤».

و قال لهم فرعون ايضاً «فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ» فمن قطع الهمزة أراد فاعزموا على أمركم و كيدكم و سحركم. و قيل: جمع و أجمع لغتان فى العزم على الشىء يقال: جمعت

(١) تفسير القرطبي ٢١٨ / ١١ و مجمع البيان ١٥ / ٤

(٢) تفسير الشوكاني ٣ / ٤٣٣ و تفسير القرطبي ١١ / ٢١٩

(٣) تفسير القرطبي ١١ / ٢١٩

(٤) ما بين القوسين كان فى المطبوعة متأخراً عن موضعه مع اخطاء كثيرة فيه (ج ٧ م ٢٤ من التبيان)

ص: ١٨٦

الأمر و أجمعت عليه.

«ثُمَّ أَتْتُوا صَفًّا» و معناه مصطفين. و قال الزجاج: هو كقولهم: أتيت الصف أى الجماعة. و لم يجمع (صفاً) لأنه مصدر. و قال قوم: إن هذا من قول فرعون للسحرة. و قال آخرون: بل هو من قول بعض السحرة لبعض.

و قوله «وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى» معناه قد فاز اليوم من علا على صاحبه بالغلبة. و «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى» حكاية عما قالت السحرة لموسى فإنهم خيروه فى الإلقاء بين أن يلقوا أولاً ما معهم أو يلقي موسى عصاه، ثم يلقون ما معهم، فقال لهم موسى «بل القوا» أنتم ما معكم «فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَ عَصِيَّتُهُمْ» أى القوا ما معهم، فإذا حبالهم و عصيتهم. و

حبال جمع حبل، و عصى جمع عصا، و يجع الحبل حبلًا و العصى أعصيا و يننى عصوان. و انما أمرهم بالإلقاء، و هو كفر منهم، لأنه ليس بأمر، و انما هو تهديد. و معناه الخبر، بان من كان إلقاءه منكم حجة عنده ابتداءً بالإلقاء، ذكره الجبائي. و قال قوم: يجوز أن يكون ذلك أمراً على الحقيقة أمرهم بالإلقاء على وجه الاعتبار، لا على وجه الكفر.

و قيل كان عدّة السحرة سبعين ألفاً- فى قول القاسم بن أبى برة و قال ابن جريج:

كانوا تسعمائة.

و قوله «فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى» و انما قال يخيل، لأنها لم تكن تسعى حقيقة، و انما تحركت، لأنه قيل إنه كان جعل داخلها زئبق، فلما حميت بالشمس طلب الزئبق الصعود، فتحركت العصى و الحبال، فظن موسى أنها تسعى. و قوله «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ» قيل الى فرعون. و قيل الى موسى. و هو الأظهر.

لقوله «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى» و انما خاف دخول الشبهة على قومه. و قيل خاف بطبع البشرية.

ص: ١٨٧

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٤٧ الى ٧٠]

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى (٤٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٤٨) وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٤٩) فَالْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (٧٠)

اربع آيات.

قرأ ابن عامر «تلقف» بتشديد القاف و رفع الفاء. و قرأ حفص عن عاصم ساكنة الفاء مجزومة خفيفة القاف. الباقون مشددة القاف مجزومة الفاء. و قرأ حمزة و الكسائي «كيد سحر» على (فعل) الباقون «ساحر» على (فاعل) قال ابو على: حجة من قال (ساحر) أن الكيد للساحر، لا للسحر إلا أن يريد كيد ذى سحر، فيكون المعنيان واحداً، و لا يمتنع ان يضاف الكيد الى السحر مجازاً. قوله «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى» قيل فى وجه خيفته قولان:

أحدهما- قال الجبائي و البلخي خاف أن يلتبس على الناس أمرهم، فيتوهموا أنه كان بمنزلة ما كان من أمر عصاه.

الثانى - انه خاف بطبع البشرية لما رأى من كثرة ما تخيل من الحيات العظام، فقال الله تعالى له «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» أى انك انت الغالب لهم و القاهر لامرهم، ثم أمره تعالى فقال له «أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ» يعنى العصا «تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا» أى تأخذها فيها ابتلاعاً و (ما) هاهنا بمعنى الذى، و تقديره تلقف الذى صنعوا فيه، لان فعلهم لا يمكن ابتلاعه، لأنها اعراض. و يقال: تلقف يلقف و تلقف يتلقف.

و من قرأ (تلقف) مضمومة الفاء مشددة القاف، أراد تتلقف فاسقط احد التائين، و كذلك

روى ابن فليح عن البرزى عن ابن كثير بتشديد التاء، لأنه ادغم إحداهما فى الاخرى.

و من سكن الفاء جعلها جواب الأمر. و من رفع، فعلى تقدير، فهى تلفظ. و قيل: إنها ابتلعت حمل ثلاث مائة بعير من الحبال و العصى. ثم أخذها موسى فرجعت الى حالها عصاً، كما كانت. ثم اخبر تعالى، بأن الذى صنعوه كيد سحر، او كيد ساحر، على اختلاف القراءتين. و انما رفع «كيد ساحر» لأنه خبر (ان). و المعنى إن الذى صنعوه كيد ساحر، و يجوز فيه النصب على أن تكون (ما) كافة لعمل (إن) كقولك إنما ضربت زيدا، و مثله «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا» «١» ثم اخبر تعالى أن الساحر لا يفلح أى لا يفوز بفلاح أى بنجاة «حَيْثُ أَتَى» أى حيث وجد. و قال بعضهم، لأنه يجب قتله على كل حال، فلما رأته السحرة ما فعله الله من قلب العصا ثعباناً و إبطال سحرهم علموا انه من قبل الله، و انه ليس بسحر، فالتقوا نفوسهم ساجدين لله، مقرين بنبوته موسى (ع) مصدقين له. و «قَالُوا آمَنَّا» أى صدقنا «بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى» و قيل معناه صدقنا بالرب الذى يدعوا اليه هارون و موسى، لأنه رب الخلائق أجمعين.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٧١ الى ٧٥]

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَعْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥)

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ١٧

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و حفص و ورش «آمنتهم» على لفظ الخبر. و قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً بهمزتين. الباقيون بهمزة واحدة بعدها مدة. قال ابو على: من قرأ على الخبر، فوجهه أنه قرعهم على تقدمهم بين يديه، و على استبدالهم بما كان منهم من الايمان بغير اذنه و أمره، و الاستفهام يؤل الى هذا المعنى. و وجه قراءة أبى عمرو انه أتى بهمزة الاستفهام و همزة الوصل، و قلب الثانية مدة، كراهية اجتماع الهمزتين.

و قد مضى شرح ذلك فيما مضى.

حكى الله تعالى ما قال فرعون للسحرة حين آمنوا بموسى و هارون «آمَنْتُمْ لَهُ» أى صدقتموه و اتبعتموه «قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ» و قال فى موضع آخر «آمَنْتُمْ بِهِ» «١» و قيل فى الفرق بينهما «ان آمَنْتُمْ لَهُ» يفيد الاتباع، و ليس كذلك «آمَنْتُمْ بِهِ» لأنه قد يوقن بالخير من غير اتباع له فيما دعا اليه إلا أنه إذا قبل قول الداعى الى أمر أخذ به. و من قرأ «آمَنْتُمْ عَلَى الْخَيْرِ» كأن فرعون أخبر بذلك. و من قرأ على لفظ الاستفهام كأنه استفهم عن ايمانهم على وجه التقرير لهم.

و الفرق بين الاذن و الأمر، أن فى الامر دلالة على إرادة الفعل المأمور به، و ليس

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٢٢

ص: ١٩٠

فى الاذن دلالة على إرادة المأذون فيه، كقوله «وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» «١» فهذا إذن. ثم قال فرعون «انه» يعنى موسى «لَكَبِيرُكُمْ» اى رئيسكم و متقدمكم «الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» ثم هددهم فقال «فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ» يعنى قطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى او اليد اليسرى و الرجل اليمنى. و قيل أول من فعل ذلك فرعون، و أول من صلب فى جذوع النخل هو، و (فى) بمعنى (على) قال الشاعر:

و هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة
فلا عطست شيبان إلا بأجدعا «٢»

و قوله «وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى» قال ابن إسحاق و محمد بن كعب القرطى معناه: أبقى عقاباً ان عصى و ثواباً ان أطيع، و رفع «أَيُّنَا» لأنه وقع موقع الاستفهام، و لم يعمل فيه ما قبله من العلم. و قيل انما نسبهم الى اتباع رئيسهم فى السحر ليصرف بذلك الناس عن اتباع موسى (ع) فأجابته السحرة فقالوا «لَنْ نُؤْتِرَكَ» أى لا نختارك يا فرعون «عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» يعنى الادلة الدالة على صدق موسى و صحة نبوته. و قوله «وَ الَّذِى فَطَرَنَا» يعنى و على الذى خلقنا فيكون عطفاً على «ما جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» فيكون جراً، و يحتمل أن يكون جراً بأنه قسم. و قوله «فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ» معناه فاصنع ما انت صانع على تمام من قولهم: قضى فلان حاجتى إذا صنع ما أريد على إتمام، قال ابو ذؤيب:

و عليهما مسرودتان قضاهما
داود أو صنع السوايح تبع «٣»

و قوله «إِنَّمَا تَقْضَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» يعنى انما تصنع بسلطانك و عذابك فى هذه الحياة الدنيا دون الآخرة. و قيل: معناه ان الذى يفنى و ينقضى هذه الحياة

(١) سورة، ٥، المائدة آية ٣

(٢) تفسير الشوكاني ٣/٣٦٣ و القرطبي ١١/٢٢٤ و الطبري ١٦/١٢٦

(٣) مر هذا البيت في ١/٤٢٩ و ٤/٨٨ و ١٦٥ و ٥/٣٩٨

ص: ١٩١

الدنيا دون حياة الآخرة. و قوله «إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا» اى صدقنا به، نطلب بذلك أن يغفر لنا خطايانا و يغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر. قال ابن زيد و ابن عباس:

إن فرعون رفع غلماناً الى السحرة يعلمونهم السحر بالغرائم قالوا «وَاللَّهُ خَيْرٌ» لنا منكم «وَأَبْقَى» لنا ثواباً من ثوابك. ثم حكى قول السحرة انهم قالوا «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا» و قيل انه خبر من الله تعالى بذلك دون الحكاية عن السحرة «فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ» جزاء على جرمه و عصيانه «لَا يَمُوتُ فِيهَا» يعنى جهنم «وَلَا يَحْيَى» اى لا يموت فيها فيستريح من العذاب، و لا يحيى حياة فيها راحة، بل هو معاقب بأنواع العقاب.

ثم اخبر تعالى فقال «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا» اى مصدقا بتوحيده و صدق أنبيائه و «قَدْ عَمِلَ» الطاعات التى أمره بها (فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) اى العالیه و العلى جمع عليا مثل ظلمة و ظلم و الكبرى و الكبرى.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٧٦ الى ٨٠]

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَ لَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَىٰ (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ السَّلْوى (٨٠)

ص: ١٩٢

خمس آيات.

قرأ حمزة وحده (لا تخف دركاً) على النهى، أو على الجزاء لقوله «فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا» الباقون «لا تخاف» بالرفع «و لا تخشى» بألف بلا خلاف على الاستئناف. و مثله قوله «يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ» «١». و قيل انه يحتمل ان يكون «لا تخش» مجزوماً، و زيد الالف ليوافق رؤس الآى كما، قال الشاعر:

و من قرأ «لا تخاف» بالرفع، و «لا تخشى» مثله، فهو على الخبر. و قال ابو على: هو فى موضع نصب على الحال، و تقديره طريقاً فى البحر يبساً غير خائف دركاً. و قرأ حمزة و الكسائى «انجيتكم، و وعدتكم» بالتاء فيهما بغير الف. الباقون بالألف و النون. و قرأ ابو عمرو وحده «و وعدناكم» بغير الف. الباقون «و وعدناكم» بالف. و لم يختلفوا فى «نزلنا» انه بالنون. و معنى التاء و النون قريب بعضه من بعض، لكن النون لعظم حال المتكلم.

لما اخبر الله تعالى ان لمن آمن بالله الدرجات العلى، قال و لهم «جَنَاتٌ عَدْنٍ» اى بساتين إقامة «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» و قد فسرناه فى غير موضع.

ثم قال «و ذلك» الذى وصفه «جَزَاءٌ مَنْ تَزَكَّى» فالتزكى طلب الزكا بارادة الطاعة، و العمل بها. و الزكا النماء فى الخير، و منه الزكاة، لان المال ينمو بها فى العاجل و الأجل، لما لصاحبها عليها من ثواب الله تعالى. و قيل: معنى «تزكى» تطهر من الذنوب بالطاعة بدلا من تدنيسها بالمعصية. و الخلود المكث فى الشىء الى غير غاية.

(١) سورة ٣ آية آل عمران آية ١١١

(٢) مر هذا البيت ٦ / ١٩٠ و هو فى تفسير القرطبى ١١ / ٢٢٤ و تفسير الشوكانى ٣ / ٤٣٣

ص: ١٩٣

ثم أخبر تعالى فقال (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي) أى سر بهم ليلا لأن الاسراء السير بالليل (فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً) و المعنى: اضرب بعصاك البحر تجعل طريقاً، فكأنه قيل: اجعل طريقاً بالضرب بالعصا، فعدها الى الطريق لما دخله هذا المعنى فكأنه قد ضرب الطريق، كضربه الدينار.

و اليبس اليابس و جمعه ايباس، و جمع اليبس - بسكون الباء - ييوس. و قال ابو عبيدة: اليبس - بفتح الباء - المكان الجاف. و إذا كان اليبس فى نبات الأرض فهو اليبس - بسكون الباء - قال علقمة بن عبده:

كما خشخت ييس الحصاد جنوب

تخشخش أبدان الحديد عليهم

و قوله (لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى) معناه لا تخف أن يدركك فرعون، و لا تخش الغرق من البحر- فى قول ابن عباس و قتادة- و قيل: معناه لا تخف لحوقاً من عدوك، و لا تخش الغرق من البحر الذى انفرج عنك. و المعنيان متقاربان. و كان سبب ذلك أن اصحاب موسى قالوا له: هذا فرعون قد لحقنا، و هذا البحر قد غشنا يعنون اليم، فقال الله تعالى «لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى».

ثم اخبر تعالى فقال (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) أى دخل خلف موسى و بنى إسرائيل، و فى الكلام حذف لأن تقديره: فدخل موسى و قومه البحر ثم أتبعهم فرعون بجنوده و من اتبعهم. فمن قطع الهمزة جعل الباء زائدة. و من وصلها أراد: تبعهم و سار فى أثرهم، و الباء للتعديّة.

و قوله (فَغَشِيَهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا غَشِيَهُمْ) يعنى الذى غشيهم. و قيل: معناه تعظيم للأمر لأن (غشيهم) قد دل على (ما غشيهم) و إنما ذكره تعظيماً. و قيل: ذكره تأكيداً. و قال قوم: معناه فغشيهم الذى عرفتموه. كما قال ابو النجم:

(ج ٧ م ٢٥ من التبيان)

ص: ١٩٤

أنا ابو النجم و شعرى شعرى «١»

و قال الزجاج: فغشيهم من اليم ما غرقهم. و قال الفراء: معناه «فَغَشِيَهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا غَشِيَهُمْ» لأنه ليس الماء كله غشيهم، و إنما غشيهم بعضه. و قال قوم: معناه «فَغَشِيَهُمْ» يعنى أصحاب فرعون «مِنْ أَلِيمٍ» ما غشى قوم موسى إلا أن الله غرق هؤلاء، و نجا أولئك. و يجوز أن يكون المراد: فغشيهم من قبل اليم الذى غشيهم من الموت و الهلاك، فكأنه قال: الذى غشيهم من الموت و الهلاك كان من قبل البحر إذ غشيهم، فيكون (غشيهم) الاول للبحر، و (غشيهم) الثانى للهلاك و الموت.

و قوله «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَى» معناه أنه دعاهم الى الضلال و أغواهم، فضلوا عنده، فنسب اليه الضلال. و قيل: إن معناه أستمر بهم على الضلالة فلذلك قيل «وَمَا هَدَى». ثم عدد الله على بنى إسرائيل نعمه، بأن قال «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ» أى خلصناكم «مِنْ عَدُوِّكُمْ» فرعون «وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» معناه إن الله واعدكم جانب الجبل الذى هو الطور، لتسمعوا كلام الله لموسى بحضرتكم هناك «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ السَّلْوى» يعنى فى زمان التيه أنزل عليهم المن، و هو الذى يقع على بعض الأشجار، و السلوى طائر أكبر من السمان.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٨١ الى ٨٥]

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ
آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَتْرَى وَ عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبُّ
لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)

(١) آمالي السيد المرتضى / ١ / ٣٥٠. و بعد: (لله درى ما يجن صدرى)

ص: ١٩٥

خمس آيات.

قرأ الكسائي وحده «فيحل عليكم» بضم الحاء، وكذلك «من يحلل» بضم اللام. الباقيون - بكسرها - و لم يختلفوا في الكسر
من قوله «أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ» «١» يقال حل بالمكان يحل إذا نزل به، و حل يحل - بالكسر - بمعنى وجب.

قوله «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» صورته صورة الأمر و المراد به الاباحة، لان الله تعالى لا يريد المباحات من الأكل و
الشرب فى دار التكليف.

و الطيبات معناه الحلال. و قيل معناه المستلذات.

و قوله «وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ» معناه لا تتعدوا فيه فتأكلوه على وجه حرمة الله عليكم، فتتعدون فيه بمعصية الله، و يمكن ترك الأكل
على وجه حرمة الله الى وجه أباحه الله على الوجه الذى أذن فيه، و على وجه الطاعة أيضاً، للاستعانة به على غيره من طاعة
الله.

و قوله «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي» معناه متى طغيتم فيه و اكلتموه على وجه الحرام، نزل عليكم غضبي، على قراءة من ضم الحاء. و
من كسره، معناه يجب عليكم غضبي الذى هو عقاب الله.

ثم اخبر تعالى أن من حل غضب الله عليه «فَقَدْ هَوَى» يعنى هلك، لأن من هوى من علو الى سفلى، فقد هلك. و قيل: هو
بمعنى تردى و قيل: معناه هوى الى النار.

(١) سورة ٢٠ طه آية ٨٦

ص: ١٩٦

ثم أخبر تعالى عن نفسه أنه «غفار» أى ستار «لمن تاب من المعاصى» فاسقط عقابه و ستر معاصيه إذا أضاف الى إيمانه
الأعمال الصالحات «ثُمَّ اهْتَدَى» قال قتادة: معناه ثم لزم الايمان إلى أن يموت، كأنه قال: ثم استمر على الاستقامة.

و انما قال ذلك، لتلا يتكل الإنسان على انه قد كان أخلص الطاعة. و في تفسير أهل البيت (ع) ان معناه «ثم اهتدى» الى ولاية أوليائه الذين أوجب الله طاعتهم و الانقياد لامرهم. و قال ثابت البناني: ثم اهتدى الى ولاية أهل بيت النبي (ص).

ثم خاطب موسى (ع)، فقال «وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى» قال ابن إسحاق: كانت المواعدة أن يوافي هو و قومه، فسبق موسى الى ميقات ربه، فقرره الله على ذلك لم فعله؟ و قال موسى في جوابه «هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ أَتَرَى وَ عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى» فقال الله تعالى «فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ» أى عاملناهم معاملة المختبر بان شددنا عليهم فى التعبد بأن ألزمناهم عند إخراج العجل أن يستدلوا على أنه لا يجوز أن يكون إلهاً، و لا أن يحل الاله فيه، فحقيقة الفتنة تشديد العبادة.

و قوله «وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» معناه أنه دعاهم الى عبادة العجل، فضلوا عند ذلك، فنسب الله الإضلال اليه لما ضلوا بدعائه.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٨٦ الى ٩٠]

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَ لَكِنَّا حُمُلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَ فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا (٨٩) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠)

ص: ١٩٧

خمس آيات.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو و ابن عامر «بملكنا» بكسر الميم - و قرأ نافع و عاصم - بفتح الميم - و قرأ حمزة و الكسائي - بضم الميم - من ضم الميم فمعناه بسلطاننا و قيل إن فى ذلك ثلاث لغات: فتح الميم و ضمها و كسرهما. و قرأ ابو عمرو، و حمزة و أبو بكر «حملنا» - بفتح الحاء و الميم - مخففاً. الباقر - بضم الحاء و كسر الميم - مشدداً.

اخبر الله تعالى أن موسى رجع من ميقات ربه «إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا» و الغضب ضد الرضا، و هو ما يدعو الى فعل العقاب، و الأسف أشد الغضب. و قال ابن عباس: معنى «أسفاً» اى حزيناً. و به قال قتادة و السدى. و الأسف أشد الغضب. و قال بعضهم: قد يكون بمعنى الغضب، و يكون بمعنى الحزن. قال الله تعالى «فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» «١» أى أغضبونا، فقال موسى لقومه «يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا» لأن الله تعالى كان وعد موسى بالنجاة من عدوهم، و مجيئهم الى جانب الطور الأيمن، و وعده بأنه تعالى «غفار لمن تاب و آمن و عمل صالحاً ثم اهتدى»

ثم قال «أَفَطَالَ عَلَيَّكَ الْعَهْدُ» أى عهدي و لقائى فنسيتموه «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّكُمْ» أى يجب عليكم «غضب» أى عقاب «مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» أى ما وعدتمونى من المقام على الطاعات. و قال الحسن: معنى «أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا» فى الآخرة على التمسك بدينه فى الدنيا. و قيل الذى وعدهم الله به التوراة، و فيها النور و الهدى ليعملوا بما فيها، و يستحقوا عليه الثواب. و كانوا وعدوه أن يقيموا على أمرهم، فأخلفوا، و قالوا جواباً لموسى «ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا» أى قال المؤمنون: لم نملك أن نرد عن ذلك السفهاء. قال قتادة و السدى: معنى «بملكنا» بطاقتنا. و قال ابن زيد: معناه لم نملك أنفسنا للبلية التى وقعت بنا.

فمن فتح الميم: أراد المصدر. و من كسرهما أراد: ما يملك. و من ضم أراد:

السلطان و القوة به.

و قوله «وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ» معناه إنا حملنا أثقالاً من حلى آل فرعون، و ذلك أن موسى أمرهم ان يستعيروا من حليهم - فى قول ابن عباس و مجاهد و السدى و ابن زيد- و قيل: جعلت حلالاً لهم. و من قرأ بالتشديد أراد ان غيرنا حملنا ذلك بأن أمرنا بحمله.

و قوله «فَقَدَفْنَاها» أى طرحنا تلك الحلى، و مثل ذلك «أَلْقَى السَّامِرِيُّ» ما كان معه من الحلى. و قيل «أَوْزَارًا» أى أثقالاً من حلى آل فرعون، لما قذفهم البحر أخذوها منهم. ثم اخبر تعالى فقال: إن السامرى أخرج لقوم موسى عجلاً جسداً له خوار، فقيل ان ذلك العجل كان فى صورة ثور صاعها من الحلى التى كانت معهم، ثم ألقى عليها من أثر جبرائيل شيئاً، فانقلب حيواناً يخور- ذكره الحسن و قتادة و السدى- و (الخور) الصوت الشديد كصوت البقرة. و قال مجاهد: كان خواره بالريح إذا دخلت فى جوفه. و أجاز قوم الأول، و قالوا: إن ذلك معجزة تجوز

فى زمن الأنبياء. و قول مجاهد أقوى، لأن إظهار المعجزات لا يجوز على أيدي المبطلين، و إن كان فى زمن الأنبياء. و قال الجبائى: انما صوره على صورة العجل و جعل فيه خروفاً إذا دخله الريح أوهم انه يخور. و قيل: انه خار دفعة واحدة «فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَ إِلَهُ مُوسَى» يعنى قال ذلك السامرى و من تابعه ان هذا العجل معبودكم و معبود موسى، «فنسى» أى نسى موسى أنه إله، و هو قول السامرى- فى قول ابن عباس و قتادة و مجاهد و السدى و ابن زيد و الضحاک- و قال ابن عباس فى رواية أخرى: معناه، فنسى السامرى ما كان عليه من الايمان، لأنه نافق لما عبر البحر. و معناه ترك ما كان عليه. و قال قوم: معناه «فنسى» موسى أنه أراد هذا العجل، فنسى و ترك الطريق الذى يصل منه اليه، و يكون حكاية قول السامرى.

ثم قال تعالى تنبيهاً لهم على خطئهم «أفلا يرون» أى أفلا يعلمون أنه «أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا» أى لا يجيبهم إذا خاطبوه، و لا يقدر لهم على ضرر و لا نفع.

ثم اخبر ان هارون قال لهم قبل ذلك «يا قوم إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ» أى ابتليتم و اختبرتم به «وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ» اى الذى يستحق العبادة عليكم هو الرحمن الذى أنعم عليكم بضروب النعم «فاتبعوني» فيما أقول لكم «وَاطِيعُوا أَمْرِي» فيما آمركم به.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٩١ الى ٩٥]

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥)

ص: ٢٠٠

خمس آيات.

قرأ «يا ابن أم» - بفتح الميم - ابن كثير و أبو عمرو، و عاصم فى رواية حفص. الباقون - بكسر الميم - من فتح الميم جعل «ابن أم» اسماً واحداً و بناهما على الفتح مثل (خمسة عشر) إلا ان (خمسة عشر) تضمن معنى الواو، و تقديره خمسة و عشرة، و «ابن أم» بمعنى اللام و تقديره: لأمى، و كلاهما على تقدير الاتصال بالحرف على جهة الحذف، و يجوز «با ابن أم» على الاضافة، و لم يجرى هذا البناء إلا فى يا ابن ام، و يا ابن عم، لأنه كثر حتى صار يقال للأجنبى، فلما عدل بمعناه عدل بلفظه، قال الشاعر:

و إياك نخزى يا ابن عم و نفضح

رجال و نسوان يودون أنى

و يحتمل ان يكون (أراد يا بن أماه) فرخم. و يحتمل ان يكون أراد (يا بن اما) [فخفف. و من كسر أراد يا بن أمى] «١» لأن العرب تقول: يا ابن اما بمعنى يا ابن أمى و يا ربا بمعنى يا ربي. فمن كسر أراد: يا ابن أمى، فحذف الياء و أبقى الكسرة تدل عليها.

حكى الله تعالى ما أجاب به قوم موسى لهارون حين نهاهم عن عبادة العجل و أمرهم باتباعه، فإنهم «قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ» أى لن نزال لازمين لهذا العجل الى أن يعود إلينا موسى، فننظر ما يقول قال الشاعر:

و يلحق منها لاحق و تقطع «٢»

فما برحت خيل تثوب و تدعى

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

(٢) مر تخريجه في ١٨٢ / ٦ و روايته هناك - (فتنت) بدل (برحت)

ص: ٢٠١

و العكوف لزوم الشيء مع القصد اليه على مرور الوقت، و منه الاعتكاف في المسجد. ثم اخبر تعالى أن موسى لما رجع الى قومه، قال لهارون «يا هارون ما منعك ألا تتبعني» قال ابن عباس: معناه بمن أقام على إيمانه. و قال ابن جريج: معناه ألا تتبعني في شدة الزجر لهم عن الكفر. و معنى (ألا تتبعني) ما منعك أن تتبعني و (لا) زائدة. كما «قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتكَ» (١) و قد بينا القول في ذلك. و إنما جاز ذلك لأنه المفهوم أن المراد ما منعك بدعائه لك الى أن لا تتبعني فدخلت (لا) لتنبئ عن هذا المعنى، و هو منع الداعي دون منع الحائل.

و قوله «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» صورته صورة الاستفهام، و المراد به التقرير، لأن موسى كان يعلم أن هارون لا يعصيه في أمره، فقال له هارون في الجواب «لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي» حين أخذ موسى بلحيته و رأسه. و قيل في وجه ذلك قولان:

أحدهما - ان عادة ذلك الوقت أن الواحد إذا خاطب غيره قبض على لحيته، كما يقبض على يده في عادتنا، و العادات تختلف و لم يكن ذلك على وجه الاستخفاف.

و الثاني - انه أجراه مجرى نفسه إذا غضب، في القبض على لحيته، لأنه لم يكن يتهم عليه، كما لا يتهم على نفسه.

و قوله «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» معناه إنى خفت أنى إن فعلت ذلك على وجه العنف و الإكراه أن يتفرقوا و تختلف كلمتهم و يصيروا أحزاباً، حزباً يلحقون بموسى و حزباً يقيمون مع السامري على اتباعه، و حزباً يقيمون على الشك في أمره. ثم لا يؤمن إذا تركتهم كذلك أن يصيروا بالخلاف الى سفك الدماء، و شدة التصميم على أمر السامري، فاعتذر بما مثله يقبل، لأنه وجه

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١ (ج ٧ م ٢٦ من التبيان)

ص: ٢٠٢

من وجوه الرأي.

قوله «وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» أى لم تحفظ قولى - فى قول ابن عباس - فعدل عن ذلك موسى الى خطاب السامرى، فقال له «فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ» أى ما شأنك و ما دعاك الى ما صنعت؟! و أصل الخطب: الجليل من الأمر، فكأنه قيل: ما هذا العظيم الذى دعاك الى ما صنعت.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ٩٦ الى ١٠٠]

قال بَصُرْتُ بما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي (٩٦) قال فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠)

خمس آيات.

قرأ حمزة و الكسائى «ما لم تبصروا» بالتاء. الباقون بالياء المعجمة من أسفل. من قرأ بالتاء حملة على خطابه لجميعهم. و من قرأ بالياء أراد: بصرت بما لم يبصروا بنو إسرائيل. و قرأ ابن كثير و ابو عمرو «لن تخلفه» بكسر اللام.

ص: ٢٠٣

الباقون بفتح اللام. و المعنى: لأن الله يكافيك على ما فعلت يوم القيامة، لأنه بذلك وعد. يقال: أخلفت موعد فلان إذا لم تف بما وعدته. و من قرأ - على ما لم يسم فاعله - جعل الخلف من غير المخاطب، و الهاء كناية عن الموعد، و هو المفعول به، و الفاعل لم يذكر.

حكى الله تعالى قول موسى للسامرى و سؤاله إياه بقوله «فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ» و حكى ما أجاب به السامرى، فانه قال «بَصُرْتُ بما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ» و المعنى رأيت ما لم يروه. فمن قرأ بالياء أراد ما لم يبصروا هؤلاء. و من قرأ بالتاء حملة على الخطاب و بصر لا يتعدى، و إن كانت الرؤية متعدية، لأن ما كان على وزن (فعل) بضم العين لا يتعدى، غير انه و ان كان غير متعد، فانه يتعدى بحرف الجر، كما عدها - هاهنا - بالباء. و قيل بصرت - هاهنا - بمعنى علمت من البصيرة. يقال: بصر يبصر إذا علم. و ابصر ابصاراً إذا رأى.

و قوله «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا» قرأ الحسن بالصاد غير المعجمة.

و القراء على القراءة بالصاد المنقطه، و الفرق بينهما ان (القبضة) بالصاد بملء الكف، و بالصاد غير المعجمة بأطراف الأصابع. و قيل: انه قبض قبضة من اثر جبرائيل (ع) «فنبذتها» فى الحلى على ما اطمعتنى نفسى من انقلابه حيواناً. و قال ابن زيد:

معنى «سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي» حدثتنى. و قيل: معناه زينت لى نفسى.

فان قيل: لم جاز انقلابه حيواناً- مع انه معجز- لغير نبي؟! قلنا: في ذلك خلاف، فمنهم من قال: انه كان معلوماً معتاداً في ذلك الوقت انه من قبض من اثر الرسول قبضة فألقاها على جماد صار حيواناً- ذكره ابو بكر ابن الاخشاذ- فعلى هذا لا يكون خرق عادة بل كان معتاداً. و قال الحسن: صار لحماً و دماً. و قال الجبائي: المعنى سوّلت له نفسه ما لا حقيقة له و انما خار بحيلة: جعلت

ص: ٢٠٤

فيه خروق إذا دخلتها الريح سمع له خوار منه. فقال له موسى عند ذلك «فاذهب» يا سامري «فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ» و اختلفوا في معناه، فقال قوم:

معناه تقول لا أمس و لا أمس، و كان موسى امر بني إسرائيل ألا يؤاكلوه و لا يخالطوه و لا يبائعوه، فيما ذكر. و قال الجبائي: معناه انه لا مساس لأحد من الناس، لأنه جعل يهيم في البرية مع الوحش و السباع. و قوله «لا مساس» بالكسر و الفتح، فان كسرت فمثل لا رجال، و إذا فتحت الميم بنيت على الكسر مثل نزال، قال رؤبة:

حتى تقول الأرد لا مساسا «١»

و قال الشاعر:

ألا لا يريد السامري مساسا «٢»

تميم كرهط السامري و قوله

و كله بمعنى المماساة و المخالطة. ثم قال «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ» من جهتنا فيمن قرأ بالفتح، و من قرأ بالكسر معناه لا تخلفه انت، و هما متقاربان، و يريد بالموعد البعث و النشور و الجزاء، اما جنة و اما ناراً. ثم قال «أَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ» يعنى معبودك عند نفسك أبصره «الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا» قال ابن عباس: معناه أقمت عليه عاكفاً، و أصله ظللت، فحذف اللام المكسورة للتخفيف و كراهية التضعيف، و للعرب فيها مذهبان، فتح الظاء، و كسرهما، فمن فتح تركها على حالها، و من كسر نقل حركة اللام اليها للاشعار بأصلها. و مثله مست و مست في مسست. و همت و همت، في هممت، و هل احست في أحسست، قال الشاعر:

أحس به فهن اليه شوس «١»

خلا ان العتاق من المطايا

و قوله «لنحرقنه» يعنى بالنار يقال: انه حرقه ثم ذراه فى البحر - فى قول ابن عباس - يقال حرقته بتشديد الراء إذا حرقته بالنار و حرقته بتخفيف الراء بمعنى بردته بالمبرد، و ذلك لأنه يقطع به كما يقطع المحرق بالنار يقال حرقته و أحرقتة حرقاً، كما قال الشاعر:

بيوتهم علينا يحرقونا «٢»

بذى فرفير يوم بنو حبيب

و قال زهير:

عليه فأفضى و السيوف معاقله «٣»

ابى الضيم و النعمان يحرق نابه

و قرأ ابو جعفر المدني

«لنحرقنه» بفتح النون و سكون الحاء و ضم الراء بمعنى لنبردنه. و روى ذلك عن على (ع)

، و يقال نسف فلان الطعام بالمنسف إذا ذراه لتطير عنه قشوره. و قال سعيد بن جبير: كان السامرى رجلاً من اهل كرمان. و قال قوم: كان من بنى إسرائيل، و اليه تنسب (السامرة) من اليهود.

و حكى قوم: ان قبيلته الى اليوم يقولون فى كلامهم: لا مساس.

ثم اقبل على قومه فقال «إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» اى ليس لكم معبود الا الله الذى «وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» اى يعلم كل شىء، لا يخفى عليه شىء منها، و هى لفظة عجيبة فى الفصاحة.

ثم قال تعالى لنبيه محمد (ص) مثل ذلك «تَقْصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ» يعنى اخبار «ما قَدْ سَبَقَ» و تقدم «وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا» اى أعطيناك من عندنا

(١) تفسير الطبرى ١٣٧ / ١٦ و القرطبي ٢٤٢ / ١١

(٢) تفسير الطبرى ١٣٨ / ١٦

(٣) ديوان (دار بيروت) ٦٩ و هذا البيت برمته ساقط من المطبوعة

ص: ٢٠٦

علماً بأخبار الماضين. و قال الجبائى: أراد آتيناك من عندنا القرآن لأنه سماه ذكراً.

ثم قال «مَنْ أَعْرَضَ» عن التصديق بما أخبرناك به و عن توحيد الله، و اخلاص عبادته «فَأَنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا» اى اثماً، و اصل الوزر النقل، فى قول مجاهد.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ١٠١ الى ١٠٧]

خَالِدِينَ فِيهِ وَ سَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَا أَمْتًا (١٠٧)

سبع آيات.

قرأ ابو عمرو وحده «يوم ننفخ» بفتح النون مع قوله «و نحشر». الباقون «ينفخ» بالياء على ما لم يسم فاعله. قوله «خالدين» نصب على الحال، و العامل فيه (العذاب) الذى تقدم ذكره من الوزر، و المعنى فى عذاب الإثم (و ساء لهم يوم القيامة حملاً) نصب (حملاً) على التمييز، و فاعل (ساء) مضمر، و تقديره:

ساء الحمل حملاً، الا انه استغنى بالمفسر عن اظهار المضمر، كقولهم بئس رجلاً صاحبك. و انما أضمر، ثم فسره، لأنه افخم و اهل، و المعنى و ساء ذلك الحمل الوزر لهم يوم القيامة حملاً، فيما ينزل بهم.

و قوله (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) فالنفخ إخراج الريح من الجوف بالدفع من

القم، فهذا أصله، ثم قد يسمى احداث الريح من الزق أو البوق نفخاً، لأنه كالنفخ المعروف. و (الصور) قيل فى معناه قولان:

أحدهما- انه جمع صورة، كل حيوان تنفخ فيه الروح، فتجرى فى جسمه، و يقوم حياً بإذن الله.

و الثانى - انه قرن ينفخ فيه النفخة الثانية ليقوم الناس من قبورهم عند تلك النفخة تصويراً لتلك الحال فى النفوس بما هو معلوم، مما عهدوه من بوق الرحيل و بوق النزول.

و قوله (وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) قيل: معناه إنه أزرق عيونهم من شدة العطش. و قيل: معناه عمياً، كما قال (وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَ) «١» كأنها ترى زرقاً و هى عمى. و قيل: المعنى فى (زرقاً) تشويه الخلق:

وجوههم سود و أعينهم زرق.

و قوله (يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ) معناه يتشاورون بينهم - فى قول ابن عباس - و منه قوله (وَ لَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَ لَا تُخَافِتْ بِهَا) و معناه لا تعلن صوتك بالقراءة فى الصلاة كل الإعلان و لا تخفها كل الإخفاء (وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) «٢» و قوله (إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا) يعنى ما أقمتم فى قبوركم إلا عشرًا. و انما يقولون ذلك القول لأنهم لشدة ما يرونه من هول القيامة ينسون ما لبثوا فى الدنيا، فيقولون هذا القول.

و قيل: معناه و تأويله انه يذهب عنهم طول لبثهم فى قبورهم لما يرون من أحوالهم التى رجعت اليهم، كأنهم كانوا نياماً، فانتبهوا، و قال الحسن: إن لبثتم إلا عشرًا يقللون لبثهم فى الدنيا طول ما هم لا بثون فى النار.

ثم قال تعالى (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً) أى أصلحهم

(١) سورة الإسراء آية ٩٧

(٢) سورة الإسراء آية ١١٠

طريقة و أوفرهم عقلاً. و قيل: أكثرهم سداداً، يعنى عند نفسه (إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) قال ابو على الجبائى: معناه (إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) بعد انقطاع عذاب القبر عنهم، و ذلك ان الله يعذبهم ثم يعيدهم.

ثم قال لنبية محمد (ص) (وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) قيل:

انه يجعلها بمنزلة الرمل، ثم يرسل. عليها الرياح فتذريها كتذرية الطعام من القشور و التراب. و قيل: ان الجبال تصير كالهباء (فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً) قال ابن عباس:

الصفصف الموضع المستوى الذى لا نبات فيه، و هو قول مجاهد و ابن زيد. و قيل هو المكان المستوى كأنه على صف واحد فى استوائه، و القاع قيل: هو الأرض الملساء.

و قيل مستنقع الماء و جمعه اقواع قال الشاعر:

كان أيديهن بالقاع القرقي
أيدى جوار يتعاطين الورق «١»

و قال الكلبي: الصفصف ما لا تراب فيه. (لا ترى فيها عوجاً و لا أمتاً) يعنى وادياً و لا رابية- فى قول ابن عباس- و قيل (عوجاً) معناه صدعاً (و لا أمتاً) يعنى اكمة.

و قيل: معنى (عوجاً) ميلًا و (أمتاً) اثراً. و قال ابو عبيدة: (صفصفاً) اى مستويًا املساً. و (العوج) مصدر ما اعوج من المجارى، و المساليل و الأودية و الارتفاع يميناً و شمالاً و «لا أمتاً» اى لا رباً و لا وهاد، أى لا ارتفاع فيه و لا هبوط، يقال: مد حبله حتى ما ترك فيه امتاً، و ملأ سقاه حتى ما ترك فيه أمتاً أى انثناء، قال الشاعر:

ما فى انحداب سيره من أمت «٢»

(١) أمالى الشريف المرتضى ١ / ٥٦١ و اللسان (قرق)

(٢) تفسير الطبرى ٦ / ١٤١ و الشوكانى ٣ / ٣٧٢

ص: ٢٠٩

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ١٠٨ الى ١١٠]

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)

ثلاث آيات.

يقول الله تعالى إن اليوم الذى ينسف الله فيه الجبال نسفاً، و يذرهما قاعاً صفضاً، حتى لا يبقى فيه عوج و لا امت، تتبع الخلائق يومئذ الداعى لهم الى المحشر (لا عوجَ لَهُ) اى لا يميلون عنه، و لا يعدلون عن ندائه، و لا يعصونه كما يعصون فى دار الدنيا (وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ) اى تخضع له بمعنى انها تسكن، و لا ترتفع - فى قول ابن عباس - و الخشوع الخضوع قال الشاعر:

سور المدينة و الجبال الخشع «١»

لما اتى خبر الزبير تواضعت

و قوله تعالى «فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا» فالهمس صوت الأقدام - فى قول ابن عباس و ابن زيد - و قال مجاهد: الهمس إخفاء الكلام، قال الراجز فى الهمس:

و هن يمشين بنا هميساً «٢»

يعنى صوت أخفاف الإبل فى سيرها. و قوله (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا) اخبر الله تعالى أن ذلك اليوم لا تنفع شفاعة احد فى

(١) قائله جرير ديوانه (دار بيروت) ٢٧٠ و قد مر فى ١ / ٢٠٤، ٣١٢ من هذا الكتاب

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٢٤٩ و الشوكاني ٣ / ٣٧٢ و الطبرى ١٦ / ١٤١ (ج ٧ م ٢٧ من التبيان)

ص: ٢١٠

غيره، إلا شفاعة من أذن الله له أن يشفع، و رضى قوله فيها: من الأنبياء و الأولياء و الصديقين و المؤمنين. ثم قال (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ) أى يعلم ما بين أيدي الخلائق من أمور القيامة و أحوالهم، و يعلم ما سبقهم فيما تقدمهم (و لا يحيطون) هم (به) بالله (علماء). و المعنى انهم لا يعلمون كل ما هو تعالى عالم به لنفسه، فلا يعلمه أحد علم إحاطة، و هو تعالى يعلم جميع ذلك، و جميع الأشياء علم إحاطة، بمعنى انه يعلمها على كل وجه يصح أن تعلم عليه مفصلاً. و قال الجبائي: معناه و لا يحيطون بما خلفهم علماء، و لا بما بين أيديهم.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ١١١ الى ١١٥]

وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)

خمس آيات.

قرأ ابن كثير وحده (فلا يخف ظلماً) على النهى. الباقر على الخبر. قال ابو على النحوى: قوله (و هو مؤمن) جملة فى موضع الحال و العامل فيها (يعمل) و ذو الحال الذكر الذى فى يعمل من (من)، و موضع الفاء، و ما بعدها من قوله

ص: ٢١١

(فلا يخاف) الجزم، لكونه فى موضع جواب الشرط. و المبتدأ محذوف مراد بعد الفاء، و تقديره: فهو لا يخاف، و الأمر فى ذلك حسن، لأن تقديره من عمل صالحاً فليأمن، و لا يخف. و المراد الخبر بأن المؤمن الصالح لا خوف عليه و قوله (وَعَنْتِ الْوُجُوهُ) أى خضعت و ذلت خضوع الأسير فى يد القاهر له، و العانى الأسير، و يقال: عنا وجهى لربه يعنو عنواى ذل و خضع و منه: أخذت الشىء عنوة أى غلبة بذل المأخوذ منه، و قد يكون العنوة عن تسليم و طاعة، لأنه على طاعة الذليل للعزيز قال الشاعر:

هل انت مطيعى ايها القلب عنوة
و لم تلح نفس لم تلم فى اختيالها»١

و قال آخر:

فما أخذوها عنوة عن مودة
و لكن بضرب المشرفى استقالها»٢

و (عنت) ذلت - فى قول ابن عباس و مجاهد و قتادة. و (القيوم) قيل فى معناه قولان:

أحدهما - انه العالم فيما يستقيم به تدبير جميع الخلق، فعلى هذا لم يزل الله قيوماً و الثانى - انه القائم بتدبير الخلق، و هى مثل صفة حكيم على وجهين. و قال الجبائى: القيوم القائم بأنه دائم لا يبيد و لا يزول. و قال الحسن: هو القائم على كل نفس بما كست حتى يجزيها. و وجه (عنت الوجوه للحى القيوم) انها تدل عليه، لأن الفعل منه تعالى يدل على انه قادر و كونه قادراً يدل على انه عالم. و قيل: معنى (وَعَنْتِ الْوُجُوهُ) هو وضع الجبهة و الانف على الأرض فى السجود - فى قول طلق ابن حبيب

(١) تفسير الطبرى ١٦ / ١٤٢.

(٢) تفسير الطبرى ١٦ / ١٤٢ و القرطبي ١١ / ٢١٩ و اللسان (عنو)

ص: ٢١٢

و قوله (وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) أى خسر الثواب من جاء يوم القيامة كافراً ظالماً مستحقاً للعقاب. و (من) فى قوله (من الصالحات) زائدة عند قوم و المراد من يعمل الصالحات. و يحتمل ان تكون للتبويض، لان جميع الصالحات لا يمكن احد فعلها، فأخبر الله تعالى ان من يعمل الاعمال الصالحات، و هو مؤمن عارف بالله تعالى مصدق بأنبيائه (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَ لَا هَضْمًا) أى لا يخاف ظلماً بالزيادة فى سيئاته، و لا زيادة فى عقابه الذى يستحقه على معاصيه (وَ لَا هَضْمًا) أى و لا نقصاناً من حسناته و لا من ثوابه- فى قول ابن عباس و الحسن و قتادة- و قيل (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا) بأن لا يجزى بعلمه (و لا هضمًا) بالانتقاص من حقه- فى قول ابن زيد.

فمن قرأ «فلا يخاف» أراد الاخبار بذلك. و من قرأ «فلا يخف» معناه معنى النهى للمؤمن الذى وصفه عن أن يخاف ظلماً او هضمًا. و أصل الهضم النقص، يقال:

هضمنى فلان حقى اى نقصنى. و امرأة هضم الحشا أى ضامرة الكشحين بنقصانه عن حد غيره. و منه هضمت المعدة الطعام اى نقصت مع تغييرها له.

و قوله (وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) أى كما أخبرناك باخبار القيامة أنزلنا عليك يا محمد القرآن «وَ صَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ» أى ذكرناه على وجوه مختلفة، و بيناه بألفاظ مختلفة، لكى يتقوا معاصيه و يحذروا عقابه «او يحدث» القرآن «لهم ذكراً» و معناه ذكراً يعتبرون به. و قيل «ذكراً» اى شرفاً بايمانهم به.

ثم قال تعالى «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» اى ذو الحق، و معناه ارتفع- معنى صفته- فوق كل شىء سواه، لأنه اقدر من كل قادر، و اعلم من كل عالم سواه لأن كل قادر عالم سواه يحتاج اليه، و هو غنى عنه.

و قوله (وَ لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) اى لا تسأل انزاله قبل ان يأتىك وحيه. و قيل: معناه لا تلقه الى الناس قبل ان يأتىك بيان

ص: ٢١٣

تأويله. و قيل: لا تعجل بتلاوته قبل ان يفرغ جبرائيل من ادائه اليك.

و قوله (وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) اى استزد من الله علماً الى علمك. و

قال الحسن: كان النبي (ص) إذا نزل عليه الوحي عجل بقراءته مخافة نسيانه.

وقوله «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» قال ابن عباس و مجاهد: معناه عهد الله اليه، بأن أمره به و وصاه به «فنسى» اى ترك. و قيل إنما أخذ الإنسان من انه عهد اليه فنسى - فى قول ابن عباس - و قوله «وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» اى عقداً ثابتاً. و قال قتادة: يعنى صبراً. و قال عطية: اى لم نجد له حفظاً.

و العزم الارادة المتقدمة لتوطين النفس على الفعل.

و قرأ يعقوب «من قبل ان نقضى» بالنون و كسر الضاد و فتح الباء بعدها «وحيه» بنصب الباء. الباقر «يقضى» بناه لما لم يسم فاعله و رفع الباء فى قوله «وحيه»

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ١١٦ الى ١٢٠]

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى (١١٨) وَ أَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)

خمس آيات قرأ نافع و أبو بكر عن عاصم «و إنك لا تظمؤ» بكسر الهمزة على الاستئناف

ص: ٢١٤

و قطعه عن الأول. الباقر بالنصب عطفاً على اسم (أن).

يقول الله تعالى لنبيه (ص) يا محمد و اذكر حين قال الله تعالى «لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» اى أمرهم بالسجود له، و انهم سجدوا له بأجمعهم إلا إبليس و قد بينا - فيما تقدم - أن أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم يدل على تفضيله عليهم، و إن كان السجود لله تعالى لا لآدم. لأن السجود عبادة، لا يجوز أن يفعل إلا لله، فأما المخلوقات فلا تستحق شيئاً من العبادة بحال، لأن العبادة تستحق بأصول النعم و بقدر من النعم لا يوازئها نعمة منعم.

و قال قوم: ان سجد الملائكة لآدم كان كما يسجد الى جهة الكعبة - و هو قول الجبائى - و الصحيح الأول، لأن التعظيم الذى هو فى أعلى المراتب حاصل لله لا لآدم بإسجاد الملائكة له. و لو لم يكن الأمر على ما قلناه من أن فى ذلك تفضيلاً لآدم عليهم، لما كان لامتناع إبليس من السجود له وجه، و لما كان لقوله «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» «١» وجه. فلما احتج إبليس بأنه أفضل من آدم - و إن أخطأ فى الاحتجاج - علمنا أن موضوع الأمر بالسجود لآدم على جهة التفضيل، و إلا كان يقول الله لإبليس: إنى ما فضلته على من أمرته بالسجود لآدم و إنما السجود لى، و هو بمنزلة القبلة، فلا ينبغى أن تانف من ذلك. و قد بينا أن الظاهر -

في روايات أصحابنا- أن إبليس كان من جملة الملائكة،

و هو المشهور- في قول ابن عباس- و ذكره البلخي- فعلى هذا يكون استثناء إبليس من جملة الملائكة استثناء متصلاً. و من قال: إن إبليس لم يكن من جملة الملائكة قال: هو استثناء منقطع، و انما جاز ذلك، لأنه كان مأموراً ايضاً بالسجود له، فاستثنى على المعنى دون اللفظ، كما يقال: خرج أصحاب الأمير إلا الأمير، و كما قال عنتر

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١

ص: ٢١٥

ابن دجاجة:

فلبونه جريت معاً و اغذت

من كان أشرك في تفرق مالح

كالغصن في غلوائه المثبت

الا كنا شرة الذى ضيعتم

و المعنى لكن هذا كناشرة. و تقول: قام الأشراف للرئيس، إلا العامى الذى لا يلتفت اليه. قال الرماني: و إذا أمر الملائكة بالسجود اقتضى أن من دونهم داخل معهم، كما أنه إذا أمر الكبراء بالقيام للأمير اقتضى أن الصغار القدر، قد دخلوا معهم.

و قوله «أبى» معناه امتنع «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْوَجِكَ» حكاية عما قال الله لآدم: إن إبليس عدوك و عدو زوجتك يريد إخراجكما من الجنة، و نسب الإخراج الى إبليس إذ كان بدعائه و اغوائه.

و قوله «فتشقى» قيل: معناه تتعب بأن تأكل من كدّ يدك و ما تكتسبه لنفسك. و قيل: فتشقى على خطاب الواحد، و المعنى فتشقى أنت و زوجك، لأن أمرهما فى السبب واحد، فاستوى حكمهما لاستوائهما فى العلة. و قيل: خص بالشقاء لأن الرجل يكد على زوجته.

و قوله «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى» يعنى فى الجنة ما دمت على طاعتك لى و الامتثال لأمرى و انك «لَا تَعْرَى» فيها من الكسوة «وَ أَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا» أى لا تعطش فيها «وَ لَا تَضْحَى» أى لا يصيبك حر الشمس- و هو قول ابن عباس و سعيد بن جبير و قتادة- و قال عمر بن أبى ربيعة:

أى يخضر من البرد. وقيل: ليس فى الجنة شمس انما فيها نور و ضياء. و انما

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٢١ و روايته (يخضر) بدل (يخضر) و معناها واحد

ص: ٢١٦

الشمس فى سماء الدنيا خاصة. و ضحى الرجل يضحى إذا برز للشمس. قال أبو على:

إنما لم يجز أن يقول انك لا تجوع و إنك لا تظمأ. بغير فصل كراهة اجتماع حرفين متقاربين فى المعنى، فإذا فصل بينهما لم يكره ذلك، كما كرهوا: إن لزيداً قائم، و لم يكرهوا «إن فى ذلك لآيات» مع الفصل. و قال الرماني إنما جاز أن تعمل (ان) فى (أن) بفصل و لم يجز من غير فصل كراهية التعقيد بمدخلة المعانى المتقاربة، فاما المتباعدة فلا يقع بالاتصال فيها تعقيد، لأنها متباينة مع الاتصال لالفاظها، فلذلك جاز «إن لك ان لا تظمؤا فيها» و لم يجز ان انك لا تظمؤ، لأنه بغير فصل.

ثم اخبر تعالى أن إبليس وسوس لآدم، فقال له «هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ...» أى على شجرة إن تناولت منها بقيت فى الجنة مخلداً لا تخرج منها، و حصل لك ملك و سلطان لا يبلى على الأبد، و لا يهلك. و هى الشجرة التى نهاه الله تعالى عن تناولها. و قد قدمناه اختلاف المفسرين فى ماهية تلك الشجرة فيما مضى فلا وجه لإعادته.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ١٢١ الى ١٢٥]

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأِمَّا يَا تَيْنُكُم مِّنَى هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى (١٢٣) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥)

ص: ٢١٧

خمس آيات.

اخبر الله تعالى عن آدم و حواء أنهما أكلا من الشجرة التى نهى الله عن أكلها، و عندنا أن النهى كان على وجه التنزيه. و الأولى أن يكون على وجه الندب دون نهى الحظر و التحريم، لأن الحرام لا يكون إلا قبيحاً، و الأنبياء لا يجوز عليهم شىء من القبائح

لا كبيرها و لا صغيرها. و قال الجبائي: لا تقع معاصي الأنبياء إلا سهواً، فأما مع العلم بأنها معاصي فلا تقع. و قال قوم آخرون: إنه وقع من آدم أكل الشجرة خطأ، لأنه كان نهى عن جنس الشجرة فظن انه نهى عن شجرة بعينها، فأخطأ في ذلك. و هذا خطأ لأنه تنزيه له من وجه المعصية، و نسبة المعصية اليه من وجهين:

أحدهما - أنه فعل القبيح. و الثاني - أنه أخطأ في الاستدلال. و قال قوم: انها وقعت منه عمداً، و كانت صغيرة. وقعت محبطة. و قد بينا أن ذلك لا يجوز عليهم (ع) عندنا بحال. و قال الرماني: لما حلف إبليس لهما لم يقبلأ منه، و لم يصدقاه، و لكن فعلا ذلك لغلبة شهواتهما، كما يقول الغاوي للإنسان ازن بهذه المرأة، فإنك ان أخذت لم تحد، فلا يصدقه، و يزني بها لشهوته. و قال الحسن: أكلت حواء أولاً و ابت عليه ان يجامعها حتى يأكل منها، فأكل حينئذ.

و قوله «فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوَاتُهُمَا» أى ظهرت لهما عوراتهما، لان ما كان عليهما من اللباس نزع عنهما، و لم يكن ذلك على وجه العقوبة بل لتغيير المصلحة في نزعهما و إخراجهما من الجنة و اهباطهما الأرض و تكليفهما فيها. و انما جمع سواتهما، و هو لأثنين، لأن كل شئيين من شئيين، فهو من موضع التثنية جمع، لأن الاضافة تثنية

ص: ٢١٨

مع أنه لا إخلال فيه لمناسبة الجمع للتثنية. و قال السدي: كان لباس سواتهما الظفر.

و قوله «طفقا» يعنى ظلا، و جعلاً يفعلان.

و قوله «يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» فالخصف خيط الشىء بقطعة من غيره، يقال: خصفه يخصفه خصفاً، فهو خاصف و خصاف. و قيل: انهما كانا يطبقان ورق الجنة بعضه على بعض و يخيطان بعضه الى بعض ليسترا به سواتهما.

و قوله «وَوَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» معناه خالف ما أمره الله به فخاب ثوابه.

و المعصية مخالفة الأمر سواء كان واجباً او ندباً قال الشاعر:

أمرتک امرأ جازماً فعصيتنى «١»

و يقال ايضاً: أشرت عليك بكذا، فعصيتنى، و يقال غوى يغوى غواية و غياً إذا خاب، قال الشاعر:

و من يغو لا يعدم على الغى لائماً «٢»

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره

أى من يخب، و فى الكلام حذف، لان تقديره ان آدم تاب الى الله و ندم على ما فعل، فاجتبه الله و اصطفاه «فَتَابَ عَلَيْهِ» أى قبل توبته. و هداه الى معرفته و الى الثواب الذى عرضه له.

و قوله «قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» يعنى آدم و حواء و إبليس و ذريته. و قد بينا معنى الهبوط فيما تقدم «٣» و اختلاف الناس فيه. و المعنى أنه أخرج هؤلاء من الجنة بأن أمرهم بالخروج منها على وجه تغيير المصلحة فى أمره، و لإبليس على وجه العقوبة. و قد بينا فيما تقدم ان إخراج إبليس من الجنة، كان قبل ذلك حين أمره الله بالسجود لآدم فامتنع فلعنه و أخرجه، و انما أغوى آدم من

(١) مر هذا البيت كاملاً فى ٣٥٥ / ٦.

(٢) مر هذا البيت فى ٣١٢ / ٢ و ٣٩١ / ٤ و ٥٤٨ / ٥ و ٣٣٦ / ٦.

(٣) انظر ١ / ١٦٢ و ٤ / ٢٩٨

ص: ٢١٩

خارج الجنة، لأنه قيل: ان آدم كان يخرج الى باب الجنة. و ذكرنا أقوال المفسرين فى ذلك فيما مضى «١».

و قوله «فَأَمَّا يَا تَبِئْتِكُمْ مَنِى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى» معناه ان أتاكم هدى بمنى بأن أكلفكم، و انصب لكم الادلة على ما أمركم به من معرفتى و توحيدى و العمل بطاعتى، فمن اتبع أدلتى و عمل بما أمره به، فانه «لا يضل» فى الدنيا «و لا يشقى» فى الآخرة. و قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن و عمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا و لا يشقى فى الآخرة.

و قوله «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى» [أى من لم ينظر فى ذكرى الذى هو القرآن و الادلة المنصوبة على الحق و صدق عنها] «٢» «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى» فالضنك الضيق الصعب، منزل ضنك أى ضيق، و عيش ضنك، لا يتنى و لا يجمع و لا يؤنث، لأن أصله المصدر. ثم وصف به، قال عنتره:

أشدد و ان يلفوا بضعك أنزل

إن يلحقوا أكرر و ان يستلحموا

و قال ايضاً:

و الضنك: الضيق، فى قول مجاهد و قتادة. و قال الحسن و ابن زيد: المعيشة الضنك هو الضريع، و الزقوم فى النار. و قيل: الضريع شوكة من نار. و قال عكرمة و الضحاك: هو الحرام فى الدنيا الذى يؤدى الى النار. و قال ابن عباس: لأنه غير موقن بالخلف، فعيشه منغص. و قال ابو سعيد الخدرى و عبد الله بن مسعود و أبو

(١) انظر ١ / ١٦٢ و ٤ / ٢٩٨

(٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

(٣) البيت الأول فى ديوان (دار بيروت): ٥٧ و الثانى فى ٥٨

ص: ٢٢٠

صالح، و السدى، و

رواه ابو هريرة عن النبى (ص) أنه عذاب القبر

، و لقوله تعالى «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى» يقتضى انه عذاب القبر.

و قوله «وَوَحْشُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» قيل معناه نحشره يوم القيامة أعمى البصر. و قيل أعمى الحجة. و قيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدى إليها. و الأول هو الظاهر إذا اطلق. فمن قال: أعمى البصر قال: معناه لا يبصر فى حال و يبصر العذاب فى حال. و من قال: بالآخرة قال: هو أعمى عن جهات الخير لا يهتدى لشيء منها.

و قوله «قال ربِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا» حكاية عما يقول الذى يحشره أعمى «لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى» ذاهب البصر «وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا» أبصر بها. و هذا يقوى أنه أراد عمى البصر دون عمى البصيرة، لان الكافر لم يكن بصيراً فى الدنيا الا على وجه صحة الحاسة. و قيل معناه كنت بصيراً بحجتي عند نفسى.

قوله تعالى [سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٦ الى ١٣٠]

قال كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) وَ كَذَلِكَ نَجْزى مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فى مَساكِنِهِمْ إِنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لِأُولى النُّهى (١٢٨) وَ لَوْ

لَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِكَانَ لِرَامًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَ مِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ اطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)

ص: ٢٢١

خمس آيات.

قرأ الكسائي و ابو عمرو عن عاصم «ترضى» بضم التاء. الباوقون بفتحها.

هذا جواب من الله تعالى لمن يقول «لِمَ حَسَرْتَنِي أَعْمَى، وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا» فيقول الله له في جواب ذلك كما حشرتك أعمى مثل ذلك «أَتُنَكِّ آيَاتِنَا» يعنى أدلتنا و حججنا «فَنَسِيْتَهَا» أى تركتها و لم تعتبر بها، و فعلت معها ما يفعله الناسى الذى لم يذكرها أصلا، و مثل ذلك اليوم تترك من ثواب الله و رحمته و تحرم من نعمه، و تصير بمنزلة من قد ترك فى المنسى بعذاب لا يفنى.

ثم قال و مثل ذلك «نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ» على نفسه بارتكاب المعاصى، و ترك الواجبات و لم يصدق بآيات ربه و حججه.

ثم قال «وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ» بالنار «أَشَدُّ وَ أَبْقَى» لأنه دائم، و عذاب القبر و عذاب الدنيا يزول. و هذا يقوى قول من قال: إن قوله «مَعِيْشَةٌ ضَنْكًا» أراد به عذاب القبر. و لا يجوز أن يكون المراد بقوله «فَنَسِيْتَهَا» النسيان الذى ينافى العلم لأن ذلك من فعل الله لا يعاقب العبد عليه، اللهم إلا ان يراد ان الوعيد على التعرض لنسيان آيات الله فأجرى فى الذكر على نسيان الآيات للتحذير من الوقوع فيه.

ثم قال تعالى «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ» قيل: ان قريشاً كانت تنجر الى الشام فتمر بمساكن عاد و ثمود، فترى آثار إهلاك الله إياهم، فنبههم الله بذلك على معرفته و توحيده. و فاعل «يهدي» مضمير يفسره «كم أهلكنا» و المعنى او لم يهد لهم إهلاكنا من قبلهم من القرون. و يجوز أن يكون المضمير المصدر يفسره (كم أهلكنا) و موضع (كم) نصب ب (أهلكنا) فى قول الفراء

ص: ٢٢٢

و الزجاج. و قال بعضهم: انه رفع ب (يهدي) و هذا خطأ، لأنه خرج مخرج الاستفهام، كما يقول القائل: قد تبين لى أقام زيد أم عمرو؟. و قوله «ان فى ذلك» يعنى فى إهلاكنا القرون الماضية «لآيات» و حججاً لأولى العقول. و النهى العقول، على ما بيناه فى غير موضع «١».

و قوله «وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِكَانَ لِرَامًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى» فيه تقديم و تأخير و تقديره: و لو لا كلمة سبقت من ربك و اجل مسمى لكان لزاماً و معناه:

لو لا ما سبق من وعد الله بأن الساعة تقوم فى وقت بعينه و ان المكلف له اجل مقدر معين. لكان هلاكهم «لزماً» أى لازماً ابداً. و قيل: معناه فيصلاً يلزم كل انسان طائرته، ان خيراً فخييراً و ان شراً. فثراً، فالأول قول الزجاج، و الثانى قول أبى عبيدة. و قال قوم: عذاب اللزوم كان يوم بدر، قتل الله فيه الكفار، و لو لا ما قدر الله من آجال الباقين و وعدهم من عذاب الآخرة، لكان لازماً لهم ابداً فى سائر الازمان. و قال قتادة: الأجل الاول يعنى فى قيام الساعة و الثانى الذى كتبه الله للإنسان انه يقيه اليه.

ثم قال لنبيه محمد (ص) «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ» من كفرهم بتوحيد الله و جحدهم لنبوتك و أذاهم إياك بكلام يسمعونك ينتقل عليك «و سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» يعنى صلاة الفجر «و قَبْلَ غُرُوبِهَا» يعنى صلاة العصر «و مِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ» يعنى صلاة المغرب و العشاء «و أَطْرَافَ النَّهَارِ» صلاة الظهر فى قول قتادة- «و آتَاءِ اللَّيْلِ» ساعات الليل. و أحدها إني، قال السعدى:

بكل إني حذاه الليل ينتعل «٢»

حلو و مر كعصف القدح مرتة

و قيل فى قوله «و أَطْرَافَ النَّهَارِ» لم جمع؟ ثلاثة اقوال:

(١) انظر ٧ / ١٧٩.

(٢) انظر ٢ / ٥٦٤

ص: ٢٢٣

أولها- انه أراد أطراف كل نهار فالنهار فى معنى الجمع.

الثانى - انه بمنزلة قوله «فَقَدَّ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» «١» الثالث- انه أراد طرف أول النصف الاول، و آخر النصف الاول، و أول النصف الأخير، و آخر النصف الأخير، و لذلك جمع.

و قوله «لَعَلَّكَ تَرْضَى» معناه افعل ما أمرتك به لكى ترضى بما يعطيك الله من الثواب على ذلك. و من ضم التاء أراد: لكى نفعل معك من الثواب ما ترضى معه. و قيل: لكى ترضى بالشفاعة. و المعانى متقاربة، لأنه إذا أَرْضَى الله النبى (ص) فانه يرضى.

قوله تعالى: [سورة طه (٢٠): الآيات ١٣١ الى ١٣٥]

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأَمْرٌ أَهْلَكَ
بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ
مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَا أَهْلَكُنَا هُمْ بَعْدَآبٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نُنزِلَ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)

خمس آيات.

(١) سورة ٦٦ التحريم آية ٤

ص: ٢٢٤

قرأ «زهرة» - بفتح الهاء - يعقوب. وقرأ الباقر بسكونها، وهما لغتان.

وقرأ نافع و أبو جعفر - من طريق ابن العلاف - و أهل البصرة و حفص «أو لم تأتهم» بالتاء. الباقر بالياء. و قد مضى نظائره.

نهى الله تعالى نبيه محمداً (ص) و المراد به جميع المكلفين عن ان يمدوا أعينهم، و ينظروا إلى ما منع الله الكفار به، من نعيم الدنيا و لذاتها، و الامتاع الا لذات بما يدرك، و ذلك بما يرى من المناظر الحسنة و يسمع من الأصوات المطربة، و يشم من الروائح الطيبة، يقال: أمتعته إمتاعاً، و متعة تمتيعاً، إلا ان في متعه تكثر الامتاع.

و قوله «أزواجاً منهم» معناه أشكالاً منهم، من المزوجة بين الأشياء، و هى المشاكلة، و ذلك أنهم اشكال فى الذهاب عن الصواب.

و قوله «زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فالزهرة الأنوار التى تروث عند الرؤية، و من ذلك قيل للكوكب يزهر، لنوره الذى يظهر. و المعانى الحسنة زهرة النفوس.

و قوله «لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» معناه لنعاملهم معاملة المختبر، بشدة التعبد فى العمل بالحق فى هذه الأمور التى خلقناها لهم.

و قوله «وَرَزَقُ رَبِّكَ» يعنى الذى وعدك به فى الآخرة من الثواب «خَيْرٌ وَأَبْقَى» مما متعنا به هؤلاء فى الدنيا.

و

قيل إن هذه الآية نزلت على سبب، و ذلك أن النبى (ص) استسلف من يهودى طعاماً فأبى أن يسلفه إلا برهن، فحزن رسول الله (ص)، فأنزل الله هذه الآية تسليية له. و روى ذلك أبو رافع مولاه.

و قيل «زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» زينة الحياة الدنيا - فى قول قتادة -.

ثم قال لنبيه (ص) «وَأْمُرْ» يا محمد «أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» وقيل: المراد به أهل بيتك، و أهل دينك، فدخلوا كلهم فى الجملة «وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا» بالاستعانة بها على

ص: ٢٢٥

الصبر عن محارم الله. ثم قال له «لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ» الخطاب للنبي (ص) و المراد به جميع الخلق، فان الله تعالى يرزق خلقه، و لا يسترزقهم، فيكون أبلغ فى المنة «وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» يعنى العاقبة المحمودة لمن اتقى معاصى الله و اجتنب محارمه.

و فى الآية دلالة على وجوب اللطف، لما فى ذلك من الحجة، لمن فى المعلوم انه يصلح به، و لو لم يكن فيه حجة لجرى مجرى ان تقول: لولا فعلت بنا ما لا يحتاج اليه فى الدين، و لا الدنيا، من جهة أنه لا حجة فيه، كما لا حجة فى هذا.

و قوله «وَلَوْ أَنَا أَهْلَكُنَا هُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ» اخبار منه تعالى أنه لو أهلكتهم بعذاب أنزله عليهم جزاء على كفرهم «لَقَالُوا» يوم القيامة «لَوْ لَا أُرْسِلَتْ» اى هلا أرسلت «إِلَيْنَا رَسُولًا» يدعوننا الى الله و يأمرنا بتوحيده (فتتبع) أدلتك و (آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَنَخْزِيَ) اى قبل أن نهون، يقال: خزى يخزى إذا هان و افتضح.

و قوله (وَ قَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ) حكاية عما قال الكفار للنبي (ص) هلا يأتينا بآية من ربه يريدون الآية التى يقترحونها، لأنه اتى بالآيات. و من قرأ- بالتاء- وجه الخطاب اليه. و من قرأ- بالياء- حكى بأنهم قالوا فيما بينهم هلا يأتينا بالمعجز. او دلالة تدل على صدق قوله، فقال الله لهم (أَ وَ لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) يعنى ألسنا بينا ذلك فى الكتب التى أنزلناها على موسى و عيسى، فلم لم يؤمنوا بها و لم يصدقوا بها؟ و من قرأ- بالتاء- وجه الخطاب اليه، فقال الله تعالى لنبيه (قل) لهم يا محمد (كل متربص) اى كل واحد منا و منكم متربص، فنحن نتربص بكم وعد الله لنا فيكم و أنتم تتربصون بنا ان تموت، فتستريحوا (فستعلمون) اى سوف تعلمون فيما بعد (مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) يعنى الصراط المستقيم و (من) الذى (اهتدى) الى طريق الحق. و (من) يحتمل ان تكون نصباً إن كانت بمعنى الذى و ان تكون رفعاً على طريقة الاستفهام

ص: ٢٢٧

٢١- سورة الأنبياء

هى مكية فى قول قتادة و مجاهد و هى مائة و اثنتا عشرة آية فى الكوفى و احدى عشرة فى البصرى و المدنيين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السَّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)

بَلْ قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥)

خمس آيات.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر و خلفاً «قال ربى» على وجه الخبر. الباقون

ص: ٢٢٨

«قل ربى» على وجه الامر.

هذا اخبار من الله تعالى بأنه «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ» يعنى دنا وقت «حسابهم» و معناه دنا وقت اظهار ما للعبد و ما عليه ليجازى به و عليه. و الحساب إخراج مقدار العدد بعقد يحصل. و يقال: هو إخراج الكمية من مبلغ العدة. و قيل انه دنا لأنه بالاضافة الى ما مضى يسير.

و قيل: نزلت الآية فى أهل مكة استبطنوا عذاب الله تكذيباً بالوعيد، فقتلوا يوم بدر. و الاقتراب قصر مدة الشىء بالاضافة الى ما مضى من زمانه. و حقيقة القرب قلة ما بين الشئيين، يقال: قرب ما بينهما تقريباً إذا قلل ما بينهما من مدة او مسافة او اى فاصلة، و القرب قد يكون فى الزمان، و فى المكان، و فى الحال. و قد قيل: كل آت قريب، فلذلك وصف الله تعالى القيامة بالاقتراب، لأنها جائية بلا خلاف.

و قوله «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ» فالغفلة السهو، و هو ذهاب المعنى عن النفس و تقيضها اليقظة، و تقيض السهو الذكر، و هو حضور المعنى للنفس، و النسيان، هو عزوب المعنى عن النفس بعد حضوره. و قوله «معروضون» يعنى عن الفكر فى ذلك، و العمل بموجبه. و قيل: هم فى غفلة بالاشتغال بالدنيا، معروضون عن الآخرة.

و قيل: هم فى غفلة بالضلال، معروضون عن الهدى. و هو مثل ما قلناه.

و قوله «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ» معناه اى شىء من القرآن محدث بتنزيله سورة بعد سورة و آية بعد آية «إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» اى كل ما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل - فى قول الحسن و قتادة - و فى هذه الآية دلالة على ان القرآن محدث، لأنه تعالى اخبر انه ليس يأتىهم ذكر محدث من ربهم إلا استمعوه و هم لاعبون. و الذكر: هو القرآن قال الله تعالى «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

ص: ٢٢٩

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» «١» و قال «وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» «٢» يعنى القرآن، و يقويه فى هذه الآية قوله «إِلَّا اسْتَمْعُوهُ» و الاستماع لا يكون إلا فى الكلام، و قد وصفه بأنه محدث، فيجب القول بحدوثه.

و يجوز فى (محدث) الجر على انه صفة. و يجوز الرفع و النصب. فالنصب على الحال و الرفع على تقدير هو محدث. و لم يقرأ بهما، و قوله «لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» نصب (لاهيية) على الحال. و قال قتادة: معناه غافلة. و قال غيره: معناه طالبة للهو، هازلة. و اللهو الهزل الممتع. و قوله «وَ أَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» فموضع (الَّذِينَ ظَلَمُوا) من الاعراب يحتمل أن يكون رفعاً على البدل من الضمير فى قوله «وَ أسروا» ما قال تعالى «ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ» «٣» و يجوز ان يكون رفعاً على الاستئناف، و تقديره و هم الذين ظلموا. و يحتمل وجهاً ثالثاً- أن يكون خفضاً بدلا من الناس.

و المعنى ان الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله و جحدهم أنبيائه، و أخفوا القول فيما بينهم.

و قالوا «هل هذا» يعنون رسول الله «إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ». و قال قوم: معناه انهم أظهروا هذا القول. لأن لفظة أسروا مشتركة بين الإخفاء و الاظهار، و الأول أصح.

و قوله «أَفْتَاتُونَ السَّحْرَ» معناه أفتقلون السحر «وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» أى و أنتم تعلمون انه سحر. و قيل: معناه أفتعدلون الى الباطل و أنتم تعلمون الحق و تنكرون ثبوته.

ثم أمر نبيه (ص) فقال «قل» يا محمد «ربى» الذى خلقتنى و اصطفانى «يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» لا يخفى عليه شىء من ذلك بل يعلمه جميعه «وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أى هو من يجب أن يسمع المسموعات إذا وجدت عالم بجميع المعلومات

(١) سورة ١٥ / الحجر آية ٩.

(٢) سورة ١٦ النحل آية ٤٤

(٣) سورة ٥ المائدة آية ٧٤

ص: ٢٣٠

و قوله «بَلْ قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ» فالمعنى فى (بل) الاضراب بها عما حكى انهم قالوه أولاً، و الاخبار عما قالوه ثانياً، لأنهم أولاً قالوا: هذا الذى أتانا به من القرآن (أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ) اى تخاليط رؤيا، رآها فى المنام- فى قول قتادة- قال الشاعر:

كضغت حلم عزمته حالمة «١»

ثم قالوا: لا (بَلِ افْتَرَاهُ) اى تخرصه و افتعله. ثم قالوا: (بَلِ هُوَ شَاعِرٌ) و انما قالوا: هو شاعر، قول متحير، قد بهره ما سمع، فمرة يقول ساحر، و مرة يقول شاعر. و لا يجزم على أمر واحد. قال المبرد: فى (أسروا) إضمار هؤلاء اللاهية قلوبهم، و الذين ظلموا بدلا منه. و قال قوم: قدم علامة الجمع، لان الواو علامة الجمع، و ليست بضمير، كقولهم: انطلقوا إخوتك، و انطلقا صاحبك، تشبيها بعلامة التأنيث، نحو: ذهبت جاريتك، و هذا يجوز، لكن لا يختار فى القرآن مثله.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦ الى ١٠]

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَ مَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

(١١) تفسير القرطبي ٢٧٠ / ١١

ص: ٢٣١

خمس آيات.

قرأ عاصم «نوحى» بالنون. الباقون - بالياء - على ما لم يسم فاعله. من قرأ بالنون أراد الاخبار من الله تعالى عن نفسه، بدلالة قوله «وَ مَا أَرْسَلْنَا» لأن النون و الالف اسم الله.

لما حكى الله تعالى ما قال الكفار فى القرآن، الذى أنزله الله على نبيه محمد (ص) من أنهم قالوا تارة: هو أضغاث أحلام، يريدون أقاويله. و تارة قالوا:

بل اختلقه و افتعله. و تارة قالوا: هو شاعر، لتحيرهم فى أمره. ثم قالوا (فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ) غير هذا على ما يقترحونها (كَمَا أُرْسِلَ) الأنبياء (الأولون) بمثلها، فقال الله تعالى (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ) اى انا أظهرنا الآيات التى اقترحوها على الأمم الماضية، فلم يؤمنوا عندها، فأهلكناهم، فهؤلاء أيضاً لا يؤمنون لو أنزلنا ما أرادوه. و أراد الله بهذا الاحتجاج عليهم ان يبين ان سبب مجيء الآيات ليس لأنه سبب يؤدى الى ايمان هؤلاء، و انما مجيئها لما فيها من اللطف و المصلحة، بدلالة انها لو كانت سبباً لايمان هؤلاء لكانت سبباً لايمان أولئك، فلما بطل ان تكون سبباً لايمان أولئك، بطل ان تكون سبباً لايمان هؤلاء على هذا الوجه. و قيل: ان معناه إنا لما أظهرنا الآيات التى اقترحوها على الأمم الماضية، فلم يؤمنوا أهلكتناهم، فلو أظهرنا على هؤلاء مثلها لم يؤمنوا و كانت تقتضى المصلحة ان نهلكهم. و مثله قوله (وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) «١» و قال الفراء: المعنى ما آمنت قبلهم أمة جاءتهم آية، فكيف يؤمن هؤلاء!.

ثم اخبر تعالى انه لم يرسل قبل نبيه محمد (ص) الى الأمم الماضية

(إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) ووجه الاحتجاج بذلك انه لو كان يجب ان يكون الرسول الى هؤلاء الناس من غير البشر، كما طلبوه، لوجب ان يكون الرسول الى من تقدمهم من غير البشر، فلما صح إرسال رجال الى من تقدم، صح الى من تأخر. وقال الحسن: ما أرسل الله امرأة: ولا رسولا من الجن، و لا من اهل البادية. و وجه اللطف فى إرسال البشر ان الشكل الى شكله آنس، و عنه افهم و من الأنفة منه ابعد، لأنه يجرى مجرى النفس، و الإنسان لا يأنف من نفسه.

ثم قال لهم «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» عن صحة ما أخبرتكم به من انه لم يرسل الى من تقدم إلا الرجال من البشر و فى الآية دلالة على بطلان قول ابن حائط: من أن الله تعالى بعث الى البهائم و الحيوانات كلها رسلا.

و اختلفوا فى المعنى بأهل الذكر،

فروى عن أمير المؤمنين (ع) انه قال: (نحن اهل الذكر)

و يشهد لذلك أن الله تعالى سمي نبيه ذكراً بقوله «ذِكْرًا رَسُولًا» «١» و قال الحسن: و قتادة: هم أهل التوراة و الإنجيل. و قال ابن زيد:

أراد اهل القرآن، لان الله تعالى سمي القرآن ذكراً فى قوله «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» «٢» و قال قوم: معناه و أسألوا اهل العلم باخبار من مضى من الأمم هل كانت رسل الله رجالا من البشر أم لا؟.

و قيل فى وجه الأمر بسؤال الكفار عن ذلك قولان:

أحدهما- انه يقع العلم الضرورى بخبرهم إذا كانوا متواترين، و أخبروا عن مشاهدة، هذا قول الجبائى.

و الثانى- ان الجماعة الكثيرة إذا أخبرت عن مشاهدة حصل العلم بخبرها إذا

كانوا بشروط المتواترين و إن لم يوجب خبرهم العلم الضرورى.

و قال البلخى: المعنى انك لو سألتهم عن ذلك لأخبروك أنا لم نرسل قبلك إلا رجالاتنا. و قال قوم: أراد من آمن منهم. و لم يرد الأمر بسوء ال غير المؤمن.

ثم اخبر تعالى انه لم يبعث رسولا ممن أرسله إلا و كان مثل سائر البشر يأكل اطعام، و انه لم يجعلهم مثل الملائكة لا يأكلون الطعام، و أنهم مع ذلك لم يكونوا خالدين مؤبدين، بل كان يصيبهم الموت و الفناء كسائر الخلق. و انما وحد «جسداً» لأنه مصدر يقع على القليل و الكثير، كما لو قال: و ما جعلناهم خلقاً.

ثم قال تعالى «ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ» يعنى الأنبياء الماضين ما وعدناهم به من النصر و النجاة، و الظهور على الاعداء، و ما وعدناهم به من الثواب. فأنجيناهم من أعدائهم، و معهم من نشاء من عبادنا، و أهلكتنا المسرفين على أنفسهم، بتكذيبهم للأنبياء. و قال قتادة: المسرفون هم المشركون. و المسرف الخارج عن الحق الى ما تباعد عنه. يقال: أسرف إسرافاً إذا جاوز حد الحق و تباعد عنه.

ثم اقسم تعالى بقوله «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ»، لان هذه اللام يتلقى بها القسم، بأننا أنزلنا عليكم «كتاباً» يعنى القرآن (فيه ذكركم) قال الحسن: معناه فيه ما تحتاجون اليه من أمر دينكم. و قيل: فيه شرفكم إن تمسكتم به، و عملتم بما فيه.

و قيل: ذكر، لما فيه من مكارم الأخلاق، و محاسن الافعال (أفلا تعقلون) يعنى أفلا تتدبرون، فتعلموا أن الأمر على ما قلناه.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١١ الى ١٥]

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْتَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

ص: ٢٣٤

خمسة آيات.

يقول الله تعالى مخبراً انه قصم قرى كثيرة، و يريد أهلها. و قوله «كَانَتْ ظَالِمَةً» لما أضاف الهلاك الى القرية أضاف الظلم اليها. و التقدير قصمنا اهل قرية كانوا ظالمين لنفوسهم، بمعاصي الله، و ارتكاب ما حرمه. و (كم) للكثرة و هى ضد (رب) لان (رب) للتقليل. و (كم) فى موضع نصب ب (قصمنا). و القصم كسر الصلب قهراً. قصمه يقصمه قصماً، فهو قاصم الجبارة، و انقصم انقصاماً مثل انقص انقصافاً.

وقوله «وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ» يعنى أوجدنا بعد هلاك أولئك قوماً آخرين. و الإنشاء إيجاد الشيء من غير سبب يولده، يقال انشأه إنشاءً. و النشأة الاولى الدنيا، و النشأة الثانية الآخرة. و مثل الإنشاء الاختراع و الابتداء - هذا فى اللغة - فأما فى عرف المتكلمين، فالاختراع هو ابتداء الفعل فى غير محل القدرة عليه.

و قوله «فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا» معناه لما أدركوا بحواسهم عذابنا، و الاحساس الإدراك بحاسة من الحواس الخمس: السمع: و البصر، و الانف، و الفم، و البشرة.

يقال: أحسه إحساساً و أحس به. و قال قوم: أراد عذاب الدنيا. و قال آخرون:

أراد عذاب الآخرة.

و قوله «إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ» فالركض العدو بشدة الوطء، ركض فرسه

ص: ٢٣٥

إذا حثه على المر السريع، فمعنى «يَرْكُضُونَ» يهربون من العذاب سراعاً، كالمنهزم من عدو. فيقول الله تعالى لهم «لَا تَرْكُضُوا» أى لا تهربوا من الهلاك «وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ» أى ارجعوا إلى ما كنتم تنعمون فيه، تويخاً لهم و تقريباً على ما فرط منهم. و معنى «مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ» نعمتم، فالمترف المنعم و التترف التمتع، و هى طلب النعمة. «وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ» أى ارجعوا إلى مساكنكم لكى تفيقوا بالمسألة - فى قول مجاهد - و قال قتادة: إنما هو تويخ لهم فى الحقيقة. و المعنى تسألون من انبيائكم؟ على طريق الهزم بهم، فقالوا عند ذلك معترفين على نفوسهم بالخطي «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» لنفوسنا بترك معرفة الله و تصديق أنبيائه، و ركوب معاصيه. و الويل الوقوع فى الهلكة. و نصب على معنى ألزمتنا ويلنا.

ثم اخبر الله تعالى عنهم بأن ما حكاه عنهم من الويل «دعواهم» و نداؤهم أبدأً «حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ» بالعذاب - فى قول الحسن - و قال مجاهد:

يعنى بالسيف، و هو قتل (بخت نصر) لهم. و الحصيد قتل الاستئصال، كما يحصد الزرع بالمنجل، و الخمود كخمود النار إذا طفيت.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٦ الى ٢٠]

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمْ الأُويلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَ لَهُ مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)

ص: ٢٣٦

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً على وجه التمدح: إنا «ما خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُمَا» أى ما أنشأناها «للاعبين» و نصبه على الحال. و اللعب الفعل الذى يدعو اليه الجهل بما فيه من النقص، لان العلم يدعو الى أمر، و الجهل يدعو الى خلافه.

و العلم يدعو الى الإحسان. و الجهل يدعو الى الاساءة لتعجيل الانتفاع. و اللعب يستحيل فى صفة القديم تعالى، لأنه عالم لنفسه. بجميع المعلومات غنى عن جميع الأشياء، و لا يمتنع وصفه بالقدرة عليه كما تقول فى سائر القبائح، و إن كان المعلوم أنه لا يفعله، لما قدمناه.

ثم قال تعالى «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا» قال الحسن و مجاهد: اللهو المرأة. و قال قتادة: اللهو المرأة- بلغة أهل اليمن- و هو من اللهو المعروف، لأنه يطلب بها صرف الهم. و هذا إنكار لقولهم: الملائكة بنات الله، و المسيح ابن الله تعالى الله عن ذلك، و روى عن الحسن البصرى أيضاً أنه قال:

اللهو الولد.

و وجه اتصال الآية بما قبلها أن هؤلاء الذين وصفوهم أنهم بنات الله، و أبناء الله هم عبيد الله، على أتم وجه العبودية، و ذلك يحيل معنى الولادة لأنها لا تكون إلا مع المجانته. و معنى «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا» الإنكار على من أضاف ذلك الى الله، و محتجته بأنه لو كان جائزاً فى صفته لم يتخذه بحيث يظهر لكم أو لغيركم من العباد، لما فى ذلك من خلاف صفة الحكيم الذى يقدر أن يستر النقص، فيظهره. و انما استحال اللهو على الله تعالى، لأنه غنى بنفسه عن كل شىء سواه، يستحيل عليه المرح. و اللاعى المارح و الملتذ بالمناظر الحسنة و الأصوات المؤنقة.

ص: ٢٣٧

و قوله «إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ» قيل فى معنى (ان) قولان:

أحدهما- انها بمعنى (ما) التى للنفى، و المعنى لم نكن فاعلين.

و الآخر- انها بمعنى التى للشرط، و المعنى إن كنا نفعل ذلك، فعلناه من لدا، على ما أردناه إلا انا لا نفعل ذلك.

و قوله «من لدا» قيل: معناه مما فى السماء من الملائكة. و قال الزجاج:

معناه مما نخلقه. ثم قال تعالى «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ» معناه إنا نلقى الحق على الباطل فيهلكه، و المراد به إن حجج الله تعالى الدالة على الحق تبطل شبهات الباطل. و يقال: دمع الرجل إذا شج شجة تبلغ أم الدماغ، فلا يحيا صاحبها بعدها.

و قوله «فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» أى هالك مضمحل، و هو قول قتادة. يقال: زهق زهوقاً إذا هلك. ثم قال لهم، يعنى الكفار «وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» يعنى الوقوع فى العقاب، جزاء على ما تصفون الله به من اتخاذ الأولاد.

ثم اخبر الله تعالى بأن «لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ» يعنى الملائكة أى يملكهم بالتصرف فيهم (لا يستكبرون) هؤلاء عن عبادة الله (و لا يستحسرون) قال قتادة: معناه لا يعيون. و قال ابن زيد: لا يملون، من قولهم:

بعير حسير إذا أعيا و نام. و منه قول علقمة بن عبدة:

فيبيض و اما جلدها فصليب «١»

بها جيف الحسرى فأما عظامها

و قيل: معناه يسهل عليهم التسييح، كسهولة فتح الطرف و النفس - فى قول كعب - و الاستحسار الانتقطاع من الاعياء مأخوذ من قولهم حسر عن ذراعه إذا كشف عنه.

ثم وصف تعالى الذين ذكرهم بأنهم (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ) أى ينزهونه عما أضافه هؤلاء الكفار اليه من اتخاذ صاحبة و الولد. و غير ذلك من

(١) تفسير الطبرى ٩ / ١٧

ص: ٢٣٨

القبائح (لا يفترون) أى يملونه فيتركونه بل هم دائمون عليه.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢١ الى ٢٥]

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْئَلُ عَمَّا يُفَعَّلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعَى وَ ذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

خمس آيات يقول الله تعالى إن هؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله شركاء عبدوهم و جعلوها آلهة «هُمْ يُنْشِرُونَ» أى هم يحبون؟ تقریباً لهم و تعنيفاً لهم على خطيئهم - فى قول مجاهد - يقال: أنشر الله الموتى فنشروا أى أحياهم فحيوا و هو النشر بعد الطي، لان المحيا كأنه كان مطويماً بالقبض عن الإدراك، فأنشر بالحياة. و المعنى فى ذلك أن هؤلاء إذا كانوا لا يقدررون على

الأحياء الذى من قدر عليه قدر على أن ينعم بالنعم التى يستحق بها العبادة فكيف يستحقون العبادة؟! و حكى الزجاج: انه قرئ- بفتح الشين- و المعنى هل اتخذوا آلهة لا يموتون أبداً، و يبقون أحياء أبداً؟! أى لا يكون ذلك.

ثم قال تعالى «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ» يعنى فى السماء و الأرض آلهة أى من يحق له العبادة «غير الله لفسدتا» لأنه لو صح إلهان او آلهة لصح بينهما التمانع.

ص: ٢٣٩

فكان يؤدى ذلك الى ان أحدهما إذا أراد فعلا، و أراد الآخر ضده، إما ان يقع مرادهما. فيؤدى الى اجتماع الضدين أولاً يقع مرادهما، فينتقض كونهما قادرين، او يقع مراد أحدهما. فيؤدى الى تقض كون الآخر قادراً. و كل ذلك فاسد، فإذا لا يجوز أن يكون الآله إلا واحداً. و هذا مشروح فى كتب الأصول.

ثم نزه تعالى نفسه عن ان يكون معه إله يحق له العبادة، بأن قال «فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» و انما أضافه الى العرش، لأنه أعظم المخلوقات. و من قدر على أعظم المخلوقات كان قادراً على ما دونه.

ثم قال تعالى «لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ» لأنه لا يفعل إلا ما هو حكمة و صواب، و لا يقال للحكيم لو فعلت الصواب «وَهُمْ يُسْئَلُونَ» لأنه يجوز عليهم الخطأ.

ثم قال «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» معنى (ام) بل. ثم قال: قل لهم يا محمد «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» على ذلك و حججكم على صحة ما فعلتموه. فالبرهان هو الدليل المؤدى الى العلم، لأنهم لا يقدرون على ذلك ابداً.

و فى ذلك دلالة على فساد التقليد، لأنه طالبهم بالحجة على صحة قولهم.

قال الرماني (إلا) فى قوله «إلا الله» صفة، و ليست باستثناء، لأنك لا تقول لو كان معناه إلا زيد لهلكننا، على الاستثناء. لان ذلك محال، من حيث انك لم تذكر ما تستثنى منه كما لم تذكره فى قولك كان معنا إلا زيد، فهلكننا قال الشاعر:

لعمر أيبك الا الفرقدان «١»

و كل أخ مفارقه اخوه

أراد و كل أخ يفارقه اخوه غير الفرقدين. ثم قال لنبيه (ص) و قل لهم:

«هذا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ» بما يلزمهم من الحلال و الحرام و الخطأ و الصواب، (و ذكر من قبلى) من الأمم، ممن نجا بالايمان او هلك بالشرك - فى قول قتادة - و قيل:

ص: ٢٤٠

معناه ذكر من معى بالحق فى اخلاص الالهية و التوحيد فى القرآن، و على هذا (ذكر من قبلى) فى التوراة و الإنجيل.

ثم اخبر ان (أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ) و لا يعرفونه، فهم يعرضون عنه الى الباطل. ثم قال لنبيه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ) يا محمد (من رسول) اى رسولا، و (من) زائدة (إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ) نحن، فيمن قرأ بالنون. و من قرأ - بالياء - معناه الا يوحى الله اليه، بأنه لا معبود على الحقيقة سواه (فاعبدون) اى وجهوا العبادة اليه دون غيره.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُسْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكِ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)

خمس آيات.

حكى الله تعالى عن الكفار الذين تقدم ذكرهم أنهم «قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا» أى تبنا الملائكة بناتاً، فزعه الله تعالى نفسه عن ذلك بأن قال «سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ» أى هؤلاء الذين جعلوهم أولاد الله هم عبيد لله مكرمون لديه، و (عباد)

ص: ٢٤١

رفع بأنه خبر ابتداء و تقديره هم عباد، و لا يجوز عليه تعالى التبنى، لأن التبنى إقامة المتخذ لولد غيره مقام ولده لو كان له، فإذا استحال أن يكون له تعالى ولد على الحقيقة استحال أن يقوم ولد غيره مقام ولده، و لذلك لا يجوز أن يشبهه بخلقه على وجه المجاز، لما لم يكن مشبهاً به على الحقيقة.

و الفرق بين الخلّة و النبوة أن الخلّة إخلاص المودة بما يوجب الإخلاص و الاختصاص بتخلل الاسرار، فلما جاز أن يطلع الله ابراهيم على أسرار لا يطلع عليها غيره تشريفاً له اتخذه خليلاً على هذا الوجه، و النبوة ولادة ابن أو إقامة مقام ابن لو كان للمتخذ له. و هذا المعنى لا يجوز عليه تعالى كما يستحيل أن يتخذ إلهاً تعالى الله عن ذلك.

ثم وصف تعالى الملائكة بأنهم «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» و معناه لا يخرجون بقولهم عن حد ما أمرهم به، طاعة لربهم، و ناهيك بهذا إجلالاً لهم و تعظيماً لشأنهم «وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» أى لا يعملون القبائح و إنما يعملون الطاعات التى أمرهم بها.

وقوله «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» قال ابن عباس: معناه يعلم ما قدموا وما آخروا من أعمالهم. وقال الكلبي «ما بين أَيْدِيهِمْ» يعنى القيامة و أحوالها «وَمَا خَلْفَهُمْ» من أمر الدنيا «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» قال أهل الوعيد:

معناه لا يشفع هؤلاء الملائكة الا لمن ارتضى الله جميع عمله، قالوا: وذلك يدل على أن اهل الكبائر لا يشفع فيهم، لان أعمالهم ليست رضا لله. وقال مجاهد: معناه الا لمن رضى عنه.

وهذا الذى ذكره ليس فى الظاهر، بل لا يمتنع ان يكون المراد لا يشفعون الا

ص: ٢٤٢

لمن رضى الله ان يشفع فيه، كما قال تعالى «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» ﴿١﴾ و المراد أنهم لا يشفعون الا من بعد اذن الله لهم، فيمن يشفعون فيه، و لو سلمنا أن المراد الا لمن رضى عمله، لجاز لنا أن نحمل على أنه رضى إيمانه. و كثيراً من طاعاته.

فمن أين أنه أراد: الا لمن رضى جميع اعماله؟! و معنى - رضا الله - عن العبد إرادته لفعله الذى عرض به للتواب.

وقوله «وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ» يخافون من عقاب الله من مواجهة المعاصى.

ثم هدد الملائكة بقوله «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ» تحق لى العبادة من دون الله «فَذَلِكِ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ» معناه إن ادعى منهم مدع ذلك فانا نجزيه بعذاب جهنم، كما نجازى الظالمين بها. و قال ابن جريج، و قتادة: عنى بالآية إبليس، لأنه الذى ادعى الالهية من الملائكة دون غيره، و ذلك يدل على ان الملائكة ليسوا مطبوعين على الطاعات، كما يقول الجهال. و قوله «كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» معناه مثل ما جازينا هؤلاء نجزي الظالمين أنفسهم بفعل المعاصى.

ثم قال «أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا» أى او لم يعلموا «أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» و قيل فى معناه اقوال:

قال الحسن و قتادة «كَانَتَا رَتْقًا» أى ملتصقتين ففصل الله بينهما بهذا الهواء.

و قيل

«كَانَتَا رَتْقًا» السماء لا تمطروا الأرض لا تنبت، ففتق الله السماء بالمطر و الأرض بالنبات، ذكره ابن زيد و عكرمة. و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

و قيل معناه: كانتا منسدتين لا فرج فيهما فصدعهما عما يخرج منهما. و انما قال:

السماوات، و المطر و الغيث ينزل من سماء الدنيا، لأن كل قطعة منها سماء، كما يقال:

ثوب أخلاق، و قميص اسمال. و قيل الرتق الظلمة ففتقهما بالضياء. و انما قال «كانتا» و السموات جمع، لأنهما صنفان، كما قال الأسود بن يعفر النهشلي:

إن المنية و الحتوف كلاهما يوقى المحارم يرقبان سوادى «١»

لأنه على النوعين، و قال القطامي:

ألم يحزنك أن جبال قيس و تغلب قد تباينتنا انقطاعا «٢»

فثنى الجمع لما قسمه صنفين صنف لقيس و صنف لتغلب، و (الرتق) السد رتق فلا الفتق رتقاً إذا سده، و منه الرتقاء: المرأة التى فرجها ملتحم. و وحده لأنه مصدر وصف به.

و قوله «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» و المعنى إن كل شىء صار حياً: فهو مجعول من الماء. و يدخل فيه الشجر و النبات على التبع. و قال بعضهم: أراد بالماء النطف التى خلق الله منها الحيوان. و الاول أصح.

و قوله «أَفَلَا يُؤْمِنُونَ» معناه أفلا يصدقون بما أخبرتهم. و قيل: معناه أفلا يصدقون بما يشاهدونه، من أفعال الله الدالة على أنه المستحق للعبادة لا غير و المختص بها، و انه لا يجوز عليه اتخاذ الصاحبة و الولد.

و قرأ ابن كثير وحده «ألم ير الذين كفروا» بغير واو. الباقون «أو لم» بالواو. و الألف التى قبل الواو، الف توييح و تقرير.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣١ الى ٣٥]

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)

ص: ٢٤٤

خمس آيات.

قال المبرد: معنى «أَنْ تَمِيدَ» أى منع الأرض «أَنْ تَمِيدَ» أى لهذا خلقت الجبال. و مثله قوله «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا» «١» و المعنى عدة أن تضل أحدهما، كقول القائل: أعددت الخشبة أن يميل الحائل فأدعمه. و هو لم يعدها ليميل الحائط، و انما جعلها عدة، لأن يميل، فيدعم بها.

يقول الله تعالى انا «جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ» و هى الجبال، و أحدها راسية يقال: رست ترسو رسواً إذا ثبتت بثقلها، و هى راسية، كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكنة فى وقوفها «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» معناه ألا تميد بكم، كما قال «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضَلُّوا» «٢» و المعنى ألا تضلوا. و قال الزجاج: معناه كراهة أن تميد بكم. و الميد الاضطراب، بالذهاب فى الجهات، يقال: ماد يמיד ميذاً، فهو مائد. و قيل: إن الأرض كانت تميد و ترجف، رجوف السفينة بالوطء، فنقلها الله تعالى بالجبال الرواسى - لتمتنع من رجوفها. و الوجه فى تنقيب الله تعالى الأرض بالرواسى مع قدرته على إمساك الأرض أن تميد، ما فيه من المصلحة و الاعتبار، و كان ابن الاخشاذ

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢.

(٢) سورة ٤ النساء آية ١٧٥

ص: ٢٤٥

يقول: لو لم يتقل الله الأرض بالرواسى لأمكن العباد أن يحركوها بما معهم من القدر، فجعلت على صفة ما لا يمكنهم تحريكها. و قال قتادة: تميد بهم معناه تمور، و لا تستقر بهم.

و قوله «وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً» يعنى فى الأرض طرقاً، و الفج الطريق الواسع بين الجبلين.

و قوله «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» أى لكى تهتدوا فيها الى حوائجكم و مواطنكم، و بلوغ أغراضكم. و يحتمل أن يكون المراد لتهتدوا، فاستدلوا بذلك على توحيد الله و حكمته.

و قال ابن زيد: معناه ليظهر شكركم، فيما تحبون، و صبركم فيما تكرهون.

و قوله «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا» و انما ذكرها، لأنه أراد السقف، و لو أنث كان جائزاً. و قيل: حفظها الله من أن تسقط على الأرض. و قيل: حفظها من أن يطمع احد ان يتعرض لها بنفض، و من ان يلحقها ما يلحق غيرها من الهدم او الشعث، على طول الدهر. و قيل: هي محفوظة من الشياطين بالشهب التي يرمون بها.

و قوله «وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ» اى هم عن الاستدلال بحججها و أدلتها، على توحيد الله معرضون.

ثم قال تعالى مخبراً، بأنه «هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» و اخبر ان جميع ذلك «فِي فَلَكَ يَسْبُحُونَ» فالفلك هو المجرى الذى تجرى فيه الشمس و القمر، بدورانها عليه- فى قول الضحاك- و قال قوم: هو برج مكفوف تجريان فيه. و قال الحسن: الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل. و الفلك فى اللغة كل شىء دائر، و جمعه أفلاك قال الراجز:

ص: ٢٤٦

حتى الصباح تعمل الاقتارا»١

باتت تناصى الفلك الدوارا

و معنى «يسبحون» يجرون- فى قول ابن جريج- و قال ابن عباس «يسبحون» بالخير و الشر، و الشدة و الرخاء. و انما قال «يسبحون» على فعل ما يعقل، لأنه أضاف اليها الفعل الذى يقع من العقلاء، كما قال «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأْيُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» و «٢» و قال «لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ»، «٣» و قال النابغة الجعدى:

إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا»٤

تمزنتها و الديك يدعوا صباحه

و قوله «كُلُّ فَلَكَ يَسْبُحُونَ» أراد الشمس و القمر و النجوم، لأن قوله «الليل» دل على النجوم.

ثم قال لنبية (ص) و «ما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ» أى البقاء دائماً فى الدنيا «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ» اى لم يجعل لهم الخلود، حتى لو مت أنت لبقوا أولئك مخلصين، بل ما أولئك مخلصين. ثم أكد ذلك، و بين بأن قال «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» و المعنى لا بد لكل نفس حية بحياة أن يدخل عليها الموت، و تخرج عن كونها حية. و انما قال (ذائقة) لان العرب تصف كل أمر شاق على النفس بالذوق كما قال «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ» «٥». و قال الفراء: إذا كان اسم الفاعل لما مضى جازت الاضافة، و إذا كان للمستقبل، فالاختيار التنوين، و نصب ما بعده.

ثم قال تعالى «وَنَبَلُوكُمْ» أى نختبركم معاشر العقلاء بالشر والخير، يعنى بالمرض والصحة. والرخص والغلاء، وغير ذلك من انواع الخير والشر «فتنة»

(١) تفسير الطبرى ١٧ / ١٦.

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ٤

(٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ٦٥.

(٤) هو فى مجمع البيان ٤ / ٤٦

(٥) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٩

ص: ٢٤٧

أى اختباراً منى لكم، و تكليفاً لكم. ثم قال «وَاللَّيْنَا تُرْجَعُونَ» يوم القيامة. فيجازى كل انسان على قدر عمله. و دخلت الفاء فى قوله «أفان» و هى جزء، و فى جوابه، لان الجزء متصل بكلام قبله. و دخلت فى (فهم) لأنه جواب الجزء، و لو لم يكن فى (فهم) الفاء، كان جائزاً على وجهين:

أحدهما- ان تكون مرادة، و قد حذفت.

و الأخرى- أن تكون قد قدمت على الجزء، و تقديره (أفهم الخالدون) إن مت.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أ هَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأْرِيكُمْ آيَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ (٣٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكْفُونِ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَ لا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)

خمس آيات.

يقول الله تعالى لنبىه محمد (ص) إنه «إِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا» و جحدوا و حدانية الله، و لم يقروا بنبوتك «إِنْ يَتَّخِذُونَكَ» أى ليس يتخذونك «إلا هزوا» يعنى سخريه، جهلا منهم و سخفاً و فى ذلك تسلية لكل محق يلحقه أذى

ص: ٢٤٨

من جاهل مبطل. و الهزؤ إظهار خلاف الإبطان، لإيهام النقص عن فهم القصد.

يقال: هزئ منه يهزأ هزؤاً، فهو هازئ، و مثله السخرية «أ هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ» حكاية، أى يقولون ذلك، و معناه إنهم يعيبون من جحد إلهية من لا نعمة له، و هم يجحدون إلهية من كل نعمة، فهي منه، و هذا نهاية الجهل. و المعنى أ هذا الذى يعيب آلِهَتكم، تقول العرب، فلان يذكر فلاناً أى يعيبه، قال عنتره:

لا تذكرى مهري و ما أطعمته
فيكون جلدك مثل جلد الاجراب»١

و قوله «وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ» معناه و هم بذكر توحيد الرحمن «هُمْ كَافِرُونَ».

و قوله «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ» قال قتادة: معناه خلق الإنسان عجولاً. و المراد به جنس الإنسان. و قال السدى: المعنى به آدم (ع). و قال مجاهد: خلق الإنسان على تعجيل، قبل غروب الشمس يوم الجمعة. و قال ابو عبيدة: معناه خلقت العجلة من الإنسان، على القلب. و هو ضعيف، لأنه لا وجه لحمله على القلب. و قال قوم:

معناه على حب العجلة، لأنه لم يخلقه من نطفة و من علقه بل خلقه دفعة واحدة.

و الذى قاله قتادة، أقوى الوجوه. و قيل خلق الإنسان من عجل مبالغة، كأنه قيل هو عجلة، كما يقال: انما هو إقبال و ادبار. و قال المبرد: خلق على صفة من شأنه ان يعجل فى الأمور. و قال الحسن: معناه خلق الإنسان من ضعف، و هو النطفة. و قال قوم: العجل هو الطين الذى خلق آدم منه، قال الشاعر:

و النبع ينبت بين الصخر ضاحيه
و النخل ينبت بين الماء و العجل»٢

يعنى الطين. و الاستعجال طلب الشىء قبل وقته الذى حقه أن يكون فيه دون غيره. و العجول الكثير الطلب للشىء قبل وقته. و العجلة تقديم الشىء قبل

(١) ديوانه: ٣٣

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٢٨٩ و الشوكانى ٣ / ٣٩٤ و روايته: (و النبع فى الصخرة الصماء منبته ...

وقته، و هو مذموم. و السرعة تقديم الشيء فى أقرب أوقاته، و هو محمود.

و قوله «سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» أى سأظهر بيناتى و علاماتى، فلا تطلبوه قبل وقته. ثم أخبر تعالى عن الكفار أنهم «يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» يريدون ما توعد الله به من الجزاء و العقاب على المعاصى بالنيران و انواع العذاب «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» يعنى يقولون «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» و محقين فيما تقولون متى يكون ما وعدتموه، فقال الله تعالى «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» الوقت الذى «لا يكفون فيه» أى لا يمنعون فيه «عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ» يعنى إن النار تحيط بهم من جميع وجوههم «وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ» أى لا يدفع عنهم العذاب بوجه من الوجوه.

و جواب (لو) محذوف، و تقديره: لعلموا صدق ما وعدوا به من الساعة.

ثم قال «بَلْ تَأْتِيهِمْ» يعنى الساعة، و القيامة «بَغْتَةً» أى فجأة «فَتَبْهَتُهُمْ» أى تحيرهم و المبهوت المتحير «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا» و معناه: لا يقدرُونَ على دفعها «وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ» أى لا يؤخرون الى وقت آخر. و قال البلخى: و يجوز أن تكون العجلة من فعل الله و هو ما طبع الله عليه الخلق من طلب سرعة الأشياء، و هو كما خلقهم يشتهون أشياء و يميلون اليها، و يحسن أمرهم بالتأنى عنها، و التوقف عند ذلك، فلأجل ذلك قال «فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» كما حسن نهيهم عن ارتكاب الزنا الذى تدعوهم اليه الشهوة

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤١ الى ٤٥]

وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ
بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَ لَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا
هُؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أ فَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ
بِالْوَحْيِ وَ لَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)

ص: ٢٥٠

خمس آيات.

قرأ ابن عامر «و لا تسمع» بالتاء و ضمها و كسر الميم «الصم» بالنصب.

الباقون - بالياء - مفتوحة، و بفتح الميم، و ضم «الصم».

فوجه قراءة ابن عامر، أنه وجه الخطاب الى النبى (ص) فكأنه قال «و لا تسمع» أنت يا محمد «الصم» كما قال «و ما أنت بمُسمعٍ من فى القبور» «١» لأن الله تعالى، لما خاطبهم، فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم اليه، صاروا بمنزلة الميت الذى لا يسمع و لا يعقل.

و وجه قراءة الباقيين أنهم جعلوا الفعل لهم، و يقويه قوله (إِذَا مَا يُنذَرُونَ) قال أبو علي: و لو كان على قراءة ابن عامر، لقال: إذا ينذرون.

و (الصم) وزنه (فعل) جمع أصم. و أصله (أصم) فادغموا الميم فى الميم و تصغير (أصم) (أصيم). و (الصم) ثقل فى الأذن، فإذا كان لا يسمع شيئاً قيل أصلج. و قال ابن زيد: (أصم) أصلج بالجيم. و الوقر المثلث فى الأذن.

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٢٢

ص: ٢٥١

لما قال الله تعالى لنبيه محمد: إن الكفار إذا ما رأوك اتخذوك هزواً و سخرية علم ان ذلك يغمه فسلاه عن ذلك بأن اقسام بأن الكفار فيما سلف استهزوا بالرسل الذين بعث الله فيهم. و سخرؤا منهم (فحاق بالذين سخرؤا منهم ما كانوا به يستهزؤن) أى حل بهم عقوبة ما كانوا يسخرون منهم، و حاق معناه حل، حاق يحق حيقاً.

و منه قوله «و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله» «١» أى يحل و بال التبيح بأهله الذين يفعلونه، فكان كما أرادوه بالداعى لهم الى الله حل بهم.

و الفرق بين الهزاء و السخرية، أن فى السخرية معنى الذلة، لأن التسخير التذليل و الهزاء يقتضى طلب صغر القدر مما يظهر فى القول.

ثم أمر نبيه (ص) بأن يقول لهؤلاء الكفار «مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ» أى من يحفظكم من بأس الرحمن و عذابه. و قيل: من عوارض الآفات، يقال: كلاًه يكلؤه، فهو كالى قال ابن هرمة:

ضنت بشيء ما كان يرزؤها «٢»

إن سلمي و الله يكلؤها

و معنى (يَكْلُوْكُمْ ... مِنَ الرَّحْمَنِ) أى من يحفظكم من أن يحل بكم عذابه و قوله (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) معناه كأنه قال: ما يلتفتون الى شىء من الحجج و المواعظ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون. و قيل: من يحفظكم مما يريد الله إحلاله بكم من عقوبات الدنيا و الآخرة. ثم قال على وجه التوبيخ لهم و التقريع (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) أى من عذابنا و عقوباتنا. ثم أخبر أنهم (لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ). و قيل: ان المعنى إن آلهتهم لا يقدرؤن على نصر أنفسهم، فكيف يقدرؤن على نصر غيرهم؟! و قيل ان الكفار

(١) سورة ٣٥ فاطر ٤٣.

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٢٩١ و الطبرى ١٧ / ٢٠ و الشوكانى ٣ / ٣٩٥

ص: ٢٥٢

(لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ) و هو الأشبه اى لا يقدرّون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم «و لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ» معناه لا يصحبهم صاحب يمنهم منا. و قيل و لا هم منا يصحبون بأن يجيرهم مجير علينا. و قال ابن عباس: معناه و لا الكفار منا يجارون، كما يقولون: ان لك من فلان صاحباً، أى من يجيرك و يمنعك. و قال قتادة: معناه (و لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) بخير ثم قال تعالى (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ) فلم نعالجهم بالعقوبة حتى طالّت أعمارهم. ثم قال موبخاً لهم (أفلا يرون) اى ألا يعلمون (أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) قيل: بخرابها. و قيل: بموت أهلها. و قيل: بموت العلماء.

و قوله (أ فَهْمُ الْعَالِيُونَ) قال قتادة: افهم الغالبون رسول الله مع ما يشاهدونه من نصر الله له فى مقام بعد مقام، توبيخاً لهم، فكأنه قال: ما حملهم على الاعراض الا الاغترار بطول الامهال حيث لم يعاجلوا بالعقوبة.

ثم قال لنبيه محمد (ص) (قل) لهم (إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ) اى أعلمكم و أخوفكم بما اوحى الله الى. ثم شبههم بالصم الذين لا يسمعون النداء إذا نودوا، فقال (و لا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ) اى يخوفون، من حيث لم ينتفعوا بدعاء من دعاهم، و لم يلتفتوا اليه، فسامهم صماً مجازاً و توسعاً.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٦ الى ٥٠]

وَلَيْنُ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُسْفِقُونَ (٤٩) وَ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَ فَاتُّمُّ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠)

ص: ٢٥٣

خمس آيات.

قرأ اهل المدينة (منقال حبة) برفع اللام - هاهنا - و فى القمر.

الباقون بنصبها.

من رفع اللام جعل (كان) تامة بمعنى حدث، كما قال (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً) «١» و لا خبر لها. و من نصبه جعل فى (كان) ضميراً و نصب (منقال) بأنه خبر (كان) و تقديره فلا تظلم نفس شيئاً و ان كان الشىء (منقال حبة من خردل) و انما قال (بها) بلفظ

التأنيث و المثقال مذكر، لان مثقال الحبة وزنها، و منله قراءة الحسن (تلتقطه بعض السيارة) «٢» لان بعض السيارة سيارة. و روى ان مجاهد قرأ (آتيننا) ممدوداً بمعنى جازينا بها.

اخبر الله تعالى انه لو مس هؤلاء الكفار (نَفْحَةً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ) و معناه لو لحقهم و أصابهم دفعة يسيرة، فالنفحة الدفعة اليسيرة، يقال: نفخ ينفخ نفحاً، فهو نافع، لأيقنوا بالهلاك، و لقالوا (يا ويلنا) اى الهلاك علينا (إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) لنفوسنا بارتكاب المعاصى اعترافاً منهم بذلك. و معنى (يا ويلنا) يا بلاءنا الذى نزل بنا. و انما يقال استغاثه مما يكون منه، كما يستغيث الإنسان ببدء من يرفع به.

ثم قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) قال قتادة: معناه نضع

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ١٠

ص: ٢٥٤

العدل فى المجازاة بالحق لكل احد على قدر استحقاقه، فلا يبغى المصاب بعض ما يستحقه، و لا يفعل بالمعاقب فوق ما يستحقه. و قال الحسن: هو ميزان له كفتان و لسان، يذهب الى انه علامة جعلها الله للعباد يعرفون بها مقادير الاستحقاق. و قال قوم: ميزان ذو كفتين توزن بها صحف الاعمال. و قال بعضهم: يكون فى احدى الكفتين نور، و فى الأخرى ظلمة، فأيهما رجح، علم به مقدار ما يستحقه، و تكون المعرفة فى ذلك ما فيه من اللطف و المصلحة فى دار الدنيا.

و قوله «لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ» معناه لأهل يوم القيامة. و قيل فى يوم القيامة.

و قوله «وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا» معناه أنه لا يضيع لديه قليل الاعمال و المجازاة عليه، طاعة كانت أو معصية «وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ» أى و كفى المطيع أو العاصى بمجازاة الله و حسبه ذلك. و فى ذلك غاية التهديد، لأنه إذا كان الذى يتولى الحساب لا يخفى عليه قليل و لا كثير، كان أعظم. و الباء فى قوله «كفى بنا» زائدة. و «حاسبين» يحتمل أن يكون نصباً على الحال أو المصدر - فى قول الزجاج.

ثم اخبر الله تعالى فقال: «وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ» قال مجاهد و قتادة: هو التوراة التى تفرق بين الحق و الباطل. و قال ابن زيد: هو البرهان الذى فرق بين حقه و باطل فرعون، كما قال تعالى «وَ مَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ» «١». و قوله «و ضياء» أى و آتينا ضياء يعنى أدلة يهتدون بها، كما يهتدون بالضياء. و آتينا «ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ» أى مذكراً لهم، يذكرون الله به.

و من جعل الضياء و الذكر حالا للفرقان قال: دخلته واو العطف، لاختلاف الأحوال، كقولك جاءني زيد الجواد و الحلیم و العالم. و أضافه الى المتقين، لأنهم المنتفعون به دون غيرهم.

ثم وصف المتقين بأن قال «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ» عذاب الله فيجتنبون معاصيه في

(١) سورة ٨ الانفال آية ٤١

ص: ٢٥٥

حال السر و الغيب. و قال الجبائي: معناه يؤمنون بالغيب الذي أخبرهم به، و هم من مجازاة يوم القيامة «مُشْفِقُونَ» أى خائفون.

ثم اخبر عن القرآن، فقال «وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ» يعنى القرآن «أنزلناه» عليك يا محمد. و خاطب الكفار فقال «أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ» أى تجحدونه، على وجه التوبيخ لهم، و التقرير، و فى ذلك دلالة على حدوثه، لأن ما يوصف بالانزال و بأنه مبارك يتنزل به، لا يكون قديماً، لان ذلك من صفات المحدثات.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥١ الى ٥٥]

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) خمس آيات.

لما اخبر الله تعالى أنه آتى موسى و هارون الفرقان، و الضياء، و الذكر.

و بين أن القرآن ذكر مبارك أنزله على محمد (ص)، أخبر انه آتى إبراهيم أيضاً قبل ذلك (رشده) يعنى آتيناها من الحجج و البيئات ما يوصله الى رشده، من معرفة الله و توحيده. و الرشد هو الحق الذى يودى الى نفع يدعو اليه. و نقيضه الغى، رشد يرشد رشداً و رشداً، فهو رشيد. و فى نقيضه: غوى يغوى غياً، فهو غاو. و قال قتادة و مجاهد: معنى (آتيناها رشده) هديناه صغيراً. و قال قوم: معنى (رشده)

ص: ٢٥٦

النبوة. و قوله (من قبل) يعنى من قبل موسى و هارون. و قوله (وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) أى كنا عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد، كما قال تعالى (وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ) «١» و قيل: كما نعلم أنه يصلح للنبوة (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ). (إذ) فى موضع نصب، و العامل فيه (آتيناها رشده) ...

إذ قال) أى فى ذلك الوقت، و فيه إخبار ما أنكر إبراهيم على قومه و أبيه حين رأهم يعبدون الأصنام و الأوثان، فانه قال لهم: أى شىء هذه الأصنام؟! يعنى الصور التى صرتم لازمين لها بالعبادة، و العكوف اللزوم لأمر من الأمور: عكف عليه عكوفاً، فهو عاكف. و قيل فى معنى (لها عاكفون) لأجلها. قال مجاهد (هذه التماثيل) الأصنام. ثم حكى ما أجابه به قومه، فإنهم قالوا «وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا» لهذه الأصنام «عابدين» فأحالوا على مجرد التقليد. فقال لهم إبراهيم «لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» فذمهم على تقليد الآباء، و نسب الجميع الى الضلالة و العدول عن الحق. فقالوا له عند ذلك «أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْهُ الْبَاطِلُ» و معناه أجاد أنت فيما تقول محق عند نفسك أم أنت لآعب مازح؟ و ذلك أنهم كانوا يستبعدون إنكار عبادتها عليهم.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَٰ هَٰذَا بِالِهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢

ص: ٢٥٧

خمس آيات.

قرأ الكسائى «جذاذاً» بكسر الجيم. الباقون بضمها. فمن ضم الجيم أراد جعلهم قطعاً، و هو (فعال) على وزن الرفات و الفئات و الرقاق، و جذذته أجزه جذاً أى قطعته. و قال ابن عباس: الجذاذ الحطام. و من كسر الجيم فانه أراد جمع جذيد (فعليل) بمعنى مجذوذ. و مثله كريم و كرام، و خفيف و خفاف، و بالضم مصدر لا يثنى و لا يجمع. قال جرير:

أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف «١»

آل المهلب جذ الله دابرههم

حكى الله تعالى ما رد به إبراهيم على كفار قومه حين قالوا له «أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ الْبَاطِلِينَ» فانه قال لهم «بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» خلقكم و دبركم و الذى خلق السموات و الأرض و «فَطَرَهُنَّ» معناه ابتدأهن و الفطر شق الشىء من امر ظهر منه يقال: فطره يطره فطراً و انفطر انفطاراً، و منه فطر الشجر بالورق، فكأن السماء تشق عن شىء فظهرت بخلقها. ثم قال إبراهيم «وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» يعنى أنا على ما قلت لكم: من انه تعالى خالقكم و خالق السموات شاهد بالحق لأنه دال، و الشاهد الدال على الشىء عن مشاهدة، فإبراهيم (ع) شاهد بالحق دال عليه بما يرجع الى نقه

المشاهدة. ثم أقسم إبراهيم فقال «وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ» و ذلك قسم، و التاء فى القسم لا تدخل إلا فى اسم الله تعالى، لأنها بدل من الواو و الواو بدل من الباء، فهى بدل من بدل، فلذلك اختصت باسم الله. و قال قتادة:

معناه لأكيدن أصنامكم فى سر من قومه. و الكيد ضر النبىء بتدبير عليه، يقال:

(١) ديوانه (دار بيروت) ٣٠٨

ص: ٢٥٨

كاده يكيديه كيداً. فهو كائد.

و قوله «بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ» يقال: انه انتظرهم حتى خرجوا الى عيد لهم فحينئذ كسر أصنامهم. ثم أخبر تعالى انه «فَجَعَلَهُمْ جُذَاءً» أى قطعاً «إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ» تركه على حاله. و يجوز أن يكون كبيرهم فى الخلقة. و يجوز أن يكون أكبرهم عندهم فى التعظيم «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» أى لكى يرجعوا اليه فينتهبوا على ما يلزمهم فيه من جهل من اتخذوه إلهاً، إذا وجدوه على تلك الصفة. و كان ذلك كيداً لهم.

و فى الكلام حذف، لان تقديره إن قومه رجعوا من عيدهم، فوجدوا أصنامهم مكسرة «قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ» ف (من) بمعنى الذى، و تقديره الذى فعل هذا بمعبودنا، فانه ظلم نفسه.

و قوله «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ» قيل تخلف بعضهم فسمع إبراهيم يذكرها بالعيب، فذكر ذلك، و رفع (ابراهيم) بتقدير، يقال له هذا إبراهيم، او ينادى يا إبراهيم، ذكره الزجاج.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦١ الى ٦٥]

قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)

خمس آيات.

ص: ٢٥٩

لما قال بعضهم انه سمع ابراهيم يعيب آلهتهم و حكاها لقومه قالوا: جئوا «بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن و قتادة و السدى: كرهوا أن يأخذوه بغير بينة، فقالوا جيئوا به بحيث يراه الناس، و يكون بمرءاً منهم «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» بما قاله إنى أكيد أصنامهم شهادة تكون حجة عليه.

الثانى - قال ابن إسحاق «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» عقابه. و قيل «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» حجته و ما يقال له من الجواب، فلما جاءوا به قالوا له (أ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) مقررين له على ذلك، فأجابهم إبراهيم بأن قال (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْتَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) و إنما جاز أن يقول (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) و ما فعل شيئاً لأحد أمرين:

أحدهما - انه قيده بقوله (إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) فقد فعله كبيرهم. و قوله (فاسألوهم) اعتراض بين الكلامين، كما يقول القائل: عليه الدارهم فاسأله إن أقر.

و الثانى - انه خرج مخرج الخبر و ليس بخبر، و انما هو إلزام دل على تلك الحال، كأنه قال بل ما تنكرون فعله كبيرهم هذا، فالإلزام تارة يأتى بلفظ السؤال و تارة بلفظ الامر، كقوله (فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) «١» و تارة بلفظ الخبر. و المعنى فيه أنه من اعتقد كذا لزمه كذا و قد قرئ فى الشواذ (فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) - بتشديد اللام - بمعنى فعل كبيرهم، فعلى هذا لا يكون خبراً، فلا يلزم ان يكون كذباً، و الكذب قبيح لكونه كذباً، فلا يحسن على وجه، سواء كان فيه نفع او دفع ضرر، و على كل حال، فلا يجوز على الأنبياء القبائح، و لا يجوز ايضاً عليهم التعمية فى الاخبار، و لا التقيية

(١) سورة ١٠ يونس آية ٣٨

ص: ٢٦٠

فى اخبارهم، لأنه يؤدى الى التشكيك فى اخبارهم، فلا يجوز ذلك عليهم على وجه.

فأما ما

روى عن النبي (ص) بأن قال (لم يكذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات كلها فى الله)

فانه خبر لا أصل له، و لو حسن الكذب على وجه. كما يتوهم بعض الجهال، لجاز من القديم تعالى ذلك. و زعموا ان الثلاث كذبات هى قوله «فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» و ما كان فعله. و قوله «إِنِّى سَقِيمٌ» «١» و لم يكن كذلك. و قوله فى سارة لما أراد الجبار أخذها: إنها اختى، و كانت زوجته. حتى قال بعضهم: كان الله أذن له فى ذلك. و هذا باطل، لأنه لو اذن الله له فيه، لكان الكذب حسناً. و قد بينا أنه قبيح على كل حال. و قيل: معنى قوله «إِنِّى سَقِيمٌ» «أى سأسقم، لأنه لما نظر الى بعض الكواكب علم انه وقت نوبة حمى كانت تجيئه، فقال: إنى سقيم. و قيل معناه: انى سقيم، أى غمماً بضلالكم. و قيل: معناه سقيم عندكم، فيما أدعوكم اليه من الدين.

وقيل: ان من كانت عاقبته الموت جاز ان يقال فيه سقيم، مثل المريض المشفى على الموت. و أما قوله فى سارة إنها أختى فانه أراد فى الدين. و اما قول يوسف لأخوته «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» «٢» فقد قال قوم: هو من قول مؤذن يوسف على ظنه فيما يقتضيه الحال من الظن الذى يعمل عليه. و قيل معناه: (إنكم لسارقون) يوسف (ع) و قوله تعالى (فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ) اى عادوا الى نفوسهم يعنى بعضهم الى بعض و قال بعضهم لبعض: (إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ) فى سؤاله، لأنها لو كانت آلهة لم يصل إبراهيم الى كسرها.

و قوله (ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ) فالنكس هو جعل الشىء أسفله أعلاه، و منه النكس فى العلة إذا رجع لى أول حاله. و المعنى أدركتهم حيرة سوء، فنكسوا لأجلها رؤسهم. ثم أقروا بما هو حجة عليهم، فقالوا لإبراهيم

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٨٩

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ٧٠

ص: ٢٤١

(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ) فأقروا بهذا للحيرة التى لحقتهم، فكان ذلك دلالة على خطئهم، لكنهم أصروا على العناد

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٤ الى ٧٠]

قَالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَ لَا يَضُرُّكُمْ (٤٤) أَف لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٤٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٤٨) قلنا يا نارِ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٤٩) وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

خمس آيات.

يقول الله تعالى لما قال كفار قوم إبراهيم (ع) (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ) فقال لهم إبراهيم منبهاً لهم على خطئهم و ضلالهم (أ فَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) أى توجهون عبادتكم الى الأصنام التى لا تنفعكم شيئاً و لا تدفع عنكم ضراً، لأنها لو قدرت على نفعكم و ضرركم. لدفعت عن نفسها، حتى لم تكسر، و لأجابت حين سئلت (مِن دُونِ اللَّهِ) الذى يقدر على ضرركم و نفعكم من ثوابكم و عقابكم، و إنه يفعل معكم ما لا يقدر عليه سواه. و ليس كل من قدر على الضر و النفع يستحق العبادة، و انما يستحقها من قدر على اصول النعم التى هى خلق الحياة، و الشهوة، و القدرة، و كمال العقل، و يقدر على الثواب و العقاب لو لمنافع تقع على وجه لا يقدر على إيقاعها على ذلك الوجه سواه. قال الرماني: لأنه تعالى لو فعل حركة فيها لطف فى إيمان زيد كزلزلة الأرض فى بعض الأحوال. ثم ان عندها ايماناً يتخلص به من

ص: ٢٤٢

العقاب. و يستحق الثواب الذى ضمنه بالايمان، لا يستحق - بفعل الحركة على هذا الوجه - العبادة.

ثم قال مهجناً لأفعالهم مستقديراً لها (أَفْ لَكُمْمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) فمعنى (أف) الضجر بما كان من الامر و هى كلمة، مبنية، لأنها وضعت وضع الصوت الخارج عن دلالة الاشارة و الافادة، فصارت كدلالة الحرف، لأنه يفهم المعنى بالحال المقارنة لها، و بنيت على الحركة لالتقاء الساكنين إذ لا اصل لها فى التمكن مستعمل، فنستحق به البناء على الحركة. و كسرت على اصل الحركة لالتقاء الساكنين. و قال الزجاج: معنى (أف لكم) تنناً لأفعالكم، و يجوز - ضم الفاء - للاتباع لضمه الهمزة و يجوز - الفتح - لنقل التضعيف. و يجوز - التنوين - على التنكير.

و قوله «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» معناه أ فلا تتفكرون بعقولكم فى أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، و لا تقدر على الضر و النفع، فلما سمعوا منه هذا القول قال بعضهم لبعض «حرقوه» يعنى بالنار «وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ» أى عظموها و ادفعوا عنها و عن عبادتها «إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» معناه إن كنتم ناصرها، و لم تريدوا ترك عبادتها. و التحريق هو التقطيع بالنار، يقال: حرقه تحريقاً و أحرقه إحراقاً، و ثوب حرق أى متقطع كالتقطع بالنار. و احترق الشيء احتراقاً، و تحرق على الامر تحرقاً.

و قال ابن عمر: الذى أشار بتحريق إبراهيم رجل من أكراد فارس. و فى الكلام حذف لأن تقديره أوثقوا إبراهيم و طرحوه فى النار، فقال الله تعالى عند ذلك للنار «كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ» و قيل فى وجه كون النار برداً و سلاماً قولان:

أحدهما - انه تعالى أحدث فيها برداً بدلا من شدة الحرارة التى فيها،

ص: ٢٤٣

فلم تؤذه.

و الثانى - انه تعالى حال بينها و بين جسمه، فلم تصل اليه، و لو لم يقل سلاماً لأهلكه بردها، و لم يكن هناك أمر على الحقيقة. و المعنى أنه فعل ذلك، كما قال «كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» «١» أى صيرهم كذلك من غير ان أمرهم بذلك. و قال قتادة: ما أحرقت النار منه إلا وثاقه. و قال قوم: ان إبراهيم لما أوثقوه ليلقوه فى النار قال (لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين). لك الحمد و لك الملك لا شريك لك). ثم اخبر تعالى ان الكفار أرادوا بإبراهيم كيداً و بلاء، فجعلهم الله «الأخسرين» يعنى بتأييد إبراهيم و توفيقه، و منع النار من إحراقه حتى خسروا و تبين كفرهم و ضلالهم.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧١ الى ٧٥]

وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَ لُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ (٧٤) وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)

خمس آيات.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦٥

ص: ٢٦٤

يقول الله تعالى إنا نجينا ابراهيم و لوطاً من الكفار الذين كانوا يخافوهم، و حملناهما «إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ» قال قتادة: نجيا من ارض كوثراريا الى الشام. و قال ابو العالية: ليس ماء عذب الا من الصخرة التي فى بيت المقدس.

و قال ابن عباس: نجاهما الى مكة، كما قال «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا» «١» و قيل: الى ارض بيت المقدس. و قال الزجاج: من العراق الى ارض الشام. و قال الجبائى: أراد ارض الشام. و انما قال «للعالمين» لما فيها من كثرة الأشجار و الخيرات التي ينتفع جميع الخلق بها إذا حلوا بها. و انما جعلها مباركة، لان اكثر الأنبياء بعثوا منها، فلذلك كانت مباركة. و قيل: لما فيها من كثرة الأشجار و التمار، و النجاة هو الدفع عن الهلاك، فدفع الله ابراهيم و لوطاً عن الهلكة الى الأرض المباركة. و البركة ثبوت الخير النامى و تقيضها الشؤم و هو إمحاق الخير و ذهابه. و قيل فى هذه الآية دلالة على نجاة محمد (ص) كما نجا ابراهيم من عبدة الأصنام، الى الأرض التي اختارها له.

ثم قال «وَوَهَبْنَا لَهُ» يعنى ابراهيم اى أعطيناه اجتلاباً لمحبتة، فالله تعالى يحب أنبياءه و يحبونه، و يحب أن يزدادوا فى محبتة بما يهب لهم من نعمه «إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ» اى أعطيناه إسحاق و معه يعقوب «نافلة» اى زيادة على ما دعا الله اليه. و قوله «نافلة» اى فضلا- فى قول ابن عباس و قتادة و ابن زيد- لأنه كان سأل الله ان يرزقه ولداً من سارة، فوهب له إسحاق، و زاده يعقوب ولد ولده.

و قيل جميعاً نافلة، لأنهما عطية زائدة على ما تقدم من النعمة- فى قول مجاهد و عطاء- و النفل النفع الذي يوجب الحمد به لأنه مما زاد على حد الواجب، و منه صلاة النافلة اى فضلا على الفرائض. و قيل: نافلة اى غنيمة قال الشاعر:

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٩٦

ص: ٢٦٥

لله نافلة الأعز الأفضل

و قوله (وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) يحتمل أمرين:

أحدهما - انه جعلهم بالتسمية على وجه المدح بالصلاة أى سميناهم صالحين.

و الثانى - انا فعلنا بهم من اللطف الذى صلحوا به. ثم وصفهم بأن قال (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) يقتدى بهم فى أفعالهم (يهدون) الخلق الى طريق الحق (بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) أى أوحينا اليهم بأن يفعلوا الخيرات «و اقام الصلاة» أى و بأن يقيموا الصلاة بحدودها و انما قال «وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ» بلا (هاء) لأن الاضافة عوض الهاء «وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ» أى بأن يؤتوا الزكاة، التى فرضها الله عليهم.

ثم اخبر: أنهم كانوا عابدين لله وحده لا شريك له، لا يشركون بعبادته سواه.

و قوله (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) نصب (لوطاً) ب (آتينا) و تقديره: و آتينا لوطاً آتينا، كقوله «وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ» «١». و يجوز ان يكون نصباً بتقدير اذكر «لوطاً» إذ «آتينا حُكْمًا» أى أعطيناها الفصل بين الخصوم بالحق أى جعلناه حاكماً، و علمناه ما يحتاج الى العلم به.

و قوله (وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ) يعنى انهم كانوا يأتون الذكران، فى أدبارهم و يتضارطون فى أنديتهم، و هى قرية (سدوم) على ما روى.

ثم اخبر «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ» أى خارجين عن طاعة الله الى معاصيه. ثم عاد الى ذكر لوط فقال «وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا» أى نعمتنا «إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» الذين أصلحوا أفعالهم. فعملوا بما هو حسن منها، دون ما هو قبيح.

(١) سورة ٣٦ يس آية ٣٩

ص: ٢٤٤

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٤ الى ٨٠]

و نوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه و أهله من الكرب العظيم (٧٤) و نصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً سوءاً فأغرقناهم أجمعين (٧٧) و داود و سليمان إذ يحكمان فى الحرت إذ نفست فيه غم القوم و كنا لحكمهم شاهدين (٧٨) ففهمناها سليمان و كلاً آتينا حكماً و علماً و سخرنا مع داود الجبال يسبحن و الطير و كنا فاعلين (٧٩) و علمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون (٨٠)

خمس آيات.

قرأ «لنحصنكم» بالنون ابو بكر عن عاصم. وقرأ ابن عامر و حفص عن عاصم بالتاء. الباوقن بالياء. فمن قرأ بالتاء فلأن الدرور مؤنثة، فأسند الفعل اليها. و من قرأ بالياء اضافه الى (لبوس)، و هو مذكر و يجوز ان يكون أسند الفعل الى الله. و يجوز ان يضيفه الى التعليم - ذكره ابو على - و من قرأ بالنون أسند الفعل الى الله ليطابق قوله «و علمناه».

يقول الله تعالى لنبية محمد (ص) و اذكر يا محمد «نوحاً» حين «نادى من قَبْلُ» ابراهيم. و النداء الدعاء على طريقة (يا فلان) فأما على طريقة (افعل) و (لا تفعل) فلا يسمى نداء، و إن كان دعاء. و المعنى إذ دعا ربه، فقال: رب، أي

ص: ٢٦٧

يا رب نجنى و اهلى من الكرب العظيم فقال الله تعالى «فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ» اي اجبناه الى ما التمسه «فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ». و الكرب الغم الذى يحمى به القلب، و يحتمل ان يكون غمه كان لقومه. و يجوز ان يكون من العذاب الذى نزل بهم.

و قوله «وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» اي منعناه منهم ان يصلوا اليه بسوء. و معنى نصرته عليه أعنته على غلبه. ثم اخبر تعالى «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ» فأغرقهم الله أجمعين بالطوفان.

ثم قال و اذكر يا محمد «دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ» فى الوقت الذى «نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ» و النفس لا يكون الا ليلا على ما قاله شريح. و قال الزهرى:

الهمل و النشر بالنهار، و النفس بالليل، و الحرث الذى حكاه فيه: قال قتادة: هو زرع وقعت فيه الغنم ليلا، فأكلته. و قيل: كرم قد نبتت عنا قيده - فى قول ابن مسعود - و شريح. و قيل:

ان داود كان يحكم بالغنم لصاحب الكرم. فقال سليمان:

غير هذا يا نبى الله. قال: و ما ذاك؟ قال: يدفع الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، و تدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفع كل واحد الى صاحبه - ذكره ابن مسعود - و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع)

و قال ابو على الجبائى: أوحى الله الى سليمان مما نسخ به حكم داود الذى كان يحكم به قبل. و لم يكن ذلك عن اجتهاد، لان الاجتهاد لا يجوز ان يحكم به الأنبياء. و هذا هو الصحيح عندنا. و قال ابن الاخشاذ، و البلخى و الرماني:

يجوز أن يكون ذلك عن اجتهاد، لأن رأى النبى أفضل من رأى غيره، فكيف يجوز التعبد بالتزام حكم غيره من طريق الاجتهاد، و يمتنع من حكمه من هذا الوجه. و الدليل على صحة الاول ان الأنبياء (ع) يوحى اليهم، و لهم طريق الى العلم بالحكم، فكيف

ص: ٢٦٨

يجوز أن يعملوا بالظن؟! و الأمة لا طريق لها الى العلم بالاحكام فجاز ان يكلفوا ما طريقه الظن؟! على ان عندنا لا يجوز فى الأمة ايضاً العمل على الاجتهاد. و قد بينا ذلك فى غير موضع. و من قال: انهما اجتهدا، قال أخطأ داود و أصاب سليمان.

و ذكروا فى قوله «إِذْ يَحْكُمَانِ» ثلاثة أوجه:

أحدها- إذ شرعا فى الحكم فيه من غير قطع به فى ابتداء الشرع.

و ثانيها- ان يكون حكمه حكما معلقاً بشرط لم يفعله بعد.

و ثالثها- أن يكون معناه طلبا بحكم فى الحرث، و لم يتديا به بعد. و يقوى ما قلناه قوله تعالى «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» يعنى علمنا الحكومة فى ذلك سليمان. و قيل:

ان الله تعالى «فهم سليمان» قيمة ما أفسدت الغنم.

ثم أخبر تعالى بأنه أتى كلا حكما و علماً، فدل على ان ما حكم به داود كان بوحى الله، و تعليمه. و قيل: معنى قوله «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» أى فتحنا له طريق الحكومة، لما اجتهد فى طلب الحق فيها، من غير عيب على داود فيما كان منه فى ذلك، لأنه اجتهد: فحكم بما أدى اجتهاده اليه.

و قوله «وَوَسَّخْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ» معناه سير الله تعالى الجبال مع داود حيث سار، فعبر عن ذلك بالتسبيح، لما فيها من الآية العظيمة التى تدعو له بتعظيم الله و تنزيهه عن كل ما لا يليق به، و لا يجوز وصفه به. و كذلك سخر له الطير، و عبر عن ذلك التسخير بأنه تسبيح من الطير، لدلالته على أن من سخرها قادر لا يجوز عليه العجز، كما يجوز على العباد.

و قوله «وَوَكَّنَّا فَاعِلِينَ» أى و كنا قادرين على ما نريده. و قال الجبائى: أكمل الله تعالى عقول الطير حتى فهمت ما كان سليمان يأمرها به و ينهاها عنه، و ما يتوعداها به متى خالفت.

ص: ٢٦٩

و قوله «وَوَكَّنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» انما جمعه فى موضع التنبيه، لأن داود و سليمان كان معهما المحكوم عليه، و من حكم له. فلا يمكن الاستدلال به على أن اقل الجمع اثنان.

و من قال: إنه كناية عن الاثنتين، قال: هو يجرى مجرى قوله «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ» «١» فى موضع فان كان له أخوان. و هذا ليس بشيء، لان ذلك علمناه بدليل الإجماع، و لذلك خالف فيه ابن عباس، فلم يحجب ما قل عن الثلاثة.

و قوله «وَوَعَلَّمْنَاهُ» يعنى داود «صَنْعَةَ لُبُوسٍ لَكُمْ» أى علمناه كيف يصنع الدرع. و قيل: ان اللبوس- عند العرب- هو السلاح كله، درعاً كان، أو جوشناً، أو سيفاً، أو رمحاً، قال الهذلى.

يصف رمحاً. و قال قتادة، و المفسرون: المراد به فى الآيه الدروع. و الإحصان الاحراز، و الباس شدة القتال. و قوله «فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» تقرير للخق على شكره تعالى على نعمة التى أنعم بها عليهم بأشياء مختلفة.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨١ الى ٨٥]

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) وَ يُؤُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)

(١) سورة النساء آية ١٠

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٣٢٠ و الطبرى ١٧ / ٣٧

ص: ٢٧٠

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى و سخرنا «لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً» من رفع (الريح) و هو عبد الرحمن الأعرج: أضاف الريح الى سليمان إضافة الملك، كأنه قال له الريح.

و «عاصفة» نصب على الحال فى القراءتين، و الريح هو الجو، يشند تارة و يضعف أخرى. و حد الرماني الريح بأن قال: هو جسم منتشر لطيف، يمتنع بلطفه من القبض عليه و يظهر للحس بحركته. و قولهم: سكنت الريح مثل قولهم: هبت الريح، و إلا فإنها لا تكون ريحاً إلا بالحركة. و يقولون: أسرع فلان فى الحاجة كالريح، و راح فلان الى منزله.

و (العصوف) شدة حركة الريح، و عصفت تعصف عصفاً و عصفه، و عصف عصفاً و عصفواً إذا اشتد، و العصف التبن، لان الريح تعصفه بتطيرها. و قيل: عصوف الريح شدة هبوبها. و ذكر ان الريح كانت تجرى لسليمان إلى حيث شاء، فذلك هو التسخير «تَجْرِي بِأَمْرِهِ» يعنى بأمر سليمان «إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» يعنى الشام، لأنها كانت مأواه، فأى مكان شاء مضى اليه. و عاد اليها بالعشى.

و قوله «وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ» معناه علمنا معه على ما يعلمه من صحة التدبير، فان ما أعطيناها من التسخير يدعو الى الخضوع له. و يدعو طالب الحق الى الاستبصار فى ذلك، فكان لطفاً يجب فعله.

و قوله «وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ» أى و سخرنا لسليمان قوماً من الشياطين يغوصون له فى البحر «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ» قال الزجاج: معناه سوى ذلك «وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ» أى يحفظهم الله من الإفساد لما عملوه. و قيل:

كان حفظهم لتلا يهربوا من العمل. و قال الجبائى: كشف الله تعالى أجسام الجن حتى

ص: ٢٧١

تهيأ لهم تلك الاعمال، معجزة لسليمان (ع) قال: انهم كانوا يبنون له البنيان، و الغوص فى البحار، و إخراج ما فيه من اللؤلؤ و غيره، و ذلك لا يتأتى مع رقة أجسامهم. قال: و سخر له الطير بأن قوّى أفهامها، حتى صارت كصبياننا الذين يفهمون التخويف و الترغيب.

ثم قال و اذكر يا محمد «يُؤَبِّدُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ» أى حين دعاه، فقال يا رب «أَنْتَى مَسْنَى الضُّرِّ» أى نالنى الضر يعنى ما كان ناله من المرض و الضعف. قال الجبائى: كان به السلعة «وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فارحمنى. و قيل انما فعل ذلك بأيوب، ليبلغ بصره على ذلك المنزلة الجليلة التى أعدها الله - عز و جل - له و لكل مؤمن فيما يلحقه من مصيبة اسوة بأيوب، قال الجبائى: لم يكن ما نزل به من المرض فعلا للشيطان، لأنه لا يقدر على ذلك، و إنما آذاه بالسوسة و ما جرى مجراها. قال الحسن: و كان الله تعالى أعطاه مالا و ولداً، فهلك ما له و مات ولده، فاضرب، فأثنى الله عليه. ثم قال تعالى «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ» يعنى أجبنا دعاءه و نداءه «فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ» أى أزلنا عنه ذلك المرض «وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» قيل: رد الله اليه أهله الذين هلكوا بأعيانهم، و أعطاه مثلهم معهم - فى قول ابن مسعود و ابن عباس - و قال الحسن و قتادة: إن الله أحيا له أهله بأعيانهم. و زاده اليهم مثلهم. و قال عكرمة و مجاهد - فى رواية - أنه خير فاختار إحياء أهله فى الآخرة، و مثلهم فى الدنيا، فأوتى على ما اختار. و قال ابن عباس: أبدله الله تعالى بكل شىء ذهب له ضعفين «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا» أى نعمة منا عليه «وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ» أى عظة يتذكر به العابدون لله تعالى مخلصين.

و قوله «وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ» أى اذكر هؤلاء الذين عددتهم لك من الأنبياء، و ما أنعمت عليهم من فنون النعمة. ثم أخبر أنهم كانوا كلهم

ص: ٢٧٢

«مِنَ الصَّابِرِينَ» يصبرون على بلاء الله، و العمل بطاعته. دون معاصيه.

و اختلفوا فى ذى الكفل، فقال ابو موسى الاشعري، و قتادة، و مجاهد: كان رجلاً صالحاً، كفل لنبى بصوم النهار، و قيام الليل، و ألا يغضب، و يقتضى بالحق، فوفى لله بذلك، فأثنى الله عليه. و قال قوم: كان نبياً، كفل بأمر و فى به. و قال الحسن: هو نبى اسمه ذو الكفل. و قال الجبائى: هو نبى، و معنى وصفه بالكفل أنه ذو الضعف أى ضعف ثواب غيره، ممن فى زمانه لشرف عمله.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٤ الى ٩٠]

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٤) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

خمس آيات.

قرأ يعقوب «فظن ان لن يقدر عليه» بالياء مضمومة. وفتح الدال.

الباقون بالنون، وكسر الدال، والمعنيان متقاربان.

ص: ٢٧٣

يقول الله تعالى إنا أدخلنا هؤلاء الذين ذكرناهم من الأنبياء «في رحمتنا» أى فى نعمتنا، و معنى (أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا) غمناهم بالرحمة. و لو قال رحمتناهم لما أفاد الاغمار. بل أفاد انه فعل بهم الرحمة، التى هى النعمة.

وقوله (إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) معناه إنما أدخلناهم فى رحمتنا، لأنهم كانوا ممن صلحت أعمالهم، و فعلوا الطاعات، و تجنبوا المعاصى. و (صالح) صفة مدح فى الشرع.

ثم قال لنبىه محمد (ص) و اذكر (ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) و النون الحوت، و صاحبها يونس بن متى، غضب على قومه - فى قول ابن عباس و الضحاک - فذهب مغاضباً لهم، فظن ان الله لا يضييق عليه، لأنه كان ندبه الى الصبر عليهم و المقام فيهم من قوله «وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ» «١» أى ضيق، و قوله «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ» «٢» أى يضييق، و هو قول ابن عباس و مجاهد و الضحاک، و اكثر المفسرين. و قال الزجاج و الفراء: معناه «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» ما قدرناه. و قال الجبائى: ضيق الله عليه الطريق حتى ألجأه الى ركوب البحر حتى قذف فيه، و ابتلعه السمكة. و من قال: ان يونس (ع) ظن أن الله لا يقدر عليه من القدرة، فقد كفر. و قيل إنما عوتب على ذلك، لأنه خرج مغاضباً لهم قبل أن يؤذن له، فقال قوم: كانت خطيئة، من جهة تأويله أنه يجوز له ذلك. و قد قلنا:

انه كان مندوباً الى المقام فلم يكن ذلك محظوراً، و انما كان ترك الأولى. فأما ما روى عن الشعبي و سعيد بن جبير من انه خرج مغاضباً لربه فلا يجوز ذلك على نبي من الأنبياء، و كذلك لا يجوز أن يغضب لم عفى الله عنهم إذ آمنوا، لان هذا اعتراض

على الله بما لا يجوز في حكمته.

وقوله «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» فالظلمات قيل: إنها ظلمة الليل، و ظلمة البحر، و ظلمة بطن الحوت، على ما قاله ابن عباس و قتادة. و قيل: حوت في بطن حوت، في قول سالم بن أبي حفصة.

و قيل: ان أكثر دعائه كان في جوف الليل في الظلمات. و الأول أظهر في اقوال المفسرين. و قال الجبائي: الغضب عداوة لمن غضب عليه، و بقاءه في بطن الحوت حياً معجز له. و لم يكن يونس في بطن الحوت على جهة العقوبة، لان العقوبة عداوة للمعاقب، لكن كان ذلك على وجه التأديب، و التأديب يجوز على المكلف و غير المكلف، كتأديب الصبي و غيره. و قال قوم: معنى قوله «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ» الاستفهام، و تقديره أ فظن. و هذا ضعيف، لأنهم لا يحذفون حرف الاستفهام إلا و في الكلام عوض عنه من (أم) أو غيرها.

و قوله «إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» أى كنت من الباطسين نفسى ثوابها، لو أقمت، لأنه كان مندوباً إليه، و من قال يجوز الصغائر على الأنبياء، قال: كان ذلك صغيرة نقصت ثوابه. فأما الظلم الذى هو كبيرة، فلا يجوزها عليهم إلا الحشوية الجهال، الذين لا يعرفون مقادير الأنبياء، الذين وصفهم الله بأنه اصطفاهم و اختارهم.

ثم اخبر تعالى انه استجاب دعاءه و نجاه من الغم الذى كان فيه. و وعد مثل ذلك أن ينجى المؤمنين.

و قد قرأ ابو بكر عن عاصم «نجى المؤمنين» بنون واحدة مشددة الجيم.

الباقون بنونين. و هى فى المصحف بنون واحدة حذف الثانية كراهة الجمع بين المثليين فى الخط، و لأن النون الثانية تخفى مع الجيم، و مع حروف الفم، و لا تظهر، و لذلك ظن قوم أنها أدغمت فى الجيم، فقرأوها مدغماً، و ليس بمدغم. و لا وجه لقراءة عاصم هذه

و لا لقول أبى عبيدة حاكياً عن أبى عمرو: ان النون مدغمة، لأنها لا تدغم فى الجيم.

و قال الزجاج: هذا لحن، و لا وجه لمن تأوله: نجى النجا المؤمنين، كما لا يجوز ضرب زيداً بمعنى ضرب الضرب زيداً. و قال الفراء: هو لحن. و قال قوم - محتجين لأبى بكر - انه أراد فعلاً ماضياً، على ما لم يسم فاعله، فاسكن الباء، كما قرأ الحسن «و ذروا ما بقى من الربا» «١» أقام المصدر مقام المفعول الذى لا يذكر فاعله، فكذلك نجى النجا المؤمنين، و احتجوا بأن أبا جعفر قرأ «لنجزى قوماً» «٢» فى الجائية على تقدير لنجزى الجزاء قوماً قال الشاعر.

ثم قال تعالى لنبيه (ص) و اذكر «زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ» أى دعاه، فقال يا «رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا» أى وحيداً، بل ارزقنى ولداً. ثم قال «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ» و معناه أنت خير من يرث العباد من الأهل و الولد، فقال الله تعالى إنا استجبنا دعاه «وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَ أَسْلَمْنَا لَهُ لُزُوجَهُ» قال قتادة: إنها كانت عقيماً فجعلها الله ولوداً. و قيل: كانت سيئة الخلق، فرزقها الله حسن الخلق. ثم اخبر «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» أى يبادرون فى فعل الطاعات «و يدعون» الله «رغبة» فى ثوابه «و رهبة» من عقابه «و كانوا» لله «خاشعين» متواضعين.

و قال الجبائى: إجابة الدعاء لا تكون إلا ثواباً. و قال ابن الاخشاذ: يجوز أن تكون استصلاحاً لا ثواباً، و لذلك لا يمتنع أن يجب الله دعاء الكافر و الفاسق. فأما قولهم:

فلان مجاب الدعوة، فلا يجوز إطلاقه على الكفار و الفساق، لأن فيه تعظيماً و أن له منزلة جلييلة عند الله. و الامر بخلاف ذلك.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٨

(٢) سورة ٤٥ الجاثية آية ١٣

(٣) تفسير القرطبي ١١ / ٣٣٥

ص: ٢٧٤

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩١ الى ٩٥]

وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَ حَرَامٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)

خمس آيات.

قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً عن عاصم «و حرم» بكسر الحاء بلا الف. الباقر بفتح الحاء. و إثبات الالف، و هما بمعنى واحد.

يقول الله تعالى لنبية (ص) و اذكر ايضاً «الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا» يعنى مريم بنت عمران. و الإحصان إحراز الشيء من الفساد، فمريم أحصنت فرجها بمنعه من الفساد فأنتى الله عليها. و رزقها ولداً عظيماً الشآن، لا كالأولاد المخلوقين من النطفة. و جعله نبياً. و قوله «فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا» معناه أجرينا فيها روح المسيح، كما يجرى الهواء بالنفخ، و أضاف الروح الى نفسه، على وجه الملك تشريفاً له فى الاختصاص بالذكر. و قيل: إن الله تعالى أمر جبرائيل بنفخ الروح فى فرجها، و خلق المسيح فى رحمها. و قوله «وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ» معناه إنا جعلنا مريم و ابنها عيسى آية للعالمين. و انما قال «آية» و لم يشن، لأنه فى موضع دلالة لهما، فلا يحتاج أن يشن. و الآية فيهما أنها جاءت به من غير فعل، فتكلم فى المهد بما يوجب

ص: ٢٧٧

براءة ساحتها من العيب، و فى ذلك دليل واضح على سعة مقدراته تعالى، و أنه يتصرف كيف شاء.

و قوله «وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً» قال ابن عباس و مجاهد و الحسن:

معناه دينكم دين واحد. و اصل الأمة الجماعة التى على مقصد واحد، فجعلت الشريعة أمة، لاجتماعهم بها على مقصد واحد. و قيل: معناه جماعة واحدة فى أنها مخلوقة مملوكة لله. و نصب «أمة» على الحال، و يسميه الكوفيون قطعاً. ثم قال «وَإِنَّا رَبُّكُمْ» الذى خلقكم «فاعبدونى» و لا تشركوا بى احداً.

و قوله «وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ» معناه اختلفوا فى الدين بما لا يسوغ، و لا يجوز- فى قول ابن زيد- ثم قال مهدداً لهم «كُلُّ

إِلَيْنَا رَاجِعُونَ» أى الى حكمنا، فى الوقت الذى لا يقدر على الحكم فيه سوانا، كما يقال: رجع أمرهم الى القاضى أى الى حكمه. و قوله «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» قيل: الصالحات- هاهنا- صلة الرحم، و معونة الضعيف، و نصرة المظلوم، و إغاثة الملهوف، و الكف عن الظلم، و نحو ذلك من اعمال الخير، و انما شرط الايمان، لأن هذه الأشياء لو فعلها الكافر لم ينتفع بها عند الله. و قوله «فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ» معناه لا جحود لإحسانه فى عمله، و هو مصدر كفر كفراً و كفراناً، قال الشاعر:

من الناس ناس لا تنام خدودهم
و خدى و لا كفران لله نائم «١»

و قوله «وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ» أى ملائكتنا يشنون ذلك و يكتبونه، فلا يضيع له لديه شىء.

و قوله «وَ حَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» قيل: (لا) صلة،

ص: ٢٧٨

و المعنى: حرام رجوعهم. و قيل «أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» أى حال قبول التوبة. و قال قوم: حرام على قرية أهلكتها، لأنهم لا يرجعون. و قال الزجاج: المعنى و حرام على قرية أهلكتها أن نتقبل منهم عملاً لأنهم لا يرجعون، أى لا يتوبون أبداً. و حرم و حرام لغتان مثل حل و حلال. و قيل: فى معنى «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ» معناه واجب عليهم ألا يرجعون الى تلك القرية أبداً. و قال الجبائى: معناه و حرام على قرية أهلكتها عقوبة لهم ان يرجعوا الى دار الدنيا.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٦ الى ١٠٠]

حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هُوَ لِآلِهَةٍ مَا رَزَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

خمس آيات.

قرأ ابن عامر «فتحت» مشددة، على التكنير. الباقون بالتخفيف.

يقول الله تعالى: إنه حرام على أهل قرية أهلكتها رجوعهم، «حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ» أى ينفرج السدان (يأجوج و مأجوج) و يظهرها، و التقدير فتحت

ص: ٢٧٩

جهة يأجوج و مأجوج، و الفتح انفراج الشىء عن غيره.

و قوله «وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» قال مجاهد: ان قوله «وهم» كناية عن الناس، يحشرون الى أرض الموقف يوم القيامة. و قال عبد الله بن مسعود: هو كناية عن يأجوج و مأجوج. و يأجوج و مأجوج اسمان أعجميان، و هما قبيلان. و لو كانا عربيين لكانا من أج النار، أو الماء الأجاج. و قال قتادة: الحدب الاكم. و قيل:

هو الارتفاع من الأرض بين الانخفاض، و معناهما واحد. و الحدبة خروج الظهر، يقال: رجل أحذب إذا احدودب كبراً. و قوله «ينسلون» فالنسل الخروج عن الشىء الملابس، يقال: نسل ينسل و ينسل نسولا، قال امرؤ القيس:

فسلى ثيابى من ثيابك تنسل «١»

و ان كنت قد ساءت كى خليقة

و نسل ريش الطائر إذا سقط و قيل: النسل الخروج باسراع مثل نسلان الذئب، قال الشاعر:

برد الليل عليه فنسل «٢»

عسلان الذئب أمسى قارياً

و قوله تعالى «وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» قال قوم: الواو مقحمة و التقدير اقترب الوعد الحق، يعنى القيامة. و قال آخرون: ليست مقحمة، بل الجواب محذوف، و هو الأجود. و التقدير على قول الأولين «حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ ... وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» ذكره الفراء قال: و هو مثل قوله «وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَ نَادَيْنَاهُ» «٣» و كقوله (حَتَّى إِذَا جَاءُهَا وَ فُتِحَتْ) «٤» و المعنى فتحت. و على قول البصريين الواو مرادة و التقدير حتى إذا فتحت، و اقترب الوعد الحق، قالوا يا ويلنا قد كنا فى غفلة. و قيل: خروج يأجوج و مأجوج من أشراط الساعة.

(١) شرح ديوانه ١٤٧

(٢) تفسير الطبرى ١٧ / ٤٤

(٣) سورة ٣٧ الصافات آية ١٠٣

(٤) سورة ٣٩ الزمر آية ٧٣

ص: ٢٨٠

و قوله (فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ) قيل ان الضمير فى قوله (فإذا هي) عائد الى معلوم ينبه عليه ابصار الذين كفروا، كما قال الشاعر:

إلا فرّ عنى مالك ابن أبى كعب «١»

لعمر أبيها لا تقول ظعيتنى

فكنى فى أبيها ثم بين ذكرها. و قال قوم: إضمار العماد على شروط التفسير، كقوله تعالى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) «٢» و قوله (يا ويلنا) أى يقول الكفار الذين شخصت أبصارهم: الويل لنا انا قد كنا فى غفلة من هذا اليوم، و هذا المقام، بل كنا ظالمين لنفوسنا بارتكاب معاصى الله، فيقول الله تعالى لهم (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) و المعنى انكم ايها الكافرون و الذى عبدتموه من الأصنام و الأوثان حصب جهنم. و قال ابن عباس:

وقودها. و قال مجاهد: حطبتها. و قيل: انهم يرمون فيها، كما يرمى بالحصاء - فى قول مجاهد، و قال إنما يحصب بهم أى يرمى بهم.

و قرأ (على) (ع)، و عائشة (حطب). و قرأ الحسن (حضب) بالضاد.

و معناه ما تهيج به النار و تذكا به. و الحضب الحية.

و قوله (أَنْتُمْ لَهَا وَاِرْدُونَ) خطاب لجميع الكفار انهم يردون جهنم و يدخلونها لا محالة، فالورود قد يكون الدخول، كقولهم وردت الدار، أى دخلتها، و يكون بالإشراف، كقوله (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ) «٣» و معناه أشرف عليه. و المراد فى الآية الدخول، لأن الكفار يدخلون النار لا محالة.

ثم قال تعالى: لو كان هذه الأصنام و الأوثان آلهة لم يردوا جهنم. و يحتمل:

(١) تفسير الطبرى ١٧ / ٦٦ و القرطبي ١١ / ٣٤٢

(٢) سورة الحج آية ٤٦

(٣) سورة القصص آية ١٢

ص: ٢٨١

أن يكون أراد ما وردت الأصنام جهنم، لأنه كان يكون عبادتهم واقعة موقعها، و لكانوا يقدرون على الدفاع عنهم و النصر لهم.

ثم اخبر تعالى ان كل فى جهنم خالدون، مؤبدون فيها. و أن لهم فى جهنم زفيراً، و هو شدة التنفس. و قيل: هو الشهيق لهول ما يرد عليهم من النار (و هم فيها) يعنى فى جهنم (لا يسمعون) قال الجبائى: لا يسمعون ما ينتفعون به، و إن سمعوا ما يسؤهم. و قال ابن مسعود: يجعلون فى توابيت من نار، فلا يسمعون شيئاً. و قال قوم: المراد بقوله (وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الشياطين الذين دعواهم الى عبادة غير الله. فأطاعوهم، فكأنهم عبدوهم، كما قال (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) «١» أى لا تطعه.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠١ الى ١٠٥]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكَتَّابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)

خمس آيات.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر (للكتب) على الجمع. الباكون (للكتاب) على التوحيد. وقرأ حمزة وحده (الزبور) بضم الزاى. من ضم الزاى أراد الجمع.

و من فتحها أراد الواحد. يقال: زبرت الكتاب أزبره زبراً إذا كتبتة.

لما اخبر الله تعالى: ان الكفار حسب جهنم و انهم واردون النار، و داخلون فيها مؤبدين، اخبر (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى) يعنى الوعد بالجنة. و قيل:

الحسنى الطاعة لله تعالى يجازون عليها فى الآخرة بما وعدهم الله به. و اخبر تعالى ان من هذه صفته مبتعد عن النار ناء عنها، و يكونون بحيث (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا) يعنى صوتها، الذى يحس، و إنهم فى ما تشتهيهم أنفسهم من الثواب و النعيم خالدون و الشهوة طلب النفس للذة يقال: اشتهى شهوة، و تشهى تشهياً، و نقيض الشهوة تكره النفس، فالغذاء يشتهى و الدواء يتكره. و قيل: الحسنى الجنة التى وعد الله بها المؤمنين. و قال ابن زيد: الحسنى السعادة لأهلها من الله، و سبق الشقاء لأهله، كأنه يذهب الى ان معنى الكلمة انه: سيسعد أو أنه سيشقى. و قال الحسن و مجاهد: الذين سبقت لهم منا الحسنى عيسى، و عزيز، و الملائكة الذين عبدوا من دون الله، و هم كارهون، استثناهم من جملة من اخبر انهم مع الكفار فى جهنم.

و قوله «لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ» معناه لا يغم الذين سبقت لهم من الله الحسنى الفرع الأكبر. و من ضم الياء أراد لا يفزعهم الفرع الأكبر. قال ابن جبير، و ابن جريج: هو عذاب النار، على أهلها. و قال ابن عباس: هى النفخة الأخيرة. و قال الحسن: هو حين يؤمر بالعبد الى النار «وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ» قيل تلتفاهم الملائكة بالتهنئة و يقولون لهم «هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» به أى تخوفون بما فيه من

العقاب، و ترغبون فيما فيه من الثواب.

و قوله «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ» يحتمل نصب (يوم) وجهين:

أحدهما - أن يكون بدلا من (توعدون) لان تقديره توعدونه.

الثانى - انه نعدكم يوم نطوى السماء. و قوله «كَطَى السَّجِلَّ لِلْكَتَبِ» فالسجل الصحيفة تطوى على ما فيها من الكتابة، فشبه الله تعالى طى السماء يوم القيامة بطنى الكتاب - فى قول ابن عباس و مجاهد - و قال ابن عمر، و السدى: السجل ملك يكتب اعمال العباد. و قال ابن عباس - فى رواية أخرى - السجل كاتب كان لرسول الله (ص) و التقدير كطى الكتاب السجل، و اللام مؤكدة. و يحتمل أن يكون المعنى كطى السجل، و قد تم الكلام. ثم قال للكتب أى لما كتبناه و علمناه، فعلنا ذلك، كما قال «و لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ» «١» و قوله «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» المعنى نعيد الخلق كما بدأناه. قال ابن عباس: معناه انه يهلك كل شىء، كما كان أول مرة. ثم قال: إن الذى ذكرناه و عيد منا لازم نفعله لا محالة.

ثم قال تعالى «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ» قيل الزبور كتب الأنبياء «مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» من بعد كتبه فى أم الكتاب - فى قول سعيد بن جبیر و مجاهد و ابن زيد.

و قيل: الزبور، زبور داود، من بعد الذكر فى توراة موسى - فى قول الشعبى - و قال قوم «مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» معناه قبل الذكر الذى هو القرآن، حكاه ابن خالويه.

و قوله «أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ» قال ابن عباس و سعيد بن جبیر و ابن زيد: يعنى أرض الجنة يرثها الصالحون من عباد الله، كما قال

(١) سورة ١٠ يونس آية ١٩، و سورة ١١ هود آية ١١١، و سورة ٢٠ طه آية ١٢٩، و سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٥، و سورة، ٢٤ الشورى آية ١٤

ص: ٢٨٤

«وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبَوًّا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ» «١» و قيل: هى الأرض فى الدنيا التى تصير للمؤمنين فى أمة محمد (ص) من بعد اجلاء الكفار عنها - فى رواية أخرى - عن ابن عباس.

و قيل: يعنى أرض الشام، يرثها الصالحون من بنى إسرائيل ذكره الكلبي.

و عن أبى جعفر (ع) إن ذلك وعد للمؤمنين بأنهم يرثون جميع الأرض.

قوله تعالى: [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٦ الى ١١٢]

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَوْ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)

وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)
سبع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى «إِنَّ فِي هَذَا» المعنى الذى أخبرتكم به، مما توعدنا به الكفار، من النار و الخلود فيها، و ما وعدنا به المؤمنين من الجنة و الكون فيها «لبلاغاً» و قيل:

«ان فى هذا» يعنى القرآن «لبلاغاً» أى لما يبلغ الى البغية من أخذ به، و عمل عليه. و البلوغ الوصول. و البلاغ سبب الوصول الى الحق، ففي البرهان بلاغ، و القرآن

(١) سورة ٣٩ الزخرف آية ٧٤

ص: ٢٨٥

دليل و برهان. و قيل: معناه إنه يبلغ رضوان الله و محبته و جزيل ثوابه «لِقَوْمٍ عَابِدِينَ» لله مخلصين له.

ثم قال لنبيه محمد (ص) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ) يا محمد (إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) أى نعمة عليهم، و لأن ترحمهم.

و فى الآية دلالة على بطلان قول المجبرة فى أنه: ليس لله على الكافرين نعمة.

لأنه تعالى بين ان إرسال الله رسوله نعمة على العالمين. و على كل من أرسل اليهم.

و وجه النعمة على الكافر انه عرضه للايمان و لطف له فى ترك معاصيه. و قيل: هى نعمة على الكافر بأن عوفى مما أصاب الأمم قبلهم من الخسف و القذف - فى قول ابن عباس - ثم قال له (ص) قل لهم (إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ) أى مسلمون لهذا الوحي الذى أوحى الى، من اخلاص الالهية و العبادة لله تعالى. ثم قال (فان تولوا) يعنى ان عرضوا عن هذا الذى تدعوهم اليه من إخلاص التوحيد، فقل لهم (أَذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سِوَايَ) أى أعلمتكم على سواء فى الإيدان تتساوون فى العلم به لم اظهر بعضكم على شىء كتمته عن غيره، و هو دليل على بطلان قول أصحاب الرموز، و أن للقرآن بواطن خص بالعلم بها أقوام. و قيل على سواء [فى العلم انى صرت مثلكم، و مثله قوله «فَأَنْبِئْهُمْ عَلَىٰ سِوَايَ»] أى ليستوى علمك و علمهم. و قيل معناه: لتستووا فى الايمان به.

و قوله (وَإِنْ أَدْرَى أَوْ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ) معناه لست اعلم ان ما وعدكم الله به من العقاب أ قريب مجيؤه ام بعيد. و قوله (وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) أى لست ادرى لعل التأخير شدة فى عبادتكم يظهر بها ما هو كالسر فيكم من خير أو شر، فيخلص الجزاء بحسب العمل. و اصل الفتنة التخليص

(١) سورة الأنفال آية ٥١. و ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

ص: ٢٨٦

بالشدة، كتخليص الذهب بشدة النار من كل شائب من غيره. و قيل (فتنة لكم) اى اختبار لكم (وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) أى تتمتعون الى الوقت الذى قدره الله لاهلاككم.

ثم قال لنبيه (ص) (قل) يا محمد (رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ) انما أمره أن يدعو بما يعلم انه لا بد أن يفعله تعبدًا، لأنه إذا دعا بهذا ظهرت رغبته فى الحق الذى دعا به. و قال قتادة: كان النبى (ص) إذا شهد قتالا قال (رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ) بينى و بين المشركين بما يظهر به الحق للجميع. و قرأ حفص وحده (قَالَ رَبِّ احْكُم) على الخبر. الباقر على الامر، و ضم الباء ابو جعفر اتباعاً لضم الكاف. الباقر بكسرهما على أصل حركة التقاء الساكنين.

و قوله (وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) أى على ما تذكرون، مما ينافى التوحيد. و حكى عن الضحاك انه قرأ (قال ربى أحكم) بإثبات الياء، و هو خلاف ما فى المصاحف، و يكون على هذا (ربى) مبتدأ و (أحكم) خبره، كقوله (اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) «١». و قرأ ابن ذرران عن ابن عامر (عما يصفون) بالياء يعنى على ما يكذب هؤلاء الكفار من انكار البعث. الباقر بالتاء على الخطاب لهم بذلك.

(١) سورة المؤمن آية ١٤

ص: ٢٨٧

٢٢- سورة الحج

قال قتادة هى مدنية إلا اربع آيات فإنها مكيات من قوله «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ» الى قوله (عذاب مقيم) و قال مجاهد و عياش بن أبى ربيعة: هى مدنية كلها. و هى ثمان و سبعون آية فى الكوفى و ست فى المدنيين و خمس فى المكى.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)

أربع آيات بلا خلاف.

ص: ٢٨٨

قرا اهل الكوفة إلا عاصماً «سكراً» بلا الف بسكون الكاف في الموضعين.

الباقون «سكراً».

هذا خطاب من الله تعالى لجميع المكلفين من البشر يأمرهم بأن يتقوا معاصي الله لأنه يستحق بفعل المعاصي و الإخلال بالواجبات العقوبات يوم القيامة.

ثم اخبر «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ» يعنى القيامة «شَيْءٌ عَظِيمٌ» و الزلزلة شدة الحركة على حالة هائلة، و منه زلزلة الأرض لما يلحق من الهول، و كان أصله زلت قدمه إذا زالت عن الجهة بسرعة. ثم ضوعف فقيلاً: زلزل الله أقدامهم، كما قيل: دكة و دكدكة، و الزلزلة و الزلزال - بكسر الزاى - مصدر. و الزلزال - بالفتح - الاسم قال الشاعر:

فيه النكراء و الزلزال «١»

يعرف الجاهل المضلل ان الدهر

و قال علقمه و الشعبي: الزلزلة من أشرط القيامة. و روى الحسن فى حديث رفعه عن النبى (ص) انها يوم القيامة. و العظيم المختص بمقدار يقصر عنه غيره، و ضده الحقيقير. و الكبير تقيض الصغير.

و فى الآيه دلالة على أن المعدوم يسمى شيئاً، لان الله تعالى سمي الزلزلة يوم القيامة شيئاً، و هى معدومة اليوم.

و قوله «يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ» قال الفراء و الكوفيون:

يجوز ان يقال: مرضع بلا هاء، لأن ذلك لا يكون فى الرجال، فهو مثل حائض و طامث. و قال الزجاج و غيره من البصريين: إذا أجرته على الفعل قلت أرضعت فهى مرضعة، فإذا قالوا مرضع، فالمعنى انها ذات رضاع. و قيل فى قولهم: حائض و طامث معناه انها ذات حيض و طمث. و قال قوم: إذا قلت: مرضعة، فانه يراد

بها ام الصبى المرضع. و إذا أسقطت الهاء، فانه يراد بها المرأة التى معها صبى مرضعة لغيرها.

و المعنى ان الزلزلة هى شىء عظيم، فى يوم ترون فيها الزلزلة، على وجه «تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ» اى يشغلها عن ولدها اشتغالها بنفسها، و ما يلحقها من الخوف.

و قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، و تضع الحامل لغير تمام.

و الذهول الذهاب عن الشىء دهشاً و حيرة، تقول: ذهلت عنه ذهولاً، و ذهلت - بالكسر - ايضاً، و هو قليل، و الذهل السلو، قال الشاعر:

صحا قلبه يا عز أو كاد يذهل «١» و هذا تحويل ليوم القيامة، و تعظيم لما يكون فيه من الشدة على وجه لو كان هناك مرضعة لشغلت عن الذى ترضعه، و لو كان هناك حامل لأسقطت من هول ذلك اليوم، و إن لم يكن هناك حامل و لا مرضعة.

و قوله (وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى) معناه تراهم سكارى من الفزع، و ما هم بسكارى من شرب الخمر. و انما جاز «وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى»، لأنها رواية تخيل. و قيل: معناه كأنهم سكارى من ذهول عقولهم لشدة ما يمر بهم، فيضطربون كاضطراب السكران من الشراب. و قرأ ابو هريرة (وَ تَرَى النَّاسَ) بضم التاء، و الناس منصوب على أنه مفعول ثان. و تقديره و ترى أن الناس. و تكون «سكارى» نصباً على الحال. و من قرأ «سكرى» جعله مثل جرحى و قتلى. و قيل: هما جمعان كسكران و سكرانة، قال ابو زيد: يقولون: مريض و مراضى، و مرضى. فمن قرأ «سكرى» فلأن السكر كالمريض و الهلاك، فقلوا:

(سكرى) مثل هلكى و مثل عكلى. و من

قرأ «سكارى» فلأنه روى أن النبى (ص) قرأ كذلك.

ثم علل تعالى ذلك، فقال ليس هم بسكارى «وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فمن شدته يصيبهم ما يصيبهم من الاضطراب.

ثم اخبر تعالى ان «مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ» أى يخاصم «فِي اللَّهِ» فيما يدعوهم اليه من توحيد الله و نفي الشرك عنه «بِغَيْرِ عِلْمٍ» منه بل للجهل المحض «و يتبع» فى ذلك «كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ» يعويه عن الهدى و يدعوهُ الى الضلال. و ذلك يدل على أن المجادل فى نصرته الباطل مذموم، و أن من جادل بعلم و وضع الحجة موضعها بخلافه.

و (المريد) المتجرد للفساد. و قيل أصله الملاسة، فكأنه متملس من الخير، و منه صخرة مرداء أى ملساء، و منه الأمرد. و المريد الداهية المنكرة. و يقال: تمرد فلان.

و الممرد من البناء المتطاوول المتجاوز.

و قوله «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ» يقول الله تعالى انه كتب فى اللوح المحفوظ ان من تولى الشيطان و اتبعه و أطاعه فيما يدعوه اليه، فانه يضلّه. و قال الزجاج: معناه كتب عليه أنه من تولاه يضلّه، فعطف (أن) الثانية على الأولى تأكيداً، فلذلك نصبت (أن) الثانية. و الأكثر فى التأكيد أن لا يكون معه حرف عطف غير انه جائز. كما يجوز: زيد- فافهم - فى الدار. و قال قوم: نصبت (أن) الثانية، لان المعنى فلأنه يضلّه عن طريق الحق «وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ» أى عذاب النار الذى يستعر و يلتهب. و الهاء فى «كُتِبَ عَلَيْهِ» راجعة الى الشيطان، و تقديره كتب على الشيطان أنه من تولى الشيطان و اتبعه، فان الشيطان يضلّه، فالهاء فى يضلّه عائدة الى (من) فى قوله «مَنْ تَوَلَّاهُ».

ص: ٢٩١

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): آية ٥]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَّبِّئِن لَّكُمْ وَ تَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَ مِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)

آية واحدة بلا خلاف.

قرأ ابو جعفر «و ربأت» الباقون (ربت).

خاطب الله تعالى بهذه الآية جميع المكلفين من البشر. فقال لهم «إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ» و النشور. و الريب أقبح الشك «فإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ» قال الحسن: المعنى خلقنا آدم من تراب الذى هو أصلكم و أنتم نسله. و قال قوم: أراد به جميع الخلق، لأنه إذا أراد انه خلقهم من نطفة، و النطفة يجعلها الله من الغذاء، و الغذاء ينبت من التراب و الماء، فكان أصلهم كلهم التراب، ثم أحالهم بالتدرّيج: الى النطفة، ثم أحال النطفة علقه، و هى القطعة من الدم جامدة. ثم أحال العلقة مضغة، و هى شبه قطعة من اللحم مضوغة. و المضغعة مقدار ما يمزغ من اللحم.

و قوله «مُخَلَّقَةٌ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» قال قتادة: تامة الخلق، و غير تامة. و قيل:

مصورة و غير مصورة. و هي السقط - فى قول مجاهد -.

ص: ٢٩٢

و قوله «لِنَبِيِّنَ لَكُمْ» معناه لندلكم على مقدورنا، بتصريفه فى ضروب الخلق و قوله «وَ تُقَرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» مستأنف، فلذلك رفع.

و قال مجاهد: معناه نقره الى وقت تمامه.

و قوله «ثم نخرجكم طفلاً» يعنى نخرجكم من بطون أمهاتكم، و أنتم أطفال.

و الطفل الصغير من الناس، و نصب طفلاً على المصدر، و هو فى موضع جمع. و قيل:

هو نصب على التمييز، و هو جائز، و تقديره نخرجكم أطفالاً، و قيل الطفل الى قبل مقاربة البلوغ.

و قوله «ثُمَّ لَتَبُلُّغُوا أَشَدُّكُمْ» يعنى وقت كمال عقولكم و تمام خلقكم. و قيل:

وقت الاحتلام و البلوغ، و هو جمع (شد). و الأشد فى غير هذا الموضع قد بينا اختلاف المفسرين فيه «١». و قوله «وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى» يعنى قبل بلوغ الأشد.

و قيل: قبل أن يبلغ أرذل العمر «وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أُرْدَلِ الْعُمُرِ» و قيل معناه.

أهونه و اخسه عند أهله. و قيل: أحقره. و قيل هى حال الخرف. و انما قيل: أرذل العمر، لان الإنسان لا يرجو بعده صحة و قوة، و انما يترقب الموت و الفناء، بخلاف حال الطفولية، و الضعف الذى يرجو معها الكمال و التمام و القوة، فلذلك كان أرذل العمر.

و قوله «لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا» معناه إنا رددناه الى أرذل العمر لكى لا يعلم، لأنه يزول عقله من بعد أن كان عاقلاً عالمًا بكثرة من الأشياء و ينسى جميع ذلك.

و قوله «وَ تَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً» أى دارسة دائرة يابسة، يقال: همد يهمد هموداً إذا درستته و دثرتته. قال الأعشى:

قالت فتيلة ما لجسمك شاحباً

و أرى ثيابك باليات همدا «١»

وقوله تعالى «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ» يعنى الغيث و المطر «اهْتَرَّتْ وَ رَبَّتْ» فلاهتزاز شدة الحركة فى الجهات. و الربو الزيارة فيها اى تزيد بما يخرج منها من النبات، و تهتز بما يذهب فى الجهات «وَ أَنْبَتَتْ» يعنى الأرض «مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» فالبهيج الحسن الصورة، الذى يتمتع فى الرؤية. و قال الزجاج (ربت) و (ربأت) لغتان. و قال الفراء: ان ذهب ابو جعفر فى قراءته (ربأت) الى انه من الربثة التى تجربين الناس، فهو مذهب. و إلا فهو غلط، و يغلط العرب كقولهم:

حلأت السويق، و لبأت بالحج، و رثأت الميت. و قد قرأ الحسن البصرى فى يونس «وَ لَا أُذْرَأُكُمْ بِهِ» و هو مما يرخص فى القراءة.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٦ الى ١٠]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ وَ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يُبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى ان الذى ذكرناه انما دللنا به لتعلم ان «اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ» و انه

(١) ديوانه ٥٤ و روايته (سائتا) بدل (شاحباً)

الواحد الذى لا يستحق العبادة سواه، و من اعتقده كذلك، فمعتقده على ما هو به، و هو محق، و الحق هو ما كان معتقده على ما اعتقده «وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى» لأن من قدر على إنشاء الخلق ابتداء و نقله من حال الى حال على ما وصف، فانه يقدر على إعادته حياً بعد كونه ميتاً، و يعلم ايضاً انه قادر على كل ما يصح أن يكون مقدوراً له، و اصل الوصف بالحق من قولهم: حقه يحقه حقاً، و هو نقيض الباطل. و الفرق بين الحق و العدل أن العدل جعل الشىء على قدر ما تدعو اليه الحكمة، و الحق فى

الأصل جعل الشيء لما هو له في ما تدعو اليه الحكمة غير انه نقل الى معنى مستحق لصفات التعظيم، فالله تعالى لم يزل حقاً
أى انه لم يزل مستحقاً لمعنى صفة التعظيم بأنه الا له الواحد الذى هو على كل شيء قدير.

ثم اخبر تعالى ان فى جملة الناس من يخاصم و «يُجَادِلُ فِي اللَّهِ» و صفاته «بِغَيْرِ عِلْمٍ» بل للجهل المحض «وَلَا هُدًى» أى و
لا حجة «وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ» أى و لا حجة كتاب ظاهر، و هذا يدل ايضاً على ان الجدل بالعلم صواب، و بغير العلم خطأ، لأن
الجدال بالعلم يدعو الى اعتقاد الحق، و بغير العلم يدعو الى الاعتقاد بالباطل، و لذلك قال تعالى «وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»
«١» و قوله «ثانى عطفه» نصب على الحال يعنى الذى يجادل بغير علم يثنى عطفه.

قال مجاهد و قتادة: يلوى عنقه كبراً. و قيل انها: نزلت فى النضر بن الحارث ابن كلدة - ذكره ابن عباس -.

و قوله «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» من فتح الياء، معناه يفعل هذا ليضل عن طريق الحق المؤدى الى توحيد الله. و من ضم الياء أراد
انه يفعل ذلك ليضل غيره.

ثم اخبر تعالى ان من هذه صفته «لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ» و أنه يذيقه

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥

ص: ٢٩٥

«عَذَابَ الْحَرِيقِ» يوم القيامة أى العذاب الذى يحرق بالنار. ثم قال «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ» أى يقول الله تعالى عند نزول
العذاب به «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» و معناه إن ما يفعل بالظالم نفسه من عذاب الحريق جزاء على ما
كسبت يده، فذكر اليدين مبالغة فى إضافة الجرم اليه، و هذا يدل على أن ذكر اليدين قد يكون لتحقيق الاضافة. و قوله «و إن
الله» أى و لان الله «لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» و إنما ذكره بلفظ المبالغة، و إن كان لا يفعل القليل من الظلم لامرين:

أحدهما - انه خرج مخرج الجواب للمجبرة، ورداً عليهم، لأنهم ينسبون كل ظلم فى العالم اليه تعالى، فبين أنه لو كان، كما قالوا
لكان ظلماً و ليس بظالم.

و الثانى - أنه لو فعل أقل قليل الظلم لكان عظيماً منه، لأنه يفعل من غير حاجة اليه، فهو أعظم من كل ظلم فعله فاعله لجاجته
اليه.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ١١ الى ١٦]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكُمْ
هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ

نَفَعَهُ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

ص: ٢٩٦

ست آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر و أبو عمرو، و رويس، و ورش «ثم ليقطع» ثم «ليقضوا» «١» - بسكون اللام - فيهما، و وافقهم قبل في «ثم ليقضوا». الباقون بسكون اللام.

معنى قوله «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ» أى فى الناس من يوجه عبادته إلى الله على ضعف فى العبادة، كضعف القيام على حرف جرف، و ذلك من اضطرابه فى استيفاء النظر المؤدى الى المعرفة. فأدنى شبهة تعرض له ينقاد لها، و لا يعمل فى حلها. و الحرف و الطرف و الجانب نظائر. و الحرف منتهى الجسم، و منه الانحراف الانعزال الى الجانب. و قلم محرف قد عدل بقطعته عن الاستواء إلى جانب، و تحريف القول هو العدول به عن جهة الاستواء، فالحرف معتدل الى الجانب عن الوسط. و قال مجاهد: معنى على حرف على شك. و قال الحسن: يعبد الله على حرف يعنى المنافق يعبد بلسانه دون قلبه. و قيل على حرف الطريقة لا يدخل فيها على تمكين.

و قوله «فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ» قال ابن عباس: كان بعضهم إذا قدم المدينة فان صح جسمه و نتجت فرسه مهراً حسناً و ولدت امرأته غلاماً رضى به و اطمان اليه، و إن اصابه وجع المدينة، و ولدت امرأته جارية، و تأخرت عنه الصدقة، قال ما أصبت منذ كنت على دينى هذا إلا شراً. و كل ذلك من عدم البصيرة. و قيل: انها نزلت فى بنى أسد كانوا نزلوا حول المدينة. و (الفتنة) - هاهنا - معناه المحنة بضيق المعيشة، و تعذر المراد من

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢٩

ص: ٢٩٧

أمور الدنيا.

ثم اخبر الله تعالى أن من هذه صفته على خسران ظاهر، لأنه يخسر الجنة، و تحصل له النار. ثم اخبر عن من ذكره انه «يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ» يعنى الأصنام و الأوثان، لأنها جماد لا تضر و لا تنفع، فانه يعبدها دون الله. ثم قال

تعالى «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ» يعنى عبادة ما لا يضر و لا ينفع من العدول عن الصواب، و الانحراف عن الطريقة المستقيمة الى البعيد عن الاستقامة.

و «ذلك» فى موضع نصب ب (يدعو) و معناه (الذى) كأنه قال: الذى هو الضلال البعيد يدعو. و قوله «يدعو لمن» مستأنف على ما ذكره الزجاج. و قوله «يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» يعنى يدعو هذه الأصنام التى ضررها أقرب من نفعها، لان الضرر بعبادتها عذاب النار، و النفع ليس فيها. و إنما جاز دخول اللام فى «لِمَنْ ضَرُّهُ» لأن (يدعو) معلقة، و إنما هى تكرير للأولى، كأنه قال: يدعو - للتأكيد - للذى ضره أقرب من نفعه يدعو. ثم حذفت (يدعو) الأخيرة اجتزاء بالأولى. و لا يجوز قياساً على ذلك ضربت لزيد، و لو قلت بدلا من ذلك يضرب لمن خيره أكثر من شره يضرب، ثم حذفت الخبر جاز. و العرب تقول عندي لما غيره هو خير منه، كأنه قال للذى غيره خير منه عندي، ثم حذف الخبر من الثانى، و الابتداء من الاول، كأنه قال عندي شىء غيره خير منه و على هذا يقال:

أعطيك لما غيره خير منه، على حذف الخبر. و قيل: فى خير (لمن ضرره) أنه (لبئس المولى). و قيل: يدعو بمعنى يقول. و الخبر محذوف. و تقديره يقول لمن ضره أقرب من نفعه: هو آلهة، قال عنتر:

ص: ٢٩٨

أشطان بئر فى لبان الأدهم «١»

يدعون عنتر و الرماح كأنها

أى يقولون يا عنتر، و قيل تقدير اللام التأخر، و إن كانت متقدمة. و المعنى يدعو من لضره أقرب من نفعه.

و قوله «لِبَيْسِ المَوْلَى وَ لِبَيْسِ العَشِيرِ» فالمولى هو الولى، و هو الناصر الذى بولى غيره نصرته إلا أنها نصره سوء، و العشير صاحب المعاشرة أى المخالط - فى قول ابن زيد - و قال الحسن: المولى - هاهنا - الولى. و قيل: ابن العم أى بئس القوم لبئس عمهم بما يدعونهم اليه من الضلال. و قيل: اللام لام اليمين، و التقدير يدعو و عزتى لمن ضره أقرب من نفعه.

ثم اخبر تعالى انه «يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله و أقروا بوحدانيته و صدقوا رسله «و عملوا» الاعمال «الصالحات» التى أمرهم بها «جنات» أى بساتين «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» من ذلك لا اعتراض عليه فى ذلك.

ثم قال «مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ» فالهاء فى قوله «يَنْصُرُهُ اللَّهُ» قال ابن عباس و قتادة: عائذة الى النبى (ص)، و المعنى من كان يظن أن الله لا ينصر نبيه و لا يعينه على عدوه، و يظهر دينه فليمت غيظاً. و النصرة المعونة - فى قوله قتادة - و قال مجاهد و الضحاك: أن الكناية عائذة الى

(من) و المعنى إن من ظن أن لا ينصره الله. و قال ابن عباس: النصره - هاهنا - الرزق. و المعنى من ظن ان الله تعالى لا يرزقه، و العرب تقول: من ينصرنى نصره الله أى من يعطينى أعطاه الله. و قال الفقعى:

(١) ديوانه (دار بيروت) ٢٩ من معلقته

ص: ٢٩٩

و إنك لا تعط امرأً فوق حظه و لا تملك الشق الذى الغيث ناصره «١»

أى معطيه و جائده، و يقال نصر الله أرض فلان أى جاد عليها بالمطر و قوله «فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعْ» قيل فى معنى (السما) قولان:

أحدهما - قال ابن عباس: أراد سقف البيت. و السبب الحبل. و قال ابن زيد: الى السماء سماء الدنيا و السبب المراد به الوحى الى النبى (ص) «ثُمَّ لَيَقْطَعْ» الوحى عن النبى (ص) و المعنى من ظن أنه لا يرزقه الله على وجه السخط لما اعطى «فَلْيَمْدُدْ» بحبل الى سماء بيته و اضاعاً له فى حلقه، على طريق كيد نفسه ليذهب غيظه به. و هذا مثل ضربه الله لهذا الجاهل. و المعنى مثله مثل من فعل بنفسه هذا، فما كان إلا زائداً فى بلائه. و قيل: هذا مثل رجل وعدته وعداً، و وكدت على نفسك الوعد، و هو يراجعك. لا يثق بقولك له. فتقول له: فاهب فاختنق، يعنى اجهد جهدك فلا ينفك، و هذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين نفروا من اتباع النبى (ص) خيفة من المشركين يخشون أن لا يتم له أمره.

و قرأ ابن مسعود «يدعو من ضره أقرب من نفعه» بلا لام. الباقون بإثبات اللام. و وجهه أن (من) كلمة لا يبين فيها الاعراب فاستجازوا الاعتراض باللام دون الاسم الذى يبين فيه الاعراب، و لذلك قالت العرب: عندى لما غيره خير منه. و قد يجوز أن يكون (يدعو) الثانية من صلة الضلال البعيد، و يضم فى يدعو الهاء. ثم يستأنف الكلام باللام. و لو قرئ بكسر اللام كان قوياً. قال الفراء:

كأن يكون المعنى يدعو الى ما ضره أقرب من نفعه، كما قال تعالى «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا» «٢» أى الى هذا إلا انه لم يقرأ به احد.

وقوله «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ» اى مثل ما ذكرنا من الادلة الواضحة أنزلناه «آيات» واضحات، لان «اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ» منه فعل الطاعات و يدلّه عليها.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ١٧ الى ٢٢]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)

ست آيات.

اقسم الله تعالى لأن (إن) يتلقى بها القسم، فأقسم تعالى «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله و صدقوا بوحدانيتها و صدقوا أنبياءه «وَالَّذِينَ هَادُوا» يعنى اليهود «وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا» مع الله غيره «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

فخبر «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» قوله «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ» فدخل (إن) على الخبر تأكيداً، كما يقول القائل: إن زيدا إن الخير عنده لكثير. و قال جرير:

إنَّ الخليفة ان الله سربله

سربال ملك به ترجى الخواتيم «١»

و قال الفرا لا يجوز أن تقول: إن زيدا انه صائم لاتفاق الا سمين. قال الزجاج: يجوز ذلك، و هو جيد بالغ. و معنى قوله «يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ» يعنى إن الله يفصل بين الخصوم فى الدين يوم القيامة بما يضطر الى العلم بصحة الصحيح و يبيض وجه المحق، و يسود وجه المبطل. و الفصل هو التمييز بين الحق و الباطل. و إظهار أحدهما من الآخر.

وقوله «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» أى عالم بما من شأنه أن يشاهد، فاللَّهُ تعالى يعلمه قبل أن يكون، لأنه علام الغيوب. ثم خاطب نبيه (ص) والمراد به جميع المكلفين فقال «أَلَمْ تَرَ» ومعناه ألم تعلم «أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» من العقلاء. و يسجد له «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» فسجود الجماد هو ما فيه من ذلة الخضوع التي تدعو العارفين الى السجود، سجود العبادة لله المالك للأمور، و سجود العقلاء هو الخضوع له تعالى و العبادة له. و قوله «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» و إن كان ظاهره العموم، فالمراد به الخصوص إذا حملنا السجود على العبادة و الخضوع، لأننا علمنا أن كثيراً من الخلق كافرون بالله تعالى، فلذلك قال (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) ارتفع (كثير) بفعل مقدر، كأنه قال (و كثير) أبى السجود، ف (حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) دل عليه، لأنهم يستحقون العقاب بجحدهم وحادثية الله، و إشراكهم معه غيره. و قيل: سجود كل شيء - سوى

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٣١ و روايته: (يكفى الخليفة)

ص: ٣٠٢

المؤمنين - سجود ظله حين تطلع الشمس و حين تغيب - فى قول مجاهد - كأنه يجعل ذلك لما فيه من العبرة بتصريف الشمس فى دورها عليه سجوداً.

و قوله (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) يعنى لآبائه السجود. و قيل: بل هو يسجد بما يقتضيه عقله من الخضوع، و إن كفر بغير ذلك من الأمور، و أنشدنا فى السجود بمعنى الخضوع قول الشاعر:

بجمع تضل البلق فى حجراته ترى الا كم فيها سجداً للحوافر «١»

و قوله (وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) معناه من يهينه الله بالشقوة بإدخاله جهنم (فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) بالسعادة بإدخاله الجنة، لأنه الذى يملك العقوبة و المثوبة (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) يعنى يكرم من يشاء، و يهين من يشاء إذا استحق ذلك.

و قوله (هَذَانِ حَصْمَانِ) يعنى الفريقين من المؤمنين و الكفار يوم بدر، و هم حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن أبى ربيعة، و على بن أبى طالب (ع) قتل الوليد بن عتبة، و عبيدة بن الحارث قتل شبيبة بن ربيعة - فى قول أبى ذر - و قال ابن عباس:

هم اهل الكتاب، و أهل القرآن. و قال الحسن و مجاهد و عطاء: هم المؤمنون و الكافرون «اِخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ» لان المؤمنين قالوا بتوحيد الله و أنه لا يستحق العبادة سواه.

و الكفار أشركوا معه غيره، و انما جمع قوله «اختصموا» لأنه أراد ما يختصمون فيه او أراد بالخصمين القبيلتين و خصومهم. ثم قال تعالى «فَالَّذِينَ كَفَرُوا» بالله و جحدوا وحدانيته «قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ» و معناه إن النار تحيط بهم كاحاطة الثياب التى يلبسونها. و «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ»

روى فى خبر مرفوع: انه يصب على رؤسهم الحميم، فينفذ الى أجوافهم فيسلب ما فيها.

و الحميم الماء المغلى.

و قيل: ثياب نحاس من نار تقطع لهم، و هى أشد ما يكون حمى. و قوله

(١) انظر ١ / ٣١١ تعليقة ٥

ص: ٣٠٣

«يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ» فالصهر الاذابة. و المعنى يذاب بالحميم الذى يصب من فوق رؤسهم ما فى بطونهم من الشحوم و تساقط من حره الجلود. تقول: صهرت الالية بالنار إذا أذبتها، أصهرها صهراً قال الشاعر:

تروى لقى ألقى فى صفصف
تصهره الشمس فما ينصهر^١

يعنى ولدها، و تروى معناه أن تحمل له الماء فى حوصلتها، فتصير له راوية كالبعير الذى يحمل عليه الماء، يقال: رويت للقوم إذا حملت لهم الماء. و اللقى كل شىء ملقى من حيوان او غيره، و قال الآخر:

شك السفافيد الشواء المصطهر

و قوله تعالى «وَاللَّهُمَّ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ» فالمقامع جمع مقمعة، و هى مدقة الرأس.

و مثله المنقفة، قمعه قمعاً إذا ردعه عن الأمر. فالزبانية بأيديهم عمد من حديد يضربون بها رؤسهم إذا أرادوا الخروج من النار من الغم الذى يلحقهم، و العذاب الذى ينالهم ردوا بتلك المقاطع فيها و أعيدوا الى حالتهم التى كانوا فيها من العقاب. و قيل: يرفعهم زفيرها حتى إذا كادوا أن يخرجوا منها ضربوا بالمقامع، حتى يهواوا فيها. و قيل: لهم ذوقوا عذاب الحريق، فالذوق طلب ادراك الطعم، فهو أشد لاحساسه عند تفقده و طلب ادراك طعمه. فأهل النار يجدون ألمها وجدان الطالب لادراك الشىء، و

الحريق الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك. وقيل: هو بمعنى محرق كآليم بمعنى مؤلم، فهؤلاء أحد الخصمين. والآخرون هم المؤمنون الذين وصفهم في الآية بعدها.

(١) تفسير القرطبي ٢٧ / ١٢ و الطبري ٩٢ / ١٧ و اللسان (صهر) نسبه لابن أحمـر

ص: ٣٠٤

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لَوْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥)

ثلاث آيات.

قرأ نافع و أبو بكر «و لؤلؤاً» بالنصب. الباقون بالجر.

لما حكى الله تعالى أمر الخصمين اللذين يختصمان، من الكفار، و المؤمنين.

ثم بين ما للكفار من عذاب النار، و إصهار ما فى بطونهم، و المقامع من الحديد، و غير ذلك، بين ما للمؤمنين، و هم الفريق الآخر فى هذه الآية، فقال: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله و أقروا بوحدانيته، و صدقوا رسله «و عملوا» الاعمال «الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا» أى يلبسون الحلى «مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» و الأساور جمع أسوار، و فيه ثلاث لغات أسوار- بالألف- و سوار و سوار. فمن جعله أسوار، جمعه على أساور. و من جعله سوراً، و جمعه أسورة. و فى قراءة عبد الله «أساوير» واحدها إسوار أيضاً، و سوار و أساور، مثل كراع و أكارع، و جمع الاسورة سوراً «و لؤلؤاً» فمن جره عطفه على «من ذهب» و تقديره:

يحلون أساور من ذهب و لؤلؤ، و من نصبه عطفه على الموضع، لأن (من) و ما بعدها

ص: ٣٠٥

فى موضع نصب، فعطف «و لؤلؤاً» على الموضع، و تقديره: و يحلون لؤلؤاً. و قد روى عن عاصم هم الاولى و تليين الثانية. و روى ضده، و هو تليين الأولى و همز الثانية. الباقون يهمزونها. و كل ذلك جائز فى العربية. و اللؤلؤ الكبار، و المرجان الصغار. و يجوز أن يكون اللؤلؤ مرصعاً فى الذهب، فلذلك قال: يحلون لؤلؤاً و قوى القراءة بالنصب أنه فى المصاحف مكتوباً بالألف، قال ابو عمرو: كتب كذلك، كما كتبوا كفروا بالألف.

ثم اخبر ان لباسهم فى الجنة حرير، فحرم الله على الرجال لبس الحرير فى الدنيا و شوقهم اليه فى الآخرة. ثم قال «و هدوا»
يعنى أهل الجنة الى الصواب من القول.

قال الجبائى: هدوا الى البشارات من عند الله بالنعيم الدائم. وقيل: معناه الى القرآن.

وقيل: الى الايمان. وقال الكلبي: الى قول: لا إله إلا الله. و قال قوم: هو القول الذى لا فحش فيه، و لا صخب «و هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ» قيل: الى الإسلام.

وقيل: الى الجنة. فالحميد هو الله المستحق الحمد. وقيل: المستحمد الى عباده بنعمه - فى قول الحسن - أى الطالب منهم أن يحمده. و

روى عن النبي (ص) أنه قال ما احد أحب اليه الحمد من الله - عز و جل -.

ثم قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بوحدانيته و اختصاصه بالعبادة.

(و يصدون) أى و يمنعون غيرهم (عن) اتباع (سبيل الله) بالقهر و الإغواء (و الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى و يمنعونهم عن المسجد الحرام أن يجيئوا اليه حجاجاً و عماراً (الذى) جعله الله تعالى (للناس) كافة قبلة لصلاتهم و منسكاً لحجهم، و المراد بالمسجد الحرام المسجد بقبة. و قيل الحرم كله «سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ» قال ابن عباس و قتادة: العاكف المقيم فيه، و الباد الطارئ. و نصب (سواء) حفص عن

ص: ٣٠٦

عاصم على انه مفعول ثان من قوله (جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً) أى مساوياً، كما قال (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا). «١» و يرتفع (العاكف) فى هذه القراءة بفعله أى يستوى العاكف و البادى. و من رفع (سواء) جعله ابتداءً و خبراً، كما تقول: مررت برجل سواء عنده الخير و الشر، و تقديره العاكف و البادى سواء فيه بالنزول فيه. و قال مجاهد:

معناه إنهم سواء فى حرمة و حق الله عليهما فيه. و استدل بذلك قوم على أن أجرة المنازل فى أيام الموسم محرمة، و قال غيرهم: هذا ليس بصحيح، لان المراد به سواء العاكف فيه و الباد، فى ما يلزمه من فرائض الله تعالى فيه، فليس لهم أن يمنعوه من الدور، و المنازل، فهى لملاكها. و هو قول الحسن. و انما عطف بالمستقبل على الماضى من قوله (كَفَرُوا، وَ يَصُدُّونَ) لان المعنى و من شأنهم الصد، و نظيره (الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) «٢» و يجوز فى (سواء) الرفع و النصب و الجر، فالنصب على أن يكون المفعول الثانى ل (جعلناه) على ما بيناه، و الرفع على تقدير: هم سواء فيه. و الجر على البدل من قوله (للناس سواء).

و قوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) معناه من أرادته فيه بإلحاد كما قال الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما

تمثل لى ليلى بكل سبيل «٣»

ذكره الزجاج. و الباء فى قوله (بالحاد) مؤكدة. و الباء فى قوله (بظلم) للتعدية، و مثله قول الشاعر:

بواد يمان ينبت الشث صدره

و أسفله بالمرخ و الشبهان «٤»

(١) سورة الزخرف آية ٣

(٢) سورة الرعد آية ٣٠

(٣) مر هذا البيت فى ١٧٤ / ٣ و ١٨٤ / ٤

(٤) تفسير القرطبي ١٢ / ٣٦ و الطبرى ١٧ / ٩٤ و اللسان (شث) و روايته (فرعه) بدل (صدره)

ص: ٣٠٧

و المعنى ينبت المرخ. و مثله قوله (تَنَبَّتُ بِالذُّهْنِ) «١».

أى تنبت الدهن. و قال الأعشى:

ضمنت يرزق عيالنا أرماحنا

نيل المراجل و الصريح الأجردا «٢»

و قال امرؤ القيس:

ألا هل أتاه و الحوادث جمّة

بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا «٣»

وقال الآخر:

شجیح له عند الازاء نهيم «٤»

فلما جزت بالشرب هز لها العصا

وقال الآخر:

بما لاقت لبون بنى زياد «٥»

الم يأتيك و الأبناء تنمی

و يجوز ان يكون المعنى، و من یرد فيه منعاً (بالحداد) أى یمیل بظلم، فتكون حينئذ معدية للارادة، و ذلك انه یمكن أن یرید منعاً لا بالحداد، كما یمكن أن یمیل لا بظلم، و كما یمكن أن یمر لا بشيء. و قال ابن عباس: المعنى فيه من یرد استحلال ما حرم الله. و (الإلحاد) هو الميل عن الحق.

و قوله «نَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» يعنى مؤلم. و حكى الفراء: انه قرئ «و من یرد» بفتح الياء - من الورد، و معناه من ورده ظلماً على غير ما أمر الله به، إلا انه شاذ. و قال مجاهد: معناه من ظلم فيه و عمل شيئاً و أشرك بالله غيره. و قال ابن

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٠

(٢) ديوانه ٥٧ و روايته:

و ضروعهن لنا الصريح الأجردا

ضمنت لنا أعجازهن قدورنا

(٣) شرح ديوانه (للسندوبى) ٨٦

(٤) تفسير الطبرى ١٧ / ٩٥

ص: ٣٠٨

مسعود: من استحل ما حرمه الله. و قال ابن عباس: هو استحلال الحرم متعمداً.

و قال حسان بن ثابت: هو احتكار الطعام بمكة.

و قيل نزلت في أبي سفيان و أصحابه، حين صدوا رسول الله (ص) عن عمرة الحديبية.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ أَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبية (ص) و اذكر يا محمد «إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ» و معناه جعلنا له علامة يرجع اليها. و قال قوم: معنى بؤأنا و طأأنا له. و قال السدي: كانت العلامة ريحاً هبت، فكشف حول البيت، يقال لها الحجوج. و قال قوم: كانت:

ص: ٣٠٩

سحابة تطوقت حيال الكعبة، فبنى على ظلها. و اصل بؤأنا من قوله «بَأُوُّ بَغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» أي رجعوا بغضب منه. و منه قول الحارث بن عباد (بؤ بشسع كليب) أي ارجع، قال الشاعر:

فان تكن القتلى بواء فإنكم فتى ما قتلتم آل عوف ابن عامر «١»

اي قد رجع بعضها ببعض في تكافئ. و تقول: بؤأته منزلاً أي جعلت له منزلاً يرجع اليه، و المكان و الموضع و المستقر نظائر. و البيت مكان مهياً بالبناء للبيتوتة، فهذا أصله. و جعل البيت الحرام على هذه الصورة. و قوله «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» معناه و أمرناه ألا تشرك بي شيئاً في العبادة (و طهر بيتي) قال قتادة:

يعنى من عبادة الأوثان. وقيل: من الأذناس. وقيل من الدماء، و الفرث، و الاقدار التى كانت ترمى حول البيت. و يلطخون به البيت إذا ذبحوا.

وقوله (للطائفين) يعنى حول البيت (وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعَ السُّجُودِ) يعنى طهر حول البيت للذين يقومون هناك للصلاة و الركوع و السجود. و قال عطاء:

و القائمين فى الصلاة. و إذا قال: طاف، فهو من الطائفين، و إذا قعد، فهو من العكف، و إذا صلى، فهو من الركع السجود.

و فى الآية دلالة على جواز الصلاة فى الكعبة.

و قوله (وَ أَدْنَىٰ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) قال الحسن: و الجبائى: هو أمر للنبي (ص) أن يؤذن للناس بالحج و يأمرهم به، و انه فعل ذلك فى حجة الوداع. و قال ابن عباس: ان إبراهيم قام فى المقام، فنادى (يا أيها الناس إن الله قد دعاكم الى الحج) فأجابوا (بليبك اللهم لبيك).

و قوله (يَأْتُوكَ رِجَالًا) أى مشاة على أرجلهم، فرجال جمع راجل مثل

(١) انظر ١٥٨ / ٦

ص: ٣١٠

صاحب و صحاب، و قائم و قيام (و على كل ضامر) أى على كل جمل ضامر. و هو المهزول، أضمه السير (مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيقٍ) أى طريق بعيد، قال الراجز:

يقطعن بعد النازح العميق

و إنما قال (يأتين) لأنه فى معنى الجمع. و قيل: لأن المعنى و على كل ناقة ضامر. و قوله (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) قيل الأجر و الثواب فى الآخرة، و التجارة فى الدنيا. و

قال أبو جعفر (ع): المغفرة.

و قوله (وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) قال الحسن و قتادة: الأيام المعلومات عشر من ذى الحجة، و الأيام المعدودات أيام التشريق. و

قال ابو جعفر (ع) الأيام المعلومات أيام التشريق، و المعدودات العشر، لأن الذكر الذى هو التكبير فى أيام التشريق.

و انما قيل لهذه الأيام:

معدودات، لقلتها. و قيل لتلك: معلومات، للحرص على علمها بحسابها، من أجل وقت الحج فى آخرها.

وقوله (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) يعنى مما يذبح من الهدى. و قال ابن عمر: الأيام المعلومات أيام التشريق. لأن الذبح فيها الذى قال الله تعالى (وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ). و قوله (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) قال مجاهد و عطاء: أمرنا بأن نأكل من الهدى و ليس بواجب. و هو الصحيح، غير انه مندوب اليه. و البائس الذى به ضر الجوع، و الفقير الذى لا شىء له، يقال: بؤس فهو بائس إذا صار ذا بؤس، و هو الشدة. أمر الله تعالى أن يعطى هؤلاء من الهدى.

و قوله «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ» فالتفت مناسك الحج، من الوقوف، و الطواف، و السعى، و رمى الجمار، و الحلق بعد الإحرام من الميقات. و قال ابن عباس و ابن

ص: ٣١١

عمر: التفت جمع المناسك. و قيل التفت قشف «١» الإحرام، و قضاؤه بحلق الرأس و الاغتسال، و نحوه. قال الازهرى: لا يعرف التفت فى لغة العرب إلا من قول ابن عباس.

و قوله «وَ لِيُؤْفُوا نَذْوَرَهُمْ» أى يوفوا بما نذروا، من نحر البدن - فى قول ابن عباس - و قال مجاهد: كل ما نذر فى الحج. و قرأ ابو بكر عن عاصم «وَ لِيُؤْفُوا» مشددة الفاء، ذهب إلى انه التكبير. و قوله «وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» أمر من الله تعالى بالطواف بالبيت. قال ابن زيد: سمي البيت عتيقاً، لأنه أعتق من ان تملكه الجبارة عن آدم. و قيل: لأنه أول بيت بنى، كقوله تعالى «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا» «٢» ثم حدده إبراهيم (ع). و قيل:

لأنه أعتق من الغرق أيام الطوفان، فغرقت الأرض كلها إلا موضع البيت، روى عن أبى جعفر (ع).

و الطواف المأمور به من الله فى هذه الآية، قال قوم: هو طواف الافاضة بعد التعريف إما يوم النحر، و إما بعده، و هو طواف الزيارة. و هو ركن بلا خلاف. و روى أصحابنا ان المراد - هاهنا - طواف النساء الذى يستباح به وطؤ النساء، و هو زيادة على طواف الزيارة.

و قوله «ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ» بأن يترك ما حرمه الله. و قوله «وَ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» يعنى إلا ما يتلى عليكم فى كتاب الله: من الميتة، و الدم، و لحم الخنزير، و الموقوذة، و المتردية، و النطيحة، و ما أكل السبع، و ما ذبح على النصب. و قيل: و أحلت لكم الانعام، من الإبل، و البقر، و الغنم، فى حال إحرامكم «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» من الصيد، فانه يحرم على المحرم.

و قوله «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» معنى (من) لتبيين الصفة، و التقدير

(١) و فى المخطوطة فشق

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ٩٦

ص: ٣١٢

فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. و روى أصحابنا أن المراد به اللعب بالشطرنج، و النرد، و سائر انواع القمار «وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» يعنى الكذب. و روى أصحابنا أنه يدخل فيه الغناء و سائر الأقوال الملهية بغير حق.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٣١ الى ٣٥]

حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قوله «حنفاء» نصب على الحال من الضمير فى قوله «وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» و معنى «حنفاء» مستقيمي الطريقة، على أمر الله. و أصل الحنف الاستقامة. و قيل للمائل القدم: أحنف تفاعلاً بالاستقامة. و قيل: أصله الميل. و الحنيف المائل الى العمل بما أمر الله، و الأول أقوى، لأنه أشرف فى معنى الصفة. و قوله «غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» أى غير مشركين بعبادة الله غيره. و الاشراك تضييع حق عبادة الله بعبادة غيره.

ص: ٣١٣

أو ما يعظم عظم عبادة غيره، و كل مشرك كافر، و كل كافر مشرك. ثم قال تعالى «وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ» أى من أشرك بعبادة الله غير الله، كان بمنزلة من وقع من السماء، «فَتَخَفَفَهُ الطَّيْرُ» أى تناوله بسرعة و تستلبه. و الاختطاف و الاستلاب واحد. يقال: خطفه يخطفه خطفاً، و تخطفه تخطفاً إذا أخذه من كل جهة بسرعة. و قرا ابن عامر «فتخطفه» بتشديد الطاء، بمعنى فتخطفه، فنقل فتحة الطاء الى الخاء، و أدغم التاء فى الطاء. الباقون بالتخفيف، و هو الأقوى لقوله «إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ» «١».

وقوله (أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) و السحيق البعيد. و المعنى أن من أشرك بالله غيره كان هالكاً بمنزلة من زل من السماء، و استلبه الطير و رمى به الريح في مكان بعيد، فانه لا يكون إلا هالكاً. و قيل: شبه المشرك بحال الهاوى في أنه لا يملك لنفسه نفعاً و لا ضرراً يوم القيامة. و قيل: شبه أعمال الكفار أنها تذهب فلا يقدر على شيء منها- في قول الحسن- و قوله «ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» قال سيبويه: تقديره ذلك الأمر. من يعظم، فالشعائر علامات مناسك الحج كلها، منها رمى الجمار، و السعى بين الصفا و المروة و غير ذلك- في قول ابن زيد- و قال مجاهد: هي البدن، و تعظيمها استسمانها و استحسانها. و الشعيرة العلامة التي تشعر بها، لما جعلت له، و أشعرت البدن إذا علمتها بما يشعر أنها هدى.

وقوله «فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» فالكناية في قوله «فإنها» تعود الى التعظيم.

و يجوز أن تعود الى الخصلة من التعظيم. و قيل: شعائر الله دين الله. و قوله «فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» معناه إن تعظيم الشعائر من تقوى القلوب أى من خشيتها.

(١) سورة ٣٧ الصفات آية ١٠

ص: ٣١٤

ثم قال «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» قال ابن عباس، و مجاهد: ذلك ما لم يسم هدياً او بدنأً. و قال عطاء: ما لم يقلد، و قيل:

منافعها ركوب ظهرها و شرب ألبانها إذا احتاج إليها. و هو المروى عن أبي جعفر (ع).

وقوله «إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» قال عطاء بن أبي رباح: الى أن تنحر. و قيل: المنافع التجارة. و قيل:

الأجر، و قيل: جميع ذلك. و هو أعم فائدة.

وقوله (ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) معناه إن محل الهدى و البدن الى الكعبة.

و عند أصحابنا: إن كان الهدى فى الحج، فمحلته منى، و إن كان فى العمرة المفردة، فمحلته مكة قبالة الكعبة بالخرورة. و قيل: الحرم كله محل لها، و الظاهر يقتضى أن المحل البيت العتيق، و هو الكعبة. و قال قوم «إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» يعنى يوم القيامة.

ثم اخبر تعالى انه جعل لكل أمة من الأمم السالفة منسكاً. و قرأ حمزة و الكسائي «منسكا» بكسر السين. الباقون بالفتح، و هما لغتان، و هو المكان للعبادة المألوفة الذى يقصده الناس. و قال الحسن: المنسك المنهاج و هو الشريعة جعل الله لكل أمة من الأمم السالفة منسكاً أى شريعة، كقوله «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ» «١» و قال مجاهد «منسكا» يعنى عبادة فى الذبح، و النسكة الذبيحة. يقال: نسكت الشاة أى ذبحتها فكأنه المذبح، و هو الموضع الذى يذبح فيه. و قال محمد بن أبى موسى:

محل المناسك الطواف بالبيت.

وقوله «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» أي جعلنا ذلك للأمم و تعبدناهم به «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» يعنى من الإبل و البقر و الغنم إذا أرادوا تذكيتها. و فى ذلك دلالة على وجوب التسمية عند الذبيحة.

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٤٧

ص: ٣١٥

ثم اخبر تعالى فقال «فَالِهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» أى معبودكم الذى ينبغى أن توجهوا العبادة اليه واحد لا شريك له «فَلَهُ اسْلِمُوا» أى استسلموا «وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ» قال قتادة: يعنى المتواضعين. و قال مجاهد: يعنى المطمئنين الى ذكر ربهم.

و اشتقاق المخبت من الخبت، و هو المكان المظلم. و قيل: المنخفض، و معناهما واحد. ثم وصف تعالى المخبتين، فقال «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ» و المعنى إذا ذكر ثواب الله، على طاعته، و عقابه على معاصيه، خافوا عقابه و خشوا من ترك طاعته «وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ» يعنى يصبرون على ما يبتليهم الله، من بلائه فى دار الدنيا من أنواع المصائب و الأمراض و الأوجاع «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ» يعنى الذين يقيمون الصلاة، فيؤدونها بحقوقها، و يداومون عليها. «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» أى مما ملكهم الله و جعل لهم التصرف فيه ينفقون فى مرضاته.

و فى ذلك دلالة على أن الحرام ليس برزق الله، لان الله مدح من ينفق فى سبيل الله مما رزقه، و الحرام ممنوع من التصرف فيه، و الإنفاق منه فكيف يكون رزقاً.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعَمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَ لَا دِمَاؤُهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)

ص: ٣١٦

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ يعقوب «لن تنال الله لحومها و لكن تناله» بالتاء فيهما. الباقون بالياء فيهما. و قد مضى ذكر نظائره. و قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائي «أذن» بفتح الالف «يقاتلون» بكسر التاء. و قرأ نافع و حفص «أذن» بضم الألف «يقاتلون» بفتح التاء. و قرأ ابو عمرو، و ابو بكر عن عاصم «أذن» بضم الالف «يقاتلون» بكسر التاء. و قرأ ابن عامر «أذن» بفتح الألف «يقاتلون» بفتح التاء. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو «إن الله يدفع، و لولا دفع الله» بغير ألف في الموضعين الباقون «يدافع»، «و لولا دفاع الله» بإثبات الألف في الموضعين. و قرأ أهل الكوفة و ابن كثير و ابو جعفر «لهدمت» بتخفيف الدال. الباقون بتشديدها، و هما لغتان. و التشديد للتكثير.

قال الحسن: هدمها تعطيلها، فإذا هدمت مواضع الصلاة فكأنهم هدموا الصلاة. و قيل: إن الصلوات بيوت النصارى، يسمونها صلواتاً، و قال أبو العالية

ص: ٣١٧

الصلوات بيوت الصابئين و انشد:

إن في الصوم و الصلوات فساداً»١

اتق الله و الصلوات فدعها

يريد بيت النصارى و معنى الصوم - فى البيت - ذرق النعام.

«و دفع الله، و دفاع الله» [لغتان و الأغلب أن يكون (فعال) بين اثنين].

و قد يكون للواحد مثل عافاه الله و طارقت النعل] «٢» و قال ابن عمر: دفاع الله، و يدافع: لحن. و من فتح الالف فى (اذن) و كسر التاء فى (يقاتلون) فالمعنى أذن الله للذين يقاتلون أن يقاتلوا من ظلمهم، و كذلك المعنى فى قراءة الباقيين.

و معنى (بأنهم ظلموا) أى من أجل انهم ظلموا.

يقول الله تعالى (وَ الْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا) فنصب البدن بفعل مضمر يدل عليه (جعلناها) و مثله «وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ» «٣» فيمن نصب القمر و البدن جمع بدنة، و هى الإبل المبدنة بالسمن. قال الزجاج: يقولون: بدنت الناقة إذا سمتها. و يقال لها بدنة من هذه الجهة. و قيل: أصل البدن الضخم، و كل ضخم بدن. و بدن بدنًا إذا ضخم، و بدن تبديناً، فهو بدن، ثقل لحمه للاسترخاء كما يتقل الضخم. و البدنة الناقة، و تجمع على بدن و بدن. و تقع على الواحد و الجمع قال الراجز:

صوم شهور و جبت ندورا

على حين تملك الأمورا

و حلق رأسى وافياً مغضورا

و بدناً مدرعاً موفورا «٤»

قال عطاء: البدن البقرة و البعير. و قيل: البدنة إذ انحرت علقمت يد واحدة، فكانت على ثلاث، و كذلك تنحر، و عند أصحابنا تشد يداها الى إبطيها، و تطلق رجلاها. و البقر تشد يداها و رجلاها و يطلق ذنبا، و الغنم تشد يداها و رجل واحدة

(١) لم أجد في مظانه

(٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

(٣) سورة ٣٦ يس آية ٣٩

(٤) تفسير الطبرى ١٠٧ / ١٧

ص: ٣١٨

و تطلق الرجل الأخرى.

و قوله «جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» معناه جعلناها لكم فيها عبادة لله بما فى سوقها الى البيت و تقليدها بما ينبى أنها هدى. ثم نحرها للأكل منها و اطعام القانع و المعتر.

و قيل «مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» معناه من معالم الله «لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ» أى منافع فى دينكم و دنياكم، مثل ما فسرناه.

و قوله «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً» أمر من الله أن يذكر اسم الله عليها إذا أقيمت للنحر، صافة. و صواف جمع صافة، و هى المستمرة فى وقوفها على منهاج واحد، فالصف استمرار جسم يلى جسماً على منهاج واحد. و التسمية إنما تجب عند نحرها دون حال قيامها.

و قوله «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا» معناه وقعت لنحرها، و الوجوب الوقوع، و منه يقال: وجبت الشمس إذا وقعت فى المغيب للغروب. و وجب الحائط إذا وقع، و وجب القلب إذا وقع فيه ما يضطرب به. و وجب الفعل إذا وقع ما يلزم به فعله.

و وجبت المطالبة إذا وقع ما يدعو الى قبولها. و وجب البيع إذا وقع. و قال أوس ابن حجر:

أى الواقع، و قرئ «صواف» على ثلاثة أوجه: صواف بمعنى مصطفة، و عليه القراء «و صوافى» بمعنى خالصة لله و هى قراءة الحسن «و صوافن» بمعنى معلقة فى قيامها، بأزمتها. و هى قراءة ابن مسعود، و هو مشتق من صفن الحصان إذا ثنى احدى يديه حتى قام على ثلاثة، و منه قوله «الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ» «٢»

(١) ديوانه (دار بيروت): ١٠ و تفسير القرطبي ١٢ / ٦٢

(٢) سورة ٣٨ ص آية ٣١

ص: ٣١٩

قال الشاعر:

مما يقوم على الثلاث كسيرا «١»

الف الصفون فما يزال كأنه

و الصافن من الخيل الذى يقوم على ثلاث، و يثنى سنبك الرابعة.

و قوله «فَكُلُّوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ» فقال قوم: الاكل و الإطعام واجبان. و قال آخرون: الاكل مندوب و الإطعام واجب. و قال قوم: لو أكل جميعه جاز، و عندنا يطعم ثلثه، و يعطى ثلثه القانع و المعتر، و يهدى الثلث الباقي. و القانع الذى يقنع بما أعطى أو بما عنده و لا يسأل، و المعتر الذى يتعرض لك ان تطعمه من اللحم.

و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة: المعتر الذى يسأل، و القانع الذى لا يسأل، و قال الحسن و سعيد بن جبير: القانع الذى يسأل قال الشماخ:

مفاقره أعف من القنوع «٢»

لمال المرء يصلحه فيغنى

أى من السؤال. و قال الحسن: المعتر يتعرض، و لا يسأل. و قال مجاهد:

القانع جارك الغنى، و المعتر الذى يعتريك من الناس. و يقال: قنع الرجل الى فلان قنوعاً إذا سأل قال لبيد:

و أعطاني المولى على حين فقره إذا قال الصبر حلتى و قنوعى «٣»

و قنعت بكسر النون اقنع قناعة و قناعاً إذا اكتفيت.

و قوله «كَذَلِكَ سَخَّرْنَاها لَكُمْ» أى مثل ذلك ذلنا هذه الأنعام لكم تصرفونها على حسب اختياركم، بخلاف السباع الممتنعة بفضل قوتها، لكى تشكروه على نعمه

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٦٢

(٢) تفسير الطبرى ١٧ / ١١٠ و اللسان (فقر) و تفسير القرطبي ١٢ / ٦٤

(٣) تفسير الطبرى ١٧ / ١٠ و روايته (اصبر) بدل (الصبر) و شرح ديوانه (طبع الكويت: ٧١) روايته (إذا أبصر خلتى و خشوعى)

ص: ٣٢٠

التي أنعم بها عليكم.

ثم قال تعالى «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُها...» و المعنى لن يتقبل الله اللحوم، و لا الدماء، و لكن يتقبل التقوى فيها و فى غيرها، بأن يوجب فى مقابلتها الثواب. و قيل:

لن يبلغ رضا الله لحومها، و لا دماؤها، و لكن ينالها التقوى منكم.

ثم قال «كَذَلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ» يعنى الأنعام «لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى ما هَدَاكُمْ» أى لتعظموه ثم تشكروه على هدايته إياكم الى معرفته و طريق ثوابه. و قيل: معناه لتسموا الله تعالى على الذباجة. و قيل: لتكبروا الله فى حال الإحلال بما يليق به فى حال الإحرام.

ثم قال تعالى «وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» يا محمد، الذين يفعلون الأفعال الحسنة و ينعمون على غيرهم.

ثم قال «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» أى ينصرهم ويدفع عنهم عدوهم، تارة بالقهر، وأخرى بالحجة «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» إخبار منه تعالى أنه لا يحب الخوان، وهو الذى يظهر النصيحة، ويضمّر الغش للنفاق، أو لاقتطاع المال. وقيل: إن من ذكر اسم غير الله على الذبيحة، فهو الخوان، والكفور هو الجحود لنعم الله و غمط أياديه.

ثم اخبر انه «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا» قيل: إن هذه الآية نزلت فى المهاجرين الذين أخرجهم أهل مكة من أوطانهم، فلما قووا، أمرهم الله بالجهاد، و بين أنه أذن لهم فى قتال من ظلمهم وأخرجهم من أوطانهم. ومعنى «بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا» أى من أجل أنهم ظلموا.

ثم أخبر أنه «عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» ومعناه انه سينصرهم. قال الجبائي: لا فائدة له الا هذا المعنى.

ص: ٣٢١

وهذه الآية أول آية نزلت فى الأمر بالقتال.

ثم بين حالهم فقال «الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ» بل ظلماً محضاً «إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ» والمعنى الا أن يقولوا الحق، فكأنه قال الذين أخرجوا بغير حق، الا الحق الذى هو قولهم ربنا الله. وقال سيبويه (إلا) بمعنى (لكن) و تقديره لكنهم يقولون: ربنا الله، فهو استثناء منقطع، و هو كقولك ما غضبت علىّ إلا أنى منصف، و ما تبغض فلاناً إلا أنه يقول الحق، أى جعلت ذلك ذنبه.

و قال الفراء: تقديره إلا بأن يقولوا، فتكون (أن) فى موضع الجر.

ثم قال «وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ» فى أيام شريعة موسى «و بيع» فى أيام شريعة عيسى «و مساجد» فى أيام شريعة محمد (ص)- فى قول الزجاج- و قال مجاهد: صوامع الرهبان، و بيع النصرى، و هو قول قتادة.

و عن مجاهد أيضاً ان البيع كنائس اليهود. و قال الضحاك: الصلوات كنائس اليهود يسمونها صلواتاً. و قيل مواضع صلوات المسلمين مما فى منازلهم. و قيل: الصلوات أراد بها المصليات، كما قال «لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ» «١» و أراد المساجد، و الظاهر أنه أراد نفس الصلاة لا يقربها سكران. و قيل تقديره: و تركت صلوات- ذكره الأخفش- و قوله «يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» يعنى فى المساجد و المواضع التى ذكرها.

ثم قال «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» أى من نصر أولياء الله، و دفع عنهم فان الله ينصره، و يدفع عنه. و يجوز أن يكون المراد: من ينصر دين الله و يذب عنه فان الله ينصره «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» أى قادر قاهر، لا ينال أحد منه ما لا يريده،

ص: ٣٢٢

و لا يتعذر عليه من يريد ضره. و قال الحسن: إن الله يدفع عن هدم مصليات أهل الذمة بالمؤمنين. و قرأ عاصم الجحدري «و صلوات» بالتاء - في رواية هارون - و قال غيره: صلوات بالتاء و الصاد و اللام مضمومتان، و قال: هي مساجد للنصارى.

و قرأ الضحاك (صلوث) بثلاث نقط، و قال: هي مساجد اليهود. و هذه شواذ لا يقرأ بها، و لا يعرف لها في اللغة اصل.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٤١ الى ٤٥]

الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ آمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) وَ إِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودُ (٤٢) وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَ أَصْحَابُ مَدْيَنَ وَ كَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرِ مَشِيدٍ (٤٥)

خمس آيات في الكوفي و المدنيين. و في الباقي أربع آيات.

قرأ ابو عمرو وحده «أهلكتها» بالتاء. لقوله في الآية التي فيما بعد (فأمليت).

الباقون (أهلكناها) بالنون.

يقول الله تعالى (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ) ف (الذين) صفة من تقدم ذكره من المهاجرين في سبيل الله، و موضعه النصب، و تقديره (لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ... الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ) و معناه أعطيناهم كل ما لا يصح الفعل إلا معه، لان

ص: ٣٢٣

التمكين إعطاء ما يصح معه الفعل، فان كان هذا الفعل لا يصح إلا بآلة، فالتمكين بإعطاء تلك الآلة لمن فيه القدرة، و كذلك ان كان لا يصح الفعل إلا بعلم، و نصب دلالة، و صحة سلامة، و لطف و غير ذلك، فأعطاء جميع ذلك واجب. و إن كان الفعل يكفى - في صحة وجوده - مجرد القدرة، فخلق القدرة هو التمكين. ثم وصفهم.

فقال: هؤلاء الذين هاجروا في سبيل الله، (إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ) يعني أدوها بحقوقها، و قيل: معناه داموا عليها (وَ آتَوْا الزَّكَاةَ) أى و اعطوا ما افترض الله عليهم في أموالهم من الزكوات و غيرها (وَ آمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ). و في ذلك دلالة على أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر واجب، لأن ما رغب الله فيه، فقد اراده، و كل ما أراد من العبد، فهو واجب إلا أن يقوم دليل على ذلك انه نفل، لان الاحتياط يقتضى ذلك. و (المعروف) هو الحق، و سمي معروفاً لأنه تعرف صحته. و سمي المنكر منكراً، لأنه لا يمكن معرفة صحته.

و قوله «وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» معناه تصير جميع الأملاك لله تعالى، لبطلان كل ملك سوى ملكه. ثم قال لنبيه (ص) مسلياً له عن تكذيب قومه له و قلة قبولهم منه: «وَإِنْ يُكْذِبُوكَ» يا محمد فى ما تدعيه من النبوة «فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ» نوحاً، و كذبت قوم «عاد» هوداً و قوم «ثمود» صالحاً «وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ» إبراهيم «وَ قَوْمُ لُوطٍ» لوطاً «وَ أَصْحَابُ مَدْيَنَ» شعيباً «وَ كَذَبَ» اصحاب موسى «موسى» و انما قال «وَ كَذَّبَ مُوسَى» و لم يقل و قوم موسى، لأن قومه بنى إسرائيل، و كانوا آمنوا به و إنما كذبه قوم فرعون «فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ» اى أخرت عقابهم و حلمت عنهم «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ» فاستاصلتهم بأنواع الهلاك «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» اى عذابى لهم. و انما اقتصر على ذكر أقوام بعض الأنبياء، و لم يسم أنبياءهم، لدلالة الكلام عليه.

ثم قال تعالى «فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ» معناه و كم من أهل قرية «أهلكتناها» لما

ص: ٣٢٤

استحقوا الإهلاك فى حال كونها «ظالمة» لنفسها «فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» اى أهلكتناها فى حال كونها ظالمة لنفسها حتى تهدمت الحيطان على السقوف. و قال الضحاك على عروشها سقوفها.

و قوله «وَ بَثْرٍ مُعْطَلَةٍ وَ قَصْرِ مَشِيدٍ» معناه و كم من بثر معطلة اى لا أهل لها.

و التعطيل إبطال العمل بالشيء، و لذلك قيل الدهرى: معطل، لأنه أبطل العمل بالعلم على مقتضى الحكمة. و يقال: خوت الدار خواء، ممدود. و هى خاوية، و خوى جوف الإنسان من الطعام خوى، مقصور، و هو خاو. و قيل فى خفض «وَ بَثْرٍ مُعْطَلَةٍ وَ قَصْرِ مَشِيدٍ» قولان:

أحدهما - بالعطف على قرية، فيكون المعنى إهلاكاً كالقرية.

و الثانى - بالعطف على العروض، فيكون المعنى ان بها البثر المعطلة و القصر المشيد. و معنى و قصر مشيد اى مجصص، و المشيد الجص - فى قول عكرمة و مجاهد - و قال قتادة: معناه رفيع، و هو المرفوع بالمشيد. و قال عدى بن زيد:

سأ فللطير فى ذراه و كور «١»

شاده مرمرأ و جلله كا

و قال امرؤ القيس:

و لا أجماً إلا مشيداً بجندل «٢»

و تيماء لم يترك بها جذع نخلة

و قال آخر:

كحبة الماء بين الطين و الشيد «٣»

(١) شرح ديوان امرئ القيس (اخبار المراقبة) ٣٦٠ و تفسير القرطبي ٧٤ / ١٢ و الطبري ١١٦ / ١٧ و اللسان (شيد)

(٢) شرح ديوانه: ١٥٧ و روايته (أطماً) بدل (أجماً)

(٣) تفسير الطبري ١١٦ / ١٧ و القرطبي ٧٤ / ١٢ و تمامه:

كحبة الماء بين الطين و الشيد

لا تحسبين و ان كنت امرأً غمرأً

ص: ٣٢٥

و يقال شدته أشيده إذا زينته. و قال الكلبي قصر مشيد: معناه حصين.

و قيل: ان البئر و القصر معروفان باليمين. و فى تفسير أهل البيت إن معنى «وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ» أى و كم من عالم لا يرجع اليه، و لا ينتفع بعلمه، و لا يلتفت اليه. و معنى الآية:

أ فلم يسيروا فى الأرض فينظروا إلى آثار قوم أهلكهم الله بكفرهم و أبادهم بمعصيتهم، ليروا من تلك الآثار بيوتاً خاوية، قد سقطت على عروشها، و بئر الشرب قد باد أهلها و عطل رساوها و غار معينها و قصرأً مشيداً مزيناً بالجص، قد خلا من السكن، و تداعى بالخراب، فيتعظوا بذلك، و يخافوا من عقوبة الله، و بأسه الذى نزل بهم.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٤٦ الى ٥٠]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ أُمْلِيتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَ إِلَى الْمَصِيرِ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائي «مما يعدون» بالياء، على الخبر عن

ص: ٣٢٤

الكفار. الباقون بالتاء، على الخطاب.

لما اخبر الله تعالى عن إهلاك الأمم الماضية جزاء على كفرهم و معاصيهم، نبه الذين يرتابون بذلك. فقال «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا» إذا شاهدوا آثار ما أخبرنا به، و سمعوا صحة ما ذكرناه عنم أخبرهم بصحته من الذين عرفوا أخبار الماضين. و فيها دلالة على أن العقل هو العلم، لان معنى (يَعْقِلُونَ بِهَا) يعلمون بها مدلول ما يرون من العبرة. و فيها دلالة على أن القلب محل العقل و العلوم، لأنه تعالى وصفها بأنها هي التي تذهب عن إدراك الحق، فلولا أن التبيين يصح أن يحصل فيها، لما وصفها بأنها تعمي، كما لا يصح أن يصف اليد و الرجل بذلك. و الهاء في (فَأِنَّهَا لَا تَعْمَى) هاء عماد، و هو الإضرار على شروط التفسير، و انما جاز أن يقول: و لكن تعمي القلوب التي في الصدور، للتأكيد لئلا يتوهم بالذهاب الى غير معنى القلب، لأنه قد يذهب الى ان فيه اشتراكا كقلب النخلة، فإذا قيل هكذا كان أنفى للبس بتجويز الاشتراك و اما قوله (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) «١» فلان القول قد يكون بغير الفم. و المعنى في الآية ان الأبصار و إن كانت عمياً، فلا تكون في الحقيقة كذلك، إذا كان عارفاً بالحق. و انما يكون العمى عمى القلب الذي يجحد معه معرفة الله و وحدانيته.

ثم قال (و يستعجلونك) يا محمد (بالعذاب) أن ينزل عليهم، و يستبطنونه، و ان الله لا يخلف ما يوعد به (وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) قال ابن عباس و مجاهد و عكرمة: يوم من أيام الآخرة، يكون كألف سنة من أيام الدنيا.

و قال ابن زيد، و في رواية اخرى عن ابن عباس: انه أراد يوماً من الأيام التي خلق الله فيها السموات و الأرض. و المعنى (وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ) من أيام العذاب، في

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٧

ص: ٣٢٧

الثقل و الاستطالة (كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) فى الدنيا، فكيف يستعجلونك بالعذاب لولا جهلهم، و هو كقولهم: ايام الهموم طوال، و ايام السرور قصار.

قال الشاعر:

يطول اليوم لا أفاك فيه و يوم نلتقى فيه قصير «١»

و أنشد ابو زيد:

تطاولن أيام معن بنا فيوم كشهريين إذ يستهل «٢»

و قال جرير:

و يوم كابهام الحبارى لهوته «٣»

و قيل «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» فى طول الامهال للعباد لصلاح من يصلح منهم، أو من نسلهم، فكأنه ألف سنة لطوال الأناة. و قيل (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) فى مقدار العذاب فى ذلك اليوم، أى انه لشدته و عظمه كمقدار عذاب ألف سنة من ايام الدنيا على الحقيقة. و كذلك نعيم الجنة، لأنه يكون فى مقدار يوم السرور و النعيم مثل ما يكون فى الف سنة من ايام الدنيا لو بقى ينعم و يلتذ فيها.

ثم قال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا) فالاملاء و الإملال و التأخير نظائر (و هى ظالمة) أى مستحققة لتعجيل العقاب، لكن أخذتها و أهلكتها و الى المصير،

(١) هذا البيت ساقط من المطبوعة.

(٢) هو فى مجمع البيان ٩٠ / ٤

(٣) و فى المخطوطة (و يوم كايهاام الحبارى لطوله) و لم أجدّه فى ديوان جرير و انما يوحد أبيات تشبه هذا و هى:

الى صباه غالب لى باطله

و يوم كايهاام القطة مزين

و إنس مجاليه و انس شمائله

لهوت بجنى عليه سموطه

ص: ٣٢٨

لكل أحد، بأن يزول ملك كل مالك ملك شيئاً فى دار الدنيا.

ثم قال لنبيه (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) اى مخوف من معاصى الله بعقابه، مبين لكم ما يجب عليكم فعله، و ما يجب عليكم تجنبه (فَالَّذِينَ آمَنُوا) اى صدقوا بالله و أقرؤا برسله (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) من الله تعالى لمعاصيهم و لهم (رِزْقٌ كَرِيمٌ) اى مع إكرامهم بالثواب الذى لا يقاربه تعظيم و تبجيل.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٥١ الى ٥٥]

وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)

خمس آيات بلا خلاف.

ص: ٣٢٩

قرأ ابن كثير و ابو عمرو (معجزين) بالتشديد، بمعنى مشبطين و مبطنن، و هو قول مجاهد. الباقرن (معجزين) بالألف. قال قتادة: معناه مشاقين معاندين.

يقول الله تعالى ان (الذين سعوا في آيات الله معجزين) و معناه إن الذين يعجزون المؤمنين في قبول هذه الآيات اي يعجزونهم عن إقامتها بجحدهم تدبير الله (عز و جل) لها. و يحتمل ان يكون معناه يعجزونهم عن تصحيحها. و السعى الاسراع في المشى، و منه قوله (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ) «١» و سعى يسعى سعياً، فهو ساع، و جمعه سعاة، و استسعاها في الامر استسعاء. و قال قتادة: ظنوا انهم يعجزون الله أى يفوتونه و أن يعجزوه. و قال مجاهد: معناه مبطنين عن اتباع آيات الله. و من قرأ (معجزين) أراد انهم يجادلون عجز الغالب. و من قرأ (معجزين) بالتشديد أراد طلب اظهار العجز. و قال ابن عباس: معنى (معجزين) مشاقين. و قيل معنى (معجزين) مسابقين، يقال: اعجزنى الشىء بمعنى سبقنى و فاتنى. و قال ابو على: معجزين ظانين و معتقدين انهم يفوتونا، لانكارهم البعث. و معجزين أى ينسبون من اتبع النبى (ص) الى العجز. و قال مجاهد: معناه مشبطين للناس عن النبى (ص) و اتباعه.

و قوله «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» معناه الذين يسعون في آيات الله طالبين إظهار عجزه إن لهم عذاب الجحيم، و هم ملازمون لها.

و قوله «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ» روى عن ابن عباس و سعيد بن جبير و الضحاک و محمد بن كعب و محمد ابن قيس: انهم قالوا: كان سبب نزول الآية انه لما تلى النبى (ص)

(١) سورة الجمعة آية ٩

ص: ٣٣٠

«أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّىٰ وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ» «١» القى الشيطان في تلاوته (تلك الغرائق العلى و إن شفاعتهن لترتجى) و معنى الآية التسلية للنبي (ص) و انه لم يبعث الله نبياً، و لا رسولا إلا إذا تمنى - يعنى تلا- القى الشيطان في تلاوته بما يحاول تعطيله، فيرفع الله ما ألقاه بمحكم آياته. و قال المؤرج: الامنية الفكرة، بلغة قريش. و قال مجاهد: كان النبى (ص) إذا تأخر عنه الوحي تمنى أن ينزل عليه فيلقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان و يحكم آياته. و قال ابو على الجبائى: انما كان يغلط في القراءة سهواً فيها، و ذلك جائز على النبى، لأنه سهو لا يعرى منه بشر، و لا يلبث ان ينبهه الله تعالى عليه. و قال غيره: إنما قال ذلك في تلاوته بعض المنافقين عن إغواء الشياطين، و أوهم أنه من القرآن. و قال الحسن: انما قال: هى عند الله كالغرائق العلى، يعنى الملائكة في قولكم، و إن شفاعتهن لترتجى في اعتقادكم. و التمنى في الآية معناه التلاوة، قال الشاعر:

و آخره لاقى حمام المقادر «٢»

تمنى كتاب الله أول ليلة

وقال الجبائي: انما سها النبي (ص) في القراءة نفسها. فأما الرواية بأنه قرأ تلك الغرائيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فلا أصل لها، لأن مثله لا يغلط على طريق السهو، وانما يغلط في المتشابه.

وقوله «فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ» أى يزيل الله ما يلقيه الشيطان من الشبهة «ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ» حتى لا يتطرق عليها ما يشعثها. وقال البلخي: ويجوز أن يكون النبي (ص) سمع هاتين الكلمتين من قومه و حفظهما فلما قرأ النبي (ص) وسوس بهما اليه الشيطان، وألقاهما في فكره، فكاد أن يجريهما على لسانه، فعصمه الله، ونبهه، ونسخ وسواس الشيطان، وأحكم آياته، بأن قرأها النبي (ص) محكمة

(١) سورة ٥٣ النجم آية ١٩ - ٢٠

(٢) مر هذا البيت في ٣١٩ / ١

ص: ٣٣١

سليمة مما أراد الشيطان. ويجوز أن يكون النبي (ص) حين اجتمع اليه القوم واقترحوا عليه أن يترك ذكر آلهتهم بالسوء، أقبل عليهم يعظهم ويدعوهم الى الله، فلما انتهى رسول الله الى ذكر اللات والعزى. قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعاً بها صوته، فألقاهما في تلاوته في غمار من القوم وكثرة لغظهم، فظن الكفار ان ذلك من قول النبي، فسجدوا عند ذلك.

وقوله «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» معناه إنه عالم بجميع المعلومات، واضح الأشياء مواضعها. والآية تدل على أن كل رسول نبي، لأنه تعالى ذكر انه أرسلهم، وانما قال من رسول ولا نبي، لاختلاف المعنيين، لأن الرسول يفيد أن الله أرسله، والنبي يفيد أنه عظيم المنزلة يخبر عن الله. وقد قال بعض المفسرين: إن المراد بالتمنى فى الآية تمنى القلب، والمعنى انه ما من نبي ولا رسول إلا وهو يتمنى بقلبه ما يقربه الى الله من طاعاته، وإن الشيطان يلقي فى أمنيته بوسوسته و اغوائه ما ينافى ذلك، فينسخ الله ذلك عن قلبه بأن يल्प له ما يختار عنده ترك ما اغواه به.

وقوله «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» بيان من الله تعالى أنه يجعل ما يلقيه الشيطان من الأمنية فتنة، فمعنى (ليجعل) يحتمل أمرين:

أحدهما - الحكم والتسمية، كما تقول جعلت حسنى قبيحاً، ويكون المراد انه ينسخ ما يلقي الشيطان طلباً للفتنة والإغواء.

والثانى - انه أراد ليجعل نسخ ما يلقي الشيطان فتنة، لأن نفس فعل الشيطان لا يجعله الله فتنة، لأن ذلك قبيح، والله تعالى منزه عن القبايح اجمع، فمعنى الفتنة فى الآية المحنة، وتعليط التكليف «لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أى شك و نفاق و قلة معرفة «وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» يعنى من قسى قلبه من اتباع الحق. وقيل: هم الظالمون.

ثم اخبر تعالى «إِنَّ الظَّالِمِينَ» لنفوسهم «لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» أى مشاقفة

بعيدة من الله تعالى، و بين انه يفعل ذلك «لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» بالله و صفته و أن أفعاله صواب «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» فيصدقوا به «فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» أى تطمئن اليه و تسكن. و بين ان الله تعالى يهدى من يؤمن الى صراط مستقيم، بأن يلف له ما يعلم انه يهتدى عنده «إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ثم قال «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» يعنى من القرآن. و معناه الاخبار عن علم الله تعالى من الكفار انهم لا يؤمنون بالآية خاصة. و هو قول ابن جريج إلا أن (تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ) يعنى القيامة (بغتة) أى فجأة، و على غفلة (أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ) قال الضحاك: هو عذاب يوم القيامة. و قال مجاهد و قتادة:

هو عذاب يوم بدر. و قيل معنى (عقيم) أى لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة قال الشاعر:

عقم النساء بأن يلدن شبيهه
إن النساء بمنله لعقيم «١»

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ (٦٠)

(١) البيت فى مجمع البيان ٩٢ / ٤

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر «ثم قتلوا» بالتشديد. الباكون بالتخفيف. من شدد أراد التكثير. و من خفف، فلأنه يحتمل القليل و الكثير.

يقول الله تعالى إن الملك فى اليوم الذى وصفه بأنه «عقيم» و انه لا مثل له فى عظم الأحوال، فيه الملك لله تعالى وحده. لا ملك لاحد معه. و انما خص ذلك به، لأن فى الدنيا قد ملك الله تعالى أقواماً أشياء كثيرة. و الملك اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور، فالله تعالى يملك الأمور لنفسه، و كل مالك سواه، فإنما هو ملك له بحكمه، اما بدليل السمع او بدليل العقل.

وقوله (يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أى يفصل فى ذلك اليوم بين الخلاق، و ينصف بينهم فى الحكم، و الحكم الخبر بالمعنى الذى تدعوا اليه الحكمة، و لهذا قيل: الحكم له، لأن كل حاكم غيره، فإنما يحكم باذنه و اعلام من جهته إما من جهة العقل او جهة السمع.

ثم اخبر تعالى ان (فَالَّذِينَ آمَنُوا) اى صدقوا بوحدانيته، و صدقوا أنبياءه (وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) التى أمر الله بها انهم (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) منعمين فيها.

(و إن الذين كفروا) اى جحدوا ذلك (و كذبوا) بآيات الله، فان لهم عذاباً مهيناً، يهينهم و يذلهم. و الهوان الاذلال بتصغير القدر، و مثله الاستخفاف و الاحتقار، أهانه يهينه إهانة فهو مهان مذلل.

و قيل نزلت الآية فى قوم من المشركين أتوا جماعة من المسلمين، فقاتلوهم فى الأشهر الحرم بعد ان نهاهم المسلمون عن ذلك، فأبوا، فنصروا عليهم. و قيل إن النبى (ص) عاقب بعض المشركين لما مثلوا بقوم من أصحابه يوم أحد.

ص: ٣٣٤

و قوله (وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعنى الذين خرجوا من ديارهم و أوطانهم بغضاً للمشركين الذين كانوا يؤذونهم بمكة (ثُمَّ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا لِيُرْزَقَتْ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا) يعنى الجنة (وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) ثم اقسم تعالى انه ليدخلن هؤلاء المهاجرين فى سبيل الله الذين قتلوا (لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ) و يؤثرونه يعنى الجنة، و ما فيها من انواع النعيم. و قرأ نافع «مدخلا» بفتح الميم، يريد المصدر او اسم المكان، و تقديره: ليدخلنهم فيدخلون مدخلا يرضونه أو مكاناً يرضونه.

و الباقون بضم الميم و هو الأجود، لأنه من ادخل يدخل مدخلا لقوله «أَدْخَلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ» «١» و إن الله لعليم بأحوالهم، حليم عن معاملة الكفار بالعقوبة.

و قوله «ذَلِكَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ» قيل نزلت فى قوم من المشركين لقوا جماعة من المسلمين. فقاتلوهم فى الأشهر الحرم بعد أن نهاهم المسلمون عن ذلك، فأبوا. فنصروا عليهم. و

قيل: إن النبى (ص) عاقب بعض المشركين لما مثلوا بقوم من أصحابه يوم أحد

، و الأول لم يكن عقوبة، و انما هو كقولهم الجزاء بالجزاء. و الاول ليس بجزاء، و انما هو لازدواج الكلام.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٦١ الى ٦٥]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥)

ص: ٣٣٥

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل العراق إلا أبا بكر «و إن ما يدعون» بالياء. الباقون بالتاء. معنى ذلك ان «ذلك» الأمر «بأن الله يولج الليل في النهار» أى يدخل الليل على النهار، و الإيلاج الإدخال بإكراه، ولج يلج ولوجاً و أولج إبلجاً و اتلج اتلاجاً.

و انما قال يولج الليل في النهار - هاهنا - لأن ذلك يقتضى أن ذلك صادر من مقتدر لولاه لم يكن كذلك. و قيل: معنى «يُولجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ» أن يدخل ما انتقص من ساعات الليل في النهار، و ما انتقص من ساعات النهار في الليل. و معنى «وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» - هاهنا - أنه يسمع ما يقول عباده في هذا بصير به، لا يخفى عليه شيء منه حتى يجازى به.

و قوله «بأنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» وصفه بأنه الحق يحتمل أمرين:

أحدهما - انه ذو الحق في قوله و فعله.

الثانى - انه الواحد في صفات التعظيم التى من اعتقدها، فهو محق.

و قوله «وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ» من قرأ بالتاء خاطب بذلك الكفار. و من قرأ بالياء أخبر عنهم بأن ما يدعونه من دون الله من الأصنام و الأوثان هو الباطل، على الحقيقة «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» فالعلى القادر الذى كل شيء سواه تحت معنى صفته، بأنه قادر عليه، و لا يجوز وصفه ب (رفيع) على هذا المعنى،

ص: ٣٣٦

لان صفة على منقولة اليه، و لم تنقل صفة (رفيع) و وصفه بأنه الكبير، يفيد أن كل شيء سواه يصغر مقداره عن معنى صفته، لأنه القادر الذى لا يعجزه شيء، العالم الذى لا يخفى عليه شيء.

و قوله «أَلَمْ تَرَ» خطاب للنبي (ص) و المراد به جميع المكلفين يقول الله لهم ألم تعلموا «أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» يعنى غيثاً و مطراً «فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ» بذلك «مخضرة» بالنبات «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» فاللطيف معناه أنه المختص بدقيق التدبير الذى لا يخفى عنه شيء و لا يتعذر عليه، فهو لطيف باستخراج النبات من الأرض بالماء، و ابتداء ما يشاء «خبير» بما يحدث عنه و ما يصلح له. و قوله «فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ» انما رفع (فتصبح) لأنه لم يجعله جواباً للاستفهام، لان الظاهر و إن كان الاستفهام فالمراد به الخير، كأنه قال: قد رأيت أن الله ينزل من السماء ماء، فتصبح الأرض مخضرة، إلا انه نبه على ما كان رآه ليتأمل ما فيه قال الشاعر:

لان المعنى قد سألته فنطق. ثم أخبر تعالى أن «له» ملك «ما في السموات وما في الأرض» لا ملك لاحد فيه. و معناه إن له التصرف في جميع ذلك لا اعتراض عليه. و أخبر «إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» فالغنى هو الحى الذى ليس بمحتاج، فهو تعالى المختص بأنه لو بطل كل شىء سواه لم تبطل نفسه القادرة العالمة. الذى لا يجوز عليه الحاجة بوجه من الوجوه، و كل شىء سواه يحتاج اليه، لأنه لولاه لبطل، لأنه لا يخلو من مقدوره أو مقدور مقدوره. و (الحميد) معناه الذى يستحق الحمد على أفعاله، و هو بمعنى انه محمود.

(١) تفسير الطبرى ١٧ / ١٣٤

ص: ٣٣٧

ثم قال «أَلَمْ تَرَ» يا محمد و المراد جميع المكلفين «أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ» من الجماد و الحيوان اى قد ذلل لكم، تتصرفون فيه كيف شئتم، و ينقاد لكم، على ما تؤثرونه. و ان الفلك تجرى فى البحر بأمر الله اى بفعل الله، لأنها تسير بالريح، و هو تعالى المجرى لها و (يُمَسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ) أى يمنعها من الوقوع على الأرض، و لا يقدر على إمساكها أحد سواه مع عظمتها و ثقلها «إِلَّا بِإِذْنِهِ» اى لا تقع السماء على الأرض إلا إذا أذن الله فى ذلك بأن يريد ابطالها و إعدامها.

و معنى (أَنْ تَقَعَ) ألا تقع. و قيل معناه كراهية أن تقع. ثم أخبر انه تعالى (بِالنَّاسِ لِرَوْفٍ رَحِيمٍ) أى متعطف منعم عليهم.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٦ الى ٧٠]

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مُنْشِكَا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَ إِن جَادِلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)

خمس آيات بلا خلاف.

لما ذكر الله تعالى انه الذى سخر للخلق ما فى الأرض من الحيوان و ذللها لهم و اجرى

ص: ٣٣٨

الفلك فى البحر، كنا عنه بأن قال «وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ» ايضاً بعد ان لم تكونوا كذلك، يقال أحياء الله، فهو محى له «ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ» بعد هذا الأحياء «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» يوم القيامة للحساب إما الى الجنة، وإما الى النار ثم اخبر عن الإنسان بانه (كفور) أى جحود لنعم الله بما فعل به من انواع النعم، و جحوده ما ظهر من الآيات الدالة على الحق فى كونه قادراً على الأحياء و الاماتة. و الأحياء بعدها، لا يعجزه شىء من ذلك.

ثم اخبر تعالى أن «لكل أمة منسكا» أى مذهباً «هُم نَاسِكُوهُ» أى يلزمهم العمل به. وقيل: المنسك جميع العبادات التى أمر الله بها. وقيل: المنسك الموضع المعتاد لعمل خير او شر، و هو المألّف لذلك. و مناسك الحج من هذا، لأنها مواضع العبادات فيه، فهى متعبات الحج. و فيه لغتان فتح السنين، و كسرهما. و قال ابن عباس «منسكاً» أى عيداً. و قال مجاهد و قتادة: متعبداً فى إراقة الدم بمنى، و غيرها.

و قوله «فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فى الأَمْرِ» لأنهم كانوا يقولون: أ تأكلون ما قتلتم، و لا تأكلون الميتة التى قتلها الله. و قيل «فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فى الأَمْرِ» نهى لهم عن منازعة النبى (ص) و قيل: نهى له لان المنازعة تكون من اثنين. فإذا وجه النهى الى من ينازعه، فقد وجه اليه. و قرئ «فلا ينزعنك» و المعنى لا يغلبنك على الامر.

ثم قال لنبيه (ص) «وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ» يا محمد «إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ» أى على طريق واضح. ثم قال «وَ إِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ» معناه إن جادلوك على وجه المراء و التعنت الذى يعمله السفهاء، فلا تجادلهم على هذا الوجه، و ادفعهم بهذا القول. و قل «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ» و هذا أدب من الله حسن، ينبغى أن يأخذ به كل احد «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ» أى يفصل بينكم «يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» من توحيد الله و صفاته و اخلاص عبادته، و ألا نشرك به غيره.

ص: ٣٣٩

ثم قال لنبيه (ص) «أَلَمْ تَعْلَمْ» و المراد به جميع المكلفين «أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فى السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ» من قليل و كثير، لا يخفى عليه شىء من ذلك «إِنَّ ذَلِكَ فى كِتَابٍ» يعنى مثبتاً فى اللوح المحفوظ الذى أطلع عليه ملائكته «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» أى سهل غير متعذر.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٧١ الى ٧٥]

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَ إِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونِ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أ فَأَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بَشَى الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَ لو اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الكفار الذين يعبدون مع الله الأصنام، والأوثان:

ص: ٣٤٠

انهم «يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا» أى لا حجة و لا برهاناً، و إنما قيل للبرهان سلطان، لأنه يتسلط على انكار المنكر، فكل محق فى مذهبه، فله برهان يتسلط به على الإنكار لمذهب خصمه.

و قوله «وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ» معناه و لا هو معلوم لهم ايضاً من جهة الدلالة، لان الإنسان قد يعلم صحة أشياء يعمل بها من غير برهان أدى اليها كعلمه بوجود شكر المنعم، و وجوب رد الوديعة، و مدح المحسن و ذم المسىء، و غير ذلك، مما يعلمه بكمال عقله، و إن لم يكن معلوماً بحجة، فلذلك قال «وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ».

ثم اخبر انه ليس «لِلظَّالِمِينَ» أنفسهم بارتكاب المعاصى و ترك المعرفة بالله من ينصرهم و يدفع عنهم عذاب الله إذا نزول بهم.

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار و شدة عنادهم، فقال «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا» يعنى من القرآن و غيره من حجج الله تعالى الظاهرات البينات «تعرف» يا محمد «فِي وَجْهِ الَّذِينَ كَفَرُوا» بنعم الله، و جحدوا ربوبيته «المنكر» من القول «يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» فالسطوة اظهار الحال الهائلة للاخافة، يقال: سطا عليه سطوة و سطواً وسطاً به ايضاً فهو ساط. و الإنسان مسطوبه.

و الإنسان يخاف سطوات الله و تقماته. و السطوة و الاستطالة و البطشة نظائر فى اللغة.

و المعنى إن هؤلاء الكفار إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم، قاربوا أن يوقعوا بمن يتلوها المكروه.

ثم قال لنبيه (ص) «قل» يا محمد «أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ دَلِكُمْ» أى بشر من اعتدائكم على التالى لآيات الله. و قيل: بشر عليكم مما يلحق التالى منهم. ثم ابتدأ فقال «النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» و قيل التقدير كان قائلاً قال ما ذلك الشر؟ فقيل «النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» أى بئس

ص: ٣٤١

الموضع، و كان يجوز فى (النار) الجر على البدل من (ذلكم) لأنه فى موضع جر ب (من) و كان يجوز النصب بمعنى أعرفكم شراً من ذلك النار، و الذى عليه القراء الرفع. ثم اخبر تعالى عن النار بأن الله وعدھا الذين كفروا و بئس المرجع.

ثم خاطب جميع المكلفين من الناس، فقال «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ» يعنى ضرب مثل، جعل، كقولهم ضرب على أهل الذمة الجزية، لأنه كالتشيت شبهه بالضرب المعروف، و كذلك الضربة. و المثل: شبه حال الثانى بالأولى فى الذكر الذى صار كالعالم. و من حكم المثل أن لا يتغير، لأنه صار كالعالم. كقولهم «أطرى انك فاعلة».

ثم قال «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» قرأ يعقوب بالياء على الخبر الباقي بالتاء على الخطاب، كقوله «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» و الذي عبدوه من دون الله الأصنام و الأوثان «لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ» على ذلك و عاون بعضهم بعضاً مع صغر الذباب، فكيف بالعظيم من الأشياء. ثم زاد في ضرب المثل، فقال «وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً...» يعنى هؤلاء الكفار، و من جرى مجراهم لو سلبهم الذباب شيئاً و طار، لما قدروا على استنقاذه منه و تخليصه من يديه. ثم اخبر تعالى بانه «ضَعْفَ الطَّالِبِ» يعنى من الأوثان «وَالْمَطْلُوبِ» من الذباب - و هو قول ابن عباس - و لم يأت بالمثل، لأن في الكلام دلالة عليه، كأنه قال يا أيها الناس مثلكم مثل من عبد آلهة اجتمعت لأن تخلق ذباباً، فلم يقدروا عليه، و إن يسلبها الذباب شيئاً، فلم تستنقذه منه. و مثل ذلك في الحذف قول امرئ القيس:

سواك و لكن لم نجد عنك مدفعاً^١

وجدك لو شيء أتانا رسوله

و تقديره لو أتانا رسول غيرك لرددناه و فعلنا به، و لكن لم نجد عنك مدفعاً،

(١) شرح ديوانه ١٣١ و قد مر في ٥/ ٥٢٩ و ٦/ ٢٥٣ مع اختلاف يسير

ص: ٣٤٢

فاختصر لدلالة الكلام عليه. و قال قوم: أراد أن الكافرين جعلوا لى الأمثال من الأصنام التي عبدوها فاستمعوا لما ضرب لى من الأمثال. ثم أخبر عنها كيف هي، و كيف بعدها مما جعلوه مثلاً، و يدل عليه قوله «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» و اختلفوا فى معنى «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» فقال الحسن: معناه ما عظموه حق عظمتهم، إذ جعلوا له شريكاً فى عبادته. و هو قول المبرد و الفراء. و قال قوم: معناه ما عرفوه حق معرفته. و قال آخرون: ما وصفوه حق صفته. و هو مثل قول أبى عبيدة. قال:

يقول القائل: ما عرفت فلاناً على معرفته، اى ما عظمته حق تعظيمه.

و فى ذلك دلالة على أن من جوز عبادة غير الله فهو كافر، و كذلك من جوز ان يكون المنعم - بخلق النفس، و البصر، و السمع، و العقل - غير الله، فهو كافر بالله.

ثم اخبر تعالى عن نفسه، فقال «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ» أى قادر على ما يصح ان يكون مقدوراً «عزيز» لا يقدر احد على منعه.

ثم قال تعالى «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا» أى يختار منهم من يصلح للرسالة «وَمِنَ النَّاسِ» أى و يختار من الناس ايضاً مثل ذلك. و فى ذلك دلالة على انه ليس جميع الملائكة رسلاً، لأن (من) للتبويض عند اهل اللغة، و كما ان الناس ليس جميعهم أنبياء فكذلك الملائكة.

وقوله «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» أى يسمع جميع ما يدرك بالسمع من الأصوات و دعاء من يدعو خالصاً، و دعاء من يدعو على وجه الاشراك به بصير بأحوالهم.

قوله تعالى: [سورة الحج (٢٢): الآيات ٧٤ الى ٧٨]

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

ص: ٣٤٣

ثلاث آيات بلا خلاف لما اخبر الله تعالى عن نفسه بأنه «سَمِيعٌ بَصِيرٌ» وصف أيضاً نفسه بأنه «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» يعنى ما بين أيدي الخلائق من القيامة و أحوالها، و ما يكون فى مستقبل أحوالهم، «وَمَا خَلْفَهُمْ» أى و ما يخلفونه من دنياهم. و قال الحسن: يعلم ما بين أيديهم: أول أعمالهم، و ما خلفهم آخر أعمالهم «و اليه ترجع الأمور» يعنى يوم القيامة ترجع جميع الأمور الى الله تعالى بعد ان كان ملكهم فى دار الدنيا منهما شيئاً كثيراً.

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا» أى صلوا، على ما أمرتكم به، من الركوع و السجود فيها (وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ) الذى خلقكم و لا تشركوا به شيئاً (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ) و الخير النفع الذى يجلب موقعه، و تعم السلامة به، و نقيضه الشر، و قد أمر الله بفعل الخير، ففعله طاعة له.

و قوله (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أى افعلوا الخير لكى تفوزوا بثواب الجنة و تتخلصوا من عذاب النار. و قيل معناه افعلوه على رجاء الصلاح منكم بالدوام على أفعال الخير و اجتناب المعاصى و الفوز بالثواب.

ثم أمرهم بالجهاد فقال (وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) قال ابن عباس: معناه

ص: ٣٤٤

جاهدوا المشركين، و لا تخافوا فى الله لومة لائم، و قال الضحاك: معناه اعملوا بالحق لله حق العمل.

و قوله (هُوَ اجْتَبَاكُمْ) فالاجتبا هو اختيار الشىء لما فيه من الصلاح. و قيل:

معناه اختاركم لدينه، و جهاد أعدائه. و الحق يجتبي، و الباطل يتقى، و لا بد أن يكون ذلك خطاباً متوجهاً الى من اختاره الله بفعل الطاعات، دون أن يكون ارتكب الكبائر الموبقات. و إن كان سبق منه جهاد فى سبيل الله.

و قوله (وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) معناه لم يجعل عليكم ضيقاً في دينكم، و لا ما لا مخرج منه. و ذلك أن منه ما يتخلص منه بالتوبة، و منه ما يتخلص منه برد المظلمة، و ليس في دين الإسلام ما لا سبيل الى الخلاص من عقابه. و فيه من الدليل - كالذى في قوله (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْتَتَكُمْ) «١» - على فساد مذهب المجبرة في العدل. و مثله قوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) «٢» و قوله (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) يحتتمل نصب (ملة) و جهين:

أحدهما - اتبعوا (مِلَّةَ أَبِيكُمْ) و الزموا، لان قبله (جاهدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) و الاخر - كملة أبيكم إلا انه لما حذف حرف الجر اتصل الاسم بالفعل فنصب.

و قال الفراء: نصبه بتقدير: وسع ملتكم، كما وسع ملة أبيكم. و قوله (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) معناه انه يرجع جميعهم الى ولادة ابراهيم، و أفاد هذا ان حرمة ابراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد، كما قال (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) «٣» - في قول الحسن.

و قوله «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ» قال ابن عباس و مجاهد: الله سماكم المسلمين، فهو كناية عن الله. و قال ابن زيد: هو كناية عن ابراهيم و تقديره ابراهيم سماكم المسلمين

(١) سورة البقرة آية ٢٢٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦

(٣) سورة الأحزاب آية ٦

ص: ٣٤٥

بدليل قوله «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ» «١».

و قوله «مِنْ قَبْلُ» اي من قبل القرآن. - في قول مجاهد - و قيل: ملة ابراهيم داخلة في ملة محمد (ص)، فلذلك قال «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ. وَ فِي هَذَا» يعنى القرآن. و قال السدى: معناه: و فى هذا الأوان ليكون الرسول شهيدا عليكم بطاعة من أطاع فى تبليغه، و عصيان من عصى «وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» بأعمالهم فى ما بلغتهم من كتاب ربهم و سنة نبيهم. ثم أمرهم باقامة الصلاة، فقال «فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ» أى بدين الله الذى لطف به لعباده - فى قول الحسن - و قيل: معناه امتنعوا بالله من أعدائكم «هُوَ مَوْلَاكُمْ» أى أولى بكم، و بتدبيركم، و تعريفكم «فنعمة» مالكم «المولى» يعنى الله «وَ نِعْمَ النَّصِيرُ» أى الناصر، و الدافع عن الخلق الله تعالى. و قيل: «فَنِعْمَ الْمَوْلَى» من لم يمنعكم الرزق لما عصيتموه «وَ نِعْمَ النَّصِيرُ» حين أعانكم لما أطمعتموه.

و روى أن الله أعطى هذه الأمة ثلاث أشياء لم يعطها أحداً من الأمم: جعلها الله شهيداً على الأمم الماضية، و قال لهم «ما جعلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» «٢» و قال (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) «٣».

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٢٨

(٢) سورة ٢٢ الحج آية ٧٨

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٦٠

ص: ٣٤٧

٢٣ سورة المؤمنون

مكية بلا خلاف، و هو قول قتادة و مجاهد: و هي مائة و ثمان عشرة آية في الكوفى، و تسع عشرة في البصرى، و المدنيين، و ليس فيها ناسخ و لا منسوخ، إلا ما روى أنهم كانوا يجيزون الالتفات يميناً و شمالاً و إلى ما وراء نسخ ذلك بقوله «فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» فلم يجيزوا أن ينظر المصلى إلا الى موضع سجوده.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)

سبع آيات.

يقول الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) أى فازوا بثواب الله، الذين صدقوا

ص: ٣٤٨

بالله و أقروا بوحدانيته و صدقوا رسله. و قيل: معناه، قد سعدوا، قال لبيد:

و قيل معنى (أفلح) بقى أى بقيت أعمالهم الصالحة، و منه قولهم (حى على الفلاح) أى على بقاء أعمال الخير، و معنى (قد) تقريب الماضى من الحال، فدل على أن فلاحهم قد حصل بما هم عليه فى الحال، و هذا أبلغ فى الصفة من تجريد ذكر الفعل. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بأوصاف، فقال (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) أى خاضعون متذللون لله فيها. و قيل: معناه يسعون، مقبلون على الصلاة بالخضوع و التذلل لربهم. و قيل: معناه خائفون. و قال مجاهد: هو غض الطرف و خفض الجناح. و قيل: أن ينظر المصلى الى موضع سجوده. و

كان النبى (ص) يرفع بصره الى السماء. فلما نزلت هذه الآية طأطأ رأسه، و نظر الى مصلاه.

و الخشوع فى الصلاة هو الخضوع بجمع الهمة لها، و الاعراض عما سواها، لتدبر ما يجرى فيها: من التكبير، و التسبيح، و التحميد لله، و تلاوة القرآن. و هو موقف الخاضع لربه الطالب لمرضاته بطاعته.

ثم زاد فى صفاتهم فقال (وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) و اللغو هو القول و الفعل الذى لا فائدة فيه يعتد بها، و هو قبيح على هذا الوجه. و قال ابن عباس:

اللغو - هاهنا - الباطل. و قال السدى: هو الكذب. و قال الكلبي هو الحلف.

و حكى النقاش: انهم نهوا عن سباب الكفار إذا سبواهم، و عن محادثتهم.

ثم قال (وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) أى يؤدون ما يجب عليهم فى أموالهم من الصدقات، و سميت زكاة، لأنه يزكو بها المال عاجلا و آجلا. ثم قال (وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) قيل عنى بالفروج - هاهنا - فرج الرجل خاصة بدلالة قوله

(١) مر هذا البيت فى ١ / ٥٩ من هذا الكتاب

ص: ٣٤٩

(إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) ثم استثنى من الحافظين لفروجهم من لا يحفظ فرجه عن زوجته، أو ما تملك يمينه من الإماء على ما أباحه الله له، لأن التزويج ينبغى أن يكون، على وجه اباحة الله تعالى. و (ملك اليمين) فى الآية المراد به الإماء لأن الذكور من المماليك لا خلاف فى وجوب حفظ الفرج منهم. و من ملك الأيمان، لا يجمع بين الأختين فى الوطاء، و لا بين الأم و البنت. و كل ما لم يجز الجمع بينهم فى العقد، فلا يجوز الجمع بينهم فى الوطاء بملك اليمين. و لا يخرج من الآية وطؤ المتمتع بها، لأنها زوجة عندنا، و إن خالف حكمها حكم الزوجات فى احكام كثيرة، كما أن حكم الزوجات مختلف فى نفسه. و

ذكره تعالى هذه الأوصاف و مدحه عليها يكفى و يغنى عن الأمر بها، لما فيها من الترغيب كالترغيب فى الأمر، و أنها مرادة، كما أن المأمور به مراد، و كلها واجب.

و انما قيل للجارية (ملك يمين) و لم يقل فى الدار (ملك يمين) لأن ملك الجارية أخص من ملك الدار إذ له تقضى بنية الدار، و ليس له تقضى بنية الجارية، و له عارية الدار، و ليس له عارية الجارية، حتى توطأ بالعارية، فلذلك خص الملك فى الأمة، و انما قال «إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» مع تحريم وطئها على وجوه: كتحريم وطئ الزوجة، و الأمة فى حال الحيض، و وطئ الجارية إذا كان لها زوج، أو كانت فى عدة من زوج، و تحريم وطئ المظاهرة قبل الكفارة، لأن المراد بذلك على ما يصح و يجوز، مما بينه الله، و بينه رسوله فى غير هذا الموضع، و حذف لأنه معلوم، و هى من الأمور العارضة فى هذه الوجوه أيضاً، فان من وطأ الزوجة أو الأمة فى الأحوال التى حرم عليه وطئها، فانه لا يلزمه اللوم من حيث كانت زوجة أو ملك يمين و إنما يستحق اللوم من وجه آخر. و اللوم و الذم واحد، و ضد هما الحمد و المدح.

ص: ٣٥٠

ثم قال تعالى «فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ» و معناه من طلب سوى ذلك يعنى الزوجية، و ملك اليمين، فهو عاد. و الابتغاء و البغية الطلب. و البغاء طلب الزنا، و الباغى طالب الاعتداء. و (العادون) هم الذين يتعدون الحلال الى الحرام. و قوله «وراء» - هاهنا- قيل: معناه غير. و قال الفراء معناه «إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ» إلا من أزواجهم «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» فى موضع خفض.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨ الى ١١]

وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

أربع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وحده «لأماناتهم» على التوحيد. الباقون «لأماناتهم» على الجمع، لقوله «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» «١» وقرأ ابن كثير ذلك اختياراً ليطابق قوله (و عهدهم). وقرأ حمزة و الكسائى (على صلواتهم) على التوحيد، لان الصلاة اسم جنس يقع على القليل و الكثير، فكذلك قوله (أماناتهم) و الأصل فيه المصدر كالعمل. الباقون (صلواتهم) على الجمع، و من جمع جعله بمنزلة الاسم، لاختلاف أنواعها. لقوله (حافظوا على الصلوات) «٢» قال ابو على النحوى: الجمع أقوى، لأنه صار اسماً شائعاً شرعياً، و قد بينا الوجه فيه.

ثم زاد الله تعالى فى صفات المؤمنين الذين وصفهم بالفلاح فقال و الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون و معناه الذين يراعون الأمانات التى يؤتمنون عليها و لا

يحزنون فيها، و يحفظون ما يعاهدون عليه من الأيمان و النذور، فلا يحثون و لا ينكثون. و المراعات قيام الراعى بإصلاح ما يتولاه. ثم قال «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» أى لا يضيعونها. و يواظبون على أدائها. و فى تفسير أهل البيت إن معناه: الذين يحافظون على مواقيت الصلوات فيؤدونها فى أوقاتها، و لا يؤخرونها حتى يخرج الوقت. و به قال مسروق و جماعة من المفسرين. و انما أعيد ذكر الصلاة- هاهنا- لأنه أمر- هاهنا- بالمحافظة عليها، كما امر بالخشوع فيها، فى ما تقدم، كما أعيد ذكر الفلاح، لأنه يجب بالخصال المذكورة بعده كما وجب فى - سورة البقرة- «١» بالخصال المذكورة قبله.

ثم اخبر تعالى عن اجتماعت فيه هذه الخصال، فقال «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- انه يؤل أمره الى النعيم فى الجنة، و يملك ما يعطيه الله، كما يؤل أمر الوارث الثانى -

روى أبو هريرة عن النبي (ص) أنه قال (ما منكم أحد إلا و له منزلان منزل فى الجنة و منزل فى النار، فان مات على الضلال و رث منزله أهل الجنة، و إن مات على الايمان، و رث هو منزل اهل النار).

و قال مجاهد: يهدم منزله فى النار، ثم وصف الله تعالى الوارثين، فقال (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) و حقيقة الإرث ملك ما يتركه الميت ان بلده، ممن هو أولى به فى حكم الله، فهذا أصله، ثم يشبه به، فيقال: و رث فلان علم فلان أى صار اليه، و معنى (يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ) أى يصيرون اليها بعد الأحوال المتقدمة. و الفردوس البستان الذى يجمع محاسن النبات. و قيل أصله رومى. و قيل: بل هو عربى و وزنه (فعول) و قيل الفردوس البستان. الذى فيه كرم قال جرير:

(١) انظر ١ / ٤٨ فى تفسير آية ٥ من سورة البقرة

ما بعد بيرين من باب الفرديس «١»

و قال الجبائى (يرثون الفردوس) على التشبيه بالميراث المعروف من جهة الملك الذى ينتهى اليه أمره.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٢ الى ١٦]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر و ابو بكر عن عاصم «عظماً» فى الموضوعين على التوحيد. الباقون على الجمع. فمن وحد، فلأنه اسم جنس يقع على القليل و الكثير. و من جمع، فلقوله «أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا» «٢» و قوله «أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً» «٣» و قوله «مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ» «٤» و ما أشبه ذلك.

(١) ديوانه ٢٥٠ و صدره: (فقلت للرجل إذ جد الرحيل بنا) و يبرين اسم بلد من بلاد بنى سعد. و باب الفراديس بدمشق.

(٢) سورة ١٧ الإسراء آية ٤٩، ٩٨

(٣) سورة ٧٩ النازعات آية ١١

(٤) سورة ٣٦ يس آية ٧٨

ص: ٣٥٣

يقول الله تعالى على وجه القسم، انه: خلق «الإنسان من سلالة من طين» فقال ابن عباس و مجاهد: المراد بالإنسان كل انسان، لأنه يرجع إلى آدم الذى خلق من سلالة. و قال قتادة: المراد بالإنسان آدم، لأنه استل من أديم الأرض. و قيل:

استل من طين. و الصلابة صفوة الشيء التى تخرج منه، كأنها تستل منه. و السلالة صفوة الشيء التى تجرى قبل ثقله، و كدره، لأنها متقدمة على ثقله، كتقديم السلف و الأجر على الآخرة. و قد تسمى النطفة سلالة و الولد أيضاً سلالة و سليله. و الجمع سلالات، و سلائل، قال الشاعر:

سليلة أفراس تجلجلها بغل «١»

و هل كنت إلا مهرة عربية

و قال آخر:

سلالة فرج كان غير حصين «٢»

فجاءت به غضب الأديم غضفرا

و قال آخر:

يقذفن في أسلابها بالسلائل «٣»

و قال آخر:

إذا نتجت منها المهاري تشابهت
على القود لا بالأنوف سلائله «٤»

و في الآية دلالة على أن الإنسان هو هذا الجسم المشاهد، لأنه المخلوق من نطفة، و المستخرج من سلالة، دون ما يذهب اليه قوم: من انه الجوهر البسيط، أو شيء لا يصح عليه التركيب و الانقسام، على ما يذهب اليه معمر و غيره.

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ١٠٩ و الطبري ١٨ / ٦

(٢) تفسير الطبري ١٨ / ٦ و تفسير القرطبي ١٢ / ١٠٩ و قد نسبه لحسان، و روايته (حملت) بدل (فجاءت)

(٣ و ٤) تفسير الطبري ١٨ / ٦

ص: ٣٥٤

و قوله «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ» المعنى جعلنا الإنسان، و هو من ولد من نسل آدم «نطفة» و هي القطرة من ماء المنى التي يخلق الله منها الحيوان، على مجرى العادة في التناسل، فيخلق الله من نطفة الإنسان إنساناً و من نطفة كل حيوان ما هو من جنسه. و معنى «مكين» أي مكين لذاك، بأن هيئ لاستقراره فيه الي بلوغ أمده الذي جعل له.

و قوله «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً» فالعلقة القطعة من الدم إذا كانت جامدة، فبين الله تعالى أنه يصير تلك النطفة علقه، ثم يجعل العلقه مضغه، و هي القطعة من اللحم.

ثم اخبر انه يجعل المضغة «عظاماً»، و قرئ «عظماً» و هي قراءة ابن عامر و أبي بكر عن عاصم. فمن قرأ «عظاماً» أراد ما في الإنسان من أقطاع العظم. و من قرأ «عظماً» فلأنه اسم جنس يدل على ذلك.

ثم بين تعالى انه يكسو تلك «العظام لحمًا» ينشئه فوقها، كما تكسى الكسوة.

و قوله ثم «أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» يعنى ينفخ الروح فيه- فى قول ابن عباس و مجاهد- و قيل: نبات الأسنان و الشعر، و إعطاء العقل و الفهم. و قيل «خلقاً آخر» معناه ذكر او أنثى. ثم قال «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» و معنى (تبارك) استحق التعظيم بأنه قديم لم يزل، و لا يزال، و هو مأخوذ من البروك، و هو الثبوت.

و قوله «أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فيه دلالة على ان الإنسان قد يخلق على الحقيقة، لأنه لو لم يوصف بخالق إلا الله، لما كان لقوله «أحسن الخالقين» معنى. و أصل الخلق التقدير، كما قال الشاعر:

و لأنت تفرى ما خلقت و بعض القوم يخلق ثم لا يفرى «١»

ثم خاطب الخلق، فقال (ثم إنكم) معاشر الخلق بعد هذا الخلق و الأحياء

(١) مر تخريجه فى ٣٦٩ / ٦

ص: ٣٥٥

(لميتون) أى تموتون عند انقضاء آجالكم. يقولون لمن لم يميت و يصح عليه الموت:

ميت و مئت. و لا يقولون لمن مات: مئت. و كذلك فى نظائره سيد و سائد.

و قوله (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) أى تحشرون إلى الموقف و الحساب و الجزاء بعد أن كنتم أمواتاً، و لا يدل ذلك على أنه لا يحييهم فى القبور للمساءلة، لان قوله: انه يميتهم عند فناء آجالهم و يبعثهم يوم القيامة، لا يمنع من أن يحييهم فيما بين ذلك، ألا ترى أن القائل لو قال: دخلت بغداد فى سنة مائة، و خرجت منها فى سنة عشر و مائة، لم يدل على أنه لم يخرج فيما بينهما و عاد، فكذلك الآية. على ان الله تعالى اخبر انه أحيا قوماً. فقال لهم الله موتوا، ثم أحياهم، فلا بد من تقدير ما قلناه للجميع. و فيه دلالة على بطلان قول معمر، و النظام فى الإنسان.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٧ الى ٢٠]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهَ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَ صَيَّغُ لِلْكَالِينَ (٢٠)

أربع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و نافع و ابو عمرو «سيناء» بكسر السين، و لم يصرف، لأنه اسم البقعة. الباقون بفتح السين. و قرأ ابن كثير و ابو عمرو «تنبت» بضم التاء

ص: ٣٥٦

و كسر الباء. الباقون بفتح التاء و ضم الباء. من كسر السين من «سيناء»، فلقوله «طُورِ سَيْنِينَ» «١» و السيناء الحسن، و كل جبل ينبت الثمار فهو سينين. و من فتح السين، فلأنه لغتان. و أصله سرياني، و من فتح السين لا يصرفه في المعرفة و لا النكرة، لأن الهمزة في هذا البناء لا تكون إلا للتأنيث، و لا تكون للإلحاق لأن (فعال) لا يكون إلا في المضاعف مثل (الزلال و القلقال) و من كسر السين، فالهمزة عنده منقلبة عن الياء ك (علياء، و حوباء) و هي التي تظهر في قولك (سيناية) لما بنيت للتأنيث. و انما لم يصرف على هذا القول، و إن كان غير مؤنث، لأنه جعل اسم بقعة أو ارض، فصار بمنزلة امرأة سميت ب (جعفر). و من ضم التاء من «تنبت» لم يعده بالياء، و أراد تنبت الدهن. قال ابو على الفارسي: و يحتمل أن يكون الباء متعلقا بغير هذا الفعل الظاهر، و تقدر مفعولا محذوفاً، و تقديره: تنبت ثمرها و فيها دهن و صبغ. و من فتح التاء عدى الفعل بالياء. كقولهم: ذهب بزيد و أذهب زيدا، و يجوز أن يكون الباء في موضع الحال، و لا يكون للتعدي. مثل ما قلناه في الوجه الأول و تقديره تنبت و فيها دهن.

يقول الله تعالى «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ» يعنى سبع سماوات، خلقها الله فوق الخلائق، و سماها طرائق، لأن كل طبقة طريقة. و قال الجبائي: لأنها طرائق للملائكة، و قال ابن زيد: الطرائق السماوات الطباق. و قال الحسن: ما بين كل سماء و سماء مسيرة خمسمائة عام و كذلك ما بين السماء و الأرض.

وقوله «وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ» معناه ما كنا غافلين ان ينزل عليهم ما يحييهم من المطر. و يحتمل أن يكون أراد ما كنا غافلين عن أفعالهم، و ما يستحقون بها من الثواب و العقاب، بل نحن عالمون بجميع ذلك. و قيل

(١) سورة ٩٥ التين آية ٢

ص: ٣٥٧

«وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ» بل كنا حافظين للسماء من أن تسقط عليهم، فتهلكهم. و الغفلة ذهاب المعنى عن النفس. و مثله السهو، فالعالم لنفسه لا يجوز عليه الغفلة، لأنه لا شيء إلا و هو عالم به. و إنما ذكر الغفلة بعد الطرائق، لأن من جاز عليه الغفلة عن العباد جاز عليه الغفلة عن الطرائق التي فوقهم، فتسقط عليهم، فأمسك الله تعالى طرائق السموات أن تقع على الأرض إلا باذنه. و لولا إمساكه لها لم تقف طرفة عين.

و قوله «وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ» أى أنزلنا المطر و الغيث بقدر الحاجة، لا يزيد على قدر الحاجة، فيفسد، و لا ينقص عنها فيهلك، بل وفق الحاجة.

و قوله «فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ» يعنى انه تعالى أسكن الماء المنزل من السماء فى الأرض و أثبتته فى العيون و الأودية. و

روى عن النبي (ص) أنه قال: (أربعة أنهار من الجنة: النيل، و الفرات، و سيحان، و جيحان).

ثم قال تعالى «وَ إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ» لا يعجزنا عن ذلك شىء، و لو فعلناه لهلك جميع الحيوان، فنبههم بذلك على عظم نعمة الله على خلقه، بانزال الماء من السماء.

ثم اخبر تعالى انه ينشئ للخلق بذلك الماء (جنات) و هى البساتين (مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ) لتنتفعوا بها معاشر الخلق (لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ) تتفكحون بها (وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) و انما خص النخيل و الأعناب، لأنها ثمار الحجاز، من المدنية و الطائف. فذكرهم الله تعالى بالنعم التى يعرفونها.

و قوله (وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ) انما خص الشجرة التى تخرج من طور سيناء، لما فى ذلك من العبرة، بأنه لا يتعاهدها إنسان بالسقى، و لا يراعيها احد من العباد، تخرج الثمرة التى يكون فيها الدهن الذى تعظم الفائدة و تكثر المنفعة به.

و سيناء البركة، كأنه قال جبل البركة - و هو قول ابن عباس و مجاهد - و قال قتادة

ص: ٣٥٨

و الضحاك: معناه الحسن. و قال ابن عباس: طور سيناء اسم الجبل الذى نودى منه موسى (ع) و هو كثير الشجر قال العجاج:

دانى جناحيه من الطور فمر «١»

و قيل يحتمل ان يكون (سيناء: فيعالا) من السنة، و هو الارتفاع. و الشجرة قيل انها شجرة الزيتون. و قوله (تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ) أى تنبت ثمرها بالدهن. و من فتح التاء فمعناه تنبت بثمر الدهن. و قيل نبت و أنبت لغتان قال زهير:

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطيناً بها حتى إذا أنبت البقل «٢»

و قيل الباء زائدة، و المعنى تنبت ثمر الدهن، كما قال الراجز:

أى نرجو الفرّج. و قوله (وَ صَيِّغٌ لِللّٰكِلِيْنَ) أى و جعلناه مما يتأدم به الإنسان و يصطبغون به من الزيت و الزيتون. و الاصطباغ ان يغمز فيه ثم يخرج به و يأكله.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢١ الى ٢٥]

وَ اِنَّ لَكُمْ فِى الْاَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيْكُمْ مِمَّا فِى بُطُوْنِهَا وَ لَكُمْ فِىْهَا مَنَافِعُ كَثِيْرَةٌ وَ مِنْهَا تَاْكُلُوْنَ (٢١) وَ عَلَیْهَا وَ عَلَی الْفُلْكِ تَحْمَلُوْنَ (٢٢) وَ لَقَدْ اَرْسَلْنَا نُوحًا اِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ اَفَلَا تَتَّقُوْنَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَا الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيْدُ اَنْ يَنْفَضَّلَ عَلَیْكُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَانْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الْاَوَّلِيْنَ (٢٤) اِنَّ هُوَ اِلَّا رَجُلٌ بِهٖ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوْا بِهٖ حَتّٰى حِيْنَ (٢٥)

(١) مر هذا الرجز فى ١ / ٢٨٤

(٢) ديوانه (دار بيروت) ٦٢

(٣) تفسير الطبرى ١٨ / ١٠ و القرطبي ١٢ / ١١٥

ص: ٣٥٩

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر و نافع و ابو بكر عن عاصم «نسقيكم» بفتح النون. الباقرن بضمها. قال بعضهم: هما لغتان سقيت و أسقيت، قال الشاعر:

نميراً و القبائل من هلال «١»

سقى قومي بنى مجد و اسقى

و لا يجوز ان يكون المراد فى البيت (و أسقى) مثل قوله «وَ اَسْقِيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا» «٢» لأنه لا يكون قد دعا لقومه و خاصته بدون ما دعا للاجنبي البعيد عنه.

و الصحيح ان سقيت للشفة و أسقيت للأنهار و الانعام تقول: دعوت الله ان يسقيه.

و من قرأ بضم النون أراد: انا جعلنا ما فى ضروعها من الألبان سقياً لكم، كما يقال:

أسقيناهم نهراً إذا جعلته سقياً لهم، و هذا كأنه أعم، لان ما هو سقياً لا يمتنع أن يكون للشفة، و ما يكون للشفة - فقط - يمتنع أن يكون سقياً. و ما أسقانا الله من البان الانعام أكثر مما يكون للشفة و من فتح النون جعل ذلك مختصاً به الشفاه دون المزارع و المراعى، فلم يكن مثل الماء فى قوله «فَأَسْقِينَاكُمْ» «٣» و قوله «وَأَسْقِينَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا» لأن ذلك يصلح للأمرين، و من ثم قال «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» «٤» و انما قال هاهنا «مِمَّا فِى بُطُونِهَا» و فى النحل «بطونه» «٥» لأنه إذا أنت، فلا كلام لرجوع ذلك الى الانعام. و إذا ذكر فلأن النعم و الانعام بمعنى واحد، و لئن التقدير:

(١) مر تخريجه فى ٣٩٩ / ٦

(٢) سورة ٧٧ المرسلات آية ٢٧

(٣) سورة ١٥ الحجر آية ٢٢

(٤) سورة ٧٦ الدهر آية ٢١

(٥) سورة ١٦ النحل آية ٦٦

ص: ٣٦٠

و نسقيكم من بعض ما فى بطونه.

يقول الله تعالى «وَأِنَّ لَكُمْ» معاشر العقلاء «فِى الْأَنْعَامِ» و هى الماشية التى تمشى على نعمة فى مشيها، خلاف الحافر فى وطئها، و هى الإبل و البقر و الغنم (لعبرة) يعنى دلالة تستدلون بها على توحيد الله، و صفاته التى يختص بها دون سواه.

و قوله (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا) فالسقى إعطاء ما يصلح للشرب، فلما كان الله تعالى قد أعطى العباد ألبان الأنعام، باجرائه فى ضروعها، و تمكينهم منها، من غير حظر لها، كان قد سقاها إياها.

ثم قال (و لكم فيها) يعنى فى الانعام «مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ» و لذات عظيمة، يبيعها و التصرف فيها و أكل لحومها، و شرب ألبانها، و غير ذلك من الانتفاع باصوافها و أوبارها، و اشعارها، و غير ذلك (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) يعنى اللحم، و غيره من الألبان و ما يعمل منها. ثم قال: و من منافعها انكم تحملون عليها الأثقال فى اسفاركم بأن تركبوها و تحملوا عليها أثقالكم. و مثل ذلك على الفلك، و هى السفن.

ثم اقسام تعالى انه أرسل نوحاً الى قومه، يدعوهم الى الله، و يقول لهم (اعْبُدُوا اللَّهَ) وحده لا شريك له، فانه لا معبود لكم غيره. و يحذره من عقابه، و يقول (أفلا تتقون) نعمة الله بالاشراك معه فى العبادة. ثم حكى أن الملائكة وهم - جماعة اشراف قومه - الكفار، قال بعضهم لبعض: ليس نوح هذا إلا مخلوقاً مثلكم، و بشر مثلكم، و ليس بملك (يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ) فيسودكم و يترأسكم و ان يكون أفضل منكم «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ» ما قاله من توحيده و اختصاصه بالعبادة (لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) عليكم يدعونكم الى ذلك. ثم قالوا «ما سمعنا بهذا» يعنى بما قال نوح، و بمثل دعوته. و قيل بمثله بشراً أتى برسالة من ربه فى أسلافنا الماضين و ابائنا و أجدادنا الذين تقدمونا. ثم قالوا، (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ) اى ليس

ص: ٣٤١

هذا- يعنون نوحاً- إلا رجلاً به جنة أى تعتاده غمرة تنفى عقله حتى يتخيل اليه ما يقوله و يخرججه عن حال الصحة و كمال العقل، فكان اشراف قومه يصدون الناس عن اتباعه، بما حكى الله عنهم، و قالوا: انه لمجنون يأتى بجنونه بمثل هذا. و يحتمل أن يكونوا أرادوا كأنه فى طعمه فيما يدعو اليه مجنون. ثم قال بعضهم لبعض: (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ) اى الى وقت ما، كأنهم قالوا لهم تربصوا به الهلاك و توقعوه.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَ قُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأَيِّكُمْ لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو بكر عن عاصم (منزلاً) بفتح الميم. الباقون بضمها. من فتح الميم جعله اسم المكان أو مصدرًا ثلاثياً. و من ضم الميم، فلانه مصدر (أنزل إنزالاً)

ص: ٣٤٢

لقوله (انزلى) و مثله (أَدْخَلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ) «١» و لو قرئ (وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) لكان صواباً بتقدير أنت خير المنزلين به، كما تقول: أنزلت حوائجى بك.

و قرا حفص عن عاصم (من كل زوجين) منوناً على تقدير اسلك فيها زوجين اثنين من كل، اى من كل جنس، و من كل الحيوان. كما قال تعالى (وَ لِكُلِّ وِجْهَةٍ) اى لكل انسان قبله (هُوَ مُوَلَّيْهَا «٢») لان (كلا، و بعضاً) يقتضيان مضافاً إليهما. الباقون بالاضافة إلى (زوجين) و نصب (اثنين) على انه مفعول به يقول الله تعالى ان نوحاً (ع) لما نسبه قومه الى الجنة، و ذهاب العقل، و لم يقبلوا منه، دعا الله تعالى، فقال «رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ» أى اعنى عليهم، فالنصرة المعونة على العدو. فأجاب الله تعالى

دعاه و أهلک عدوه، فأغرقتهم و نجاه من بينهم بمن معه من المؤمنين. و قوله «بما كذبون» يقتضى أن يكون دعا عليهم بالإهلاك جزاء على تكذيبهم إياه. فقال الله تعالى انا «فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ» و هو السفينة «بِأَعْيُنِنَا» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما - بحيث نراها، كما يراها الرائي من عبادنا بعينه، ليتذكر انه يصنعها، و الله (عز و جل) يراه.

الثانى - بأعين أوليائنا من الملائكة و المؤمنين، فإنهم يحرسونك من منع مانع لك.

و قوله «وَوَحَيْنَا» أى باعلامنا إياك كيفية فعلها. و قوله «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا» يعنى إذا جاء وقت إهلاكنا لهم «وَوَفَّارًا لِّلنُّورِ» روى انه كان جعل الله تعالى علامة

(١) سورة ١٧ الاسراء آية ٨٠

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٤٨

ص: ٣٦٣

وقت الإهلاك فوران التنور بالماء. فقال له: إذا جاء ذلك الوقت «فَاسْلُكْ فِيهَا» يعنى فى السفينة، و كان فوران الماء من التنور المسجور بالنار، معجزة لنوح (ع) و دلالة على صدقه، و أكثر المفسرين على أنها التنور التى يخبر فيها. و

روى عن على (ع) انه أراد طلوع الفجر.

و يقال: سلكته و أسلكته، فيه لغتان، كما قال الشاعر:

و كنت لزاز خصمك لم أعردّ و قد سلكوك فى يوم عصيب «١»

و قال الهذلى:

حتى إذا أسلكوهم فى قنائة شلا كما تطرد الجمالة الشردا «٢»

وقيل: سلكته فيه حذف، لان تقديره سلكت به فيه. ومعنى «فَاسْلُكْ فِيهَا» احمل فيها و ادخل الى السفينة «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اَتْيَيْنِ» أى من كل زوجين، من الحيوان. اثنين: ذكراً و أنثى. و الزوج واحد له قرين من جنسه و قوله «و أهلك» أى أجمل أهلك معهم، يعنى الذين آمنوا معك (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) بالإهلاك منهم (وَ لَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا) اى لا تسلىنى فى الظالمين أنفسهم بالاشراك معى ف (إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ) هالكون. ثم قال له (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ) يا نوح (وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ) و استقرتم فيه و علوتم عليه، و تمكنتم منه فقل شكراً لله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا) و خلصنا (مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) لنفوسهم بجحدهم توحيد الله.

و قل داعياً (رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) و قال الجبائى: المنزل المبارك هو السفينة. و قال مجاهد: قال ذلك حين خرج من السفينة. و قال الحسن:

كان فى السفينة. سبعة انفس من المؤمنين، و نوح ثامنهم. و قيل: ستة. و قيل:

(١) انظر ٦ / ٣٨، ٣٢١

(٢) مر تخريجه فى ١ / ١٢٨، ١٤٩ و ٦ / ٣٢٢، ٤٥٩

ص: ٣٦٤

ثمانين. و قيل: انه هلك كل ما كان على وجه الأرض إلا من نجا مع نوح فى السفينة.

و قال الحسن: كان طول السفينة الفأ و مئتى ذراع، و عرضها ستمائة ذراع. و كانت مطبقة تسير بين ماء السماء و بين ماء الأرض.

ثم قال تعالى (ان فى ذلك) يعنى فيما أخبرناك به و قصصنا عليك (لآيات) و دلالات للعقلاء، يستدلون بها على توحيد الله و صفاته (وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) أى و إن كنا مختبرين عبادنا بالاستدلال على خالقهم بهذه الآيات، و معرفته و شكره على نعمه عليهم، و عبادته و طاعته و تصديق رسله.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٣١ الى ٣٦]

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ اتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يُشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أ يَعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥)

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦)

ست آيات بلا خلاف.

قرأ ابو جعفر (هيهات هيهات) بكسر التاء. الباقيون بفتحها. ولا خلاف

ص: ٣٦٥

الى ترك التنوين فيهما.

يقول الله تعالى (انا أنشأنا) و اخترعنا، من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان (قَوْمًا آخِرِينَ) و الإنشاء و الاختراع واحد، و كلما يفعل الله تعالى، فهو إنشاء و اختراع. و قد يفعل الله تعالى الفعل عن سبب بحسب ما تقتضيه المصلحة. و القرن أهل العصر لمقارنة بعضهم لبعض، و منه قرن الكبش لمقارنته القرن الآخر، و منه القرينة، و هى الدلالة التى تقارن الكلام. و قوله «فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» اخبار منه تعالى انه أرسل رسولا فى القرن الذى أنشأهم من بعد قوم نوح. و قال قوم: هو صالح و قيل: هود، لأنه المرسل بعد نوح «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» أى أرسلناه بأن يقول لهم: اعبدوا الله وحده لا شريك له. و يقول لهم: ما لكم معبود سواه، و أن يخوفهم إذا خالفوه. و يقول لهم «أَفَلَا تَتَّقُونَ» عذاب الله، و إهلاكه بارتكاب معاصيه، فموضع (أن) من الاعراب نصب. و تقديره بأن اعبدوا الله، فلما حذفت الباء نصب ب (أرسلنا).

و قوله «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» يعنى - الاشراف، و وجوههم - قالوا لغيرهم «الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله و كذبوا بآياته و حججه و بيناته، و جحدوا «وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ» و البعث و النشور يوم القيامة. و قوله «وَأُتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» و الإتراف التنعم بضروب الملاذ، و ذلك أن التنعيم قد يكون بنعيم العيش، و قد يكون بنعيم الملابس، فالإتراف بنعيم العيش قال الراجز:

و قد أرانى بالديار مترفاً

و قوله «ما هذا إلا بشرٌ مثلكم» أى ليس هذا الذى يدعى النبوة من قبل الله إلا بشراً مثلكم «يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ» من الاطعمة «وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ» من الاشربة. ثم قالوا لهم «لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ» و على هيئتكم و أحوالكم «إِنَّكُمْ

ص: ٣٦٦

إِذَا لَخَّاسِرُونَ» فجعلوا اتباع الرسول خساراً، لأنه بشر مثلهم، و لم يجعلوا عبادة الصنم خساراً، لأنه جسم مثلهم، و هذا مناقضة ظاهرة.

ثم حكى انهم قالوا لغيرهم «أَيَعِدُّكُمْ» هذا الذى يدعى النبوة من قبل الله «أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً» ورفاتاً «أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ» وقيل فى خبر (ان) الاول قولان:

أحدهما - انه قوله (مخرجون) و تكون الثانية للتأكيد.

و الثانى - ان يكون الخبر الجملة، و تقديره: أ يعدكم انكم إذا متم و كنتم ترابا و عظاما إخراجكم. و نظير تكرير (ان) قوله «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ» «١» يعنى فله نار جهنم - ذكره الزجاج - إلا ان هذه الثانية عملت فى غير ما عملت فيه الأولى. و إنما هى بمنزلة المكرر فى المعنى. و موضع «انكم» الأولى نصب، و تقديره: أ يعدكم بأنكم. و موضع (ان) الثانية كموضع الأولى، و انما ذكرت تأكيداً، و المعنى: أ يعدكم أنكم تخرجون إذا متم، فلما بعد ما بين (ان) الأولى، و الثانية بقوله «إذا كنتم ترابا و عظاما» أعيد ذكر (أن).

ثم قالوا لهم «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ» من البعث، و النشور، و الجزاء بالثواب و العقاب. و معنى «هيهات» بعد الأمر جداً حتى امتنع، و هو بمنزلة (صه، و مه) إلا ان هذه الأصوات الأغلب عليها الأمر و النهى و هذا فى الخبر و نظيره (شتان) أى بعد ما بينهما جداً، و انما لم تتمكن هذه الأصوات فى الأسماء بخروجها إلى شبه الأفعال التى هى معانيها، و ليست مع ذلك أفعالاً، لأنه لا يضم فيها، و لا لها تصرف الأفعال فى أصلها، و انما جعلت هكذا، و للافهام بما تفهم به البهيمه من الزجر بالأصوات، على هذه الجملة. و قال ابن عباس: معنى (هيهات)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٤

ص: ٣٦٧

بعيد بعيد. و العرب تقول: (هيهات) لما تبغى، و هيهات ما تبغى، قال جرير:

فهيهات هيهات العقيق و من به
و هيهات وصل بالعقيق نواصله «١»

و يروى أيهات. و كان الكسائى: يقف بالهاء، فيقول: هيهات، على قياس هاء التأنيث فى الواحد زائدة نحو (علقة) و اختار الفراء الوقف بالتاء، لأن قبلها ساكناً، فصارت كما تقول: بنت و أخت. قال: و لأن من العرب من يخفض التاء، فدل ذلك على انها ليست بهاء التأنيث، و انما هى بمنزلة دراك، و نظار ماله. و من وقف بالهاء جعلها كالادارة و قال الزجاج: يجوز هيهات و هيهاتاً و هيهاتاً بالتونين، و ترك التنوين. قال الأخفش: يجوز فتح التاء و كسرهما و منهم من يجعل بدل الهاء همزة، فيقول: أيهات، و هى لغة تميم، غير انهم يكسرون التاء. و من العرب من إذا جعلها فى موضع اسم. قال: لم أره مذ أيهات من النهار - بضم التاء - و تنوينها.

و منهم من يجعل مكان التناء نونا، فيقول: ايهان واحدها أيها، قال الشاعر:

و من دوني الاعيار و القيع كله
و كتمان أيهاناً أشت و أبعدا «٢»

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٣٧ الى ٤٠]

إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ
(٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)

أربع آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الملائكة الذين قالوا «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ» لقومهم

(١) ديوانه ٣٨٥ «دار بيروت»

(٢) تفسير القرطبي ١٢ / ١٢٣

ص: ٣٤٨

الذين أغوهم، و قالوا أيضاً ليست الحياة «إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» أى لسنا نبعث يوم القيامة على ما يقول هذا المدعى للنبوّة من قبل الله.

و معنى «نَمُوتُ وَ نَحْيَا» أى يموت منا قوم و يحيا قوم، لأنهم لم يكونوا يقرون بالنشأة الثانية، فلذلك قالوه على هذا الوجه، و شبههم فى انكار البعث طول المدة فى القرون الخالية، فظنوا أنه ابدأ على تلك الصفة، و هذا أبلغ، لأنه إذا اقتضت الحكمة طول المدة لما فى ذلك من المصلحة للمكلفين، فلا بد منه، لأن الحكيم لا يخالف مقتضى الحكمة، فقال النبى المرسل عند ذلك يا «رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي» أى أهلك هؤلاء جزاء على تكذيبى و نصره لى، و معونة على صحة قولى. فقال الله تعالى له «عَمَّا قَلِيلٍ» أى عن قليل و (ما) زائدة «لِيُصْبِحُنَّ» هؤلاء القوم «نَادِمِينَ» على ما فعلوه من تكذيب الرسل، و جحد وحدانية الله، و الاشرار مع الله فى عبادته غيره و اللام فى قوله «ليصبحن» لام القسم يجوز أن يقدم ما بعدها عليها و تقدير الكلام: ليصبحن هؤلاء نادمين عن قليل.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤١ الى ٤٦]

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥)

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)

ص: ٣٦٩

ست آيات في الكوفى والبصرى، و سبع فى المدنين، عدوا قوله «ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ» آية.

لما قال الله تعالى لصالح (ع) انه عما قليل يصبح هؤلاء الكفار نادمين، على ما فعلوا. حكى الله أنهم «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ» و الصيحة الصوت الشديد الذى يفرغ منها، فأهلك الله تعالى (ثمود) بالصيحة و هى صيحة تصدعت منها القلوب.

و قوله «بالحق» معناه على وجه الحق، و هو أخذهم بالعذاب من أجل ظلمهم، بإذن ربهم و هو وجه الحق. و لو أخذوا بغير هذا، لكان أخذاً بالباطل، و هو كأخذ كل واحد بذنب غيره.

و قوله «فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَاءً» فالغناء القش الذى يجىء به السيل على رأس الماء:

قصب و حشيش و عيدان شجر و غير ذلك. و قيل: الغناء البالى من ورق الشجر، إذا جرى السيل رأيته مخالطاً زبده. و قوله «فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» معناه بعداً لهم من الرحمة، و هى كاللعنة التى هى ابعاد من رحمة الله، و قالوا فى الدعاء على الشىء: بعداً له، و لم يقولوا فى الدعاء له قريباً له أى من الرحمة لأنهم طلبوا الانغماس فى الرحمة، فتركوا التقابل لهذه العلة. و قال ابن عباس و مجاهد. و قتادة: الغناء المتفتت البالى من الشجر يحمله السيل. و قيل: ان الله بعث ملكاً صاح بهم صيحة ماتوا عندها عن آخرهم.

ثم اخبر تعالى فقال «وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ» يعنى بعد هؤلاء الذين أهلكهم بالصيحة «قرونا» أى أمماً «آخريين» و اخبر انه «مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ» و هذا وعيد لهؤلاء المشركين، و معناه إن كل أمة لها أجل و وقت

ص: ٣٧٠

مقدر قدره الله لها إذا بلغته لا تؤخر عنه و لا تقدم عليه، بل تهلك عنده. و الأجل:

هو الوقت المضروب لحدوث أمر من الأمور، و ليس الأجل الوقت المعلوم أنه يحدث فيه أمر من الأمور، لان التأجيل فعل يكون به الوقت أجلاً لأمر، و ما فى المعلوم ليس بفعل. و الأجل المحتوم لا يتأخر و لا يتقدم. و الأجل المشروط بحسب الشرط.

و المعنى فى الأجل المذكور - فى الآية - الأجل المحتوم.

ثم اخبر تعالى انه ارسل بعد ان اهلك من ذكره (رسلا تترأ) وقرأ ابن كثير و أبو عمرو بالتنوين. الباقرن بغير تنوين، و لا خلاف فى الوقف انه بألف.

فمن نون لم يمل فى الوقف، و من لم ينون فمنهم من يميل، و منهم من لا يميل. و المواترة المتابعة. و قيل: هى المواصلة يقال: و اترت بين الخبرين أى تابعت بينهما. و قال ابن عباس و مجاهد، و ابن زيد: معنى «تترأ» أى متواترين يتبع بعضهم بعضاً، و هى (فعلى) من المواترة فمن صرفها جعل الألف للإلحاق، و من لم يصرفها جعلها للتأنيث، و يقال: جاءت كتبه تترى. و أصل (تترى، و ترى) من و ترت، فقلبت الواو تاء لكرهتهم الواو أولاً، حتى لم يزيدوها هناك البتة مع شبهها بالتاء فى اتساع المخرج، و القرب فى الموضوع. و أصله فى المعنى الاتصال، فمنه الوتر الفرد عن الجمع المتصل، و منه الوتر لاتصاله بمكانه من القوس. و منه و ترت الرجل أى قطعتة بعد اتصال.

ثم اخبر تعالى انه «كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُوْلُهَا» الذى بعثه الله اليهم «كذبوه» و لم يقرؤا بنبوته.

و قوله «فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا» يعنى فى الإهلاك أى إهلاكنا قوماً بعد قوم «وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ» يتحدثون بهم على وجه المثل فى الشر، و هو جمع احدوته.

و لا يقال فى الخير لأن الناس يفسرون فى الحديث بأسباب الشر أكثر و أغلب.

ثم قال تعالى «فبعدا» من رحمة الله و رسوله «لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» أى

ص: ٣٧١

لا يصدقون بوحدانيته فيقرون بالبعث و النشور و الجزاء.

ثم اخبر تعالى انه ارسل - بعد إهلاك من ذكره - «مُوسَى وَ هَارُونَ» نبيين «بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ» بأدلة من الله و حجج ظاهرة «إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَيْهِ» يعنى قومه «فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ» و الملاً الجماعة التى تملأ الصدر هيبتهم، و هم أشرف القوم و رؤسأؤهم، و خصوا بالذكر، لأن من دونهم أتباع لهم. فلما استكبروا و ردوا دعوة الحق تبعهم غيرهم ممن هو دونهم. و قوله «فَاسْتَكْبَرُوا» أى تكبروا و تجبروا عن الاجابة لهما، و طلبوا بذلك الكبر، فكل مستكبر من العباد جاهل، لأنه يطلب أن يعظم بما فوق العبد، و هو عبد الله مملوك يلزمه التذلل له و الخضوع، فهى صفة ذم للعبد، و كذلك جبار و متجبر، و هو مدح فى صفات الله تعالى، لان صفته تجل عن صفات المخلوقين، و تعلقو فوق كل صفة.

و قوله «وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ» أى كانوا قاهرين للناس بالبغى و التطاول عليهم و لهذا كانت صفة ذم. و العالى القاهر القادر الذى مقدوره فوق مقدور غيره لعظمه يقال: علا فلان إذا ترفع و طغا و تجاوز، و منه قوله «أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ» «١» و قوله «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» «٢» و قوله «قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى» «٣» أى من علا على صاحبه و قهره بالحجة.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٧ الى ٥٠]

فَقَالُوا أَوْ تَوَمَّنْ يُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ (٥٠)

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٣١

(٢) سورة ٢٨ القصص آية ٤

(٣) سورة ٢٠ طه آية ٦٤

ص: ٣٧٢

أربع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى حكاية عن فرعون و قومه بعد ما أخبر عنهم بالاستكبار، و العلو على موسى و هارون، و ترك اجابتهما انهم «فَقَالُوا أَوْ تَوَمَّنْ يُؤْمِنُ» أى نصدق «لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا» أى إنسانين خلقهم مثل خلقنا، و سمي الإنسان بشراً، لانكشاف بشرته، و هى جلده الظاهرة، حتى احتاج الى لباس يكنه، لأن غيره من الحيوان مغطى بالبشرة بريش أو صوف أو شعر أو وبر أو صدف، لطفاً من الله تعالى لهم إذا لم يكن هناك عقل يدبر أمره مع حاجته الى ما يكنه. و هدى الإنسان الى ما يستغنى به فى هذا الباب. و قوله «وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ» معناه انهم لنا مطيعون طاعة العبد لمولاه. و قال قوم: معناه إنهم يذلون لنا و يخضعون. و قال ابو عبيدة: كل من دان لملك، فهو عابد له، و منه سمي أهل الحيرة العباد، لأنهم كانوا يطيعون ملوك العجم. قال الحسن: كان بنوا إسرائيل يعبدون فرعون و فرعون يعبد الأوثان.

ثم اخبر عنهم انهم كذبوا موسى و هارون، فكان عاقبة تكذيبهما أن اهلكهم الله و غرقهم. و الإهلاك إلقاء الشئ بحيث لا يحس به، فهو لاء هلكوا بالعذاب و يقال للميت: هالك من هذا المعنى.

ثم اقسام تعالى انه آتى موسى الكتاب يعنى التوراة التى فيها ما يحتاجون اليه لكى يهتدوا إلى طريق الحق، من معرفة الله و خلع الأنداد.

و قوله «وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً» معناه جعلناهما حجة، على أنه تعالى قادر على اختراع الأجسام من غير شئ، كما اخترع عيسى من غير أب. و الاية - هاهنا - فى عيسى (ع) أنه ولد من غير فحل، و نطق فى المهد. و فى أمه أنها حملته

ص: ٣٧٣

من غير ذكر و برأها كلامه فى المهد من الفاحشة.

وقوله «وَ أَوْيَانَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ» يقال: آوى إليه يأوى، و آواه غيره يؤويه إيواء أى جعله مأوى له. (و الربوة) المكان المرتفع على ما حوله، و يجوز ضم الراء و فتحها و كسرهما، و بالفتح قرأ عاصم و ابن عامر. الباقون بالضم أيضاً.

و لم يقرأ احد بالجر. و يقال: ربوة بفتح الراء و كسرهما و الف بعد الباء. فصار خمس لغات. و الربوة التى أويأ إليها فى الرملة - فى قول أبى هريرة - و قال سعيد بن المسيب:

هى دمشق، و قال ابن زيد: هى مصر. و قال قتادة هى بيت المقدس. و قال ابو عبيدة:

يقال: فلان فى ربوة من قومه أى فى عز و شرف، و عدد. و قوله «ذات قرار» أى تلك الربوة لها ساحة و سعة أسفل منها. و «ذات معين» أى ماء جار، ظاهر بينهم. و قيل: معنى «ذات قرار» ذات استواء يستقر عليه. و معين ماء جار ظاهر للعيون - فى قول سعيد و الضحاک - و قال قتادة «ذات قرار» ذات ثمار، ذهب إلى انه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها. و معين (مفعول) من عنته أعينه، و يجوز أن يكون (فعللاً) من معن يمعن، و هو الماعون، و هو الشيء القليل - فى قول الزجاج - قال الراعى:

ما عونهم و يبدلوا التنزيلا

قوم على الإسلام لما يمنعوا

قيل معناه وفدهم. و قيل: زكاتهم. و أمعن فى كذا إذا لم يترك منه إلا القليل. و قال الفراء: المعن الاستقامة. قال عبيد بن الأبرص:

أو هضبة دونها لهوب «١»

واهية او معين ممعن

واحدها لهب، و هو شق فى الجبل، واهية أى وهت. و مطر ممعن أى مار.

(١) ديوانه «دار بيروت» ٢٥

ص: ٣٧٤

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥١ الى ٥٦]

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيْ يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَنَبِينٍ (٥٥)

نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)

ست آيات.

قرأ اهل الكوفة و ابن عامر (و إن) بكسر الهمزة، و خفف ابن عامر النون و سكنها. و قرأ الباقر بفتح الهمزة مشددة النون.

قال قوم: هذا خطاب لعيسى (ع) حكاة الله تعالى، قالوا: و ذلك لما جرى ذكره كأنه قال: يا عيسى «كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ» و قال: آخرون: هو خطاب للنبي (ص) خاصة خاطبه بلفظ الجمع، كما يقال للرجل الواحد: أيها القوم كفوا عنا.

و قال قوم: لما ذكر بعض الأنبياء، كأنه قال: و قلنا لهم «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ» و الأكل تناول الطعام بالفم، و مضغه و ابتلاعه. و صورة «كُلُوا» صورة الأمر، و المراد به الاباحة. و أصل «كُلُوا» أوكلوا، فحذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال. و المعنى مفهوم، لأنه من الأكل. و (الطيبات) الحلال، و قيل: هو المستلذ. فعلى الوجه الأول يكون أمراً بنفل، لأن تقديره كلوا من الحلال على الوجه الذى يستحق به الحمد. و على الثانى يكون على الاباحة، كما قال

ص: ٣٧٥

تعالى «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ» «١».

و قوله «وَ اعْمَلُوا صَالِحاً» أمر من الله لهم بأن يعملوا الطاعات، واجباتها و نوافلها. و الصلاح الاستقامة، على ما تدعو اليه الحكمة. و قال قوم: انما هذا حكاية لما قيل لجميع الرسل. و هو الوجه. و قال آخرون: المعنى و قلنا لعيسى «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ» على الجمع على ما ذكرناه من المثال.

و قوله «وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ» موضع (ان) نصب، لان تقديره، و لان (هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) و أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) أى لهذه فاتقون. و قيل: موضعه الجر بالعطف على (بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ). و من كسر الهمزة استأنف الكلام. و معنى الأمة - هاهنا - الملة سماها بذلك للإجماع عليها بأمر الله. و قال الحسن و ابن جريج: معنى (وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) أى دينكم دين واحد. و قيل: جماعتكم جماعة واحدة فى الشريعة التى نصبها الله لكم. و نصب (أُمَّةً وَاحِدَةً) على الحال. و قال الجبائى:

معناه (وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) فى أنهم عبيد الله، و خلقه و تدييره.

و قوله (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً) فالزبر الكتب - فى قول الحسن و قتادة و مجاهد و ابن زيد - و هو جمع زبور، كرسول و رسل. و المعنى تفرقوا كتباً دانوا بها، و كفروا بما سواها، كاليهود دانوا بالتوراة و كفروا بالإنجيل، و القرآن.

و كالتصارى دانوا بالإنجيل و كفروا بالقرآن. و من قرأ (زبراً) بفتح الباء، و هو ابن عامر فمعناها جماعات، لأنه جمع زبرة، و زبر، كبرمة و برم.

و قوله (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) أى كل طائفة بما عندها تفرح لاعتقادها بأن الحق معها. فقال الله تعالى لنبية (فذرهم) يا محمد (فى غمرتهم) أى جهلهم و ضلالتهم. و قيل: فى حيرتهم. و قيل: فى غفلتهم. و المعانى متقاربة (حتى حين)

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٣١

ص: ٣٧٤

أى حين وقت الموت. و قيل: حين العذاب.

ثم قال تعالى منكرأ عليهم (أ يحسبون) أى يظنون هؤلاء الكفار (أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَ بَنِينَ) تمام الكلام أحد شيئين:

أحدهما - أ يحسبون ان الذى نمدهم به من اجل ما لهم و بنيتهم، بل إنما نفعل ذلك لما فيه من المصلحة.

و الثانى - أن يكون فيه حذف، و تقديره أ يحسبون أن الذى نمدهم به من المال و البنين حق لهم أو لكرامتهم عندنا، لا، بل نفعل ذلك لما فيه من المصلحة التى ذكرناها، و يكون قوله (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ) ابتداء كلام، و لا يجوز أن يكون الإنكار وقع لظنهم ان ذلك مسارعة لهم فى الخيرات، لأنه تعالى قد سارع لهم فى الخيرات، بما فعل بهم من الأموال و البنين، لما لهم فى ذلك من اللطف و المصلحة. و الغرض فى ذلك ان يعرفوا الله و يؤدوا حقوقه (بل لا يشعرون) أى و هم لا يشعرون بذلك، و لا يفهمونه لتفريطهم فى ذلك.

و المسارعة تقديم العمل فى أوقاته التى تدعو الحكمة الى وقوعه فيه، و هى سرعة العمل. و مثله المبادرة. و انما بنى على (مفاعلة) لان الفعل كأنه يسابق فعلا آخر.

و الخيرات المنافع التى يعظم شأنها، و تقيضها الشرور. و هى المضار التى يشتد أمرها.

و الشعور العلم الذى يدق معلومه، و فهمه على صاحبه دقة الشعر. و قيل: هو العلم من جهة المشاعر، و هى الحواس، و لهذا لا يوصف الله تعالى به. و قيل: نسارع لهم فى الخيرات أى تقدم لهم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم، و محبتنا إياهم، كلا، ليس الأمر كذلك، بل نفعله ابتلاء فى التعبد لهم.

ص: ٣٧٧

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٧ الى ٦١]

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ) أى خوفاً من عقابه (مشفقون) و الخشية ظن لحوق المصرة. و مثلها المخافة، و نقيضها الأمانة، فالخشية انزعاج النفس بتوهم المصرة، و الظن كذلك يزعج النفس، فيسمى باسمه على طريق البلاغة، و الخشية من الله خشية من عقابه و سخطه على معاصيه، (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) و بحججه من القرآن و غيره يصدقون (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) أى لا يشركون بعبادة الله غيره، من الأصنام و الأوثان، لان خصال الايمان لا تتم إلا بترك الاشراك دون ما يقول أهل الجاهلية إنا نؤمن بالله.

و قوله (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) أى يعطون ما اعطوا، من الزكاة و الصدقة، و ينفقونه فى طاعة الله (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أى خائفة من عقاب الله لتفريط يقع منهم.

قال الحسن: المؤمن جمع إحساناً و شفقة. و قال ابن عمر: ما آتوا من الزكاة (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أى خائفة (أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أى يخافون من رجوعهم الى الله

ص: ٣٧٨

يوم القيامة، و الى مجازاته أى يخافون ذلك، لأنهم لا يأمنون التفريط. ثم أخبر عن جمع هذه الصفات و كملت فيه، فقال (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) أى يبادرون الى الطاعات، و يسارعون اليها: من الايمان بالله و يجتهدون فى السبق اليها رغبة فيها و لعلمهم بما لهم بها من حسن الجزاء. و قوله (وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) قيل فى معناه ثلاثة اقوال:

أحدها- قال ابن عباس انهم: سبقت لهم الساعة.

الثانى - و هم من اجل تلك الخيرات سابقون الى الجنة.

الثالث - و هم الى الخيرات سابقون.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٢ الى ٦٧]

وَلَا تُكَلَّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَاذْكُرْنَا كِتَابًا يُنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجَارُوا الْيَوْمَٰ إِنكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنكصُونَ (٦٦)

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)

ست آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه «لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» يعنى إلا على قدر طاقتها و قوتها، و مثله قوله تعالى «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» «١» و الوسع

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٦

ص: ٣٧٩

الحال التى يتسع بها السبيل الى الفعل. و قيل: إن الوسع دون الطاقة. و التكليف تحميل ما فيه المشقة بالأمر و النهى و الاعلام، و هو مأخوذ من الكلفة فى الفعل، و الله تعالى مكلف عباده تعريضاً لهم للنفع الذى لا يحسن الابتداء بمثله، و هو الثواب.

و فى الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة: فى تكليف ما لا يطاق، لأنه لو كلف ما لا يطيقه العبد لكان قد كلفه ما ليس فى وسعه. و الآية تمنع من ذلك.

و قوله «وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ» يريد الكتاب الذى فيه اعمال العباد مكتوبة من الطاعة و المعصية تكتبه عليه الملائكة الموكلون به كما قال «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» «١» ثم أخبر تعالى «انهم لا يظلمون» أى لا يؤاخذون بما لا يفعلونه و لا ينقصون عما استحقوه.

ثم أخبر تعالى فقال «بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا» أى فى غفلة من هذا اليوم، و هذه المجازاة. و قال الحسن: معناه فى حيرة. و هذا اخبار منه تعالى بما يكون منهم فى المستقبل من الاعمال القبيحة، زائدة على ما ذكره و حكاها أنه فعلهم «وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- قال قتادة و ابو العالية- و فى رواية عن مجاهد- ان لهم خطايا من دون الحق.

و الثانى- قال الحسن و ابن زيد- و فى رواية عن مجاهد- ايضاً: أعمالاً من دون ما هم عليه لا بد من ان يعملوها. و قوله «حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ» فالمتترف المتقلب فى لين العيش و نعمته. و منه قوله «وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» «٢» و (يجأرون) معناه يضجون، لشدة العذاب. و قال ابن عباس:

(١) سورة ٥٠ ق آية ١٨

(٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٣٣

ص: ٣٨٠

يستغيثون. و قال مجاهد: كان ذلك بالسيوف يوم بدر، و الجوار: رفع الصوت، كما يجأر الثور. قال الأعشى:

يرواح من صلوات المليك طوراً سجوداً و طوراً جواراً^١»

و قيل معنى «يجأرون» يصرخون بالتوبة، فيقول الله لهم «لا تجأروا اليوم» أى لا تصرخوا فى هذا اليوم «إنكم منا لا تنصرون» يقبول التوبة، و لا لكم من يدفع عنكم ما أفعله من العذاب. ثم يقول الله تعالى لهم «قد كانت آياتى» أى حججى و براهينى «تتلى عليكم» من القرآن و غيره «فكنتم على أعقابكم تنكصون» فالنكص الرجوع القهقرى و هو المشى على الأعقاب الى خلف، و هو أقبح مشية.

مثل شبه الله به أقبح حال فى الاعراض عن الداعى الى الحق. و قال سيبويه: لأنه يمشى و لا يرى ما وراءه، فهو النكوص. و قال مجاهد: ينكصون معناه يستأخرون.

و قيل: يدبرون. و قوله «مستكبرين» نصب على الحال، و معناه «تنكصون» فى حال تكبركم عن الانقياد لحجج الله، و الاجابة لأنبيائه. و قال ابن عباس و مجاهد و الحسن و قتادة و الضحاک: «مستكبرين به» أى بحرم الله أنه لا يظهر عليكم فيه أحد.

و قوله «سامراً تهجرون» فالسامر الذى يحدث بالسمر ليلاً، و منه السمرة و السمار، لان جميع ذلك من اللون الذى بين السواد و البياض. و قيل: السمر ظل القمر، و يقال له الفخت، و معنى «سامراً» أى سماراً، فوضع الواحد موضع الجمع لأنه فى موضع المصدر، كما يقال قوموا قائماً أى قياماً قال الشاعر:

من دونهم إن جئتهم سمرأ عزف القيان و مجلس غمر^٢»

(١) ديوانه (دار بيروت) ٨٤ و قد مر فى ٢٦٣ / ١

(٢) اللسان (سمر). و تفسير الطبرى ١٨ / ٢٦ و القرطبي ١٢ / ١٣٧

ص: ٣٨١

و كانوا يسمرون حول الكعبة بالليل. و قيل: انما وحد، لأنه فى موضع الوقت و تقديره لثلا تهجرون، و الهجر الكلام المرفوض، و هو المهجور منه، لأنه لا خير فيه. و النائم يهجر فى نومه أى يأتى بكلام مختلط لا فائدة فيه. و فى معنى تهجرون قولان:

أحدهما - تهجرون الحق بالاعراض عنه، فى قول ابن عباس.

الثانى - تقولون الهجر، و هو السىء من القول، فى قول سعيد بن جبیر و مجاهد و ابن زید.

و قرأ نافع وحده «تهجرون» بضم التاء أراد من الهجر، و هو الكلام السىء. الباقيون بفتح التاء و ضم الجيم، على ما فسرناه، يقال: هجر يهجر هجراً إذا هذى.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٨ الى ٧٠]

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٤٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٤٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)

ثلاث آيات بلا خلاف يقول الله تعالى منكرأ على هؤلاء الكفار «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» الذى أتاهم به من القرآن و يتفكروا فيه، فيعلموا انه من قبل الله، لعجز الجميع عن الإتيان بمثله.

و قوله «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ» توبيخ لهم على انكار الدعوة من هذه الجهة، و مع ذلك، فقد جاءت الرسل الأمم قبلهم، متواترة، فهو عيب و خطأ من كل جهة «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ» لكونه غريباً فيهم، فلا يعرفون صدقه، و لا أمانته

ص: ٣٨٢

«فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ» لذلك؟! ثم اخبر تعالى أن النبى (ص) «جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ» من عند الله «و أكثرهم» يعنى أكثر الناس «لِلْحَقِّ» كَارِهُونَ» أى يكرهونه بمجيئه بما ينافى عادتهم.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٧١ الى ٧٥]

وَ لَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خُرْجاً فخرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَ إِنَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ (٧٤) وَ لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو، و نافع، و عاصم «خرجاً» بلا ألف «فخرَجَ» بألف. و قرأ حمزة و الكسائى «خرِجاً فخرَجَ» بالألف فيها. و قرأ ابن عامر «خرِجاً فخرَجَ» بلا ألف فيها.

معنى قوله «وَ لَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ» ان الحق لما كان يدعو الى الافعال الحسنة. و الاهواء تدعوا الى الافعال القبيحة، فلو اتبع الحق داعى الهوى لدعاه الى قبيح الاعمال و الى ما فيه الفساد و الاختلاط، و لو جرى الامر على ذلك «لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ

الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ» ووجه فساد العالم بذلك: انه يوجب بطلان الادلة و امتناع الثقة بالمدلول عليه، و انه لا يؤمن وقوع الظلم، الذى لا ينصف منه، و تختلط

ص: ٣٨٣

الأمر أقيح الاختلاط و لا يوثق بوعده، و لا وعيده، و لا يؤمن انقلاب عدل الحكيم. و هذا معنى عجيب. و قال قوم من المفسرين: إن الحق - فى الآية - هو الله و التقدير: و لو اتبع الحق أعنى الله أهواء هؤلاء الكفار، و فعل ما يريدونه لفسدت السموات و الأرض. و قال الجبائى: المعنى لو اتبع الحق - الذى هو التوحيد - أهواءهم فى الاشرار معه معبوداً سواه، لوجب ان يكون ذلك المعبود مثالا له و لصح بينهما الممانعة، فيؤدى ذلك الى الفساد، كما قال تعالى «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» «١».

و الهوى ميل النفس الى المشتبهى من غير داعى الحق، كما قال تعالى «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» «٢»، فلا يجوز لاحد أن يفعل شيئاً لأنه يهواه. و لكن يفعله لأنه صواب، على انه يهواه أو لأنه يهواه مع أنه صواب حسن جائز. و قال ابو صالح و ابن جريج: الحق هو الله، و قال الجبائى معنى «وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ» فيما يعتقدون من الآلهة «لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ» كقوله «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا».

و قوله «بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ»، قال ابن عباس:

معنى الذكر البيان للحق. و قال غيره: الذكر الشرف. كقوله «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ» «٣» و كل ذلك يراد به القرآن.

ثم قال «أَمْ تَسْأَلُهُمْ» يا محمد «خرجاً» أى اجراً على العمل - فى قول الحسن - و أصل الخرج و الخراج واحد، و هو الغلة التى تخرج على سبيل الوظيفة منه.

و منه خراج الأرض، و هما مصدران لا يجمعان. ثم قال «فَخَرَجُ رَبِّكَ» أى أجر ربك «خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» يعنى الله خير من يرزق. و فى ذلك دلالة على أن

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٢٢

(٢) سورة ٧٩ النازعات آية ٤١

(٣) سورة ٤٣ الزخرف آية ٤٤

ص: ٣٨٤

غير الله قد يرزق باذنه، و لولا ذلك لم يجز (خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

ثم قال لنبيه محمد (ص) (و انك) يا محمد (لتدعوهم) أى هؤلاء الكفار (إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ) من التوحيد، و اخلاص العبادة، و العمل بالشرعية (وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) يعنى من لا يصدقون بالبعث يوم القيامة (عن الصراط) صراط الحق (لناكبون) أى عادلون عن دين الحق. و قال الجبائى: معناه لناكبون فى الآخرة عن طريق الجنة، بأخذهم يمناة و يسرة إلى النار.

ثم قال تعالى (وَ لَوْ رَحِمْنَاهُمْ) فى الآخرة و رددناهم الى دار الدنيا، و كلفناهم فيها (لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) كما قال (وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) «١» و قال ابن جريج يريد فى الدنيا أى (لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ) و جوع و نحوه (لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ) أى فى غوايتهم (يعمهون) أى يترددون.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٦ الى ٨٠]

وَ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)

خمس آيات.

يقول الله تعالى انا أخذنا هؤلاء الكفار الذين ذكرناهم بالعذاب. و قيل:

(١) سورة الانعام آية ٢٨

ص: ٣٨٥

هو الجذب و ضيق الرزق، و القتل بالسيف (فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ) أى لم يذلوا عند هذه الشدائد، و لم يتضرعوا اليه، فيطلبوا كشف البلاء منه تعالى عنهم بالاستكانة له، و الاستكانة طلب السكون خوفاً من السطوة. يقال: استكان الرجل استكانة إذا ذل عند الشدة.

و قوله (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) فالفتح فرج الباب بطريق يمكن السلوك فيه، فكأنه فتح عليهم باباً أتاها منه العذاب.

و قيل: ان ذلك حين

دعا النبي (ص) فقال: (اللهم سنين كسنى يوسف)

فجاعوا حتى أكلوا العلهز و هو الوبر بالدم فى قول مجاهد.

و قال ابن عباس: هو القتل يوم بدر. و قال الجبائى فتحنا عليهم باباً من عذاب جهنم فى الآخرة.

و الإبلان الحيرة للباس من الرحمة، يقال: أبلس فلان إبلاناً إذا بهت عند انقطاع الحجّة.

و قوله (وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ) أى أوجدكم، و اخترعكم من غير سبب «وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ» أى و خلق لكم السمع تسمعون به الأصوات و الأبصار تبصرون بها المرئيات و خلق لكم (الافتدة) و هو جمع فؤاد، و هو القلب (قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) نصب (قليلًا) على المصدر و (ما) صلة، و تقديره تشكرون قليلاً لهذه النعم التى أنعم بها عليكم.

ثم قال (وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ) أى خلقكم و أوجدكم (فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم إما الثواب أو العقاب. و المراد إلى الموضع الذى يختص تعالى بالتصرف فيه، و لا يبقى لآحد هناك ملك. و قال الفراء:

و هو الذى خلق السماوات و الأرض أى اخترعهما، و انشأهما، و قدرهما على ما فيهما

ص: ٣٨٦

من انواع المخلوقات، ليدل بها على توحيدده و ألا إله سواه «وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ» أى له مرورهما يوماً بعد ليلة. و ليلة بعد يوم، كما يقال إذا اتى الرجل الدار مرة بعد مرة: هو يختلف الى هذه الدار. و قيل: معناه و له تدبيرهما بالزيادة و النقصان.

ثم قال (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فتفكرون فى جميع ذلك، فتعلمون انه لا يستحق الالهية سواه، و لا تحسن العبادة إلا له.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨١ الى ٩٠]

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ
إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥)

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ
يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)

عشر آيات بلا خلاف.

قرأ ابو عمرو «سيقولون الله» فى الأخيرتين. الباقيون «لله» بغير الف،

ص: ٣٨٧

و لا خلاف فى الاولى أنها بغير الف.

اخبر الله تعالى حاكياً عن الكفار ممن عاصر النبي (ص) أنهم لم يؤمنوا بالله و لم يصدقوا رسوله فى اخلاص العبادة له تعالى «بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ» أى مثل الذى قاله الكفار الأولون: من انكار البعث و النشور و الحساب و الجنة و النار، فأقوال هؤلاء مثل أقوال أولئك. و انما دخلت عليهم الشبهة فى انكار البعث، لأنهم لم يشاهدوا ميتاً عاش، و لا جرت به العادة. و شاهدوا النشأة الأولى من ميلاد من لم يكن موجوداً. و لو فكروا فى أن النشأة الأولى أعظم منه لعلموا أن من أنكره فقد جهل جهلاً عظيماً، و ذهب عن الصواب ذهاباً بعيداً، لان من قدر على اختراع الأجسام لا من شىء، قدر على إعادتها إلى الصفة التى كانت عليها، مع وجودها.

ثم حكى ما قال كل منهم، فإنهم قالوا منكرين «أ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ» أى كيف نصير أحياء بعد أن صرنا تراباً و رمماً و عظماً نخرة؟! ثم قالوا «لَقَدْ وَعِدْنَا» بهذا الوعد «نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا» من قبل هذا الوعد، فلم نر لذلك صحة، و لا لهذا الوعد صدقاً، و ليس «هذا إلبا أساطير الأولين» أى ما سطره الأولون مما لا حقيقة له، و انما يجرى مجرى حديث السمر الذى يكتب للاطراف به. و الأساطير هى الأحاديث المسطرة فى الكتب، واحداها أسطورة.

فقال الله تعالى لنبيه (ص) «قل» يا محمد لهؤلاء المنكرين للبعث و النشور «لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا» أى من يملك الأرض و يملك من فيها من العقلاء [و قوله «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» موافقة لهم فى دعواهم. ثم قال فى الجواب «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ» أى سيقولون إن السموات و الأرض و من فيهما لله، لأنهم لم يكونوا يجحدون الله.

و انما كذبوا الرسول. و قوله «قُلْ أ فلا تذكرون» أى أ فلا تتفكرون فى مالكمها.

و تذكرون قدرته و انه لا يعجزه شىء عن إعادتكم بعد الموت، مرة ثانية كما انشأكم

ص: ٣٨٨

أول مرة [١] «ثم قال له «قل» يا محمد لهم ايضاً «مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ» أى من مالكمها و المتصرف فيها؟ و لولاه لبطل كل شىء سواه، لأنه لا يصح إلا مقدوره او مقدور مقدوره، فقوام كل ذلك به، و لا تستغنى عنه طرفة عين لأنها ترجع الى تدبيره على ما يشاء (عز و جل) و كذلك هو تعالى «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» و انما وجب أن يكون رب السماوات و العرش، من حيث كانت هذه الأشياء جميعها محدثة، لا بد لها من محدث اختراعها و انشأها، و لا بد لها من مدبر يدبرها و يمسكها، و يصرفها على ما تتصرف عليه، و لا بد أن يختص بصفات: من كونه قادراً عالماً لنفسه ليتأتى منه جميع ذلك، على ما دبره. و لولا كونه على هذه الصفات، لما صح ذلك.

ثم اخبر أنهم يقولون فى الجواب عن ذلك رب السماوات و رب العرش هو «الله» و من قرأ بلا ألف فمعناه أنهم يقولون إنها «لله» فعند ذلك «قل» لهم «أ فلا تتقون» الله، و لا تخافون عقابه على جحد توحيده و الاشرار فى عبادته؟! ثم أمره بان يقول لهم ايضاً «مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» و الملكوت عظم الملك و وزنه (فعلوت) و هو من صفات المبالغة نحو (جبروت) و من كلامهم (رهوت خير من رحمت) أى ترهب خير من ان ترحم. و قال مجاهد: ملكوت كل شىء خزائن كل شىء، و المعنى أنه قادر على كل شىء إذا صح أن يكون مقدوراً له.

و قوله «وَ هُوَ يُجِيرُ» معناه أنه يعيد بالمنع من السوء، لما يشاء «وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ» أى لا يمكن منع من أرادته بسوء منه. و قيل «هُوَ يُجِيرُ» من العذاب «وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ» منه. و الاجارة الاعادة، و الجار المجير المعيد: و هو الذى يمنعك و يؤمنك و من استجار بالله أعاده، و من أعاده الله لم يصل اليه احد. فإنهم «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ» الذى له

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

ص: ٣٨٩

ملكوت كل شىء و هو يجير و لا يجار عليه. فقل لهم عند ذلك «فَأَنى تُسْحَرُونَ» و معناه كيف يخيل إليكم الحق باطلا، و الصحيح فاسداً، مع وضوح الحق و تمييزه عن الباطل. و من قرأ (الله) بإثبات الالف، فلانه يطابق السؤال فى قوله (من رب السموات السبع و رب الأرض ... و من بيده ملكوت كل شىء) لان جواب ذلك على اللفظ أن يقولوا (الله). و من قرأ «لله» بإسقاط الالف، حمله على المعنى دون اللفظ، كقول القائل لمملوك: من مولاك؟ فيقول انا لفلان، و انشد الفراء لبعض بنى عامر:

إذا سار النواعج لا يسير

و اعلم اننى سأكون رسماً

فقال المخبرون لهم وزير «١»

فقال السائلون لمن حفرتم

لأنه بمنزلة من قال: من الميت؟ فقالوا له: وزير، و ذكر أنها فى مصاحف أهل الأمصار بغير الف، و مصحف أهل البصرة فإنها بالف. «٢» فأما الاولى فلا خلاف أنها بلا ألف لمطابقة السؤال فى قوله (قل لمن الأرض) و الجواب يقتضى أن يقولوا: لله. و إنما أخبر الله تعالى عنهم، بأنهم يقولون فى جواب السؤال: لله، لأنهم لو أحالوا على غير الله فى انه مالك السموات و الأرض، و أن غيره بيده ملكوت كل شىء و أن غيره رب السموات السبع، و رب العرش العظيم، لظهر كذبهم. و لعلم كل احد بطلان قولهم، لظهور الأمر فى ذلك. و قربه من دلائل العقول.

و قوله (فَأَنى تُسْحَرُونَ) أى كيف تعمهون عن هذا، و تصدون عنه، من قولهم: سحرت أعيننا عن ذلك، فلم نبصره. و قيل معنى ذلك: فأنى تخدعون، كقول امرئ القيس:

(١) تفسير الطبرى ٣٢ / ١٨

(٢) و فى المخطوطة (فى مصاحف اهل الشام بغير الف و فى مصاحف اهل الأمصار بالألف)

ص: ٣٩٠

و نسحر بالطعام و بالشراب»١

أى نخدع. و قيل معناه أنى تصرفون، يقال: ما سحرك عن هذا الامر أى ما صرفك عنه. ثم أخبر تعالى أنه أتى هؤلاء الكفار بالحق الواضح: من توحيد الله و صفاته و خلع الأنداد دونه و أنه يبعث الخلق بعد موتهم، و يجازيهم على طاعاتهم بالثواب، و على معاصيهم بالعقاب، و ان الكفار كاذبون فيما يخبرون بخلافه. قال المبرد: معنى (أنى) كيف، و من أين.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩١ الى ٩٥]

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١)
عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئُنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَ
إِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ (عالم الغيب) بالجر ابن كثير و أبو عمرو، و ابن عامر و حفص عن عاصم. الباقيون بالرفع. من جر رده على قوله (سبحان الله ... عالم الغيب) فجعله صفة لله.

و من رفعه، فعلى تقدير هو (عالم الغيب).

يقول الله تعالى مخبراً أنه لم يتخذ ولداً أى لم يجعل ولد غيره ولد نفسه، لاستحالة ذلك عليه، لأنه محال أن يكون له ولد، فلا يجوز التشبيه بما هو مستحيل ممتنع

(١) مر تخريجه فى ١ / ٣٧٢ و ٥ / ٢٤٨ و ٦ / ٤٨٥

ص: ٣٩١

إلا على النفي و التبعية. و اتخاذ الولد: أن يجعل الجاعل ولد غيره يقوم مقام ولده لو كان له. و كذلك التبنى إنما هو جعل الجاعل ابن غيره يقوم مقام ابنه الذى يصح أن يكون ولداً له. و لذلك لا يقال: تبنى شاب شيخاً، و لا تبنى الإنسان بهيمة، لما استحال ان يكون ذلك ولداً له. و لا يجوز أن يقال: اتخذته ولداً، إذا اختصه بضرب من المحبة، لأن فى ذلك إخراج الشيء عن حقيقته كما أن تسمية ما ليس بطويل عريض عميق جسماً إخراج له من حقيقته.

ثم اخبر انه كما لم يتخذ ولداً، لم يكن معه إله. و هذا جواب لمحذوف، و تقديره: لو كان معه إله آخر «إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ» و فيه إلزام لمن يعبد الأصنام. و قوله «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» «١» دليل عام فى نفي مساو للتقديم فيما يقدر عليه من جميع الأجناس و المعانى. و معنى «إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ» أى لا نفرده به و لحوله من خلق غيره، لأنه لا يرضى أن يضاف خلقه و انعامه الى غيره.

فان قيل: لم لا يكون كل واحد منهم حكيماً، فلا يستعلى على حكيم غيره؟

قلنا: لأنه إذا كان جسماً و كل جسم محتاج، جاز منه أن يستعلى لحاجته، بل لا بد من أن يقع ذلك منه، لأنه ليس له مدبر يلفظ له حتى يمتنع من التبعيض الذى يحتاج اليه، كما يلفظ الله لملائكته و أنبيائه بما فى معلومه انهم يصلحون به.

ثم نزه نفسه تعالى عن اتخاذ الولد و أن يكون معه إله غيره، فقال «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ» من الاشراك معه، و اتخاذ الولد له.

و قوله «عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» فلذلك يأتى بالحق، و هم يأتون بالجهل. و يحتمل ان يكون معناه إن عالم الغيب و الشهادة لا يكون له شريك، لأنه أعلى من كل شيء

(١) سورة ٢١ أنبياء آية ٢٢

ص: ٣٩٢

فى صفته. قال الحسن: هو ردّ لقول المشركين: الملائكة بنات الله. و قال الجبائى:

فى الآية دلالة على انه يجوز ان يدعو الإنسان بما يعلم انه يكون لا محالة و أن الله لا بد أن يفعل.

ثم قال تعالى (فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) أى تعظم الله عن ان يشرك هؤلاء الكفار معه من الأصنام و الأوثان. ثم قال لنبيه (ص) (قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرَبِّئِي مَا يُوعَدُونَ) و معناه إن أريتنى ما وعد هؤلاء الكفار به من العذاب و الإهلاك. فقل يا (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى لا تجعلنى فى جملة من يشملهم العذاب بظلمهم، و تقديره: إن أنزلت بهم العقوبة، فاجعلنى خارجاً منهم. فقال الله تعالى (وَ إِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ) معناه إن ما وعدتهم به من العذاب و الإهلاك على كفرهم قادر عليه، لكنى لا أفعله و أخره الى يوم القيامة لما فى تأخيرها من المصلحة.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٦ الى ١٠٠]

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

خمس آيات بلا خلاف.

امر الله تعالى نبيه (ص) أن يدفع السيئة من إساءة الكفار اليه بالتي هي أحسن

ص: ٣٩٣

منها. و معنى ذلك انهم إذا ذكروا المنكر من القول- الشرك- ذكرت الحججة فى مقابلته و ذكرت الموعدة التى تصرف عنه الى ضده من الحق، على وجه التلطف فى الدعاء اليه، و الحث عليه، كقول القائل: هذا لا يجوز، و هذا خطأ، و عدول عن الحسن.

و أحسن منه أن يوصل بذكر الحججة و الموعدة كما بينا. و قال الحسن: «بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» الاغضاء و الصفع. و قيل: هو خطاب للنبي (ص) و المراد به الأمة، و المعنى ادفع الأفعال السيئة بالأفعال الحسنة التى ذكرها.

و قوله «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ» معناه نحن اعلم منهم بما يستحقون به من الجزاء فى الوقت الذى يصلح الأخذ بالعقوبة إذا انقضى الأجل المضروب بالامهال. ثم قال له «قل» يا محمد، و ادع فقل يا «رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» أى نزعاتهم و وساوسهم، فمعنى (أعوذ) اعتصم بالله من شر الشياطين، فى كل ما يخاف من شره. و المعادة هى التى يستدفع بها الشر، و الهمزات دفعهم بالإغواء الى المعاصى، و الهمز شدة الدفع. و منه الهمزة: الحرف الذى يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد.

و العباد طلب الاعتصام من الشر «وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ» هؤلاء الشياطين فيوسوسون لى و يغوونى عن الحق.

و قوله «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ» اخبار من الله تعالى عن أحوال هؤلاء الكفار، و انه إذا حضر أحدهم الموت، و اشرف عليه سأل الله عند ذلك و «قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ» أى ردى الى دار التكليف «لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا» من الطاعات و أتلافى ما تركته. و انما قال «رَبِّ ارْجِعُونِ» على لفظ الجمع لأحد أمرين:

أحدهما- انهم استعانوا أولاً بالله، ثم رجعوا الى مسألة الملائكة بالرجوع الى

ص: ٣٩٤

الله- فى رواية ابن جريج.

و الثاني - انه جرى على تعظيم الذكر فى خطاب الواحد بلفظ الجمع لعظم القدر كما يقول ذلك المتكلم، قال الله تعالى «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» «١» و قال «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» «٢» و ما جرى مجراه. و روى النضر بن سمال قال: سئل الخليل عن قوله «رَبِّ ارْجِعُونِ» ففكر ثم قال: سألتموني عن شيء لا أحسنه و لا أعرف معناه، و الله أعلم، لأنه جمع، فاستحسن الناس منه ذلك.

فقال الله تعالى فى الجواب عن سؤالهم «كلا» و هى كلمة ردع و زجر أى حقاً «إِنَّهَا كَلِمَةٌ» فالكناية عن الكلمة و التقدير: ان الكلمة التى قالوها «كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» بلسانه. و ليس لها حقيقة، كما قال «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» «٣» و قوله «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» فالبرزخ الحاجز - و هاهنا - هو الحاجز بين الموت و البعث - فى قول ابن زيد - و قال مجاهد: هو الحاجز بين الموت و الرجوع الى الدنيا.

و قال الضحاك: هو الحاجز بين الدنيا و الآخرة. و قيل البرزخ الامهال. و قيل: كل فصل بين شيئين برزخ.

و فى الآية دلالة على أن احداً لا يموت حتى يعرف اضطراراً منزلته عند الله و انه من أهل الثواب أو العقاب - فى قول الجبائى وغيره - و فيها دلالة أيضاً على انهم فى حال التكليف يقدرون على الطاعة بخلاف ما تقول المجبرة.

و معنى «وَمِنْ وَرَائِهِمْ» أى أمامهم و قدامهم، قال الشاعر:

أ يرجو بنو مروان سمعى و طاعتى
و قومى تميم و الفلاة و رائيا

و معنى «يبعثون» يوم يحشرون للحساب و المجازاة، و أضيف الى الفعل لان ظرف الزمان يضاف الى الافعال.

(١، ٢) سورة الحجر آية ٩، ٢٦

(٣) سورة الانعام آية ٢٨

ص: ٣٩٥

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠١ الى ١٠٥]

فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قوله تعالى «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ» ليوم الحشر و الجزء و معنى نفخ الصور:

هو علامة لوقت إعادة الخلق. و فى تصورهم الاخبار عن تلك الحال صلاح لهم فى الدنيا، لأنهم على ما اعتادوه فى الدنيا من بوق الرحيل و القدوم. و قال الحسن:

الصور جمع صورة أى إذا نفخ فيها الأرواح و أعيدت احياء. و قال قوم: هو قرن ينفخ فيه إسرافيل بالصوت العظيم الهائل، على ما وصفه الله. و قوله «فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ» اخبار منه تعالى عن هول ذلك اليوم، فإنهم لا يتواصلون هناك بالأنساب، و لا يحنون اليها، لشغل كل انسان بنفسه. و قيل معناه: أنهم لا يتناسبون فى ذلك اليوم، ليعرف بعضهم بعضاً من أجل شغله بنفسه عن غيره.

و قال الحسن: معناه لا أنساب بينهم يتعاطفون بها، و إن كانت المعرفة بأنسابهم حاصلة بدلالة قوله «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ» «١» فثبت أنهم يعرفون أقاربهم و إن هربهم منهم لاشتغالهم بنفوسهم، و النسب هو إضافة الى

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٣٤ - ٣٦

ص: ٣٩٦

قراءة فى الولادة.

و قوله «وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ» معناه لا يسأل بعضهم بعضاً عن خبره و حاله، كما كانوا فى الدنيا، لشغل كل واحد منهم بنفسه. و قيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه من ذنوبه شيئاً. و لا يناقض ذلك قوله «وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ» «١» لان هناك مواطن، فمنها ما يشغلهم من عظيم الأمر الذى ورد عليهم عن المسائلة، و منها حال يفيقون فيها فيتساءلون. و قال ابن عباس: قوله «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ» يعنى النفخة الاولى التى يهلك عندها الخلق، فلا احد يبقى، و لا نسب هناك و لا تساؤل.

و قوله «وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ» فذلك عند دخولهم الجنة، فانه يسأل بعضهم بعضاً، و هو قول السدى.

و قوله «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» اخبار منه تعالى أن من عظمت طاعاته و سلمت من الإحباط - فى قول من يقول بذلك - و من لا يقول بالإحباط فمعناه عندهم: إن من كثرت طاعاته، و هو غير مستحق للعقاب، فان أولئك هم المفلحون الفائزون.

«وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ» بأن يكون أحبطت طاعاته، لكثرة معاصيه. و من لا يقول بالإحباط، قال: معناه من لم يكن معه شىء من الطاعات و إنما معهم المعاصى، لان الميزان إذا لم يكن فيه شىء يوصف بالخفة، كما يوصف بالخفة إذا كان فيه شىء يسير فى

مقابلته ما هو أضعافه، فان من هذه صورته (فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) لأنهم أهلكوا بالمعاصي التي استحقوا بها العقاب الدائم، و هم (في جهنم) مؤبدون (خالدون).

وقال الحسن و الجبائي و غيرهما: هناك ميزان له كفتان و لسان. و اختلفوا:

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٧

ص: ٣٩٧

فمنهم من قال: يوزن بها صحف الأعمال. و قال بعضهم: يظهر في احدى الكفتين النور، و في الأخرى الظلمة، فأيهما رجح تبينت الملائكة المستحق للثواب من المستحق للعقاب. و قال قتادة و البلخي: الميزان عبارة عن معادلة الاعمال بالحق. و بيان أنه ليس هناك مجازفة و لا تفريط.

ثم اخبر تعالى بأن النار التي يجعلون فيها (تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ) و انهم فيها (كالحون) يقال: لفتح و نفح بمعنى واحد، غير أن اللفح أعظم من النفح. و أشد تأثيراً، و هو ضرب من السموم للوجه، و النفخ ضرب الريح للوجه، و الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان، قال الأعشى:

ساعة الشدق عن الناب كلح «١»

و له المقدم لا مثل له

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠٦ الى ١١٠]

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونَ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً (شقاوتنا) بإثبات الألف. الباقر (شقاوتنا).

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٠ و روايته «في الحرب» بدل «لا مثل له»

و قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً و نافع (سخرياً) بضم السين. الباقر بكسرهما.

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار انهم يعترفون على نفوسهم بالخطي، و يقولون (رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا) و الشقوة المضرة اللاحقة في العاقبة. و السعادة المنفعة اللاحقة في العاقبة، و قد يقال لمن جعل في الدنيا على مضرة فادحة: شقى، من حيث أنه يؤدي الى أمر شديدة، فالمعاصي شقوة، تؤدي الى العقاب الدائم. و يجوز أن يكون المراد بالشقوة العذاب الذي يفعل الله بهم و يغلب عليهم.

و قوله «وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ» اعتراف منهم على نفوسهم أنهم ضلوا عن الحق في الدنيا و زمان التكليف، و يسألون الله تعالى فيقولون «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا» أى من هذه النار «فَإِنْ عُدْنَا فَنَا ظَالِمُونَ» و لا يجوز أن يكونوا لو أخرجوا الى دار التكليف لما عادوا، لان الشهوة العاجلة و الاغترار بالامهال بعود اليهم فلا يكونون ملجئين.

و قد قال الله تعالى «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» ^١. و قال الحسن: هو آخر كلام يتكلمون به أهل النار، فيقول الله تعالى لهم في جوابهم «أخْسُوا فِيهَا» يعنى فى النار «وَلَا تُكَلِّمُونِ» أى ابعدوا، بعد الكلب. و إذا قيل للكلب اخساً، فهو زجر بمعنى ابعد بعد غيرك من الكلاب، و إذا خوطب به انسان، فهو إهانة له، و لا يكون ذلك إلا عقوبة، و خسأت فلاناً أخسأه خساً، فهو خاسئ إذا أبعده بمكروه، و منه قوله «كُونُوا قَرَدَةً خَاسِئِينَ» ^٢ و قوله «وَلَا تُكَلِّمُونِ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- ان ذلك على وجه الغضب اللازم لهم، فذكر ذلك ليدل على هذا المعنى، لان من لا يكلم اهانة له و غضباً، فقد بلغ به الغاية فى الاذلال.

و الثانى- و لا تكلمون فى رفع العذاب عنكم، فانى لا أرفعه عنكم، و لا افتره

(١) سورة الانعام آية ٢٨

(٢) سورة البقرة آية ٦٥

و هو على صيغة النهى، و ليس بنهى.

ثم يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار على وجه التهجين لهم و التوبيخ (انه كان فريق من عبادى) يعنى المؤمنين فى دار الدنيا (يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) أى يدعون بهذه الدعوات، عبادة لله، و طلباً لما عنده من الثواب

(فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ) أنتم يا معشر الكفار (سخرى) اى كنتم تستهزؤون بهم و تسخرون منهم. و قيل (السخرى) بضم السين من التسخير و (السخرى) بكسر السين من الهمزة. و قيل: هما لغتان. و قوله (حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي) معناه لتشاغلكم بالسخرية نسيتم ذكرى (وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ) فلذلك نسب اليهم انهم انسوهم ذكر الله، لما كان بسببهم، و الاشغال باغوائهم نسوا ذكر الله.

قوله تعالى: [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١١١ الى ١١٨]

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسُئِلَ الْعَادِيْنَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)

فَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

ص: ٤٠٠

ثمان آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة و الكسائي و خارجة عن نافع «انهم هم الفائزون» بكسر الهمزة.

الباقون بفتحها. و قرأ ابن كثير «قل كم لبئتم» على الامر. الباقون «قال كم لبئتم» على الخبر. و قرأ حمزة و الكسائي «قل» فيهما على الأمر. الباقون «قال» فيهما على الخبر. و قرأ «ترجعون» بفتح التاء و كسر الجيم حمزة و الكسائي. الباقون بضم التاء و فتح الجيم.

اخبر الله تعالى «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ» يعنى المؤمنين الذين سخر منهم الكفار فى دار التكليف، و أكافهم على صبرهم و مضهم فى جنب الله، على أقوال الكفار و هزؤهم بهم ب «أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ» و حذف الباء، و نصب الهمزة، و قيل: إنها فى موضع جر، و تقديره جزيتهم بفوزهم بالجنة. و قيل تقديره: لأنهم هم الفائزون.

و من خفض الهمزة فاستأنف، فالجزاء مقابلة العمل بما يستحق عليه من ثواب أو عقاب كما يقال: الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخييراً، و إن شراً فشرأ. و الصبر حبس النفس عما تنازع اليه مما لا يحسن، أو ليس بأولى، لان الصبر طاعة الله لما وعد عليه من الجزاء، و الطاعة قد تكون فرضاً و قد تكون نفلاً.

و قوله «اليوم» يريد به أيام الجزاء لا يوماً بعينه، لأن اليوم هو ما بين طلوع الفجر الثانى الى غروب الشمس، و ليس المراد فى الآية ذلك.

قوله «قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ»، فمن قرأ «قال» فمعناه قال الله لهم كم لبئتم. و من قرأ «قل» معناه قل لهم يا محمد، و اللبث هو المكث و هو حصول الشيء على الحال اكثر من وقت واحد، و اللابث هو الكائن على الصفة، على مرور الأوقات. و العدد عقد يظهر به مقدار المعدود، يقال: عدده عدداً و عدداً.

ص: ٤٠١

فهو عاد. و الحساب هو إخراج المقدار فى الكمية و هى العدة، و هذا السؤال لهم على وجه التوبيخ لانكارهم البعث و النشور، فيقول الله لهم إذا بعثهم (كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) اى اين ما كنتم تنكرون من أجابت الرسل و ما جاءت به و تكذبون به.

و قوله (قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) فسأل العادين قال مجاهد: معناه فسأل العادين من الملائكة لأنهم يحصون أعمال العباد. و قال قتادة: العادين هم الحساب الذين يعدون الشهور و السنين، و لا يدل ذلك على بطلان عذاب القبر، لأنهم لم يكون و يعذبون كاملى العقول، و قد صح عذاب القبر بتضافر الاخبار عن النبى (ص) و اجماع الامة عليه - ذكره الرمانى - و لا يحتاج الى هذا، لأنه لا يجوز أن يعاقب الله العصاة إلا و هم كاملوا العقول ليعلموا أن ذلك و اصل إليهم على وجه الاستحقاق.

و وجه اخبارهم بيوم او بعض يوم، هو الاخبار عن قصر المدة، و قلته، لما مضى لسرعة حصولهم فى ما توعدهم الله تعالى، فيقول الله تعالى فى الجواب (إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) اى لم تلبثوا إلا قليلا، و المراد ما قلناه من قصر المدة كما قال (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) «١» و كما قال (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) «٢» و كما قال (وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) «٣» و قال الحسن: معناه (إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) فى طول لبئكم فى النار، و القلة و الكثرة يتغيران بالاضافة، فقد يكون الشيء قليلا بالاضافة الى ما هو أكثر منه، و يكون كثيراً بالاضافة الى ما هو أقل منه (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) صحة ما أخبرناكم به.

ثم قال لهم (أ فحسبتم) معاشر الجاحدين للبعث و النشور (أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْنًا) لا لغرض؟! اى ظننتم، و الحسبان و الظن واحد، اى ظننتم انا خلقناكم لا لغرض،

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ١

(٢) سورة ٥٤ القمر آية ١

(٣) سورة ١٦ النحل آية ٧٧

ص: ٤٠٢

و حسبتهم (أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) اى الى الحال التى لا يملك نفعمكم و ضرکم فيها إلا الله، كما كنتم فى ابتداء خلقكم قبل أن يملك أحداً شيئاً من أمركم. ثم نزه تعالى نفسه عن كل دنس، و أخبر أنه (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) و معناه: علا معنى صفته،

فوق كل صفة لغيره، فهو تعظيم لله تعالى بأن كل شيء سواه يصغر مقداره عن معنى صفته. (و الملك الحق) هو الذى يحق له الملك، بأنه ملك غير مملك، و كل ملك غيره، فملكه مستعار له، و انما يملك ما ملكه الله، فكأنه لا يعتد بملكه فى ملك ربه، و الحق هو الشيء الذى من اعتقده كان على ما اعتقده، فالله الحق، لأنه من اعتقد انه لا إله إلا هو، فقد اعتقد الشيء على ما هو به. و قوله (رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) أى خالقه، و وصفه العرش بأنه كريم تعظيم له بإتيان الخير من جهته، بما دبره الله لعباده، و الكريم فى أصل اللغة القادر على التكرم من غير مانع.

ثم قال «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ» و معناه إن من دعا مع الله إلهاً سواه لا يكون له على ذلك برهان و لا حجة، لأنه باطل، و لو دعا الله ببرهان لكان محقاً، و أجرى على ذلك قوله «وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ» (١) و قول الشاعر:

على لا حب لا يهتدى بمناره «٢»

و قوله «فَأِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» يعنى الله الذى يبين له مقدار ما يستحقه من ثواب او عقاب. ثم اخبر تعالى بأنه «لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» يعنى الجاحدين لنعم الله، و المنكرين لتوحيده، و الدافعين للبعث و النشور. ثم امر نبيه (ص) فقال له «قل» يا محمد «رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ» أى اغفر الذنوب، و أنعم على خلقك.

«وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» معناه أفضل من رحم و أنعم على غيره، و أكثرهم نعمة و أوسعهم فضلاً.

(١) سورة آل عمران آية ٢١

(٢) انظر ٢ / ٣٥٦، ٤٢٣ و ٦ / ٢١٣

ص: ٤٠٣

-

٢٤- سورة النور

مدنية بلا خلاف، و هى أربع و ستون آية فى البصرى و الكوفى و اثنتان فى المدنيين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة النور (٢٤): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)

آية واحد بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو (و فرضناها) بتشديد الراء. الباكون بتخفيفها.

و فسر ابو عمرو قراءته بمعنى فصلناها «١» و بينها بفرائض مختلفة، و التقدير هذه (سورة) لان النكرة لا يبتدأ بها. و قال غيره: معنى التشديد حددنا فيها الحلال و الحرام. و قال قتادة: معنى التشديد: قد بينها. و قيل: معنى التشديد: جعلناها عليكم و على من بعدكم الى قيام الساعة.

و من خفف أراد من الفريضة أى فرض فيها الحلال و الحرام، و الفرض مأخوذ من فرض القوس و هو الحز الذى فيه الوتر، و الفرض ايضاً نزول القرآن قال

(١) و فى بعض النسخ الخطية (فمعى قراءة أبى عمرو: و فصلناها)

ص: ٤٠٤

اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) «١» أى انزل. و ارتفع (سورة) على تقدير هذه (سورة) إلا انه حذف على تقدير التوقع لما ينزل من القرآن. و السورة المنزلة الشريفة قال الشاعر:

ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب «٢»

فسميت السورة من القرآن بذلك لهذه العلة. و الفرض هو التقدير- فى اللغة- و فصل بينه و بين الواجب، بأن الفرض واجب بجعل جاعل، فرضه على صاحبه، كما انه أوجبه عليه، و الواجب قد يكون واجباً من غير جعل جاعل، كوجوب شكر المنعم، فجرى مجرى دلالة الفعل على الفاعل فى انه يدل من غير جعل جاعل كما تجعل العلامة الوضعية، إلا أن الله تعالى لا يوجب على العبد الا ما له صفة الوجوب فى نفسه، كما لا يرغب الا فى ما هو مرغوب فى نفسه.

و قوله (أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فمعى (الآيات) الدلالات على ما يحتاج إلى علمه مما قد بينه الله فى هذه السورة، و نبه على ذلك من شأنها لينظر فيه طالب العلم و يفوز ببغيته منه، و التقدير، و فرضنا فرائضها. و أضاف الفرائض الى

السورة، و هي بعضها، لدلالة الكلام عليه، لأنها مفهومة منها و (بينات) معناه ظاهرات واضحات. و قوله (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) معناه لكي تذكروا الدلائل التي فيها، فتكون حاضرة لكم لتعملوا بموجبه و تلتزموا معانيه.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٢ الى ٣]

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشِهْدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨٥

(٢) قائله النابغة الدنيايي ديوانه «دار بيروت» ١٨ و قد مر في ١ / ١٩، ٣ / ٣٦٦ من هذا الكتاب

ص: ٤٠٥

آيتان بلا خلاف.

قرأ ابن كثير الا ابن فليح (رأفة) بفتح الهمزة على وزن (فعالة).

الباقون بسكونها، و هما لغتان في المصدر، يقال: رأف رأفة مثل كرم كرمًا. و قيل:

رأفة مثل سقم سقامة. و الرأفة رقة الرحمة.

أمر الله تعالى في هذه الآية: أن يجلد الزاني، و الزانية إذا لم يكونا محصنين (كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) و إذا كانا محصنين أو أحدهما، كان على المحصن الرجم بلا خلاف. و عندنا انه يجلد أولا مائة جلدة ثم يرجم، و في أصحابنا من خص ذلك بالشيخ و الشيخة إذا زنيا و كانا محصنين، فأما إذا كانا شابين محصنين لم يكن عليهما غير الرجم، و هو قول مسروق. و في ذلك خلاف ذكرناه في خلاف الفقهاء.

و الإحصان الذي يوجب الرجم هو أن يكون له زوج يغدو اليه و يروح على وجه الدوام، و كان حرًا. فأما العبد، فلا يكون محصنًا، و كذلك الأمة لا تكون محصنة، و انما عليهما نصف الحد: خمسون جلدة، و الحر متى كان عنده زوجة يتمكن من وطنها مخلى بينه و بينها سواء كانت حرة أو أمة، او كان عنده أمة يطؤها بملك اليمين، فانه متى زنا و جب عليه الرجم، و من كان غائبًا عن زوجته شهرًا فصاعدًا أو كان محبوسًا أو هي محبوسة هذه المدة. فلا إحصان. و من كان محصنًا على ما قدمناه ثم ماتت زوجته أو طلقها بطل احصانه. و في جميع ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه

ص: ٤٠٦

فى الخلاف.

و الخطاب بهذه الآفة و ان كان متوجهاً الى الجماعة، فالمراد به الأمة بلا خلاف، لأنه لا خلاف أنه ليس لاحد اقامة الحدود إلا للإمام أو من يوليه الامام.

و من خالف فيه لا يعتد بخلافه.

و الزنا هو وطؤ المرأة فى الفرج من غير عقد شرعى و لا شبهة عقد شرعى مع العلم بذلك أو غلبة الظن. و ليس كل وطئ حرام زناً، لأنه قد يطأ امرأته فى الحيض و النفاس، و هو حرام، و لا يكون زناً، و كذلك لو وجد امرأة على فراشه، فظننها زوجته او أمته فوطأها لم يكن ذلك زناً، لأنه شبهة.

و قوله «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» قال مجاهد و عطاء ابن أبى رباح و سعيد بن جبير و ابراهيم: معناه لا تمنعكم الرأفة و الرحمة من اقامة الحد. و قال الحسن و سعيد بن المسيب و عامر الشعبي و حماد: لا يمنعكم ذلك من الجلد الشديد. و (الرأفة) بسكون الهمزة. و الرأفة - بفتح الهمزة - مثل الكأبة و الكآبة، و السأمة و السأمة، و هما لغتان، و بفتح الهمزة قرأ ابن كثير على ما قدمناه.

و قوله «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» أى إن كنتم تصدقون بما وعد الله و تواعد عليه، و تقرون بالبعث و النشور، فلا تأخذكم فى من ذكرناه الرأفة، و لا تمنعكم من اقامة الحد على ما ذكرناه، و قوله «وَلَيْشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» قال مجاهد و ابراهيم:

الطائفة رجل واحد. و

عن أبى جعفر (ع) ان اقله رجل واحد.

و قال عكرمة:

الطائفة رجلان فصاعداً. و قال قتادة و الزهري: هم ثلاثة فصاعداً. و قال ابن زيد:

اقله اربعة. و قال الجبائى: من زعم ان الطائفة اقل من ثلاثة فقد غلط من جهة اللغة، و من جهة المراد بالآفة، من احتياطه بالشهادة، و قال: ليس لأحد ان يقيم الحد

ص: ٤٠٧

إلا الأئمة و ولاتهم، و من خالف فيه فقد غلط، كما انه ليس للشاهد ان يقيم الحد.

و قد دخل المحصن فى حكم الآفة بلا خلاف.

و كان سببويه يذهب الى ان التأويل: فى ما فرض عليكم، الزانية و الزانى، و لولا ذلك لنصب بالأمر. و قال المبرد: إذا رفعته ففيه معنى الجزاء، و لذلك دخل الفاء فى الخبر، و التقدير التى تزنى، و الذى يزنى، و معناه من زنى فاجلدوه، فيكون على ذلك عاماً فى الجنس.

و قال الحسن: رجم النبي (ص) الثيب «١» و أراد عمر ان يكتبه فى آخر المصحف ثم تركه، لثلا يتوهم انه من القرآن. و قال قوم: إن ذلك منسوخ التلاوة دون الحكم. و

روى عن على (ع) ان المحصن يجلد مائة بالقرآن، ثم يرحم بالسنة.

و انه امر بذلك.

و قوله «الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، و الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك...» الآية. قيل: انها نزلت على سبب، و ذلك انه استأذن رجل من المسلمين النبي (ص) ان يتزوج امرأة من اصحاب الرايات، كانت تسافح، فأنزل الله تعالى الآية. و روى ذلك عن عبد الله بن عمر، و ابن عباس: و قال حرم الله نكاحهن على المؤمنين، فلا يتزوج بهن الا زان او مشرك. و قال مجاهد و الزهرى و الشعبي: ان النبي استؤذن فيها ام مهزول. و قيل النكاح - هاهنا - المراد به الجماع، و المعنى الاشتراك فى الزنا، يعنى انهما جميعاً يكونان زانيين، ذكر ذلك ابن عباس.

و قد ضعف الطبرى ذلك، و قال: لا فائدة فى ذلك. و من قال بالأول، قال: الآية و ان كان ظاهرها الخبر، فالمراد به النهى. و قال سعيد بن جبير: معناه انها زانية مثله، و هو قول الضحاك و ابن زيد. و قال سعيد بن المسيب: كان ذلك حكم كل

(١) فى المخطوط (البت)

ص: ٤٠٨

زان و زانية، ثم نسخ بقوله (وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ) «١»، و به قال اكثر الفقهاء. و قال الرمانى: وجه التأويل انهما مشتركان فى الزنا، لأنه لا خلاف انه ليس لاحد من اهل الصلاة ان ينكح زانية و ان الزانية من المسلمات حرام على كل مسلم من اهل الصلاة، فعلى هذا له ان يتزوج بمن كان زنى بها.

و

عن أبى جعفر (ع) (ان الآية نزلت فى اصحاب الرايات، فأما غيرهن فانه يجوز ان يتزوجها، و ان كان الأفضل غيرها، و يمنعها من الفجور).

و فى ذلك خلاف بين الفقهاء.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٤ الى ٥]

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

آيتان بلا خلاف.

قال سعيد بن جبیر: هذه الآية نزلت في عائشة. و قال الضحاك في نساء المؤمنين: و هو الأولى، لأنه أعم فائدة، و إن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة، فلا تقصر الآية على سببها.

يقول الله تعالى ان «الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ» أى يقذفون العفائف من النساء بالزنا، و الفجور، و حذف قوله بالزنا لدلالة الكلام عليه، و لم يقيموها على ذلك أربعة من الشهود، فانه يجب على كل واحد منهم ثمانون جلدة. و قال الحسن:

يجلد

(١) سورة ٢٤ النور آية ٣٢

ص: ٤٠٩

و عليه ثيابه. و هو قول أبى جعفر (ع).

و يجلد الرجل قائماً، و المرأة قاعدة. و قال ابراهيم ترمى عنه ثيابه في حد الزنا.

و قوله «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا» نهى من الله تعالى عن قبول شهادة القاذف على التأييد، و حكم عليهم بأنهم فاسق. ثم استثنى من ذلك الذين تابوا من بعد ذلك.

و اختلفوا في الاستثناء الى من يرجع، فقال قوم: انه من الفساق، فإذا تاب قبلت شهادته حد او لم يجد. و هو قول سعيد بن المسيب. و قال عمر لأبى بكر:

إن تبت قبلت شهادتك. فأبى ابو بكر أن يكذب نفسه. و هو قول مسروق و الزهرى و الشعبي و عطاء و طاوس و مجاهد و سعيد بن جبیر و عمر بن عبد العزيز و الضحاك، و هو قول أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

و به قال الشافعى من الفقهاء و أصحابه، و هو مذهبنا. و قال الزجاج: يكون تقديره، و لا تقبلوا لهم شهادة أبداً إلا الذين تابوا.

ثم وصفهم بقوله «وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» وقال شريح و سعيد بن المسيب، و الحسن و ابراهيم: الاستثناء من الفاسقين دون قوله «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا» و به قال أهل العراق، قالوا: فلا يجوز قبول شهادة القاذف ابداً. و لا خلاف فى انه إذا لم يحد- بأن تموت المقدوفة و لم يكن هناك مطالب، ثم تاب- أنه يجوز قبول شهادته. و هذا يقتضى الاستثناء من المعنيين على تقدير: و أولئك هم الفاسقون فى قذفهم، مع امتناع قبول شهادتهم إلا التائبين منهم.

و الحد حق المقدوفة لا يزول بالتوبة. و قال قوم:

توبته متعلقة باكذابه نفسه.

و هو المروى فى أخبارنا

، و به قال الشافعى. و قال مالك بن أنس: لا يحتاج الى ذلك فيه. قال أبو حنيفة: و متى كان القاذف عبداً او أمة فعليه أربعون جلدة. و قد

ص: ٤١٠

روى أصحابنا: أن الحد ثمانون فى الحرّ و العبد

، و ظاهر العموم يقتضى ذلك، و به قال عمر بن عبد العزيز، و القاسم بن عبد الرحمن.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٦ الى ١٠]

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَ الْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَ يَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَ الْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة الا أبا بكر «شهادة أحدهم اربع شهادات» برفع العين.

الباقون بفتحها. و قرأ نافع و يعقوب «ان لعنة الله ... و ان غضب الله عليها» بتخفيف النون فيهما، و سكنونها، و رفع «لعنة الله» و قرأ نافع «غضب الله»- بكسر الضاد و فتح الباء، و رفع الهاء- من اسم الله. و قرأ يعقوب- بفتح الضاد و رفع الباء و خفض الهاء- من اسم الله. الباقون بفتح الضاد و نصب الباء و خفض الهاء. و قرأ حفص «الخامسة ان غضب الله» بالنصب. الباقون بالرفع.

من رفع قوله «اربع» جعله خبر الابتداء، و الابتداء «فشهادة أحدهم» قال أبو حاتم: من رفع فقد لحن، لان الشهادة واحدة، و قد أخبر عنها بجمع، فلا يجوز ذلك، كما لا يجوز (زيد إخوتك) و هذا خطأ، لان الشهادة، و إن كانت بلفظ الوحدة فمعناها

ص: ٤١١

الجمع، كقولك صلاتي خمس، و صومى شهر. و قال الزجاج: تقديره «فشهادة أحدهم» التى تدرؤ العذاب «أربع شهادات» و من قرأ بالنصب جعله مفعولا به أى يشهد أربع شهادات. و قال ابو على الفارسي: ينبغى أن يكون قوله «فشهادة أحدهم» مبنياً على ما يكون مبتدأ، و تقديره: فالحكم أو فالفرض ان يشهد أحدهم أربع شهادات، أو فعلهم أن يشهدوا، و يكون قوله «إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ» على هذا من صلة (شهادة أحدهم)، و تكون الجملة التى هى قوله «إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» فى موضع نصب، لان الشهادة كالعلم، و الجملة فى موضع نصب، بأنه مفعول به «و أربع شهادات» تنتصب انتصاب المصادر. و من رفع «أربع شهادات» لم يكن قوله «انه لمن الصادقين» إلا من صلة «شهادات» دون «شهادة» كما أن قوله «بالله» من صلة (شهادات) دون صلة (شهادة) لأنك لو جعلته من صلة (شهادة) فصلت بين الصلة و الموصول. و من نصب «أربع شهادات» فقياسه ان ينصب «و الخامسة» لأنها شهادة، و إذا رفع «أربع شهادات» و نصب «الخامسة» قدر له فعلا ينصبها به، و تقديره و يشهد الخامسة. و من رفع «أربع شهادات» و رفع «الخامسة» جعلها معطوفة عليه، و إذا نصب الخامسة، لم يجعلها معطوفة عليه و جعلها مفعولا، و قدر فعلا ينصبها به. و قال: ابو على: قراءة نافع فى تخفيف (ان) الوجه فيها أنها المخففة من الثقيلة، و لا تخفف فى الكلام أبداً و بعدها اسم إلا و يراد إضمار القصة، و مثله قوله «وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» «١». و انما خففت الثقيلة المفتوحة على إضمار القصة و الحديث، و لم تكن المكسورة كذلك، لأن الثقيلة المفتوحة موصولة. و يستتبع النحويون قراءة نافع فى قوله «أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ» لان من شأن المخففة من الثقيلة ألا تلى فعلا إلا و فى الكلام عوض، كقوله «أَلَا يَرْجِعُ» «٢» و قوله

(١) سورة ١٠ يونس آية ١٠

(٢) سورة ٢٠ طه آية ٨٩

ص: ٤١٢

«عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ» «١» فان (لا) و (السين) عوض من الثقيلة. و وجه قراءة نافع انه قد جاء فى الدعاء و لفظه لفظ الخبر، و قد يجيء فى الشعر و إن لم يفصل بين (ان) و بين ما يدخل عليها من الفعل، فعلى قول نافع (لعنة الله) رفع بالابتداء و (غضب) فعل ماض، و اسم الله رفع بفعله.

و معنى الآية ان من قذف محصنة حرة مسلمة بفاحشة من الزنا، و لم يأت بأربعة شهداء جلد ثمانين. و من رمى زوجته بالزنا تلاعنا. و الملاعنة أن يبدأ الرجل فيحلف أربع مرات بالله الذى لا إله إلا هو انه صادق فيما رماها به، و يحتاج ان يقول أشهد بالله أنى صادق، لان شهادته أربع مرات تقوم مقام أربعة شهود فى دفع الحد عنه، ثم يشهد الخامسة ان لعنة الله عليه إن كان من

الكاذبين فيما رماها به. [و إذا جحدت المرأة ذلك شهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فيما رماها به و] «٢» تشهد الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ثم يفرق بينهما، و لا يجتمعان أبداً، كما

فرق رسول الله (ص) بين هلال بن أمية و زوجته.

و قضى أن الولد لها، و لا يدعى لأب، و لا ترمى هي، و لا يرمى ولدها. و قال ابن عباس:

متى لم تحلف رجمت، و إن لم يكن دخل بها جلدت الحد، و لم ترحم إذا لم تلتعن، و عند أصحابنا: انه لا لعان بينهما ما لم يدخل بها، فمتى رماها قبل الدخول و جب عليه حد القاذف، و لا لعان بينهما. و فرقة اللعان تحصل عندنا بتمام اللعان من غير حكم الحاكم، و تمام اللعان إنما يكون إذا تلاعن الرجل و المرأة معاً. و قال قوم: تحصل بلعان الزوج الفرقة. و قال أهل العراق: لا تقع الفرقة إلا بتفريق الحاكم بينهما.

و متى رجمت عند النكول ورثها الزوج، لأن زناها لا يوجب التفرة بينهما.

و لو جلدت - إذا لم يكن دخل بها - فهما على الزوجية. و ذلك يدل على ان الفرقة انما تقع

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠

(٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

ص: ٤١٣

بلعان الرجل و المرأة معاً. قال الحسن: إذا تمت الملاعنة بينهما و لم يكن دخل بها، فلها نصف الصداق، لان الفرقة جاءت من قبله. و إذا تم اللعان اعتدت عدة المطلقة عند جميع الفقهاء، و لا يتزوجها أبداً بلا خلاف.

و آية اللعان نزلت في عاصم بن عدى. و قيل: نزلت في هلال ابن أمية - في قول ابن عباس - و متى فرق بينهما ثم أكذب نفسه جلد الحد و لا ترجع اليه امرأته.

و قال ابو حنيفة ترجع اليه. و إذا أقر بالولد بعد اللعان ألحق به يرثه الابن و لا يرثه الأب. و قال الشافعي: يتوارثان. و (الدرؤ) الدفع و (العذاب) الذى يدرؤ عنهما بشهادتهما (الحد)، لأنه بمنزلة من يشهد عليها أربعة شهود بالزنا. و قال قوم: هو الحبس لأنه لم تتم البينة بأربعة شهود، و انما التعان الرجل درأ عنه الحد فى رميه.

قال الجبائى: فى الآية دلالة على ان الزنا ليس بكفر، لأنه ليس لصاحبه حكم المرتد. و فيها دلالة على انه يستحق اللعن من الله بالزنا.

و قوله (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) نصب قوله (و ان الله) لأنه عطف على موضع (أن) الاولى و جواب (لو لا) محذوف، و تقديره: لو لا فضل الله عليكم و رحمته لفضحك بما ترتكبون من الفاحشة، و لعاجلكم بالعقوبة او لهلكتم و ما يجرى مجراه، و مثله قولهم: لو رأيت فلاناً و فى يده السيف اى رأيت شجاعاً و لرأيت هائلاً، قال جرير:

بحزير رامة و المطى سوام «١»

كذب العواذل لو رأيت مناخنا

و فى المثل (لو ذات سوار لطمتنى).

(١) ديوانه «دار بيروت» ٤٥٢

ص: ٤١٤

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ١١ الى ١٥]

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْ لَا جَاءُ عَلَيْهِ بَارِعَةٌ شُهَدَاءُ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْتَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً لأمة محمد (ص) «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ» يعنى الذين أتوا بالإفك، و هو الكذب الذى قلب فيه الأمر عن وجهه، و أصله الانقلاب، و منه (المؤتفكات) و أفك يَأفكُ افكاً إذا كذب. لأنه قلب المعنى عن حقه الى باطله.

فهو أفك، مثل كاذب.

و قوله «عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» يعنى جماعة منكم، و منه قوله «لِيُؤسِفَ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْبِنَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ» «١» و يقال: تعصب القوم إذا اجتمعوا على هيئة، فشد

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٨

بعضهم بعضاً. و العصبه فى النسب العشيرة المقتدرة، لأنه يجمعها التعصب.

و قال ابن عباس: منهم (عبد الله بن أبى سلول) و هو الذى تولى كبره، و هو من رؤساء المنافقين. و (مسطح بن اثاثه، و حسان بن ثابت، و حمنة بنت جحش) و هو قول عائشة، و كان سبب الافك ان عائشة ضاع عقدها فى غزوة بنى المصطلق، و كانت تباعدت لقتضاء الحاجة، فرجعت تطلبه، و حمل هودجها على بعيرها ظناً منهم بها أنها فيه فلما صارت الى الموضع وجدتهم قد رحلوا عنه، و كان صفوان ابن معطل السلمى الذكوانى من وراء الجيش فمر بها، فلما عرفها أناخ بعيره حتى ركبته، و هو يسوقه حتى أتى الجيش بعد ما نزلوا فى قائم الظهيرة. هكذا رواه الزهرى عن عائشة.

و قوله «لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» خطاب لمن قرب بالإفك من عائشة، و من اغتم لها، فقال الله تعالى لا تحسبوا غم الافك شراً لكم بل هو خير لكم، لان الله (عز و جل) يبرئ ساحته ببراءتها، و ينفعها بصبرها و احتسابها، و ما ينل منها من الأذى و المكروه الذى نزل بها، و يلزم أصحاب الافك ما استحقوقه بالإثم الذى ارتكبه فى أمرها.

ثم اخبر تعالى فقال «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ» أى له جزاء ما اكتسب من الإثم من العقاب.

ثم قال «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ» يعنى (ابن أبى بن سلول) تحمل معظمه و (كبره) مصدر من معنى الكبير من الأمور. قال ابو عبيدة: فرقوا بينه و بين مصدر الكبر فى السن، يقال: فلان ذو كبر أى ذو كبرياء. و قرأ ابو جعفر المدنى بضم الكاف.

الباقون بكسرهما، فالكبر بضم الكاف من كبر السن و هو كبير قومه أى معظمهم، و الكبر و العظم واحد. و قيل: دخل حسان على عائشة فأنشدها قوله فى بيته:

حصان رزان ما تزن برية

و تصيح غرثى من لحوم القوافل «١»

فقات له: لكنك لست كذلك. و قوله «لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» يعنى جزاء على ما اكتسبه من الإثم. و قوله «لَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا» معناه هلا حين سمعتم هذا الافك من القائلين ظن المؤمنون بالمؤمنين الذين هم كانوا خيراً، لان المؤمنين كلهم كالفرد الواحد فيما يجرى عليها من الأمور، فإذا جرى على أحدهم محنة، فكأنه جرى على جماعتهم، و هو كقوله «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» «٢» و هو قول مجاهد، قال الشاعر فى (لولا) بمعنى (هلا):

اي فهلا تعدون قتل الكمي. و قوله تعالى «وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» معناه و هلا قالوا هذا القول كذب ظاهر. ثم قال تعالى «لَوْ لَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ» اي هلا جاءوا على ما قالوه ببينة أربعة من الشهداء «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ» الذين قالوا هذا الافك «هُمْ الْكَاذِبُونَ» عند الله، و المعنى انهم كاذبون في عيبيهم، فمن جوز صدقهم، فهو رادٌ لخبر الله تعالى، فالآية دالة على كذب من قذف عائشة، و افك عليها. فأما في غيرها إذا رماها الإنسان، فانا لا نقطع على كذبه عند الله، و إن أقمنا عليه الحد، و قلنا هو كاذب في الظاهر، لأنه يجوز أن يكون صادقاً عند الله، و هو قول الجبائي.

ثم قال تعالى على وجه الامتنان على المؤمنين

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٢٠٠

(٢) سورة ٢٤ النور آية ٦١

(٣) قائلة جرير ديوانه (دار بيروت) ٢٦٥، و قد مر في ١ / ٣١٩، ٤٣٥ و ٦ / ٣١٩ و رواية الديوان:

ص: ٤١٧

«وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» جزاء على خوضكم في قصة الافك و افاضتكم فيه. و قيل في الآية تقديم و تأخير، و تقديره: و لولا فضل الله عليكم و رحمته لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم في الدنيا و الآخرة.

و قوله «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِكُمْ» تقديره: لمسكم عذاب عظيم حين تلقونه بالسنتكم، و معناه برواية بعضكم عن بعض لتشيعه - في قول مجاهد - و روى عن عائشة أنها قرأت «تلقونه» من ولق الكذب، و هو الاستمرار على الكذب، و منه:

ولق فلان فى السير إذا استمر به، و يقال: فى الولق من الكذب: الإلق و الألق، تقول: ألق و أنتم تألقونه. أنشد الفراء:

من لى بالمرر و اليلامق صاحب أدهان و ألق آلق «١»

فتح الالف من ادهان، و قال الراجز:

إن الحصين زلق و زملق جاءت به عيس من الشام تلق

و ينشد ايضاً:

ان الحصين زلق و زملق جاءت به عيس من الشام تلق

مجوع البطن كالليم الحلق

و قوله «تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» من وجه الافك «و تَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» اى تظنوننه حقيراً و هو عند الله عظيم لأنه كذب و افتراء.

(١) تفسير الطبرى ١٨ / ٧٠

ص: ٤١٨

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ١٦ الى ٢٠]

وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى للمؤمنين: و هلا حين سمعتم من هؤلاء العصابة ما قالوا من الافك «قلتم» في جوابهم «ما يكون لنا ان نتكلم بهذا» أى ليس لنا ذلك بل هو محرم علينا، و قلتم «سبحانك» يا ربنا «هذا» الذى قالوه «بُهْتَانٌ عَظِيمٌ» أى كذب و زور عظيم عقابه فى الظاهر. فالبهتان الكذب الذى فيه مكابرة تحير، يقال: بهته بيهته بهتاً و بهتاناً إذا حيره بالكذب عليه.

ثم قال تعالى «يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا» أى كراهة أن تعودوا «لمثله» أو لتلا تعودوا إلى مثله من الافك «أبدًا» أى طول أعماركم، لا ترجعوا الى مثل هذا القول «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» مصدقين بالله و نبيه، قابلين وعظ الله. و قال ابن زيد:

الوعظ يمنع ان يقول القائل أنا سمعته، و لم أختلفه. «وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ» يعنى الدلالات و الحجج «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أى عالم بما يكون منكم، حكيم فيما يفعله،

ص: ٤١٩

و لا يضع الشيء إلا فى موضعه.

ثم اخبر تعالى «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ» و يؤثرون «أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ» أى تظهر الافعال القبيحة «فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أى موجع جزاء على ذلك «فى الدنيا» باقامة الحد عليهم، و فى «الآخرة» بعذاب النار «وَاللَّهُ يَعْلَمُ» ذلك و غيره «وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» ان الله تعالى يعلم ذلك.

ثم قال «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ» لأهلككم و عاجلكم بالعقوبة، و حذف الجواب لدلالة الكلام عليه.

و فى الآية دلالة على أن العزم على الفسق فسق، لأنه إذا الزمه الوعيد على محبة شياع الفاحشة من غيره، فإذا أحبها من نفسه و أرادها كان أعظم.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٢١ الى ٢٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَ لَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَ الْمَسْكِينِ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِيَعْفُوا وَ لِيَعْفُوا أَوْ لَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)

ص: ٤٢٠

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو جعفر المدني «و لا يتأل» على وزن (يتفعل) الهمزة مفتوحة بعد التاء، و اللام مشددة مفتوحة. الباقون «يأتل» على وزن (يفتعل). الهمزة ساكنة. وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً «يوم يشهد» بالياء، لان تأنيث الألسنة ليس بحقيقي، و لأنه حصل فصل بين الفعل و الفاعل. الباقون بالتاء، لان الألسنة مؤنثة.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين المعترفين بتوحيد الله المصدقين لرسوله، ينهاهم فيه عن اتباع خطوات الشيطان، و خطوات الشيطان تخطية الحلال الى الحرام. و المعنى لا تسلكوا مسالك الشيطان، و لا تذهبوا مذهبه، و الاتباع الذهاب فيما كان من الجهات التي يدعو الداعي اليها بذهابه فيها، فمن وافق الشيطان فيما يدعو اليه من الضلال، فقد اتبعه. و الاتباع اقتفاء أثر الداعي الى الجهة بذهابه فيها، و هو بالثقل و التخفيف بمعنى الاقتداء به. و المعنى لا تتبعوا الشيطان بموافقتة فيما يدعو اليه. ثم قال «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» فيما يدعو اليه «فانه» يعنى الشيطان «يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ» يعنى القبائح «وَالْمُنْكَرِ» من الأفعال. و الفحشاء كل قبيح عظيم. و المنكر الفساد الذى ينكره العقل و يزجر عنه.

ثم قال تعالى «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ» بان يلطف لكم، و يزجركم عن ارتكاب المعاصى «مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا» ف (من) زائدة، و المعنى ما فعل احد منكم الأفعال الجميلة إلا بلطف من جهته أو وعيد من قبله. و قال ابن زيد: معناه لولا فضل الله ما أسلم احد منكم.

ص: ٤٢١

و فى ذلك دلالة على أن احداً لا يصلح فى دينه إلا بلطف الله (عز و جل) له، لأن ذلك عام لجميع المكلفين الذين يزكون بهذا الفضل من الله.

و قوله «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ» معناه من يعلم أن له لطفاً يفعل به ليزكو عنده. و قيل: يزكى من يشاء بالثناء عليه. و الأول أجود (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) معناه إنه يفعل المصالح و اللطف على ما يعلمه من المصلحة للمكلفين. لأنه يسمع أصواتهم و يعلم أحوالهم.

و فى الآية دلالة على أنه تعالى يريد لخلقه خلاف ما يريد الشيطان، لأنه ذكره عقيب قوله (يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ).

و قوله (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ) فلابتلاء القسم، يقال آلى يؤلى إيلاء إذا حلف على أمر من الأمور، و يأتل (يفتعل) من الآلية على وزن (يقضى) من القضية، و من قرا (يتأل) فعلى وزن (يتفعل)، و المعنى لا يحلف أن لا يؤتى.

وقال ابن عباس و عائشة و ابن زيد: إن الآية نزلت في أبي بكر، و مسطح بن أثاثة، و كان يجرى عليه، و يقوم بنفقتة، فقطعها و حلف ان لا ينفعه أبداً، لما كان منه من الدخول مع أصحاب الافك في عائشة، فلما نزلت هذه الآية عاد أبو بكر له الى ما كان، و قال: و الله انى لأحب ان يغفر الله لى، و الله لا أنزعها عنه ابداً. و كان مسطح ابن خالة أبي بكر، و كان مسكيناً و مهاجراً من مكة الى المدينة، و من جملة البدرين. و قال الحسن و مجاهد: الآية نزلت في يتيم كان فى حجر أبي بكر، حلف الا ينفق عليه. و روى عن ابن عباس و غيره: أن الآية نزلت فى جماعة من اصحاب- رسول الله حلفوا أن لا يواسوا أصحاب الأفك. و قال قوم: هذا نهى عام لجميع أولى الفضل و السعة أن يحلفوا ألا يؤتوا أولى القربى و المساكين و الفقراء، و هو أولى

ص: ٤٢٢

و أعم فائدة، و يدخل فيه ما قالوه. و كان مسطح احد من حده النبى (ص) فى قذف الافك.

و قال ابو على الجبائى: قصة مسطح دالة على انه قد يجوز أن تقع المعاصى ممن شهد بداراً بخلاف قول النوابت.

و قوله تعالى (وَلْيُغْفِرُوا وَ لْيَصْفَحُوا) أمر من الله تعالى للمرايين بالآية بالعفو عن أساء اليهم، و الصفح عنهم. و اصل العافى التارك للعقوبة على من أذنب اليه، و الصفح عن الشىء ان يجعله بمنزلة ما مر صفحاً. ثم قال لهم (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يُغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) معاصيكم جزاء على عفوكم و صفحكم عن أساء إليكم (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) اى سائر عليكم منعم.

ثم اخبر تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) و معناه الذين يقذفون العفاف من النساء (الغافلات) عن الفواحش (لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ) اى أبعدا من رحمة الله (فى الدنيا) باقامة الحد عليهم و رد شهادتهم (و فى الآخرة) بأليم العقاب، و الأبعد من الجنة (و لهم) مع ذلك (عَذَابٌ عَظِيمٌ) عقوبة لهم على قذفهم المحصنات.

و هذا وعيد عام لجميع المكلفين، فى قول ابن عباس و ابن زيد و اكثر اهل العلم.

و قال قوم: فى عائشة، لما رأوها نزلت فيها هذه الآية توهموا ان الوعيد خاص فيمن قذفها، و هذا ليس بصحيح، لأن عند اكثر العلماء المحصلين: ان الآية إذا نزلت على سبب لم يجب قصرها عليه، كآية اللعان، و آية القذف، و آية الظهار، و غير ذلك. و متى حملت على العموم دخل من قذف عائشة فى جملتها.

و قوله (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ) تقديره: و لهم عذاب عظيم فى هذا اليوم. و هو يوم القيامة. و شهادة الايدى و الأرجل باعمال الفجار.

قبل فى كيفيتها ثلاثة اقوال:

ص: ٤٢٣

أحدها- ان الله تعالى بينها بنية يمكنهم النطق بها و الكلام من جهتها.

الثانى - ان يفعل الله تعالى فى هذه البنية كلاماً يتضمن الشهادة، فكأنها هى الناطقة.

و الثالث - ان يجعل فيها علامة تقوم مقام النطق بالشهادة، و ذلك إذا جحدوا معاصيهم. و اما شهادة الألسن فيجوز ان يكونوا يشهدون بألسنتهم إذا رأوا ان لا ينفعهم الجحد. و اما قوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم) فقالوا: إنه يجوز ان يخرج الألسنة و يختم على الأفواه، و يجوز ان يكون الختم على الأفواه إنما هو فى حال شهادة الأيدي و الأرجل. و قال الجبائى: و يجوز ان يبنيتها بنية مخصوصة، و يحدث فيها شهادة تشهد بها.

و قوله (يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ) يعنى جزاءهم الحق، و الدين - هاهنا - الجزاء، و يجوز ان يكون المراد جزاء دينهم الحق، و حذف المضاف و اقام المضاف اليه مقامه (وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) اى يعلمون الله ضرورة فى ذلك اليوم، و يقرون انه الحق، الذى ابان الحجج و الآيات فى دار التكليف، و هو قول مجاهد، و قرئ (الحق) بالرفع، و النصب، فمن رفعه جعله من صفة الله، و من نصبه جعله صفة للدين.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): آية ٢٦]

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
(٢٦)

آية بلا خلاف.

ص: ٤٢٤

قيل فى معنى الآية أربعة اقوال:

أحدها - قال ابن عباس و مجاهد و الحسن و الضحاك: معناه (الخبيثات) من الكلم (للخبِيثين) من الرجال أى صادرة منهم.

الثانى - فى رواية أخرى عن ابن عباس: أن (الخبيثات) من السيئات (للخبِيثين) من الرجال، و الطيبات من الحسنات للطيبين من الرجال.

الثالث - قال ابن زيد: (الخبيثات) من النساء (للخبِيثين) من الرجال، كأنه ذهب الى اجتماعها للمشاكله بينهما.

و الرابع - قال الجبائى: (الخبيثات) من النساء الزوانى (للخبِيثين) من الرجال الزناة، على التعبد الأول ثم نسخ، و قيل الخبيثات من الكلم إنما تلزم الخبيثين من الرجال و تليق بهم. و الطيبات للطيبين و الطيبون للطيبات عكس ذلك على السواء فى الأقوال الأربعة.

و الخبيث الفاسد الذى يتزايد فى الفساد تزايد التامى فى النبات، و نقيضه الطيب.

و الحرام كله خبيث. و الحلال كله طيب.

و قوله «أُولَئِكَ مُبْرُونَ مِمَّا يَقُولُونَ» قال مجاهد معناه: الطيبون من الرجال مبرؤون من خبيثات القول، يغفرها الله لهم. و من كان طيباً، فهو مبرأ من كل قبيح.

و من كان خبيثاً، فهو مبرأ من كل طيب بأن الله يرده عليه، و لا يقبله منه. و قال الفراء و غيره: يرجع ذلك الى عائشة، و صفوان بن معطل، كما قال «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ» (١) و الام تحجب بالأخوين، فجاء على تغليب لفظ الجمع الذى يجرى مجرى الواحد فى الاعراب، و انما قال «مبرون...» الآية، لأنه ذكر صفة الجمع، و المبرأ المنزه عن صفة الدم، المنفى عنه صفة العيب، يقال: برآه الله من كذا، إذا

(١) سورة النساء آية ١٠

ص: ٤٢٥

نفاه عنه. و الله تعالى يبرئ المؤمنين من العيوب التى يضيفها اليهم أعداؤهم، و يفضح من يكذب عليهم.

و قوله «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» أى لهؤلاء الطيبين من الرجال و النساء.

مغفرة من الله لذنوبهم، و عطية من الله كريمة، فالرزق الكريم هو الذى يعطى الخير على الإدرار المهناً، من غير تنغيص الامتنان، و هو رزق الله تعالى الذى يعم جميع العباد، و يخص من يشاء بالزيادة فى الافعال. و قال قتادة «لهم مغفرة من الله و رزق كريم» فى الجنة.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٢٧ الى ٣٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)

أربع آيات بلا خلاف.

ص: ٤٢٦

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم أن يدخلوا بيوتاً لا يملكونها، و هى ملك غيرهم إلا بعد أن يستأنسوا، و معناه يستأذنوا، و الاستئناس الاستئذان - فى قول ابن عباس و ابن مسعود و ابراهيم و قتادة - و كأن المعنى يستأنسوا بالاذن.

و روى عن ابن عباس أنه قال: القراءة «حتى تستأذنوا» و انما و هم الكتاب. و هو قول سعيد ابن جبير، و به قرأ أبى بن كعب. و قال مجاهد: حتى تستأنسوا بالتنحنح و الكلام الذى يقوم مقام الاستئذان. و قد بين الله تعالى ذلك فى قوله «وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا» «١» قال عطاء: و هو واجب فى أمه و سائر أهله و الاستئناس طلب الانس بالعلم أو غيره، كقول العرب: اذهب فاستأنس هل ترى احداً، و منه قوله «فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا» «٢» اى علمتم.

و قوله «وَ تَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا» معناه على أهل البيوت ينبغى أن تسلموا عليهم و إذا أذنوا لكم فى الدخول فادخلوها. و

روى ابو موسى عن النبى (ص) أنه قال: (الاستئذان ثلاث، فان أذنوا، و إلا فارجع)

فدعاه عمر، فقال لتأتينى بالبينة و إلا عاقبتك، فمضى أبو موسى، فأتى بمن سمع الحديث معه.

و الفرق بين الاذن فى الدخول، و بين الدعاء اليه، أن الدعاء اليه، يدل على ارادة الداعى، و ليس كذلك الاذن. و فى الدعاء رغبة الداعى او المدعو، و ليس كذلك الاذن و قوله «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» يعنى الاستئذان خير لكم من تركه، لتذكروا فى ذلك، فلا تهجموا على العورات.

و قوله «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا» يعنى ان لم تعلموا فى البيوت احداً يأذن لكم فى الدخول «فَلَا تَدْخُلُوهَا» لأنه ربما كان فيها ما لا يجوز أن تطلعوا عليه إلا بعد أن يأذن أربابها فى ذلك، يقال: وجد إذا علم.

(١) سورة ٢٤ النور آية ٥٩

(٢) سورة ٤ النساء آية ٥

ص: ٤٢٧

و قوله (وَ إِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا) أى لا تدخلوا إذا قيل لكم: لا تدخلوا، فان ذلك (أزكى لكم) اى اطهر (وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) أى عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شىء منها.

ثم قال (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) أى حرج و إثم (أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ) أى منافع. و قيل: فى معنى هذه البيوت أربعة اقوال:

أحدها- قال قتادة: هى الخانات، فان فيها استمتاعاً لكم من جهة نزولها، لا من جهة الإناث الذى لكم فيها.

و الثانى- قال محمد بن الحنفية: هى الخانات التى تكون فى الطرق مسبلة.

و معنى (غير مسكونة) اى لا ساكن لها معروف.

و الثالث- قال عطاء: هي الخرابات للغائط و البول.

و الرابع- قال ابن زيد: هي بيوت التجار التي فيها امتعة الناس.

و قال قوم: هي بيوت مكة. و قال مجاهد: هي مناخات الناس في أسفارهم يرتفقون بها. و قال قوم: هي جميع ذلك حملوه على عمومته لأن الاستئذان إنما جاء لثلا يهجم على ما لا يجوز من العورة. و هو الأقوى، لأنه أعم فائدة.

و قوله (وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ) اى لا يخفى عليه ما تظهرونه، و لا ما تكتُمونه، لأنه عالم بجميع ذلك.

ثم خاطب النبي (ص) فقال (قل) يا محمد (لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) عن عورات النساء و ما يحرم النظر اليه. و قيل: العورة من النساء ما عدا الوجه و الكفين و القدمين، فأمروا بغض البصر عن عوراتهن، و دخلت (من) لابتداء الغاية. و يجوز ان تكون للتبويض، و المعنى أن يطرق و إن لم يغمض. و قيل: العورة من الرجل العانة الى مستغلف الفخذ من أعلى الركبة، و هو العورة من الإماء، قالوا:

ص: ٤٢٨

و يدل على ان الوجه و الكفين و القدمين ليس من العورة من الحرّة، ان لها كشف ذلك في الصلاة، و إذا كانت محرمة مثل ذلك، بالإجماع، و القدمان فيهما خلاف.

و قوله (وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) أمر من الله تعالى أن يحفظ الرجال فروجهم عن الحرام، و عن إبدائها حيث ترى فإنهم متى فعلوا ذلك كان ازكى لاعمالهم عند الله و إن الله خبير بما يعملون و يصنعون اى عالم بما يعملونه اى على اى وجه يعملونه.

و قال مجاهد: قوله (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا) معناه فان لم يكن لكم فيها متاع، فلا تدخلوها إلا بإذن، فان قيل لكم ارجعوا فارجعوا، و هذا بعيد، لان لفظة (احد) لا يعبر بها إلا عن الناس، و لا يعبر بها عن المتاع.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): آية ٣١]

وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَ لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

آية بلا خلاف.

ص: ٤٢٩

قرأ ابن عامر و ابو بكر عن عاصم و ابو جعفر (غير اولى الاربة) نصباً.

الباقون بالجر. وقرأ ابن عامر (آية المؤمنون) بضم الهاء، و مثله (يا أيه الساحر) «١» و (أيه الثقلان) «٢». الباقون (ايها) بفتح الهاء مع الالف فيها. و كلهم وقف بلا الف إلا الكسائي، و اهل البصرة و الزبيبي من طريق العطار، و المالكي، فإنهم وقفوا بالالف.

قال ابو علي: الوقف بالألف أجود، لأنها سقطت في الوصل لاجتماع الساكنين.

لما امر الله تعالى الرجال المؤمنين في الآية الأولى بغض أبصارهم عن عورات النساء، و أمرهم بحفظ فروجهم عن ارتكاب الحرام، أمر المؤمنات في هذه الآية ايضاً من النساء بغض أبصارهن عن عورات الرجال، و ما لا يحل النظر اليه.

و أمرهن ان يحفظن فروجهن إلا عن أزواجهن على ما اباحه الله لهم، و يحفظن ايضاً إظهارها بحيث ينظر اليها، و نهاهن عن إبداء زينتهن إلا ما ظهر منها. قال ابن عباس: يعنى القرطين و القلادة و السوار و الخلخال و المعضد و المنحر، فانه يجوز لها إظهار ذلك لغير الزوج، فاما الشعر فلا يجوز ان تبديه إلا لزوجها.

و الزينة المنهى عن إبدائها زينتان، فالظاهرة الثياب، و الخفية الخلخال، و القرطان و السوار- في قول ابن مسعود- و قال ابراهيم: الظاهر الذي أبيض الثياب فقط. و عن ابن عباس- في رواية أخرى- أن الذي أبيض الكحل و الخاتم و الحذاء و الخضاب في الكف. و قال قتادة: الحذاء و السوار و الخاتم. و قال عطاء:

الكفان و الوجه. و قال الحسن: الوجه و الثياب. و قال قوم: كلما ليس بعورة يجوز إظهاره. و اجمعوا أن الوجه و الكفين ليسا بعورة، لجواز إظهارها في الصلاة، و الأحوط قول ابن مسعود، و الحسن بعده.

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٤٩

(٢) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣١

ص: ٤٣٠

و قوله «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ» فالخمار غطاء رأس المرأة المنسبل على جبينها و جمعه خمر، و قال الجبائي: هي المقانع.

ثم كرر النهي عن اظهار الزينة تأكيداً و تغليظاً و استثنى من ذلك: الأزواج و آباء النساء. و إن علوا، و آباء الأزواج و أبنائهم، أو اخوانهن و بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن، أو نسائهن يعنى نساء المؤمنين دون نساء المشركين إلا إذا كانت أمة و هو معنى قوله «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ» أى من الإماء- في قول ابن جريج- فانه لا باس بإظهار الزينة لهؤلاء المذكورين، لأنهم محارم.

وقوله «أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ» قال ابن عباس: هو الذى يتبعك ليصيب من طعامك و لا حاجة له فى النساء، وهو الأبله. و به قال قتادة و سعيد بن جبير و عطاء. و قال مجاهد: هو الطفل الذى لا أرب له فى النساء لصغره.

وقيل: هو العنين، ذكره عكرمة، و الشعبي. و قيل: هو المحبوب. و قيل: هو الشيخ لهم.

و الاربة الحاجة، و هى فعلة من الارب، كالمشية من المشى، و الجلسة من الجلوس. و قد أربت لكذا أرب له أرباً إذا احتجت اليه، و منه الأربة - بضم الالف - العقدة، لان ما يحتاج اليه من الأمور يقتضى العقدة عليه، و لان الحاجة كالعقدة حتى تنحل بسد الخلة، و لان العقدة التى تمنع من المنفعة يحتاج الى حلها، و لان العقدة عمدة الحاجة.

وقوله «أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ» يعنى الصغار الذين لم يراهقوا. فانه يجوز إبداء الزينة لهم.

وقوله «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» معناه لا تضرب امرأة برجلها، ليعلم صوت الخلخال فى رجلها، كما كان يفعله نساء أهل الجاهلية. و ذلك

ص: ٤٣١

يدل على ان إظهار الخلخال لا يجوز.

ثم أمر الله تعالى المكلفين، فقال «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» أى لتفوزوا بثواب الجنة.

و من نصب (غير) يجوز أن يكون على الاستثناء، و يجوز أن يكون على الحال. و من كسر جعله نعتاً ل «التَّابِعِينَ، غَيْرِ» و إن لم يوصف به المعارف، فإنما المراد ب (التابعين) ليس بـمعين. و ابن عامر انما ضم الهاء و وقف بلا ألف فى (أيه) اتباعاً للمصحف. قال ابو على: و قراءته ضعيفة. لان آخر الاسم هو الياء الثانية فى أى، فينبغى أن يكون المضمون آخر الاسم و لا يجوز ضم الهاء، كما لا يجوز ضم الميم فى قوله «اللهم» و لأنه آخر الكلام، و ها للتنبيه، فلا يجوز حذف الالف بحال.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَ لِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُعْهِمُهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَ اتَّوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ وَ لَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبِّئُوهَا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْنَهَا فَإِنَّ اللَّهَ مِنَ الْبَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)

آيتان بلا خلاف.

ص: ٤٣٢

هذا خطاب من الله للمكلفين من الرجال يأمرهم الله تعالى أن يزوجوا الأيامي اللواتى لهم عليهن ولاية، و أن يزوجوا الصالحين المستورين الذين يفعلون الطاعات من المماليك و الإماء إذا كانوا ملكاً لهم، و الأيامي جمع (أيم) و هى المرأة التى لا زوج لها سواء كانت بكرأ أو ثيباً. و يقال للرجل الذى لا زوجة له: أيم ايضاً و وزن أيم (فيعل) بمعنى (فيعيل) فجمعت كجمع يتيم و يتيمة و يتامى، و قال جميل:

أحب الأيامي إذ بثينة أيم
و أحببت لما أن غنيت الغوانيا «١»

و يجوز جمعه أيايم، و يقال: امرأة أيم و ايمة إذا لم يكن لها زوج، قال الشاعر:

فان تنكحى أنكح و إن تتأيمى
يدا الدهر ما لم تنكحى أتأيم «٢»

و قال قوم: الأيم التى مات زوجها، و منه قوله (عليه السلام): (و الأيم أحق بنفسها) يعنى الثيب. و معنى أنكحوا زوجوا، يقال: نكح إذا تزوج، و أنكح غيره إذا زوجه. و قيل: ان الأمر بتزويج الأيامي إذا أردن ذلك أمر فرض، و الامر بتزويج الأمة إذا أرادت ندب، و كذلك العبد.

و قوله «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءُ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» معناه لا تمتنعوا من إنكاح المرأة أو الرجل إذا كانوا صالحين، لأجل فقرهما، و قلة ذات أيديهما، فإنهم و إن كانوا كذلك، فان الله تعالى يغنيهم من فضله، فانه تعالى واسع المقذور، كثير الفضل، عليهم بأحوالهم و بما يصلحهم، فهو يعطيهم على قدر ذلك. و قال قوم:

معناه إن يكونوا فقراء الى النكاح يغنيهم الله بذلك عن الحرام. فعلى الأول تكون الآية خاصة فى الأحرار. و على الثانى عامة فى الأحرار، و المماليك.

و قوله «وَ لَيْسْتَ عَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» أمر

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٨

(٢) لسان العرب (أيم) و تفسير الطبرى ١٨ / ٨٨ و القرطبي ١٢ / ٢٤٠

من الله تعالى لمن لا يجد السبيل الى أن يتزوج، بأن لا يجد طولا من المهر، و لا يقدر على القيام بما يلزمها من النفقة و الكسوة، أن يتعفف، و لا يدخل في الفاحشة، و يصبر حتى يغنيه الله من فضله.

وقوله «وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» معناه إن الإنسان إذا كانت له أمة أو عبد يطلب المكاتبه. و هي أن يقوم على نفسه و ينجم عليه ليؤدي قيمة نفسه الى سيده، فانه يستحب للسيد أن يجيبه الى ذلك و يساعد عليه لدلالة قوله تعالى «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا» و هذا أمر ترغيب بلا خلاف عند الفقهاء.

و قال عمرو بن دينار، و عطاء، و الطبري: هو واجب عليه إذا طلب. و صورة المكاتبه أن يقول الإنسان لعبده، أو أمته: قد كاتبتك على ان تعطيني كذا و كذا ديناراً أو درهما في نجوم معلومة على أنك إذا أدبت ذلك فأنت حر، فيرضى العبد بذلك، و يكاتبه عليه و يشهد بذلك على نفسه، فمتى أدى ذلك، و هو مال الكتابة في النجوم التي سماها صار حراً، و ان عجز عن أداء ذلك كان لمولاه أن يرده في الرق. و عندنا يعتق منه بحساب ما أدى و يبقى مملوكاً بحساب ما بقى عليه إذا كانت الكتابة مطلقة، فان كانت مشروطة بأنه متى عجز رده في الرق، فمتى عجز جاز له رده في الرق. و (الخير) الذي يعلم منه هو القوة على التكسب. و تحصيل ما يؤدي به مال الكتابة. و قال الحسن: معناه ان علمتم منهم صدقاً. و قال ابن عباس و عطاء: ان علمتم لهم مالا. و قال ابن عمر: ان علمتم فيهم قدرة على التكسب، قال: لأنه إذا لم يقدر على ذلك قال اطعمني «١» أو ساخ أيدى الناس، و به قال سلمان.

(١) في المخطوطة (استطعتم) بدل (قال اطعمني)

ص: ٤٣٤

و اختلفوا في الامر بالكتابة مع طلب المملوك لذلك و علم مولاه أن فيه خيراً. فقال عطاء:

هو الفرض. و قال مالك، و الثوري، و ابن زيد: هو على الندب. و هو مذهبننا.

وقوله «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ» أمر من الله تعالى أن يعطى السيد مكاتبه من ماله الذي أنعم الله عليه، بأن يحط شيئاً منه. و

روى عبد الرحمن السلمي عن علي (ع) أنه قال: يحط عنه ربع مال الكتابة.

و قال سفيان أحب ان يعطيه الربع، او أقل، و ليس بواجب و قال ابن عباس و عطاء و قتادة: أمره بأن يضع عنه من مال الكتابة شيئاً. و قال الحسن و ابراهيم: حثه الله تعالى على معونته. و قال قوم: المعنى أتوهم سهمهم من الصدقة الذي ذكره في قوله «وَأَتَوْهُمْ فِي الرِّقَابِ» «١» ذكره ابن زيد عن أبيه، و هو مذهبننا.

و اختلفوا في الحط عنه، فقال قوم: هو واجب، و قال آخرون- و هو الصحيح - انه مرغب فيه.

وقوله «وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا» نهى عن إكراه الأمة على الزنا. قال جابر بن عبد الله: نزلت فى عبد الله بن أبى بن سلول، حين اكراه أمته مسيكة على الزنا. وهذا نهى عام لكل مكلف عن أن يكره أمته على الزنا طلباً لمهرها و كسبها. وقوله «إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا» صورته صورة الشرط و ليس بشرط و انما ذكر لعظم الافحاش فى الإكراه على ذلك. و قيل: انها نزلت على سبب فوق النهى عن المعنى على تلك الصفة.

وقوله «وَمَنْ يَكْرِهُنَّ» يعنى على الفاحشة «فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ» اى لهن «غَفُورٌ رَحِيمٌ» ان وقع منها صغير فى ذلك، و الوزر على المكروه.

(١١) سورة ٩ التوبة آية ٤١

ص: ٤٣٥

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٣٤ الى ٣٥]

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)

آيتان بلا خلاف.

قرأ «درى» مشددة، بضم الدال من غير همز، ابن كثير و نافع و ابن عامر و حفص عن عاصم. و قرأ - بكسر الدال و الهمز - ابو عمرو، و الكسائى. و قرأ - بضم الدال و الهمز - حمزة و عاصم، فى رواية أبى بكر، و قرأ ابن كثير و ابو عمرو «توقد» بفتح التاء و الدال. و قرأ - بالياء مخففة مرفوع مضموم الياء - نافع و ابن عامر و حفص عن عاصم و الكسائى. و قرأ - بضم التاء و الدال مخففة مرفوعة - حمزة و ابو بكر عن عاصم.

فمن قرأ «درى» بكسر الدال، فهو من (درأت) اى رفعت. و الكوكب (درى) لسرعة رفعه فى الانقضاض، و الجمع الدرارى، و هى النجوم التى تجىء و تذهب. و قال قوم: هى احد الخمسة المضئية: زحل، و المشترى، و المريخ، و الزهرة، و عطارد.

ص: ٤٣٦

و من قرأ - بضم الدال - نسبه الى الدر فى صفائه و حسنه. و من ضم الدال و همز، فهو غير معروف عند أهل اللغة، لأنه ليس فى الكلام (فُعيل) - ذكره الفراء - و قال ابو عبيدة: وجهه ان يكون - بفتح الدال - كأنه (فُعيل). قال سيبويه: ليس فى الكلام

(فعليل) و انما تكسر الفاء مثل (سكيت). و روى المفضل عن عاصم انه قرأ- بكسر الدال- من غير همز، و لا مدّ، و معناه: انه جار كالنجوم الدرارى الجارية مأخوذ من در الوادى إذا جرى.

و وجه قراءة ابن كثير فى «توقد» أنه على (فعل) ماض، و ضم الدال ابن محيصن أراد (تتوقد). و من ضم الياء مثل نافع و ابن عامر، رده على الكوكب.

و قال الفراء: رده على المصباح. و من ضم التاء و الدال رده على الزجاجية.

اقسم الله تعالى انه انزل «آيات» يعنى دلالات «مبينات» يعنى مفصلات، بينهن الله و فصلهن، فيمن قرأ- بفتح الياء- و من كسر الياء: معناه ان هذه الآيات و الحجج تبين المعانى و تظهر ما بطن فيها.

و قوله «وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» معناه انه انزل إليكم اخبار من كان قبلكم من امم الرسل، و جعل ذلك عبراً لنا. و قيل لتعتبروا بذلك و تستدلوا به على ما يرضاه الله منكم فتفعلوه و على ما يسخطه فتتجنبوه.

و قوله «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما- ان الله هادى اهل السموات و الأرض- ذكره ابن عباس- فى رواية و أنس.

و الثانى- انه منور السموات و الأرض بنجومها و شمسها و قمرها- فى رواية اخرى- عن ابن عباس، و قال ابو العالية و الحسن مثل ذلك.

ثم قال تعالى «مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ» الهاء فى قوله «نوره» قيل

ص: ٤٣٧

إنها تعود على المؤمن، و تقديره مثل النور الذى فى قلبه بهداية الله، و هو قول أبى ابن كعب و الضحاك. و قال ابن عباس: هى عائدة على اسم الله، و معناه مثل نور الله الذى يهدى به المؤمن. و قال الحسن: مثل هذا القرآن فى القلب كمشكاة.

و قيل: مثل نوره و هو طاعته- فى قول ابن عباس- فى رواية. و قيل: مثل نور محمد (ص). و قال سعيد بن جبير: النور محمد، كأنه قال مثل محمد رسول الله (ص) فالهاء كناية عن الله. و المشكاة الكوة التى لا منفذ لها- فى قول ابن عباس و ابن جريج- و قيل: هو مثل ضرب لقلب المؤمن، و المشكاة صدره، و المصباح القرآن، و الزجاجية قلبه- فى قول أبى ابن كعب، و قال: فهو بين اربع خلال إن أعطى شكر، و إن ابتلى صبر، و إن حكم عدل، و إن قال صدق. و قيل: المشكاة عمود القنديل الذى فيه الفتيلة، و هو مثل الكوة. و قال كعب الأحبار: المشكاة محمد (ص) و المصباح قلبه، شبه صدر النبى بالكوكب الدرى.

ثم رجع الى المصباح أى قلبه شبهه بالمصباح كأنه فى زجاجة و «الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ» أى يتبين للناس و لو لم يتكلم انه نبي. و من قال «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ» يعنى منورها بالشمس و القمر و النجوم، ينبغى ان يوجه ضرب المثل بالمشكاة على ان ذلك مثل ما فى مقدوره، ثم تنبت الأنوار الكثيرة عنه.

ضرب الله تعالى المثل لنوره الذى هو هدايته فى قلوب المؤمنين بالمشكاة، و هى الكوة التى لا منفذ لها إذا كان فيها مصباح، و هو السراج، و يكون المصباح فى زجاجة، و تكون الزجاجة مثل الكوكب الدرى - فمن ضم الدال - منسوب الى الدر فى صفائه و نوره. و من كسر الدال شبهها بالكوكب فى سرعة تدفعه بالانتقاض.

ثم عاد الى وصف المصباح، فقال «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ» أى

ص: ٤٣٨

يشتعل من دهن شجرة مباركة، و هى الزيتون الشامية، قيل لأن زيتون الشام ابرك.

و قيل: وصفه بالبركة لان الزيتون يورق من اوله الى آخره.

و قوله «لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ» قال ابن عباس - فى رواية - معناه لا شرقية بشروق الشمس عليها فقط و لا غربية بغروبها عليها فقط، بل هى شرقية غربية تأخذ حظها من الامرين، فهو أجود لزيتها. و قيل: معناه انها وسط البحر، روى ذلك عن ابن عباس أيضاً. و قال قتادة: هى ضاحية للشمس، و قال الحسن: ليست من شجر الدنيا «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ» أى زيتها من صفائه و حسنه يكاد يضىء من غير ان تمسه نار و تشتعل فيه. و قال ابن عمر الشجرة ابراهيم (ع) و الزجاجة التى كأنها كوكب درى محمد (ص).

و قوله «نُورٌ عَلَى نُورٍ» قيل: معناه نور الهدى الى توحيده، على نور الهدى بالبيان الذى اتى به من عنده. و قال زيد بن اسلم «نور على نور» معناه يضىء بعضه بعضاً. و قيل «نور على نور» معناه انه يتقلب فى خمسة أنوار، فكلامه نور، و علمه نور، و مدخله نور، و مخرجه نور، و مسيره نور الى النور يوم القيامة الى الجنة. و قال مجاهد: ضوء النار على ضوء النور على ضوء الزيت على ضوء المصباح على ضوء الزجاجة.

و قوله «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» أى يهدى الله لدينه و إيمانه من يشاء بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الايمان إذا علم ان له لطفاً. و قيل: معناه يهدى الله لنبوته من يشاء، ممن يعلم انه يصلح لها. و قيل: معناه «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ» أى يحكم بإيمانه لمن يشاء، ممن آمن به.

و قوله «وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ» معناه يضرب الله الأمثال للذين يفكرون فيها و يعتبرون بها «وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» لا يخفى عليه خافية.

ص: ٤٣٩

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَبَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

ثلاث آيات في الكوفي والبصري تمام الآية الأولى «الآصال» و في الباقي آيتان آخرهما «الأبصار» و «حساب».

قرأ ابن عامر و ابو بكر و ابن شاهي عن حفص «يسبح» بفتح الباء. الباقيون بكسرهما، فمن فتح الباء، وقرأ على ما لم يسم فاعله احتملت قراءته في رفع (رجال) وجهين:

أحدهما- أن يكون الكلام قد تم عند قوله «و الآصال» ثم قال «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» فالتجارة الجلب، و البيع ما يبيع الإنسان على يده.

و الوجه الثاني- أن يرفع (رجال) بإضمار فعل يفسره الأول، فيكون الكلام تاماً عند قوله «و الآصال» ثم يتدئ «رجال» بتقدير يسبحه رجال. و قال ابو على:

يكون أقام الجار و المجرور مقام الفاعل، ثم فسر من يسبحه، فقال «رجال» أي يسبحه رجال، و منه قول الشاعر:

ص: ٤٤٠

ليبيك يزيد ضارع لخصومة «١»

كأنه قال لبيك يزيد. قيل من يبيكيه؟ فقال: يبيكيه ضارع. و قال المبرد:

يجوز ان يكون يسبح نعتاً للبيوت، و تقديره في بيوت اذن الله برفها و ذكر اسمه و يسبح له فيها رجال لا تلهيهم تجارة. و من قرأ بكسر الباء- و رفع رجالا بفعلهم، فعلى هذه القراءة لا يجوز الوقف إلا على «رجال» و على الاول على قوله «و الآصال».

و الآصال جمع أصيل. و قرأ أبو محلم «الآصال» بكسر الالف جعله مصدرأ.

و قوله «فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ» قيل في العامل في (في) قولان:

أحدهما- (المصاييح) في بيوت، و العامل استقرار المصاييح، و هو قول ابن زيد.

و الثاني - توقد فى بيوت، و هذه البيوت هى المساجد - فى قول ابن عباس و الحسن و مجاهد - و قال عكرمة: هى سائر البيوت و قال الزجاج: يجوز ان تكون (فى) متصلة بيسبح و يكون فيها كقولك فى الدار قام زيد فيها.

و قوله «أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ» قال مجاهد: معناه أذن الله أن تبنى، و ترفع بالبناء، كما قال «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ» «٢» و قال الحسن:

معناه أن تعظم، لأنها مواضع الصلوات.

و قوله «وَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ» أى يذكر اسم الله فى هذه البيوت. و قيل تنزه من النجاسات و المعاصى.

و قوله «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْآصَالِ» قال ابن عباس: معناه يصلى له فيها بالعداء و العشى، و هو قول الحسن و الضحاك. و قال ابن عباس: كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة.

(١) انظر ٣١٠ / ٤ تعليقه ٢ و ٣٢٩ / ٦

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٢٧

ص: ٤٤١

و قوله «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» أى لا تشغلهم و لا تصرفهم التجارة و البيع عن ذكر الله و تعظيمه.

و

روى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) انه تعالى مدح قوماً إذا دخل وقت الصلاة تركوا تجارتهم و بيعهم، و اشتغلوا بالصلاة.

و قوله «وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ» أى لا تصرفهم تجارتهم عن ذكر الله، و عن اقامة الصلاة، و حذف التاء لان الاضافة عوض عنها، لأنه لا يجوز أن تقول: أقمته إقاماً، و انما يجوز إقامة، و الهاء عوض عن محذوف، لان أصله أقوام، فلما اضافه قامت الاضافة مقام الهاء «وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ» أى و لا يصرفهم ذلك عن إعطاء الزكاة التى افترضها الله عليهم. و قال ابن عباس: الزكاة الطاعة لله و قال الحسن: هى الزكاة الواجبة فى المال قال الشاعر [فى حذف الهاء و العوض عنها بالاضافة]:

و أخلفوك عدى الأمر الذى وعدوا «١»

إن الخليط اجدوا البين فانجدوا

يريد عدة الأمر فحذف الهاء لما أضاف.

وقوله تعالى «يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» أى يخافون عذاب يوم أو احوال يوم تتقلب فيه القلوب من عظم أهواله، و الأبصار من شدة ما يعاينوه. و قيل تتقلب فيه القلوب ببلوغها الحناجر، و تقلب الأبصار بالعمى بعد النظر و قال البلخى: معناه إن القلوب تنتقل من الشك الذى كانت عليه، الى اليقين و الايمان. و إن الأبصار تتقلب عما كانت عليه، لأنها تشاهد من أهوال ذلك اليوم ما لم تعرفه، و مثله قوله «لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا» ﴿٢﴾ الآية. و قال الجبائى:

(١) تفسير الطبرى ١٨ / ١٠٢ و اللسان (وعد)

(٢) سورة ٥٠ ق آية ٢٢

ص: ٤٤٢

تتقلب القلوب و الأبصار عن هيئاتها بأنواع العقاب كتقلبها على الجمر.

و قوله «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا» أى يفعلون ذلك طلبا لمجازات الله إياهم بأحسن ما عملوا من ثواب الجنة، و يزيدهم على ذلك من فضله و كرمه. ثم اخبر تعالى انه «يرزق» على العمل بطاعته تفضلا منه تعالى «مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» و الثواب لا يكون إلا بحساب و التفضل يكون بغير حساب.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظلماتٍ فى بحرٍ لججٍ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٤٠)

آيتان بلا خلاف.

ثم اخبر الله تعالى عن احوال الكفار، فقال و الذين كفروا بتوحيد الله و اخلاص العبادة و جحدوا أنبياءه «أعمالهم» التى عملوا يعنى التى يعتقدون أنها طاعات و قربات «كسرابٍ بقيعة» فالسراب شعاع يتخيل كالماء يجرى على الأرض نصف النهار حين يشتد الحر و الال شعاع يرتفع بين السماء و الأرض - كالماء - ضحوة النهار، و الال يرفع الشخص فيه. و انما قيل سراب، لأنه يتسرب أى يجرى كالماء و (قيعة) جمع قاع، و هو المنبسط من الأرض الواسع. و فيه يكون السراب

ص: ٤٤٣

و منله جار و جيرة، و يجمع ايضاً على (اقواع، و قيعان)، و الشعاع بالقاع يتكثف فيرى كالماء، فإذا قرب منه صاحبه انفسح كالضباب، فلم يره شيئاً، كما كان. و قال ابن عباس: القبيعة الأرض المستوية. و المعنى: إن الكافر لم يجد شيئاً على ما قدر.

و قوله «وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ» و المعنى ان الذى قدره من جزاء أعماله لا يجده، و يعلمه الله عند عمله فيوفيه جزاءه على سوء أفعاله.

و قوله «وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» أى سريع المجازاة، لان كل ما هو آت سريع قريب. و قال الجبائى:، لأنه تعالى يحاسب الجميع فى وقت واحد، و ذلك يدل على انه لا يتكلم بآلة. و انه ليس بجسم، لأنه لو كان متكلماً بآلة لما تأتى ذلك إلا فى أزمان كثيرة.

ثم شبه الله تعالى أفعال الكافر بمثال آخر، فقال «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ» أى أفعاله مثل ظلمات، يعنى ظلمة البحر و ظلمة السحاب، و ظلمة الليل، لان الكافر حاله ظلمة، و اعتقاده ظلمة، و مصيره الى ظلمة، و هو فى النار يوم القيامة نعوذ بالله منها. و تلخيص الكلام أن اعمال هؤلاء الكفار كالسراب يحسبه الظمان - من بعد - ماء يرويه حتى إذا دنى منه لم يجده شيئاً أى حتى إذا مات لم يجد عمله شيئاً لأنه بطل بكفره، و وجد الله عند عمله يجازيه عليه. ثم ضرب مثلاً آخر فقال او كظلمات يعنى انه فى حيرة من كفره مثل هذه الظلمات «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا» فى قلبه و يهديه به «فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» يهتدى به.

و قوله «فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ» مبالغة فى تشبيه هذه الافعال بالظلمات المتكاثفة على ما وصفه الله تعالى، و لجة البحر معظمه، الذى تتراكب فيه أمواجه لا يرى ساحله. و الظلمات مثل التحير، و التحير الجهل الذى يغشى القلب. و قوله «إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا» انما قال لم يكد يراها مع أنه

ص: ٢٢٢

بدون هذه الظلمات لا يراها، لان (كاد يراها) معناه قارب ان يراها، و لم يكد يراها لم يقارب أن يراها، فهى نفى مقارنة الرؤية على الحقيقة. و قيل دخل (كاد) بمعنى النفى كما يدخل الظن بمعنى اليقين، كأنه قال: يكفيه ان يكون على هذه المنزلة فكيف أقصى المنازل. و قيل يراها بعد جهد و شدة، رؤية تخيل لصورتها. و قال الحسن لم يكد يراها لم يقارب الرؤية قال الشاعر:

ما كدت أعرفه إلا بعد انكار

و قالوا كاد العروس يكون أميراً. و كاد النعام يطير. و قوله «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا، فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» معناه من لم يجعل الله له هداية الى الرشد، فما له من نور، أى فما له ما يفلح به على وجه من الوجوه. و قيل: من لم يجعل الله له نوراً يوم القيامة يهديه الى الجنة، فما له من نور يهديه اليها.

و فى الآية دلالة على فساد قول من يقول: إن المعارف ضرورة، لأنه لا يصح مع المعرفة الضرورية الحسبان.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٤١ الى ٤٤]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ
بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)

ص: ٤٤٥

أربع آيات في البصرى والكوفى و ثلاث فى غيرها. لأنهم لم يعدوا «بالأبصار» آخر آية.

قرأ ابو جعفر المدنى «يذهب بالأبصار» بضم الياء. الباقون بفتحها. وقد مضى ذكر مثله.

يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) «ألم تر» يا محمد والمراد به جميع المكلفين أى ألم تعلم ان الذى ذكره فى الآية لا يرى بالأبصار و انما يعلم بالادلة، «أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فالتسبيح التنزيه لله تعالى عن جميع ما لا يجوز عليه، و لا يليق به، فمن نفى عنه صاحبة و الولد، فقد سبحه، لأنه برأه مما لا يجوز عليه، و من نفى عنه أن يكون له شريك فى ملكه او عبادته، فقد سبحه، لأنه برأه مما لا يجوز عليه، و كذلك من نفى عنه فعل القبيح، فقد سبحه، لأنه برأه مما لا يجوز عليه. و من نفى عنه أن يكون له شريك فى ملكه او عبادته، فقد سبحه، لأنه برأه مما لا يجوز عليه، و كذلك من نفى عنه فعل القبيح، فقد سبحه، لأنه برأه مما لا يجوز عليه. و تسبيح من فى السموات و الأرض إنما هو بما فيها من الدلالات على توحيده، و نفى صاحبة عنه، و نفى تشبيهه بخلقه و تنزيهه عما لا يليق به، مما يدل على ذلك و يدعو اليه، كأنه المسبح له.

و قوله «وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ» معناه و تسبحة الطير صافات فى حال اصطفاها فى الهواء، لأنها إذا صفت أجنحتها فى الهواء و تمكنت من ذلك كان فى ذلك دلالة و عبرة على أن ممكنها من ذلك لا يشبه شيئاً من المخلوقات.

و قوله «كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ» معناه: إن جميع ذلك قد علم الله تعالى

ص: ٤٤٦

صلاته، يعنى دعاءه الى توحيده، و تسبيحه، و تنزيهه عما لا يليق به. و قال مجاهد:

الصلاة للإنسان، و التسبيح لكل شىء. و قيل: كل قد علم صلاته أى صلاة نفسه، و تسبيح نفسه، فيكون الضمير فى علم ل (كل)، و على الأول يعود على اسم الله، و الأول أجود، لان هذه الأشياء كلها لا يعلم كيفية دلالتها غير الله. و انما الله تعالى عالم بذلك، و يقويه قوله «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» أى عالم بأفعالهم، لا يخفى عليه شىء منها. فيجازيهم بحسبها.

ثم اخبر تعالى فقال «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، و الملك المقدور الواسع لمن يملك السياسة و التدبير، فملك السموات و الأرض لا يصح إلا لله وحده لا شريك له، لأنه لا يقدر على خلق الأجسام غيره، و ليس مما يصح أن يملكه العبد، لأنه لا يمكنه أن يصرفه أتم التصريف، فالملك التام، لا يصح الا لله تعالى.

و قوله «وَأِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» اى اليه المرجع يوم القيامة، الى ثوابه او عقابه.

ثم قال «أَلَمْ تَرَ» اى ا لم تعلم (أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا) اى يسوق سحاباً الى حيث يريد، و منه زجا الخراج إذا انساق الى أهله و أزجاءه فلان أى ساقه «تَمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ» أى بين بعضه و بعض، لان لفظ سحاب جمع، واحده سحابة، و هو كقولهم: جلس بين النخل، لان لفظ بين لا تستعمل إلا فى شيئين فصاعداً.

و قوله «تَمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا» و هو المترابك بعضه فوق بعض «فَفَرَّى الْوُدُقَ» يعنى المطر، يقال: ودقت السحابة، تدق و دقاً إذا أمطرت قال الشاعر:

و لا ارض اقبل إبقالها «١»

فلا مزنة و دقت و دقها

«يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ» فالخلال جمع خلل. و قوله «وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ» معنى (من) الاولى، لابتداء الغاية، لان (من السماء) ابتداء

(١) مر تخريجه فى ٢١٦ / ١ و ٣٤١ / ٥

ص: ٤٤٧

الانزال بالمطر، و الثانية للتبعيض، لأن البرد بعض الجبال التى فى السماء، و الثالثة لتبيين الجنس، لان جنس الجبال جنس البرد. و قيل فى السماء جبال برد مخلوقة فى السماء. و قال البلخى: يجوز أن يكون البرد يجتمع فى السحاب كالجبال ثم ينزل منها.

و قيل السماء هو السحاب، لان كل ما علا مطبقاً فهو سماء. و قال الفراء: يجوز أن يكون المراد و ينزل من السماء قدر جبال من برد، كما تقول: عندى بيتان من تبن أى قدر بيتين. و قال الحسن: فى السماء جبال برد، و قيل المعنى: قدر جبال يجعل منها برداً على ما حكيناه عن الفراء.

و قوله «فَيُصِيبُ بِهِ» يعنى بذلك البرد «فَيُصِيبُ بِهِ مِنْ يَشَاءُ» ان يهلك أو يهلك ماله «وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ» على حسب اقتضاء المصلحة.

وقوله «يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ» أى ضياء البرق، فسنا البرق مقصور، و سناء المجد ممدود. و قال ابن عباس و ابن زيد: يعنى ضوء برقه يكاد يختطف الأبصار. و قال قتادة: لمعان برقه.

وقوله «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» يعنى يجىء بالنهار عقيب الليل، و بالليل عقيب النهار. و قيل: يزيد من هذا فى ذاك و ينقص من ذاك فى هذا «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً» أى دلالة (الأولى الأبصار) يعنى ذوى العقول الذين يبصرون بقلوبهم.

و فى الآية دلالة على وجوب النظر، و فساد التقليد، لأنه تعالى مدح المعتبرين بعقولهم بما نبه من الدلالات و الآيات الدالة على توحيده و عدله و غير ذلك.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): آية ٤٥]

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

ص: ٤٤٨

آية بلا خلاف.

قرا حمزة و الكسائى و خلف (و الله خالق) على وزن (فاعل). الباقون (خلق) على فعل ماض. و من قرأ (خالق) فلقوله (خالق كل شىء) «١» و من قرأ خلق، فلانه فعل ذلك فيما مضى، و لقوله (ألم تر ان الله خلق السموات) «٢» و قوله (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَقْدِيرًا) «٣».

اخبر الله تعالى انه خالق كل شىء يدب من الحيوان من ماء. ثم فصله فقال منهم من يمشى على بطنه كالحياة و السمك و الدود، و غير ذلك. و منهم من يمشى على رجلين كالطير و ابن آدم، و غير ذلك، و منهم من يمشى على أربع كالبهائم و السباع و غير ذلك. و لم يذكر ما يمشى على أكثر من أربع، لأنه كالذى يمشى على أربع فى مرأى العين، فترك ذكره، لان العبرة تكفى بذكر الأربع. و قال البلخى:

لان عند الفلاسفة أن ما زاد على الأربع لا يعتمد عليها. و اعتماده على الأربع فقط، و انما قال (من ماء) لان أصل الخلق من ماء، ثم قلب الى النار، فخلق الجن منه، و الى الريح فخلق الملائكة منه، ثم الى الطين فخلق آدم (ع). و دليل أن اصل الحيوان كله الماء قوله تعالى (وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا) «٤» و انما قال منهم تغليبا لما يعقل على ما لا يعقل إذا اختلط فى خلق كل دابة. و قيل (من ماء) أى من نطفة، و ذكره الحسن، و جعل قوله (كل دابة) خاصا، فيمن خلق من نطفة.

و قوله (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) أى يبتدع ما يشاء، و ينشئه من الحيوان،

(١) سورة ٤٠ المؤمن آية ٦٢ و سورة ٦ الانعام آية ١٠٢ و سورة ١٣ الرعد آية ١٨

(٢) سورة ١٤ إبراهيم آية ١٩

(٣) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢

(٤) سورة ٢١ الأنبياء آية ٣٠

ص: ٤٤٩

و غيره (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لا يتعذر عليه شيء يريد.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٤٦ الى ٥٠]

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَمْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

خمس آيات بلا خلاف.

اقسم الله تعالى في هذه الآية انه انزل (آياتٍ مُّبِينَاتٍ) أى دلالات واضحات تظهر بها المعانى، و تتميز، مما خالفها حتى تعلم مفصلة. و من كسر الياء، جعلها من المبينة المظهرة مجازاً، من حيث يتبين بها، فكأنها المبينة.

و قوله (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) معناه و الله يلطف لمن يشاء بما يعلم انه يهتدى عنده (إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) واضح: من توحيده و عدله و صدق أنبيائه. و الهداية الدلالة التي يهتدى بها صاحبها الى الرشد، و قد تطلق على ما يصح أن يهتدى بها، كما قال تعالى (وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى

ص: ٤٥٠

الهُدَى) «١» لأن المراد فى الآية اللطف على ما قلناه. و قال الجبائى: قوله (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) يعنى المكلفين دون من ليس بمكلف، و يجوز أن يكون المراد هدايتهم فى الآخرة الى طريق الجنة، و الصراط المستقيم الايمان لأنه يؤدى الى الجنة.

و قوله (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) قيل انها نزلت فى صفة المنافقين، لأنهم يقولون بألسنتهم:

آمنا بالله و صدقنا رسوله، فإذا انصرفوا إلى أصحابهم قالوا خلاف ذلك، فأخبر الله تعالى أن هؤلاء ليسوا بمؤمنين على الحقيقة. ثم اخبر عن حال هؤلاء فقال: «وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» فى شىء يختلفون فيه «إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ» يعنى المنافقين «معرضون» عن ذلك. و لا يختارونه، لأنه يكون الحق عليهم. ثم قال «وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ» و تتوجه لهم الحكومة «يَأْتُوا إِلَيْهِ» يعنى الى النبى (ص) منقادين «مُدْعَيْنَ» و الإذعان هو الانقياد من غير إكراه، فهؤلاء المنافقون إذا دعوا الى رسول الله (ص) ليحكم بينهم فى شىء اختلفوا فيه، امتنعوا ظلماً، لأنفسهم.

و كفروا بنبيهم، ففضحهم الله بما أظهر من جهلهم و نفاقهم.

و قيل انها نزلت فى رجل من المنافقين كان بينه و بين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودى الى رسول الله، و دعاه المنافق الى كعب بن الأشرف. و قيل انها نزلت فى على (ع) و رجل من بنى أمية دعاه على الى رسول الله، و دعاه الاموى الى اليهود، و كان بينهما منازعة فى ماء و أرض. و حكى البلخى انه كانت بين على (ع) و عثمان منازعة فى أرض اشتراها من على، فخرجت فيها أحجار، و أراد ردها بالعب، فلم يأخذها، فقال بينى و بينك رسول الله، فقال الحكم ابن أبى العاص ان حاكمته الى ابن عمه حكم له، فلا تحاكمه اليه، فانزل الله الآية.

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٧

ص: ٤٥١

ثم قال تعالى منكرأ عليهم «أَفِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أى شك فى قلوبهم، و سمي الشك مرضاً، لأنه آفة تصد القلب عن ادراك الحق، كآفة فى البصر تصد عن ادراك الشخص، و انما جاء على لفظ الاستفهام، و المراد به الإنكار، لأنه أشد فى الذم و التوبيخ أى ان هذا كفر، قد ظهر حتى لا يحتاج فيه الى البينة، كما جاز فى نقيضه على طريق الاستفهام، لأنه أشد مبالغة فى المدح، كما قال جرير:

و اندى العالمين بطون راح «١»

ألستم خير من ركب المطايا

فقال الله تعالى «أَفِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أى شك فى النبى «أَمْ ارْتَابُوا» بقوله و بحكمه (أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ عَلَيْهِمْ) أى يجور عليهم، و الحيف الجور بنقض الحق، و يحيف عليهم: يظلمهم، لأنه لا وجه للامتناع عن المجىء إلا أحد هذه الثلاثة.

ثم اخبر تعالى فقال: ليس لشىء من ذلك، بل لأنهم الظالمون نفوسهم و غيرهم، و المانعون لهم حقوقهم، و إنما أفرد قوله (لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) بعد قوله (إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ)، لأنه حكم واحد يوقعه النبى (ص) بأمر الله.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٥١ الى ٥٤]

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

(١) قائله جرير، ديوانه (دار بيروت) ٧٧

ص: ٤٥٢

أربع آيات بلا خلاف.

قرأ أبو بكر و أبو عمرو (و يتقه) ساكنة القاف، لان الهاء لما اختلطت بالفعل و صارت مزدوجة ثقلت الكلمة، فخفت بالإسكان. وقيل: انهم توهموا أن الجزم واقع عليها. وقرأ ابن كثير، و ابن عامر، و حمزة، و الكسائي، و ورش (و يتقهي) بكسر الهاء المجاورة القاف المكسورة، و بعد الهاء ياء. و روى قالون باختلاس الحركة، و هو الأجود عند النحويين، لان الأصل يتقيه باختلاس الحركة، فلما سقطت الياء للجزم بقيت الحركة مختلطة، كما كانت. و روى حفص بإسكان القاف و كسر الهاء، لأنه كره الكسرة في القاف و أسكنها تخفيفاً، كما قال الشاعر:

و من والد لم يلد له أبوان «١»

عجبت لمولود و ليس له أب

و يجوز ان يكون أسكن القاف و الهاء ساكنة، فكسر الهاء لالتقاء الساكنين، و لأن من العرب من يقول لم يتق مجزوم القاف بعد حذف الياء.

لما اخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم إذا دعوا الى الله و رسوله في الحكم بينهم فيما يتنازعون فيه، فإنهم عند ذلك يعرضون عن ذلك، و لا يجيبون اليه، أخبر أن المؤمنين بخلافهم و انهم إذا قيل لهم تعالوا (إلى الله و رسوله ليحكم بينهم) ينبغي (ان يقولوا) في الجواب عن ذلك (سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا) أى قبلنا هذا القول و انقذنا اليه و أجبنا الى حكم الله و رسوله.

ثم اخبر تعالى عن هؤلاء المؤمنين بأنهم (هُمُ الْفَائِزُونَ) الذين فازوا بشواب الله و كريم نعمة. و

عن أبي جعفر (ع) أن المعنى بالآية أمير المؤمنين (ع)

(١) مر تخريجه في ٤ / ٧

ص: ٤٥٣

بخلاف ما وصف خصمه الذي ذكره في الآية الاولى.

ثم قال تعالى (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) بان يفعل ما أمره به و يبادر اليه (وَيَخْشَى اللَّهَ وَ يَتَّقَهُ) بأن يخاف عقابه، فيجتنب معاصيه، فان من هذه صفته من الفائزين. و (الفوز) أخذ الحظ الجزيل من الخير، تقول: فاز يفوز فوزاً، فهو فائز. و سميت المهلكة مفازة تفاعلاً، فكانه قيل: منجاة.

ثم أخبر تعالى عن جماعة من المنافقين بأنهم «أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» أى حلفوا به أغلظ أيمانهم، و قدر طاقتهم «لَتُنْ أَمْرَتُهُمْ» يا محمد بالخروج «لَيُخْرِجَنَّ» يعنى الى الغزو، فقال الله تعالى لهم «لَا تُقْسِمُوا» أى لا تحلفوا «طَاعَةً مَعْرُوفَةً» و قيل: فى معناه قولان:

أحدهما - هذه طاعة معروفة منكم يعنى بالقول دون الاعتقاد. أى إنكم تكذبون ذكره مجاهد.

و الثانى - طاعة و قول معروف أمثل من هذا القسم، و القول المعروف هو المعروف صحته. فان ذلك خير لكم من هذا الحلف.

ثم اخبر تعالى بأنه «خبير» أى عالم «بِمَا تَعْمَلُونَ» لا يخفى عليه شىء على أى وجه توقعون أفعالكم، فيجازيكم بحسبها. و فى ذلك تهديد. ثم قال «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ» أى تتولوا، فحذفت التاء، و ليس كقوله «وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ» «١» لان الأول مجزوم، و هو للمخاطبين، لأنه قال «وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ» و لو كان لغير المخاطبين، لقال و عليهم، كما قال «وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ» و كان يكون فى موضع نصب لأنه بمنزلة قولك: فان قاموا، و الجزاء يصلح فيه لفظ المستقبل و الماضى من (فعل يفعل) كما قال (فَإِنْ فَأَوْ فَإِنَّ اللَّهَ) «٢». و قوله

(١) سورة البقرة آية ١٣٧

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٤

ص: ٤٥٤

(وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) فى موضع نصب ذكره الفراء، و قوله (فَإِنَّمَا عَلَيْهِ) يعنى على المتولى جزاء ما حمل أى كلف، فانه يجازى على قدر ذلك، و عليكم جزاء ما كلفتم إذا خالفتهم (وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) يعنى ان أطعتم رسوله تهتدوا.

ثم اخبر انه ليس (عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ) الظاهر و القبول يتعلق بكم، و لا يلزمه عهده، و لا يقبل منكم اعتذار تركه بامتناع غيره.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): آية ٥٥]

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ لِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)

آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و ابو بكر عن عاصم (و ليبدلنهم) بالتخفيف. الباقر بالتشديد. و قرأ ابو بكر عن عاصم (كما استخلف) بضم التاء على ما لم يسم فاعله.

الباقر بفتحها. قال ابو علي: الوجه فتح التاء، لأن اسم الله قد تقدم ذكره، و الضمير في (يستخلفنهم) يعود الى الاسم، فكذلك قوله (كما استخلف) لان المعنى ليستخلفنهم استخلافاً كاستخلافه الذين من قبلهم. و من ضم التاء ذهب الى ان المراد به مثل المراد بالفتح.

في هذه الآية وعد من الله تعالى للذين آمنوا من اصحاب النبي (ص) و عملوا

ص: ٤٥٥

الصالحات، بأن يستخلفهم في الأرض، و معناه يورثهم أرض المشركين من العرب و العجم (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) يعني بنى إسرائيل بأرض الشام بعد إهلاك الجابرة بأن أورثهم ديارهم و جعلهم سكانها. و قال الجبائي: (اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) يعني في زمن داود و سليمان. و قال النقاش: يريد بالأرض أرض مكة، لان المهاجرين سألوا ذلك، و الاول قول المقداد بن الأسود، و

روى عن رسول الله (ص) أنه قال: (لا يبقى على الأرض بيت مدر، و لا وبر إلا و يدخله الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل).

و في ذلك دلالة على صحة نبوة النبي (ص) لأنه أخبر عن غيب وقع مخبره على ما أخبر، و ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى (وَ لِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ) يعني يمكنهم من إظهار الإسلام الذي ارتضاه ديناً لهم (وَ لِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) أى نصرهم بعد أن كانوا خائفين بمكة وقت غلبة المشركين آمنين بقوة الإسلام و انبساطه.

ثم اخبر عن المؤمنين الذين وصفهم بأنهم يعبدون الله تعالى وحده لا يشركون بعبادته سواه من الأصنام و الأوثان و غيرهما. و يجوز ان يكون موضعه الحال.

و يجوز أن يكون مستأنفاً.

ثم قال (وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ) يعنى بعد الذى قصصنا عليك و وعدناهم به (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) و إنما ذكر الفسق بعد الكفر مع أن الكفر أعظم من الفسق، لأحد أمرين:

أحدهما- انه أراد الخارجين فى كفرهم الى أفحشه، لان الفسق فى كل شىء هو الخروج الى أكبره.

الثانى - أراد ان من كفر تلك النعمة بالفساد بعدها، فسق و ليس يعنى الكفر بالله، ذكره ابو العالية.

ص: ٤٥٦

و التبديل - تغيير حال الى حال أخرى، تقول: بدل صورته تبديلاً، و تبدل تبدلاً، و الابدال رفع الشىء بأن يجعل غيره مكانه، قال ابو النجم:

عزل الأمير بالأمير المبدل «١»

و التبديل رفع الحال الى حال أخرى. و الابدال رفع النفس الى نفس أخرى.

و الأصل واحد. و هو البدل.

و استدل الجبائى، و من تابعه على إمامة الخلفاء الأربعة بأن قال: استخلاف المذكور فى الآية لم يكن إلا لهؤلاء، لأن التمكين المذكور فى الآية إنما حصل فى أيام أبى بكر و عمر، لان الفتوح كانت فى أيامهم، فأبو بكر فتح بلاد العرب و طرفاً من بلاد العجم، و عمر فتح مداين كسرى الى حد خراسان و سجستان و غيرهما، فإذا كان التمكين و الاستخلاف هاهنا ليس هو إلا لهؤلاء الائمة الأربعة. و أصحابهم علمنا أنهم محقون.

و الكلام على ذلك من الوجوه.

أحدها- ان الاستخلاف - هاهنا - ليس هو الامارة و الخلافة. بل المعنى هو ابقاؤهم فى أثر من مضى من القرون، و جعلهم عوضاً منهم و خلفاً، كما قال «هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ» «٢» و قال «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يُسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ» «٣» و قال «وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يُسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ» «٤» و كقوله «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خَلْفَةً» «٥» أى جعل كل واحد منهما خلف صاحبه، و إذا ثبت ذلك، فالاستخلاف و التمكين الذى ذكره الله

(٢) سورة فاطر آية ٣٩

(٣) سورة الاعراف آية ١٢٨

(٤) سورة الانعام آية ١٣٣

(٥) سورة الفرقان آية ٦٢

ص: ٤٥٧

في آية، كانا في أيام النبي (ص) حين قمع الله أعداءه و أعلا كلمته و نشر ولايته، و اظهر دعوته، و أكمل دينه، و نعوذ بالله أن نقول: لم يمكّن الله دينه لئيبه في حياته حتى تلافي ذلك متلاف بعده، و ليس ذلك التمكين كثرة الفتوح و الغلبة على البلدان لأن ذلك يوجب أن دين الله لم يتمكن بعد الى يومنا هذا لعلنا ببقاء ممالك للكفر كثيرة لم يفتحها المسلمون، و يلزم على ذلك إمامة معاوية و بنى أمية، لأنهم تمكنوا اكثر من تمكن أبي بكر و عمر، و فتحوا بلاداً لم يفتحوها.

و لو سلمنا أن المراد بالاستخلاف الامامة للزم أن يكون منصوصاً عليهم، و ذلك ليس بمذهب اكثر مخالفيها، و إن استدلوا بذلك على صحة إمامتهم احتاجوا أن يدلوا على ثبوت إمامتهم بغير الآيه، و انهم خلفاء الرسول حتى تتناولهم الآيه.

فان قالوا: المفسرون ذكروا ذلك.

قلنا: لم يذكر جميع المفسرين ذلك، فان مجاهداً قال: هم أمة محمد (ص).

و عن ابن عباس و غيره: قريب من ذلك.

و

قال أهل البيت (ع) إن المراد بذلك المهدي (ع) لأنه يظهر بعد الخوف، و يتمكن بعد ان كان مغلوباً

، فليس في ذلك اجماع المفسرين. و هذا أول ما فيه. و قد استوفينا ما يتعلق بالآيه في كتاب الامامة، فلا نطول بذكره - هاهنا - و قد تكلمنا على نظير هذه الآيه، و ان ذلك ليس بطعن على واحد منهم، و انما المراد الممانعة من أن يكون فيها دلالة على الامامة، و كيف يكون ذلك. و لو صح ما قاله لما احتيج الى اختياره، و لكان منصوصاً عليه، و ليس ذلك مذهباً لأكثر العلماء، فصح ما قلناه.

ص: ٤٥٨

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا وَاهُمُ النَّارُ
وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

آيتان بلا خلاف.

قرأ حفص و ابن عامر و حمزة «لا يحسبن» بالياء. الباقون بالتاء. فمن قرأ- بالياء- فموضع (الذين) رفع. و من قرأ- بالتاء-
فموضعه نصب، و (معجزين) المفعول الثانى، و المفعول الثانى لمن قرأ- بالياء- قوله «فى الأرض». و قال ابو على:

المفعول الثانى على هذه القراءة محذوف، و تقديره: و لا يحسبن الذين كفروا إياهم معجزين. و قال الأخفش: من قرأ- بالياء-
يجوز أن يكون (الذين) فى موضع نصب، على تقدير لا يحسبن محمد الذين، فيكون محمد الفاعل.

امر الله تعالى فى الآيه الأولى جميع المكلفين باقامة الصلاة و إيتاء الزكاة للذين أوجبهما عليهم و ان يطيعوا الرسول فيما
يأمرهم به و يدعوهم اليه، ليرجموا جزاء على ذلك، و يتابوا بالنعم الجزيلة.

ثم قال «لا تحسبن» يا محمد اى لا تظنن «الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» اى لا يفوتونى. و من قرأ- بالياء- قال تقديره: لا
يظنن من كفر أنه يفوتنى، و يعجزنى أى مكان ذهب فى الأرض.

ثم اخبر تعالى: ان ماوى الكافرين و مستقرهم النار، عقوبة لهم على كفرهم و انها بئس المرجع و بئس المستقر و الماوى. و انما
وصفها بذلك لما ينال الصائر اليها من العذاب و الآلام و الشدائد، و إن كانت من فعل الله و حكمته صواباً.

ص: ٢٥٩

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٥٨ الى ٦٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ
تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ
جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً «ثلاث عورات» بفتح التاء. الباقون بالرفع.

قال ابو على النحوى: من رفع، فعلى أنه خبر ابتداء محذوف، و تقديره هذه ثلاث عورات، لأنه لما قال «الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» و فصل الثلاث بقوله «مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ، وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ» صار كأنه قال: هذه ثلاث عورات، فأجمل بعد التفصيل. و من

ص: ٤٦٠

نصب جعله بدلا من قوله «ثلاث مرات» و انما أبدل «ثلاث عورات» و ليس بزمان من (ثلاث مرات) و هى زمان، لأنه مشتمل على زمان من حيث ان التقدير:

أوقات ثلاث عورات، فلما حذف المضاف أقام المضاف اليه مقامه.

و (العورات) جمع عورة، و حكم ما كان على وزن (فعللة) من الأسماء أن تحرك العين منه، نحو صفحة و صفحات، و جفنة و جففات إلا ان عامة العرب يكرهون تحريك العين فيما كان عينه واوا أو ياء، لأنه كان يلزمه الانقلاب الى الألف، فاسكنوا لذلك، فقالوا عورات و جوزات و بيضات. و قرأ الأعمش - بفتح الواو - من (عورات) و وجهه ما حكاه المبرد أن هذيانا يقولون فى جمع جوزة و عورة و لوزة:

جوزات، و عورات، و لوزات، فيحركون العين فيها، و أنشد بعضهم:

رفيق بمسح المنكبين سبوح «١»

ابو بيضات رائح متأوب

فحرك الياء من بيضات، و الأجود عند النحويين ما ذكرناه.

هذه الآية متوجهة الى المؤمنين بالله المقربين برسوله، يقول الله لهم: مروا عبيدكم و اماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول الى مواضع خلواتكم. و قال ابن عباس و ابو عبد الرحمن: الآية فى النساء و الرجال من العبيد. و قال ابن عمر: هى فى الرجال خاصة. و قال الجبائى: الاستئذان واجب على كل بالغ فى كل حال، و يجب على الأطفال فى هذه الأوقات الثلاثة بظاهر هذه الآية. و قال قوم: فى ذلك دلالة على انه يجوز أن يؤمر الصبى الذى يعقل، لأنه أمره بالاستئذان. و قال آخرون: ذلك أمر للآباء أن يأخذوا الأولاد بذلك، فظاهر الآية يدل على وجوب الاستئذان ثلاث مرات فى ثلاث أوقات من ساعات الليل و النهار. ثم فسر الأوقات فقال «من قبل صلاة الفجر و حين تضعون ثيابكم من الظهر و من بعد صلاة العشاء» الاخرة

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٣٠٥ و اللسان (بيض)

ص: ٤٦١

لأن الغالب على الناس أن يتعروا فى خلواتهم فى هذه الأوقات ذكره مجاهد. ثم بين أنه ليس عليكم و لا عليهم جناح فيما بعد ذلك من الأوقات أن يدخلوا عليكم من غير اذن، يعنى فى الذين لم يبلغوا الحلم، و هو المراد بقوله «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ» ثم قال: مثل ما بين لكم هذه العورات بين الله لكم الدلالات على الأحكام «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بما يصلحكم «حكيم» فيما ذكره و غيره من أفعاله. ثم قال «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يعنى يرتفع من دخوله بغير اذن إذا بلغ، و صار حكمه حكم الرجال فى وجوب الاستئذان على كل حال. ثم قال مثل ما بين لكم هذا بين لكم أدلته «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ثم قال «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا» يعنى المسنات من النساء اللاتي قعدن عن التزويج، لأنه لا يرغب فى تزويجهن. و قيل: هن اللاتي ارتفع حيضهن، و قعدن على ذلك، اللاتي لا يطمعن فى النكاح أى لا يطمعن فى جماعهن لكبرهن «فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ» قيل هو القناع الذى فوق الخمار و هو الجلباب، و الرداء الذى يكون فوق الشعار. و

فى قراءة أهل البيت (ع) «ان يضعن من ثيابهن»

و به قرأ أبى.

و قوله «غَيْرِ مُتَّبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ» أى لا تقصد بوضع الجلباب اظهار محاسنها، و ما ينبغى لها أن تستره. و التبرج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره.

ثم اخبر تعالى أن الاستغفاف عن طرح الجلباب خير لهن فى دينهن «وَاللَّهُ سَمِيعٌ» لأقوالكم «عليم» بما تضررونه «حليم» عليكم لا يعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، و انما ذكر القواعد من النساء، لان الشابة يلزمها من التستر اكثر مما يلزم العجوز، و مع ذلك فلا يجوز للعجوز أن تبدى عورة لغير محرم، كالساق و الشعر و الذراع.

ص: ٤٤٢

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): آية ٦١]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

آية بلا خلاف.

يقول الله تعالى انه «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ» و هو الذى كف بصره «وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ» و هو الذى يعرج من رجله او أحدهما «وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ» و هو الذى يكون عليلا، و الحرج الضيق فى الدين، مشتق من الحرجة، و هى الشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه، و حرج فلان إذا أثم. و تحرّج من كذا إذا تأثم من فعله.

نفى الله الحرج عن هؤلاء لما يقتضيه حالهم من الآفات التي بهم مما تضيق على غيرهم. و اختلفوا فى تأويل ذلك، فقال الحسن و ابن زيد و الجبائى: ليس عليهم حرج فى التخلف عن الجهاد، و يكون قوله «وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ» كلاماً مستأنفاً. و قال

ص: ٤٤٣

ابن عباس: ليس من مؤاكلتهم حرج، لأنهم كانوا يتخرجون من ذلك. قال الفراء: كانت الأنصار تتخرج من ذلك، لأنهم كانوا يقولون: الأعمى لا يبصر فتأكل جيد الطعام دونه و يأكل رديئة. و الأعرج لا يتمكن من الجلوس. و المريض يضعف عن المأكل. و قال مجاهد: ليس عليكم فى الأكل من بيوت من سمى على جهة حمل قراباتهم إليهم يستتبعونهم فى ذلك حرج. و قال الزهري: ليس عليهم حرج فى أكلهم من بيوت الغزاة إذا خلفوهم فيه بإذنهم. و قيل: كان المخلف فى المنزل المأذون له فى الأكل يتخرج، لئلا يزيد على مقدار المأذون له فيه. و قال الجبائى: الآية منسوخة بقوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ» «١» و

يقول النبى (ص) (لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفسه)

و الذى

روى عن أهل البيت (ع): انه لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكرهم الله بغير إذنهم، قدر حاجتهم من غير إسراف.

و قوله «وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» قال الفراء: لما نزل قوله «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً» «٢» ترك الناس مؤكلة الصغير و الكبير ممن أذن الله تعالى فى الأكل معه، فقال تعالى و ليس عليكم فى أنفسكم، و فى عيالكم حرج أن تأكلوا منهم و معهم الى قوله «أَوْ صَدِيقِكُمْ» أى بيوت صديقكم «أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ» أى بيوت عبيدكم و أموالهم. و قال ابن عباس: معنى ما ملكتم مفاتحه هو الوكيل و ما جرى مجراه. و قال مجاهد و الضحاك:

هو ما ملكه الرجل نفسه فى بيته. و واحد المفتاح مفتاح - بكسر الميم - و فى المصدر (مفتح) بفتح الميم. و قال قتادة: معنى قوله «أَوْ صَدِيقِكُمْ» لأنه لا بأس فى الأكل من بيت صديقه بغير اذنه.

(١) سورة ٣٣ الأحزاب آية ٥٣

(٢) سورة ٤ النساء آية ٢٨

ص: ٤٤٤

و قوله «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً» قيل: يدخل فيه أصحاب الآفات على التغليب للمخاطب كقولهم: انت و زيد قمتما، و لا يقولون قاما.

و قال ابن عباس: معناه لا بأس ان يأكل الغنى مع الفقير فى بيته. و قال ابن عباس و الضحاك: هى فى قوم من العرب كان الرجل منهم يتحرج أن يأكل وحده. و قال ابن جريج: كانوا من كنانة. و قال ابو صالح: كانوا إذا نزل بهم ضيف تخرجوا أن يأكلوا معه، فأباح الله الأكل منفرداً و مجتمعاً. و الأولى حمل ذلك على عمومته، و انه يجوز الأكل وحداناً و جمعاً.

و قوله «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» قال الحسن: معناه ليسلم بعضكم على بعض. و قال ابراهيم: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا و على عباد الله الصالحين. و قال قوم: أراد بالبيوت المساجد. و الأولى حملة على عمومته.

فاما رد السلام، فهو واجب على المسلمين. و قال الحسن: يجب الرد على المعاهد، و لا يقول الراد و رحمة الله.

و قوله تعالى «تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ» يعنى هذا السلام تحيون به تحية من عند الله مباركة طيبة، لما فيها من الأجر الجزيل و الثواب العظيم.

ثم قال كما يبين الله لكم هذه الأحكام و الآداب «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى يبين الله لكم الأدلة على جميع الأحكام، و جميع ما يتعبدكم به لتعقلوا ذلك، و تعملوا بموجبه.

قوله تعالى: [سورة النور (٢٤): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٤٤)

ص: ٤٤٥

ثلاث آيات بلا خلاف يقول الله تعالى ليس المؤمنون على الحقيقة إلا «الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ» أى صدقوا بتوحيده و عدله، و أقروا بصدق رسوله و إذا كانوا مع رسوله «على أمرٍ جامع» و هو الذى يقتضى الاجتماع عليه و التعاون فيه: من حضور حرب أو مشورة فى أمر، أو فى صلاة جمعة، و ما أشبه ذلك، لم ينصرفوا عن رسوله او عن ذلك الأمر، إلا بعد أن يأذن لهم الرسول فى الانصراف متى طلبوا الاذن من قبله. و الاستئذان طلب الاذن من الغير.

ثم قال تعالى لنبيه (ص) «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ» يا محمد، فهم الذين يصدقون بالله و رسوله على الحقيقة، دون الذين ينصرفون بلا استئذان.

ثم قال لنبيه (ص) أيضاً متى ما استأذنوك هؤلاء المؤمنون أن يذهبوا لبعض مهماتهم و حاجاتهم «فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» فخيره بين ان يأذن و ألا يأذن، و هكذا

ص: ٤٤٤

حكم الامام.

وقوله «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ» أى اطلب لهم المغفرة من الله. و استغفار النبي (ص) هو دعاؤه لهم باللطف الذى تقع معه المغفرة «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى ساتر لذنوبهم منعم عليهم.

ثم أمر المكلفين فقال تعالى «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما - احذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه، فان دعاءه موجب، ليس كدعاء غيره، ذكره ابن عباس.

و الثانى - قال مجاهد و قتادة: ادعوه بالخضوع و التعظيم، و قولوا له: يا رسول الله، و يا نبي الله، و لا تقولوا: يا محمد، كما يقول بعضكم لبعض.

وقوله «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لُوَاذًا» معناه إذا تسلل واحد منكم من عند النبي (ص) فان الله عالم به. و قال الحسن: معنى «لُوَاذًا» فراراً من الجهاد. قال الفراء: كان المنافقون يحضرون مع النبي الجمعة، فإذا نزلت آية فيها ذم للمنافقين ضجروا، و طلبوا غره «١» و استتر بعضهم ببعض، يقال: لاوذت بفلان ملاوذة، و لوأذا. قال الزجاج: الملاوذة المخالفة، و لذت به ألوذ لياذاً.

ثم حذرهم من مخالفة رسوله بقوله «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ» و انما دخلت (عن) فى قوله «عن أمره» لأن المعنى يعرضون عن أمره. و فى ذلك دلالة على أن أوامر النبي (ص) على الإيجاب، لأنها لو لم تكن كذلك لما حذر من مخالفته، و ليس المخالف هو ان يفعل خلاف ما أمره فقط، لان ذلك ضرب من المخالفة. و قد يكون مخالفاً بألا يفعل ما أمره به. و لو كان الأمر على الندب لجاز

(١) معناه طلبوا اختصار الحديث أى طيه على غره

ص: ٤٤٧

تركه، و فعل خلافه.

وقوله «أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» أى فليحذروا من أن تصيبهم فتنة: أى بلية تظهر ما فى قلوبهم من النفاق. و الفتنة شدة فى الدين تخرج ما فى الضمير «أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فى الآخرة جزاء على خلافهم الرسول. و يجوز أن يكون المراد: ان تصيبهم عقوبة فى الدنيا، أو يصيبهم عذاب مؤلم فى الآخرة. و قيل: معناه «أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» أى قبل أن يصيبهم عذاب فى الآخرة. و قوله «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» المعنى ان له ملك ما فى السموات و الأرض، و التصرف فى جميع ذلك، و لا يجوز لاحد الاعتراض عليه، و لا يجوز مخالفة أمر رسوله، و لا يخالف أمره، لأن الهاء فى قوله «عن أمره» يحتمل أن تكون

راجعة الى الرسول و يحتمل أن تكون راجعة الى الله، و قد مضى ذكرهما قبلها. ثم بين انه «يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» من الايمان و النفاق، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم لا سراً و لا علانية.

و قوله «وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ» أى يوم يردون اليه يعنى يوم القيامة، الذى لا يملك فيه احد شيئاً سواه، و من ضم الياء: أراد يردون. و من فتحها نسب الرجوع اليهم. و قوله «فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا» أى يعلمهم جميع ما عملوه من الطاعات و المعاصى و يوافيهم عليها. «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» لا يخفى عليه شيء من ذلك الذى عملوه سراً و جهراً.

ص: ٤٦٩

-

٢٥- سورة الفرقان

قال مجاهد و قتادة: هى مكية. و قال ابن عباس: نزلت ثلاث آيات منها بالمدينة من قوله «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» الى قوله «رحيماً» عدد آياتها سبع و سبعون آية ليس فيها خلاف.

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤)

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)

ص: ٤٧٠

ست آيات.

معنى تبارك: تقدس و جل: بما لم يزل عليه من الصفات، و لا يزال كذلك، و لا يشاركه فيها غيره. و أصله من بروك الطير على الماء، فكانه قال: ثبت فيما لم يزل و لا يزال الذى نزل الفرقان على عبده. و قال ابن عباس: تبارك (تفاعل) من البركة. فكانه قال ثبت بكل بركة او حل بكل بركة. و قال الحسن: معناه الذى تجيء البركة من قبله، و البركة الخير الكثير. و الفرقان هو

القرآن، سمي فرقاناً لأنه يفرق به بين الصواب والخطأ، والحق والباطل في أمور الدين، بما فيه من الوعظ والزجر عن القبائح والحث على أفعال الخير.

ثم بين تعالى انه انما نزل هذا القرآن، و غرضه أن يكون نذيراً للعالمين، أى مخوفاً و داعياً لهم الى رشدهم، و صارفاً لهم عن غيهم و ضلالتهم، يقال: أُنذِرُهُ إنذاراً إذا دعاه الى الخير، بأن يخوفه من تركه: إذا كان غافلاً عنه، و قال ابن زيد: النذير هو النبي (ص). و قال آخرون: هو القرآن.

ثم وصف تعالى (الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ) بأنه (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) و التصرف فيهما، بسعة مقدوره بسياستها. و انه (لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) كما يدعيه النصراني في أن المسيح ابن الله، و يزعم جماعة من العرب أن الملائكة بنات الله. و أنه ليس له شريك في الملك، بل هو المالك لجميع ذلك وحده، و انه (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) و قيل في معناه قولان:

أحدهما- ان كل شيء يطلق عليه اسم مخلوق، فانه خلقه، لأن أفعالنا لا يطلق عليها اسم الخلق حقيقة، لان الخلق يفيد الاختراع، و انما يسمونها بذلك مجازاً.

ص: ٤٧١

و الثاني- انه لا يعتد بما يخلقه العبد في جنب ما خلقه الله، لكثرة ذلك و قلة ما يخلقه العبد.

و يحتمل ان يكون المراد قدر كل شيء، لان أفعال العباد مقدره لله، من حيث بين ما يستحق عليها فاعلها من الثواب و العقاب أو لا يستحق شيئاً من ذلك. و يقوى ذلك قوله (فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) لان المعنى فيه، و كل شيء على مقدار حاجتهم اليه و صلاحه لهم.

ثم اخبر تعالى عن الكفار، فقال (وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) من الأصنام و الأوثان، و وجهوا عبادتهم اليها من دون الله. ثم وصف آلهتهم بما ينبى أنها لا تستحق العبادة، بأن قال (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا) و لا يقدرون عليه، و هم مع ذلك مخلوقون، و مصرفون، و انهم (لا يملكون) أى لا يقدرون (لأنفسهم) على ضرر و لا على نفع (و لا يملكون) أى لا يقدرون على موت، و لا على حياة، و لا على بعث بعد الموت. و النشور هو البعث بعد الموت، يقال: نشر الميت، فهو ناشر نشوراً، و انشره الله انشاراً، و منه قوله (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) «١» و جميع ذلك يختص الله بالقدرة عليه، و العبادة تستحق بذلك، لأنها أصول النعم، ثم أخبر عن الكفار بأنهم يقولون: ليس هذا القرآن الذى أنزلناه (إلا إفك) يعنى كذب افتعله النبي (ص) (وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) قال الحسن: قالوا أعانه عليه عبد حبشى يعنى الحضرمي، و قال مجاهد: قالوا أعانه عليه اليهود.

ثم حكى تعالى عنهم بأنهم قالوا ذلك و (جاءوا) فى هذا القول (ظُلْمًا وَ زُورًا) أى جاءوا بظلم، فلما حذف الباء نصبه أى انهم أضافوه الى غيره من صدر عنه، و كذبوا فيه.

و حكى عنهم انهم قالوا أيضاً: هذا القرآن (أساطيرُ الأوّلين) و رفع (أساطير) بأنه خبر ابتداء محذوف، و تقديره هذا أساطير الأوّلين. قال ابن عباس:

الذى قال ذلك النضر بن الحارث بن كعدة، يعنى اخبار قد سطرها الأولون من الأمم اكتتبها هو، و انتسخها (فهي تُملى عليه) حتى ينسخها (بكرةً و أصيلاً) يعنى غداة و عشياً. و الأصيل العشى، لأنه أصل الليل و أوله. و معناه: إنه يقرأ عليه على هوى النفس، فأمر الله تعالى نبيه (ص) أن يقول لهم، تكذيباً لقولهم (قُلْ أَنْزَلَهُ) يعنى القرآن (الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ) يعنى الخفايا (فى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) و المعنى انه أنزله على ما يعلم من المصلحة و بواطن الأمور و خفاياها، لا على ما تقتضيه أهواء النفوس و شهواتها. و قال الجبائى: السر - هاهنا - الغيب. و السر إخفاء المعنى فى القلب أسر إليه إسراراً أى ألقى إليه ما يخفيه فى قلبه، و ساره مسارة و سراراً: إذا أخفى ما يلقيه إليه من السر عن غيره.

و قوله (إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً) معناه الذى يعلم السر فى السموات و الأرض لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يستر عليهم، و هكذا كان على من تقدم من الكفار و العصاة (رحيماً) أى منعماً عليهم.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٧ الى ١٠]

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠)

أربع آيات.

قرأ حمزة و الكسائى (نأكل) بالنون. الباقون بالياء. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و ابو بكر عن عاصم (و يجعل لك قصوراً) بالرفع. الباقون بالجزم. من قرأ (يأكل) بالياء أراد النبى (ص) فإنهم كرهوا أن يكون نبى من قبل الله يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق، و قالوا: هلا كان معه ملك؟ فيكون معه معيناً مخوفاً لعباده (و داعياً) لهم. و من قرأ بالنون أراد: نأكل نحن، فيكون له بذلك مزية علينا فى الفضل بأكلنا من جنته. و من جزم (و يجعل) عطفه على موضع (جعل) لأن موضع (جعل) جزم، لأنه جزء الشرط، فعطف (و يجعل) على الموضع كما قرأ من قرأ قوله (مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ) «١» بالجزم و من رفع استأنفه و قطعه عن الأول، كمن قرأ (و يذرهم) بالرفع.

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم أنهم قالوا أى شىء «لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ» كما نأكل «و يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ» فى طلب المعاش، كما نمشى «لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ» و معناه هلا أنزل الله عليه ملكاً أن كان صادقاً، فيكون معيناً له على

الانذار و التخويف. و إن لم ينزل اليه ملك، هلا «يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ» يستغنى به و يكون عوناً له على دنياه و ما يريد «أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ» اى بستان «يأكل منها» هو نفسه. و من قرأ - بالنون - أراد نأكل نحن معه. و تتبعه.

ثم حكى: ان الظالمين نفوسهم بارتكاب المعاصى و الكفر، قالوا لأتباعهم و من سمع منهم (إن تتبعون) اى ليس تتبعون إن تبعتموه (إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) و قيل

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٥

ص: ٤٧٤

إنما يخاطبون بذلك المؤمنين المقربين بنبوته، ليصرفوهم عنه. و معنى (مسحوراً) انه قد سحر. و السحر ما خفى سببه حتى يظن انه معجز. فقال الله لنبيه (ص) (أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) يعنى الاشباه، لأنهم قالوا تارة: هو مسحور. و تارة مثلوه بالمحتاج المتروك، حتى تمنوا له الكنز. و تارة بأنه ناقص عن القيام بالأمر، و كل ذلك جهل منهم و ذهاب عن وجه الصواب. فقال الله تعالى (فضلوا) بضرب هذه الأمثال عن طريق الحق (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) معناه لا يستطيعون طريقاً الى الحق، مع تمسكهم بطريق الجهل، و عدولهم عن الداعى الى الرشد. و قيل معناه (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) الى إبطال أمرك.

ثم قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي) أى تقدس و تعاضم الله الذى (إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ) يعنى مما قالوه - فى قول مجاهد - ثم فسر (ذلك) فقال الذى هو خير مما قالوه (جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا) و هو جمع قصر، و هو البيت المشيد المبنى - فى قول مجاهد - وسمى القصر قصراً، لأنه يقصر من فيه عن أن يوصل اليه. و من جزم «يجعل» عطفاً على موضع (جعل)، لأنه جواب الشرط. و من رفع استأنف. و كان يجوز النصب على الظرف «١».

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١١ الى ١٦]

يَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا (١٢) وَ إِذَا الْقُورُ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرَنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَ ادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أ ذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا (١٥)

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

(١) يقصد بالظرف (واو المعية)

ص: ٤٧٥

ست آيات.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفار الذين وصفهم وذكرهم بأنهم كفروا بالله و جحدوا البعث و النشور، أنهم لم يكفروا لأنك تأكل الطعام و تمشى فى الأسواق، بل لأنهم لم يقرؤا بالبعث و النشور، و الثواب و العقاب، و هو معنى قوله «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ» يعنى بالقيامة، و ما فيها من الثواب و العقاب.

ثم اخبر تعالى انه أعد «لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» و (أعتدنا) أصله أعدنا فقلبت احدى الدالين تاء، لقرب مخرجهما. و (السعير) النار الملتهبة، يقال: اسعرتها اسعاراً، و استعرت استعاراً، و تسعرت تسعراً، و سعرها الله تسعيراً. و الاسعار تهيج النار بشدة الإيقاد.

ثم وصف تلك النار المستعمرة، فقال «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ» و نسب الرؤية الى النار- و انما هم يرونها- لان ذلك أبلغ، كأنها تراهم رؤية الغضبان الذى يفر غيظاً، فهم يرونها على تلك الصفة، و يسمعون منها تلك الحال الهائلة. و (التغيظ) انتفاض الطبع لشدة نفور النفس، و المعنى صوت التغيظ من التلهب و التوقد. و قال الجبائى: معناه «إِذَا رَأَتْهُمْ» الملائكة الموكلون بالنار «سَمِعُوا لَهَا» للملائكة «تَغِيظًا وَ زَفِيرًا» للحرص على عذابهم. و هذا عدول عن ظاهر الكلام مع حسن ظاهره و بلاغته من غير حاجة داعية و لا دلالة صارفة. و انما شبهت النار بمن له تلك الحال، و ذلك فى نهاية البلاغة.

و قوله «وَ إِذَا أُلْقُوا» يعنى الكفار «منها» يعنى من النار «مَكَانًا ضَيِّقًا» أى

ص: ٤٧٤

فى مكان ضيق «مقرنين» قيل: معناه مغللين، قد قرنت أعناقهم الى أيديهم فى الاغلال، كما قال «مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ» «١» و قيل: مقرنين مع الشياطين فى السلاسل و الاغلال. و قيل يقرن الإنسان و الشيطان الذى كان يدعو الى الضلال «دَعَا هُنَالِكَ» يعنى فى ذلك الموضع، يدعون «ثبورا» قال ابن عباس: الثبور الويل، و قال الضحاك: هو الهلاك. و قيل: أصله الهلاك من قولهم ثبر الرجل إذا هلك.

قال ابن الزبعرى.

فمن مال ميله مثبور «٢»

إذا جرى الشيطان فى سنن الغى

و يقال: ما تبرك عن هذا الأمر أى ما صرفك عنه صرف المهلك عنه، فيقولوا: و انصرفاه عن طاعة الله. و قيل: و اهلكاه. فقال الله تعالى انه يقال لهم عند ذلك «لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَ ادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا» أى لا تدعوا و يلا واحداً، بل ادعوا و يلا كثيراً. و المعنى إن ذلك لا ينفعكم سواء دعوتهم بالويل قليلاً أو كثيراً.

ثم قال تعالى لنبيه (ص) «قل» لهم يا محمد «أَذَلِكْ خَيْرٌ» يعنى ما ذكره من السعير و أوصافه خير «أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ» و انما قال ذلك على وجه التنبيه لهم على تفاوت ما بين الحالين. و انما قال «أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ» و ليس فى النار خير، لأن المراد بذلك أى المنزلين خير؟! تبتكتأ لهم و تقربعاً. و قوله «الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ» أى وعد الله بهذه الجنة من يتقى معاصيه و يخاف عقابه «كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا» يعنى الجنة مكافأة و ثواباً على طاعتهم، و مرجعهم اليها و مستقرهم فيها، و «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ» و يشتهون من اللذات و المنافع «خالدين» أى مؤبدين لا يفنون فيها «كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مُسْتَوْلاً» و قيل فى معناه قولان:

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٤٩ و سورة ٣٨ ص آية ٣٨

(٢) مر تخريجه فى ٥٢٨ / ٦

ص: ٤٧٧

أحدهما- ان المؤمنين يسألون الله عز و جل الرحمة فى قولهم «رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» «١» و قولهم: (وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) «٢».

و الثانى - انه بمنزلة قولك: لك ما تمنيت منى أى متى تمنيت شيئاً فهو لك، فكذلك متى سألوا شيئاً. فهو لهم بوعد الله (عز و جل) إياهم.

و قرأ ابن كثير (ضيقاً) بتخفيف الياء. الباقون بالتشديد، و هما لغتان بالتشديد و التخفيف، مثل سيد و سيد، و ميت و ميت. و قيل: ذلك هو الوعد المسئول فى دار الدنيا.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١٧ الى ٢٠]

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَ لَا نَصْرًا وَ مَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تُصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)

اربع آيات.

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١١٠

ص: ٤٧٨

قرأ ابن كثير و ابو جعفر و حفص و يعقوب (و يوم يحشرهم) بالياء. الباقون بالنون. و قرأ ابن عامر (فنقول) بالنون. الباقون بالياء. و قرأ ابو جعفر (ان نتخذ) بضم النون و فتح الخاء. الباقون بفتح النون و كسر الخاء. و قرأ حفص (فما تستطيعون) بالياء. الباقون بالتاء.

من قرأ (يحشرهم) بالياء فتقديره: قل يا محمد يوم يحشرهم الله و يحشر الأصنام التي يعبدونها من دون الله. قال قوم: حشر الأصنام افناؤها. و قال آخرون يحشرها كما يحشر سائر الحيوان ليبيكت من جعلها آلهة.

و من قرأ بالنون أراد: ان الله المخبر بذلك عن نفسه. و ابن عامر جعل المعطوف مثل المعطوف عليه فى أنه حملة على انه إخبار من الله. و من قرأ الأولى بالنون و الثانية بالياء عدل من الاخبار عن الله الى الاخبار عن الغائب.

يقول الله تعالى (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ) يعنى هؤلاء الكفار الجاحدين للبعث و النشور و يحشر (ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قال مجاهد: يعنى عيسى و عزيز. و قال قوم: هو كل ما عبده من دون الله ليبيكتوا بذلك (فيقول) اى فيقول الله لهم (أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ) يعنى الكفار اى يقول الله للذين عبدهم أ أنتم الذين دعوتهم الكفار الى عبادتكم، فأجابوكم (أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) من قبل نفوسهم عن طريق الحق و أخطئوا طريق الصواب؟ فيجيب المعبودون بما حكاها الله فيقولون:

(سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) ندعوهم الى عبادتنا.

و من ضم النون أراد: لم يكن لنا ان نتخذ اولياء من دونك، و ضعف هذه القراءة النحويون. فقالوا: لان (من) هذه تدخل فى الاسم دون الخبر، نحو ما علمت من رجل راكباً، و لا تقول: ما علمت رجلا من راكب. و قال الزجاج: لا يجوز ذلك

ص: ٤٧٩

كما لا يجوز فى قوله (فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) «١» ما احد عنه منكم من حاجزين.

و قال الفراء يجوز ذلك على ضعف، و وجهه أن يجعل الاسم فى (من اولياء)، و إن كانت وقعت موقع الفعل [و قوله (ما كَانَ يَنْبَغِي لَنَا)، (كان) زائدة، و التقدير:

ما ينبغى لنا - ذكره ابو عبيدة - و هذا لا يحتاج اليه، لان هذا إخبار عنهم يوم القيامة:

انهم يقولون: «ما كَانَ يَنْبَغِي لَنَا» فى دار الدنيا ان نتخذ اولياء من دونك [«٢» و قوله «وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا» تمام الحكاية عما يقول المعبودون من دون الله، فإنهم يقولون يا ربنا انك متعت هؤلاء الكفار و متعت آباءهم فى نعيم الدنيا «حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ» أى ذكرك «وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا» أى هلكى فاسدين. و البور الفاسد، و يقال: بارت السلعة تبور

بوراً إذا بقيت لا تشتري بقاء الفاسد الذى لا يراد. و البائر الباقي على هذه الصفة. و البور مصدر كالزور، لا يثنى و لا يجمع و لا يؤنث. و قيل هو جمع (بائر) قال ابن الزبعرى:

يا رسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور«٣»

و نعوذ بالله من بوار الإثم. و قوله «فَقَدَّ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - كذبكم الملائكة و الرسل، فى قول مجاهد.

و الثانى - قال ابن زيد: أيها المؤمنون كذبكم المشركون بما تقولون: عن نبوة محمد (ص) و غيره من أنبياء الله.

قال الفراء: من قرأ بالياء معناه كذبوكم بقولهم. و قوله

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٤٧

(٢) ما بين القوسين كان فى المطبوعة مؤخرا عن موضعه.

(٣) انظر ٦ / ٢٩٤ من هذا الكتاب.

ص: ٤٨٠

«فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا» قال مجاهد: يعنى بذلك، فما يستطيع هؤلاء الكفار صرف العذاب عن أنفسهم، و لا نصر أنفسهم من عذاب الله تعالى. و قيل: معناه فما يستطيعون لك يا محمد صرفاً عن الحق، و لأنصر أنفسهم من البلاء الذى هم فيه، من التكذيب لك.

و قيل: ما يستطيعون نصراً من بعض لبعض. و من قرأ - بالتاء - خاطبهم بذلك بتقدير قل لهم.

ثم قال تعالى «وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ» نفسه بارتكاب المعاصى و جحد آيات الله «نذقه» فى مقابلة ذلك جزاء عليه «عَذَابًا كَبِيرًا» أى عظيماً.

ثم خاطب نبيه محمداً (ص) فقال «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ» يا محمد «مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» مثلك «وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» طلباً للمعاش، كما تطدبها أنت، و هو جواب لقولهم «ما لهذا الرسول يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ» «١» و

كسرت (إن) فى قول «الا انهم» لأنه موضع ابتداء، كأنه قال: إلا هم يأكلون الطعام، كما تقول: ما قدم علينا أمير الا إنه مكرم لى، و لا يجوز أن تكون مكسورة لأحل اللام، لأن دخولها و خروجها واحد فى هذا الموضع. و قال قوم (من) محذوفة و التقدير إلا من انهم ليأكلون الطعام نحو «و ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ» «٢» اى الا من له مقام معلوم، ذكره الفراء. و قال الزجاج: هذا لا يجوز، لان قوله «إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» صلة (من) و لا يجوز حذف الموصول و بقاء الصلة، و مثل الآية قول الشاعر:

ما أعطيانى و لا سألتهما
إلا و أنى لحاجز كرمى «٣»

و قوله «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً» قال الحسن: معناه يقول هذا الأعمى:

لو شاء لجعلنى بصيراً مثل فلان، و يقول هذا الفقير: لو شاء لجعلنى غنياً مثل فلان

(١) سورة الفرقان آية ٧

(٢) سورة الصافات آية ١٦٤

(٣) البيت فى مجمع البيان ١٦٣ / ٤

ص: ٤٨١

و يقول هذا السقيم: لو شاء لأصحنى مثل فلان.

و قوله «وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا» أى بصيراً بمن يصبر ممن يجزع، فى قول ابن جريج. و قال الفراء: كان الشريف إذا أراد أن يسلم، و قد سبق المشروف الى الإسلام، فيقول: أسلم بعد هذا؟ فكان ذلك فتنة. و قيل «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً» للعداوات التى كانت بينهم فى الدين. و الفتنة شدة فى التعبد تظهر ما فى نفس العبد من خير و شر، و هى الاختبار. و أصله اخلاص الشىء بإحراق ما فيه من الفساد من قولهم: فتنت الذهب بالنار إذا أخلصته من الغش باحراقه، و منه قوله «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» «١» أى يحرقون إحراق ما يطلب إخلاصه من الفساد.

و قوله «أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا» معناه اصبروا فقد عرفتم ما وعد الصابرون به من الثواب، و الله بصير بمن يصبر و من يجزع.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٢١ الى ٢٥]

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥)

خمس آيات.

حكى الله تعالى عن الكفار الذين لا يرجون لقاء ثواب الله، و لا يخافون عقابه

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣

ص: ٤٨٢

أنهم قالوا ما ذكره. و الرجاء ترقب الخير الذى يقوى فى النفس وقوعه، تقول: رجا يرجو رجاء و ارتجى ارتجاء، و ترجى ترجياً، و مثل الرجاء الطمع و الأمل. و المعنى لا يرجون لقاء جزائنا، و إذا استعملوا الرجاء مع النفى أرادوا به الخوف، كقوله «لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» «١» و هى لغة تهامة و هذيل. و اللقاء المصير الى الشىء من غير حائل و لهذا صح لقاء الجزاء من الثواب و العقاب، لان العباد يصيرون اليه فى الآخرة و على هذا يصلح أن يقال: لا بد من لقاء الله تعالى.

و قوله «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا» معناه هلا أنزل الملائكة لتخبرنا بأن محمداً نبي «أَوْ نَرَى رَبَّنَا» فيخبرنا بذلك. قال الجبائى: و ذلك يدل على انهم كانوا مجسمة، فلذلك جوزوا الرؤية على الله التى تقتضى التشبيه.

ثم اقسم تعالى فقال «لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا» بهذا القول «فِي أَنْفُسِهِمْ» أى طلبوا الكبر و التنجبر بغير حق، تقول: استكبر استكباراً «وَعَتَوْا» بذلك أى طغوا به «عُتُوًّا كَبِيرًا» و العتو الخروج الى أفحش الظلم.

و قوله «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ» يجوز أن يكون المراد به اليوم الذى تقبض فيه أرواحهم، و يعلمون أين مستقرهم. و يجوز أن يكون يوم القيامة «لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ» أى لا بشرى لهم فى ذلك اليوم. قال الفراء: ليس (اليوم) من صلة (بشرى) و لا منصوباً به، بل أضمرت (الفاء) كقولك: أما اليوم، فلا مال لك.

و قال الزجاج: يجوز على تقدير لا بشرى تكون للمجرمين يوم يرون الملائكة، و يكون (يومئذ) مؤكداً ل (يوم)، و لا يكون منصوباً ب (لا بشرى) لأن ما يتصل ب (لا) لا يعمل فيما قبلها، لكن لما قيل: «لا بشرى للمجرمين» بين فى أى يوم ذلك فكأنه قال يمنعون البشرى يوم يرون الملائكة، و هو يوم القيامة و (المجرمين) معناه

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٣

ص: ٤٨٣

الذين أجزموا و ارتكبوا المعاصي «وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا» حراماً محرماً. و قال قتادة، و الضحاك: هو من قول الملائكة يقولون لهم: حراماً محرماً عليكم البشرى.

و قال مجاهد و ابن جريح: هو من قول المجرمين، كما كانوا يقولون فى الدنيا إذا لقوا من يخافون منه القتل، قالوا «حِجْرًا مَحْجُورًا» أى حراماً محرماً دماً. و اصل الحجر الضيق، يقال: حجر عليه يحجر حجراً إذا ضيق. و الحجر الحرام لضيقه بالنهى عنه، قال المتلمس:

حنت الى النخلة القصى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس «١»

و قال آخر:

فهمت ان ألقى إليها محجراً و لمثلها يلقى اليه المحجر «٢»

أى حراماً. و منه حجر القاضى عليه يحجر. و حجر فلان على أهله. و منه حجر الكعبة، لأنه لا يدخل اليه فى الطواف، و انما يطاف من ورائه، لتضييقه بالنهى عنه و قوله «لِذِي حِجْرٍ» «٣» أى لذي عقل، لما فيه من التضييق فى القبيح، و الحجر الأثنى من الخيل، و منه الحجرة، و حجر الإنسان.

و قوله «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا» قال البلخى:

معناه قدم أحكامنا بذلك. و قال مجاهد: معنى «قدمنا» عمدنا قال الراجز:

و قدم الخوارج الضلال الى عباد ربهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلال «٤»

و فى الكلام بلاغة حسنة، لان التقدير: كان قصدنا اليه قصد القادم على ما يكرهه، ما لم يكن رآه قبل فيغيره. و الهباء غبار كالشعاع، لا يمكن القبض عليه

(١) أنظر ٣١٣/٤ تعليقه ١ من هذا الكتاب.

(٢) تفسير الطبرى ٢ / ١٩

(٣) سورة ٨٩ الفجر آية ٥

(٤) تفسير القرطبي ٢١ / ١٣ و الطبرى ٣ / ١٩

ص: ٤٨٤

و قال الحسن و مجاهد و عكرمة: هو غبار يدخل الكوة فى شعاع الشمس. و قال عكرمة:

هو رهب الخيل. و قال ابن عباس و غيره: هو الماء المهراق.

ثم قال تعالى «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا» و معناه: إن الذين يحصلون فى الجنة - متباين منعمين فى ذلك اليوم - مستقرهم خير من مستقر الكفار فى الدنيا و الآخرة. و انما قال ذلك على وجه المظاهرة، بمعنى أنه لو كان لهم مستقر خير و منفعة، لكان هذا خيراً منه، «وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا» معناه أحسن موضع قائلة، و إن لم يكن فى الجنة نوم، إلا أنه من تمهيدته يصلح للنوم، لأنهم خوطبوا بما يعرفون، كما قال «و لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» «١» على ما اعتادوه. و قال البلخى: معنى «مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا» انه خير فى نفسه، و حسن فى نفسه، لا انه أفضل من غيره، كما قال «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» «٢» أى هو هين. و قال قوم: معنى «خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ» أى انفع من مستقرهم. و قال ابن عباس و ابراهيم و ابن جريج:

لأنه يفرغ من حسابهم الى وقت القائلة.

و قوله «يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ» أى عن الغمام، و هو كقولهم: رميت بالقوس، و عن القوس بمعنى واحد.

و قرأ ابن كثير و نافع و ابن عامر «تشقق» مشددة و معناه تشقق، فأدغم احدى التائين فى الشين لقرب مخرجيهما. و من قرأ بالتخفيف أراد ايضاً ذلك. و لكنه حذف احدى التائين، و هى تاء (تفعل) لان الأخرى علامة الاستقبال، لا يجوز حذفها. و قال أبو على الفارسي: المعنى «تشقق السماء» و عليها الغمام. و فى التفسير:

انه يتشقق سماء سماء. و قال الفراء تشقق السماء عن الغمام الأبيض. و قرأ الباقر بالتخفيف. و قرأ ابن كثير «و نزل الملائكة» بنونين. و قرأ الباقر بنون

(١) سورة ١٩ مريم آية ٤٢

(٢) سورة ٣٠ الروم آية ٢٧

ص: ٤٨٥

واحدة مشددة.

و المعنى بذلك الاخبار عن هول ذلك اليوم و عظم شدائده، و ان الملائكة تنزل للمؤمنين بالإكرام و الإعظام، و للكافرين بالاستخفاف و الالهانة.

و من قرأ بالنونين أراد ان الله المخبر بذلك عن نفسه. و من قرأ بنون واحدة فعلى ما لم يسم فاعله. و المعنيان واحد. و التشديد أجود لقوله «تنزيلا» و الآخر يجوز، كما قال (وَ تَبْتَلُ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) «١» و قوله (وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) «٢» فجاء المصدر على غير الفعل و ذلك سائغ جيد.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)

خمس آيات.

يقول الله تعالى إن (الملك) الذى هو السلطان بسعة المقدور و تدبير العباد فى ذلك اليوم و وصفه بأنه الحق «للرحمن» الذى أنعم على جميع خلقه، و أن ذلك

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٨

(٢) سورة ٧١ نوح آية ١٧

ص: ٤٨٦

اليوم كان على الكافرين عسيراً، يعنى صعباً شديداً، و العسير هو الذى يتعذر طلبه، و نقيضه اليسير. و الحق هو ما كان معتقده على ما هو به، معظم فى نفسه، و لذلك وصفه تعالى بأنه الحق و وصف ملكه ايضاً بأنه الحق لما ذكرناه. و قيل «الملك» على ثلاثة أضرب: ملك عظمة، و هو لله تعالى وحده. و ملك ديانة بتملك الله تعالى.

و ملك جبرية بالغلبة.

ثم قال تعالى أن فى ذلك اليوم «يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ» تلهفاً على ما فرط فى جنب الله، فى ارتكاب معصيته. و قيل: إن الآية نزلت فى أبى بن خلف، و عقبه ابن أبى معيط، و كانا خليلين ارتدَّ أبى، لما صرفه عن الإسلام عقبه. و قتل عقبه ابن أبى معيط يوم بدر صبراً. و قتل أبى بن خلف يوم احد، قتله النبي (ص) بيده، ذكره قتادة. و قال مجاهد: الخليل - هاهنا - الشيطان، و فلان كناية عن واحد بعينه من الناس، لأنه معرفة. و قال ابن دريد، عن أبى حاتم عن العرب: أنهم يكنوا عن كل مذكر بفلان، و عن كل مؤنث بفلانة. و إذا كنوا عن البهائم أدخلوا الألف و اللام، فقالوا الفلان و الفلانة.

ثم بين أنه يتبرأ منه بأن يقول: و الله «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي» يعنى أغوانى عن اتباع الذكر الذى هو النبي (ص) و يحتمل أن يكون أراد القرآن.

ثم بين فقال «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا» يخذله فى وقت حاجته و معاونته، لأنه على باطل «وَ قَالَ الرَّسُولُ» أى و يقول الرسول «إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما - قال محمد، و ابراهيم: انهم قالوا فيه هجراً أى شيئاً من القول القبيح لزعيمهم انه سحر، و انه أساطير الأولين.

و الثانى - قال ابن زيد: هجروا القرآن باعراضهم عنه، و ترك ما يلزمهم فيه

ص: ٤٨٧

و يشهد لهذا قوله «لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ» «١» و مثل (قال) بمعنى (يقول) قول الشاعر:

مثل العصافير أحلاماً و مقدره
لو يوزنون بزف الريش ما وزنوا «٢»

أى ما يوزنون، و اما قول الشاعر:

إن يسمعوا ربية طاروا بها فرحاً
منى و ما سمعوا من صالح دفنوا «٣»

فهذا في الجزاء.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣١ الى ٣٤]

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشِرُونَ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)

أربع آيات.

معنى قوله «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» قيل فيه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس: جعل لمحمد (ص) عدوًّا من المجرمين، كما جعل لمن قبله.

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٢٦

(٢) مجمع البيان ٤ / ١٦٨

(٣) مجاز القرآن ١ / ١٧٧ انظر ٥ / ٤٤ تعليقة ٢ من هذا الكتاب

ص: ٤٨٨

و الثاني - كما جعلنا النبي يعادى المجرم مدحاً له و تعظيماً، كذلك جعلنا المجرم يعادى النبي ذماً له و تحقيراً. و المعنى إن الله تعالى حكم بأنه على هذه الصفة. و قيل «جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» ببياننا أنهم أعداؤهم، كما يقال جعله لصاً أو خائناً. و قيل: معناه أمرنا بأن يسموهم أعداء. و الجعل وجود ما به يصير الشيء على ما لم يكن، و مثله التصيير، و العدو المتباعد من النصر للبغيضة، و تقيضه الولي، و أصله البعد. و منه عدوتنا الوادى أى جانباه، لأنهما بعده و نهايته، و عدا عليه يعدو عدواً إذا باعد خطوة للإيقاع به، و تعدى فى فعله إذا أبعد فى الخروج عن الحق. ثم قال تعالى «وَكَفَى بِرَبِّكَ» يا محمد «هَادِيًا وَنَصِيرًا» أى حسبك الله الهادى الى الحق، و الناصر على العدو، و (هادياً) منصوب على الحال أو التمييز، فالحال كفى به فى حال الهداية و النصر، و التمييز من الهادين و الناصرين - ذكره الزجاج - و لا يقدر أحد أن يهدى كهداية الله، و لا أن ينصر كنصرته، فلذلك قال «وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا» ثم حكى أن الكفار، قالوا «لولا» أى هلا «نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ» على النبي «جُمْلَةً وَاحِدَةً» فليل لهم إن التوراة أنزلت جملة، لأنها أنزلت مكتوبة على نبي يكتب و يقرأ و هو موسى، و اما القرآن، فإنما انزل متفرقاً، لأنه أنزل غير مكتوب على نبي أمي، و هو محمد (ص) و قيل: إنما لم ينزل جملة واحدة، لان فيه الناسخ و المنسوخ، و فيه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، و فيه ما هو إنكار لما كان. و فى الجملة المصلحة معتبرة فى إنزال القرآن،

فإذا كانت المصلحة تقتضى انزاله متفرقاً كيف ينزل جملة واحدة؟! فقال الله تعالى لنبيه (ص) إنا أنزلناه متفرقاً (لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ) وقال أبو عبيدة: معناه لطيب به نفسك و نشجعك.

وقوله (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) فالترتيل التبيين فى تثبت و ترسل. و قوله (وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) أى لم تنزل القرآن جملة واحدة لأنهم لا يأتونك بشيء

ص: ٤٨٩

يريدون به إبطال أمرك (إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) الذى يبطله (وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا) أى نجيؤك بأحسن تفسيراً مما يأتونك به و أجود معانى.

ثم قال (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) يوم القيامة (الى جهنم) يعنى الكفار يسحبون على وجوههم. و فى الحديث أن الذى أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم.

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الذين يحشرون على وجوههم بأنهم (شَرُّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا) عن الحق و عن الثواب و الجنة.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٥ الى ٤٠]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَا هُمُ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَ كَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَ كَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا (٣٩)

وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطْرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)

ست آيات.

أقسم الله تعالى بأنه آتى موسى الكتاب يعنى التوراة، و أنه جعل معه أخاه هارون و زيرا، يحمل عنه أثقاله، و أنه قال لهما و أوحى اليهما و أمرهما بأن يذهبا الى القوم

ص: ٤٩٠

الذين كذبوا بآيات الله و جحدوا أدلته، يعنى فرعون و قومه، و أخبر أنهم لم يقبلوا منهما و جحدوا نبوتهما، فأهلكهم الله و دمرهم تدميراً. و التدمير الإهلاك بأمر عجيب و مثله التنكيل، يقال: دمر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه.

ثم قال «وَ قَوْمَ نُوحٍ» أى أغرقنا قوم نوح لما كذبوا الرسل «أَغْرَقْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَا هُمُ لِلنَّاسِ آيَةً» و علامة. و التغرق الإهلاك بالماء الغامر، و قد غرق الله تعالى قوم نوح بالطوفان، و هو مجيء ماء السماء المنهمر، و ماء الأرض الذى فجر الله تعالى عيونها

حتى التقى الماء، أى أتى على أمر قد قدره الله، فطبق الأرض و لم ينج إلا نوحاً و من كان معه ركباً فى السفينة، و يقال: فلان غريق فى النعمة تشبيهاً بذلك.

و قوله «لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ» يعنى نوحاً و من تقدم من الأنبياء. و قيل:

المعنى نوحاً و الرسل من الملائكة. و قيل: نوحاً و من بعده من الرسل، لأن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً فى توحيد الله و خلع الأنداد، فمن كذب بواحد منهم فقد كذب بهم جميعهم، و قال الحسن: تكذيبهم بنوح تكذيب لسائر الرسل.

ثم قال تعالى: إنا مع إهلاكهم العاجل (أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَفْسَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) أى مؤلماً موجعاً.

و قوله (وَ عَاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً) معناه و أهلكتنا هؤلاء ايضاً، يقال: (عاد) هم القوم الذين بعث الله إليهم هوداً، و (ثمود) هم الذين بعث الله اليهم صالحاً، و اصحاب الرس قال عكرمة: الرس بئر رسوا فيها نبيهم أى ألقوه فيها. و قال قتادة: هى قرية باليمامة، يقال لها: (فلج) و قال أبو عبيدة: الرس كل محفور - فى كلام العرب - و هو المعدن، قال الشاعر:

تنابلة يحفرون الرساسا» ١

سبقت الى فرط ناهل

(١) نائلة النابغة الجعدى. تفسير القرطبي ٣٢ / ١٣ و الطبرى ٩ / ١٩ و اللسان (رسس)

ص: ٤٩١

اى المعادن. و قيل: الرس البئر التى لم تطو بحجارة، و لا غيرها، يقال:

رسه يرسه رساً إذا دسه. و قيل: اصحاب الرس هم اصحاب (ياسين) بانطاكية الشام، ذكره النقاش. و قال الكلبي: هم قوم بعث الله تعالى اليهم نبياً فأكلوه، و هم أول من عمل نساؤهم السحر. و عن اهل البيت (ع) انهم قوم كانت نساؤهم سحاقات.

و قوله (وَ قُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً) اى أهلكتنا قرونأ بين هؤلاء الذين ذكرناهم كثيراً. و قيل: القرن سبعون سنة. و قال ابراهيم: أربعون سنة.

و قوله (وَ كُلُّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ) تقديره و دللنا كلا ضربنا له الأمثال، فلما كفروا بها دمرناهم تدميراً (وَ كُلُّا تَبَرَّنا تَبَّيراً) اى أهلكتنا كلأ منهم إهلاكاً. و التبير تكبير الإهلاك، و التبر مكسر الزجاج، و مكسر الذهب.

و قوله (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمَطْرَ السَّوِّءَ) يعنى ان هؤلاء الكفار قد جاءوا الى القرية التى أهلكتها الله بالمطر السوء (أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) فيعتبروا بها. و القرية هى قرية (سدوم) قرية قوم لوط، و المطر السوء الحجارة التى رما بها - فى قول ابن عباس - ثم قال (بل) رأوها، و انما لم يعتبروا بها، لأنهم (كانوا لا يرجون نُشوراً) أى لا يخافون البعث لاعتقادهم جحده، قال الهذلى:

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها
و خالفها فى بيت نوب عوامل «١»

فالدبر النحل أى لم يخف. و قيل: ركبوا المعاصى، لأنهم لا يرجون ثواب من عمل خيراً بعد البعث.

(١) مر تخريجه فى ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥

ص: ٤٩٢

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤١ الى ٤٤]

وَ إِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَمْ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْ لَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَمْ رَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَمْ قَانَتْ تُكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)

أربع آيات.

يقول الله تعالى حاكياً عن الكفار الذين وصفهم بأنه «إِذَا رَأَوْكَ» يا محمد و شاهدوك لا يتخذونك «إِلَّا هُزُوًا» أى سخرياً، و الهزو إظهار خلاف الإبطان لاستصغار القدر على وجه الله. و انهم ليقولون «أَمْ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا» متعجبين من ذلك، و منكرين له، لأنهم يعتقدون فى الباطن انه ما بعثه الله.

و قوله «إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا» أى قد قارب أن يأخذ بنا فى غير جهة عبادة آلِهَتِنَا، على وجه يودى الى هلاكنا. و الإضلال الأخذ بالشئ الى طريق الهلاك.

و قوله «لَوْ لَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا» أى على عبادتها لأزلنا عن ذلك، و حذف الجواب لدلالة الكلام عليه. فقال الله تعالى متوعداً لهم «وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ» فيما بعد إذا رأوا العذاب الذى ينزل بهم «مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا» عن طريق الحق: هم أم غيرهم؟

ثم قال لنبية يا محمد «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» لأنه ينقاد له و يتبعه فى جميع ما يدعو به. و قيل: المعنى من جعل إلهه ما يهوى، و ذلك نهاية الجهل،

ص: ٤٩٣

لان ما يدعو اليه الهوى باطل، و الا له حق يعظم بما لا شىء أعظم منه، فليس يجوز أن يكون الا له ما يدعو اليه الهوى، و انما الاله ما يدعو الى عبادته العقل.

و معنى «أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا» أى لا تكون له انت حافظاً من الخروج الى هذا الفساد. قال المبرد: الوكيل أصله واحد، و يشتمل على فروع ترجع اليه، فالوكيل من تتكل عليه و تعتمد فى أمورك عليه. ثم قال لنبية (ص) «أَمْ تَحْسَبُ» يا محمد و تظن «الإنسانُ أَكْثَرَ» هؤلاء الكفار «يسمعون» ما تقول سماع طالب للافهام «أَوْ يَعْقِلُونَ» ما تقوله لهم؟ بل سماعهم كسماع الانعام، و هم أضل سبيلا من الانعام، لأنهم مكنوا من طريق الفهم، و لم تمكن النعم من ذلك، و هم مع ذلك لا يعقلون ما تقول، إذ لو عقلوا عقل الفهم به لدعاهم عقلهم اليه، لأنه نور فى قلب المدرك له. و قيل «بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» لأنها لا تعتقد بطلان الصواب و إن كانت لا تعرفه، و هم قد اعتقدوا ضد الصواب الذى هو الجهل. و قيل: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن صورة منه ترك الأول و عبد الثانى. و قيل: لان الأنعام تهتدى الى منافعها و مضارها. و هؤلاء لا يهتدون الى ما يدعون اليه من طريق الحق، فهم أضل.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٢٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٢٦) آيتان.

يقول الله تعالى لنبية محمد (ص) و هو متوجه الى جميع المكلفين «أَلَمْ تَرَ» يا محمد «إِلَى رَبِّكَ» و معناه ألم تعلم ربك «كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» قال ابن عباس و الضحاك و سعيد

ص: ٤٩٤

ابن جبير: الظل حده من طلوع الفجر الى طلوع الشمس. و قال ابو عبيدة: الظل بالغداة، و الفىء بالعشى، لأنه يرجع بعد زوال الشمس.

و قوله «وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا» أى دائماً لا يزول، فى قول ابن عباس و مجاهد.

و قوله «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا» قال ابن زيد: يعنى بأذهابها له عند مجيئها. و قيل: لان الظل يتبع الشمس فى طوله و قصره، فإذا ارتفعت فى أعلا ارتفاعها قصر، و إن انحطت طال بحسب ذلك الانحطاط و لو شاء لجعله ساكناً بوقوف الشمس. و الظل يتبع الدليل الذى هو الشمس، كما يتبع السائر فى المفازة الدليل.

و قوله «ثُمَّ قَبَضْنَا» يعنى الظل يقبضه الله، من طلوع الشمس. و قيل:

بغروبها، فالقبض جمع الاجزاء المنبسطة قبضه يقبضه قبضاً، فهو قابض و الشئ مقبوض، و تقابضا تقابضاً، و قبضه تقبضاً، و تقبض تقبضاً، و انقبض انقباضاً.

و اليسير السهل القريب و اليسير نقيض العسير، يسر يسر يسراً، و تيسر تيسراً، و يسره تيسراً، و أيسر ايساراً أى ملك من المال ما تيسر به الأمور عليه. و اليد اليسرى لأنها يتيسر بها العمل مع اليمنى، و تياسر أخذ فى جهة اليد اليسرى.

و قيل: معناه قبضاً خفيفاً، لان ظلمة الليل تجيء شيئاً بعد شئ، فلا تهجم دفعة واحده عقيب غروب الشمس. و قيل: معناه قبضاً سريعاً.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤٧ الى ٥٠]

وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَآ وَ النَّوْمَ سُبَاتًا وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنَاسِيًّا كَثِيرًا (٤٩) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)

ص: ٤٩٥

اربع آيات.

قرأ ابن كثير و نافع و ابو عمرو «نشراً» بضم النون و الشين. و قرأ ابن عامر - بضم النون و سكون الشين - و روى ذلك هارون عن أبى عمرو. و قرأ حمزة و الكسائى - بفتح النون و سكون الشين - و قرأ عاصم «بشراً» بالباء و سكون الشين.

قال ابو على النحوى: من ثقل أراد جمع (نشور) مثل رسول و رسل، و من سكن الشين، فعلى قول من سكن (كتب) فى (كتب) و (رسل) فى (رسل). و من فتح النون جعله مصدراً واقعاً موقع الحال، و تقديره يرسل الرياح حياة أى يحيى بها البلاد الميتة.

و من قرأ بالباء أراد جمع (بشور) أى تبشر بالغيث من قوله «الرِّيَّاحُ مُبَشِّرَاتٌ» «١» يعنى بالغيث المحيى للبلاد. و قرأ حمزة و الكسائى «ليذكروا» خفيفة الذال. الباقون بتشديدها. من شدد الذال أراد (ليذكروا) فأدغم التاء فى الذال، و هو الأجود لأن التذكير و التذكر و الازكار فى معنى واحد و هو فى معنى الاتعاض، و ليس الذكر كذلك. و قد حكى أبو على ان الذكر يكون

بمعنى التذكر، كقوله تعالى «إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ» «٢» وقوله «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ» «٣»، و الاول أكثر. والمعنى ليتفكروا فى قدرة الله، و موضع نعمته بما أحيا بلادهم به من الغيث.

يقول الله تعالى معدداً لنعمه على خلقه منها أنه «جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَأَ» و معناه أن ظلمته تلبس كل شخص، و تغشيه حتى تمنع من إدراكه. و انما جعله كذلك للهدو فيه و الراحة من كد الاعمال، مع النوم الذى فيه صلاح البدن. و قوله «وَالنَّوْمَ سُبَاتًا»

(١) سورة الروم آية ٤٤

(٢) سورة عبس آية ١١-١٢

(٣) سورة البقرة آية ٦٣ و سورة الاعراف آية ١٧٠

ص: ٤٩٤

أى جعل نومكم ممتداً طويلاً تكثر به راحتكم و هدوؤكم. و قيل: انه أراد جعله قاطعاً للأعمال التى يتصرف فيها. و السبات قطع العمل، و منه سبت رأسه يسبته سبتاً إذا حلقة، و منه يوم السبت، و هو يوم ينقطع فيه العمل. قال المبرد: يعنى سباتاً سكوتاً يقال: أسبت الرجل إذا أخذته سكتة.

و قوله «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا» أى للانبساط و التصرف فى الحوائج. و النشور الانبساط فى تصرف الحى، يقال: نشر الميت إذا حى و انشره الله فنشر، قال الأعشى:

يا عجباً للميت الناشر «١»

حتى يقول الناس مما رأوا

ثم قال «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» و فى الرحمة تجمع الرياح، لأنه جمع الجنوب و الشمال و الصبا. و فى العذاب (ريح) لأنها هى الدبور وحدها و هى عقيم، لا تلقح، فكل الرياح لواقح غيرها. و الرحمة التى ينزلها من السماء هى الغيث، و ذكر انه قد يرسل الرياح لينشى السحاب. ثم ينزل «مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا» أى طاهراً مطهراً مزيلاً للاحداث و النجاسات مع طهارته فى نفسه.

و انما نزل هذا الماء «لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا» قد مات بالجذب. قال ابو عبيدة: زعم بعضهم انه أراد إذا لم يكن فيها نبات، فهو بغير (هاء) و إذا كانت حية روحانية فماتت، فهى ميتة. و قال غيره: أراد بالبلدة المكان، فلذلك قال ميتاً بالتذكير، و معنى نسقيه نجعله سقياً للانعام التى خلقها الله تعالى.

و قوله «وَ أَنَاسِيَّ كَثِيرًا» جمع إنسان جعلت الياء عوضاً من النون، و قد قالوا: (أناسيين) نحو بستان و بساتين. و يجوز أن يكون جمع (أنسى) نحو كرسى و كراسى. و قد قالوا: أناسية كثيرة.

(١) ديوانه (دار بيروت) ٩٣ و قد مر فى ٤ / ٤٦٠

ص: ٤٩٧

ثم قال تعالى «وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ» قيل: معناه قسمناه بينهم يعنى المطر قال ابن عباس: ليس من غمام إلا يمطر، و إنما يصرف من موضع الى موضع.

و التصريف تصيير الشىء دائراً فى الجهات. فالمطر يصرف بدوره فى جهات الأرض.

ثم بين انه صرفه كذلك «ليتذكروا» و يتفكروا، فيستدلوا على سعة مقدور الله و انه لا يستحق العبادة سواه.

ثم اخبر عن حال الكفار، فقال «فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا» أى جحوداً لهذه النعم التى عدناها و إنكارها. و يقولون: مطرنا بنوء كذا و كذا.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٥١ الى ٥٥]

وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدُهُمْ بِهٖ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَ هُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ وَ كَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)

خمس آيات.

يقول الله تعالى «لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا» يخوفهم بالله و يحذرهم من معاصيه. و المعنى: لو شئنا لقسمنا النذر بينهم، كما قسمنا الأمطار بينهم، ففى ذلك اخبار عن قدرته على ذلك، لكن دبرنا على ما اقتضته مصلحتهم، و ما هو أعود

ص: ٤٩٨

عليهم فى دينهم و دنياهم. و فيه امتنان على النبى (ص) بأنا «لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا» فيخف عنك كثير من عبء ما حملته، لكننا حملناك ثقل أوزار جميع القرى لتستوجب بصيرك عليه إذا صبرت عظيم المنزلة و جزيل الكرامة.

و النذير هو الداعى الى ما يؤمن معه الخوف من العقاب، و الانذار الاعلام بموضع المخافة. و النذر عقد البر على انتفاء الخوف، يقال تناذر القوم تناذراً إذا انذر بعضهم بعضاً. ثم قال لنبيه (ص) «فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ» يا محمد بالاجابة الى ما يريدون «وَ

جاهدُهُمْ» فى الله «جِهَاداً كَبِيراً» شديداً، و الهاء فى قوله «به» عائدة الى القرآن - فى قول ابن عباس و الحسن - و قال الحسن: معنى «فَلَا تُطْعِمِ الْكَافِرِينَ» لا تطعمهم فيما يصرفك عن طاعة الله. و قيل: فلا تطعمهم بمعاونتهم فيما يريدونه مما يبعد عن دين الله، و جاهدهم بترك طاعتهم.

ثم عاد تعالى الى تعديد نعمه عليهم فقال (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) و معناه أرسلهما فى مجاريهما، كما ترسل الخيل فى المرح، فهما يلتقيان، فلا يبغى الملح على العذب و لا العذب على الملح، بقدرة الله. و العذب الفرات: و هو الشديد العذوبة، و الملح الأجاج يعنى المر.

ثم قال (وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً) أى حاجزاً يمنع كل واحد منهما من تغيير الآخر (وَحِجْرًا مَحْجُورًا) معناه يمنع أن يفسد أحدهما الآخر. و قال المبرد: شبه الخلط بحجر البيت الحرام. و أصل المرح الخلط و منه قوله «فِي أَمْرِ مَرِيحٍ» «١» أى مختلط.

و فى الحديث: مرجت عهودهم أى اختلطت، و سمي المرح بذلك، لأنه يكون فيه اخلاط من الدواب. و مرجت دابتك إذا ذهب بتخليتك حيث شاءت قال الراجز:

رعى بها مرج ربيع ممرجاً»٢«

(١) سورة ٥٠ ق آية ٥

(٢) اللسان (مرج)

ص: ٤٩٩

و (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) معناه خلا بينهما، تقول: مرجت الدابة و أمرجتها إذا خلقتها ترعى. ثم قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا) يعنى من النطفة.

و قيل الماء الذى خلق الله منه آدم بشراً أى إنساناً، فجعل ذلك الإنسان (نَسَباً وَ صَهْرًا) فالنسب ما رجع الى ولادة قريبة، و الصهر خلطة تشبه القرابة. و قيل الصهر المتزوج بنت الرجل او أخته. و قال الفراء: النسب الذى لا يحل نكاحه، و الصهر النسب الذى يحل نكاحه، كبنات العم، و بنات الخال و نحوهما. و قيل: النسب سبعة أصناف ذكرهم الله فى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...) الى قوله (وَبَنَاتُ الْأَخْتِ).

و الصهر خمسة أصناف ذكرهم فى (أُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ...) الى قوله (وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) «١» ذكره الضحاك.

وقوله (وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) أى قادراً على جميع ما أنعم به عليكم.

ثم اخبر عن الكفار فقال (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) الأصنام والأوثان التى لا تنفعهم ولا تضرهم، لان العبادة ينبغى أن توجه الى من يملك النفع والضر مطلقاً.

ثم قال (وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا) قال الحسن ومجاهد وابن زيد: يظاهر الشيطان على معصية الله. وقيل: (ظهيراً) معناه هيناً كالمطرح. والاول هو الوجه.

وقيل: معنى (ظهيراً) معيناً.

وصف الأصنام بأنها لا تضرّ ولا تنفع، يدل على بطلان فعل الطباع، لأنها موات مثلها. والفعل لا يصح إلا من حى قادر.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠)

(١) سورة ٦ النساء آية ٢٢

ص: ٥٠٠

خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي لما «يأمرنا» بالياء. الباقون بالتاء.

من قرأ- بالتاء- جعل الخطاب للنبي (ص) وقيل: معناه أن نسجد لأمرك فجعلوا (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر.

و من قرأ- بالياء- جعل الياء لمسيلمة الكذاب، لأنه كان يسمى نفسه الرحمن فقالوا للنبي (ص) إنا لا نعرف الرحمن إلا نبي اليمامة. فقال الله تعالى «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» «١».

وقال ابو على: من قرأ- بالتاء- أراد أن نسجد لما تأمرنا يا محمد على وجه الإنكار، لأنهم أنكروا أن يعرف الرحمن، فلا يحمل على رحمان اليمامة.

يقول الله تعالى لنبيه (ص) «ما أَرْسَلْنَاكَ» يا محمد «إِلَّا مُبَشِّرًا» بالجنة و ثواب الله لمن أطاعه و مخوفاً لمن عصاه بعقاب الله. و قال الحسن: ما بعث الله نبياً قط إلا و هو يبشر الناس إن أطاعوا الله بالمتعة فى الدنيا و الآخرة، و ينذر الناس إن

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ١١٠

ص: ٥٠١

عصوا عذاب الله فى الآخرة. و البشارة الاخبار بما يظهر سروره فى بشرة الوجه، تقول: بشره تبشيراً و بشارة. و بشارة الأنبياء مضمنة بإخلاص العبادة لله تعالى.

و النذارة هو الاخبار بما فيه المخافة، ليحذر منه. أنذره إنذاراً و نذارة، و تناذر القوم إذا أنذر بعضهم بعضاً. ثم أمره، فقال: يا محمد «قل» لهؤلاء الكفار: إنى لست أسألكم على ما أبشركم به و أحذركم منه «اجراً» تعطونى «إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا» استثناء من غير الجنس، و معناه انه جعل أجره على دعائه اتخاذ المدعو سبيلا الى ربه و طاعته إياه كقول الشاعر.

إلا اليعافير و إلا العيس «١»

و بلدة ليس بها أنيس

جعلها أنيس ذلك المكان. و قيل «إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا» بإنفاقه ما له فى طاعة الله، و ابتغاء مرضاته.

ثم أمره ان يتوكل على ربه «الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» و المراد به جميع المكلفين لأنه يجب على كل أحد ان يتوكل على الله، و يسلم لأمره، و معنى «وَوَسَّحَ بِحَمْدِهِ» أنى احمده منزهاً له مما لا يجوز عليه فى صفاته، بان تقول: الحمد لله رب العالمين، الحمد لله على نعمه و إحسانه الذى لا يقدر عليه غيره، الحمد لله حمداً يكافئ نعمه فى عظم المنزلة و علو المرتبة، و ما أشبه ذلك.

و قوله «وَكَفَىٰ بِهِ» اى كفى الله «بِدُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا» أى عالماً «الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا» يعنى بين هذين الصنفين، كما قال القطامى:

و تغلب قد تباينتا انقطاعاً «٢»

ألم يحزنك أن جبال قيس

و قال الآخر:

(١) قد مر في ١ / ١٥١ و ٣ / ٣٢٧ و ٥ / ٤٩٨

(٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٦٣ و الطبري ١٩ / ١٧

ص: ٥٠٢

توقى المحارم بربان سوادى

إن المنية و الحنوف كلاهما

و قوله فى ستة أيام قيل: كان ابتداء الخلق يوم الأحد، و انتهاؤه يوم الجمعة «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» و قيل «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» تمام الحكاية. ثم ابتداء فقال «الرَّحْمَنُ فُسِّلَ بِهِ خَبِيرًا» و معنى «فَسِّلَ بِهِ خَبِيرًا» أى فاسأل سؤالك إياه خبيراً، قال ابن جريج: الخبير - هاهنا - هو الله. و قيل معناه فاسأل به ايها الإنسان عارفاً يخبرك بالحق فى صفته.

ثم حكى انه إذا قيل لهؤلاء الكفار «اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ» الذى أنعم عليكم «قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أى شىء الرحمن؟ أى لا نعرفه «أَنْسُجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا» و قد فسرناه «وَزَادَهُمْ نُفُورًا» أى ازدادوا عند ذلك نفوراً عن قبول قول النبى (ص) و الرجوع الى طاعة الله.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٦١ الى ٦٥]

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَ قَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَ قِيَامًا (٦٤) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)

خمس آيات.

قرأ حمزة و الكسائى «سرجاً» على الجمع. الباقون «سراجاً» على التوحيد.

ص: ٥٠٣

و قرأ حمزة وحده «أن يذكر» خفيفة. الباقون بالتشديد.

من قرأ على التوحيد فلقوله «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً». و من قرأ على الجمع، فلقوله «زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ»
«١» تشبيهاً بالكواكب أعنى المصابيح كما شبهت المصابيح بالكواكب، في قوله «الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ» «٢» و قيل:

من وحد أراد الشمس وحدها. و من جمع أراد الكواكب المضيئة كلها. و اتفقوا على «و قمرأ» إلا الحسن، فانه قرأ- بضم القاف و الميم- و يجوز أن يكون فيه لغتان مثل (ولد، و ولد) و يجوز أن يكون أراد الجمع غير ان العرب لا تعرف جمع القمر قمرأ، و انما يجمعونه أقماراً.

قوله تعالى «تبارك» قيل في معناه قولان:

أحدهما- تقدس الله، و جل بما هو ثابت لم يزل و لا يزال. لان أصل الصفة الثبوت.

و الثاني- انه من البركة، و التقدير جل تعالى، و تقدس بما به يقدر على جميع البركات «الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً» و البروج منازل النجوم الظاهرة، و هي اثنتا عشرة برجاً معروفة أولها الحمل و آخرها الحوت. و قيل: البروج منازل الشمس و القمر، و قال ابراهيم: البروج القصور العالية، واحدها برج، و منه قوله (وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ) «٣» قال الأخطل:

كأنها برج رومي يشيده
لزَّ بخص و آجرّ و أحجار «٤»

و قال قتادة: البروج النجوم. و قال أبو صالح: هي كبار النجوم، و البرج تباعد ما بين الحاجبين قال: الزجاج: كل ظاهر مرتفع يقال له: برج، و سميت

(١) سورة ٦٧ تبارك (الملك) آية ٥

(٢) سورة ٢٤ النور آية ٣٥

(٣) سورة ٤ النساء آية ٧٧

(٤) تفسير الطبري ١٩ / ١٨

ص: ٥٠٤

الكواكب بروجاً لظهورها.

و قوله (وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً) يعنى الشمس التى يستضىء بها جميع الخلق.

و قوله (وَقَمراً مُنيراً) أى مضيئاً بالليل، إذا لم يكن شمس.

فمن قرأ (سراجاً) أراد الشمس وحدها. و من قرأ (سرجاً) أراد جميع النجوم، لأنه يهتدى بها، كما يهتدى بضوء السراج.

و قوله (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً) أى يخلف كل واحد منهما صاحبه، فيما يحتاج أن يعمل فيه، فمن فاته عمل الليل استدركه بالنهار، و من فاته عمل النهار استدركه بالليل. قال عمر بن الخطاب، و ابن عباس، و الحسن: يخلف أحدهما الآخر فى العمل. و قال مجاهد: معناه أحدهما اسود و الآخر ابيض، فهما مختلفتان. و قال ابو زيد: معناه أحدهما يذهب و يجيء الآخر قال زهير:

بها العين و الأرام يمشين خلفه
و اطلاؤها ينهضن من كل مجثم «١»

و قوله (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ) أى خلقناه كذلك لمن أراد ان يتفكر و يستدل بها على ان لها مدبراً و مصرفاً، لا يشبهها و لا تشبهه فيوجه العبادة اليه.

و قوله (أَوْ أَرَادَ شُكُوراً) أى يشكر الله، على ما أنعم به عليه فيتمكن من ذلك، لان بهذه الأدلة و أمثالها يتوصل الى ما قلناه.

و قوله (وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ) يعنى عباده المخلصين، الذين يعبدونه، المعظمون ربهم (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) يعنى بالسكينة و الوقار - فى قول مجاهد - و قال الحسن: معناه حلماً و علماً، لا يجهلون و إن جهل عليهم. و قال ابن عباس:

بالتواضع لا يتكبرون على أحد (وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ) بما يكرهونه أو يتقل عليهم، قالوا فى جوابه (سلاماً) أى سداداً من القول - ذكره مجاهد - و قيل:

(١) ديوانه «دار بيروت» ٧٥

معناه إنهم قالوا قولاً يسلمون به من المعصية لله. و قال قوم: هذا منسوخ بآية القتال.

و ليس الأمر على ذلك، لان الأمر بالقتال لا ينافى حسن المحاوراة فى الخطاب و حسن العشرة.

وقوله (وَ الَّذِينَ يَبْتَئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) يعنى يعبدون الله فى لياليهم و يقومون بالصلاة، و يسجدون فيها «وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا» أى يدعون بهذا القول، و معنى «غَرَامًا» لازماً ملحاً دائماً و منه الغريم، لملازمته و إلحاحه، و فلان مغرم بالنساء أى ملازم لهن، لا يصبر عنهن قال الشاعر:

إن يعاقب يكن غراماً و إن يعط
جزيلاً فانه لا يبالي «١»

و قال بشر بن أبى حازم:

فيوم النسار و يوم الجفار
كانا عذاباً و كانا غراماً «٢»

و قال الحسن: ليس غريم إلا مفارق غريمه غير جهنم، فإنها لا تفارق غريمها.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤٦ الى ٧٠]

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٤٦) وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٤٧) وَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٤٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٤٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)

(١) قائله الأعشى ديوانه: ١٤٧

(٢) اللسان (جفر) و تفسير الطبرى ١٩ / ٢١ و روايته (النسار) بدل (الانسار)

ص: ٥٠٦

خمس آيات.

قرأ أهل المدينة و ابن عامر و الكسائى عن أبى بكر «يقتروا» بضم الياء و كسر التاء، و قرأ أهل البصرة و ابن كثير بفتح الياء و كسر التاء. الباقر بفتح الياء و ضم التاء، و هم أهل الكوفة إلا الكسائى عن أبى بكر. و قرأ ابن عامر، و أبو بكر «يضاعف ... و

يخلد» بالرفع فيهما. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و ابو جعفر و يعقوب «يضعف» بتشديد العين و إسقاط الالف. الباكون «يضاعف» بإثبات الألف و تخفيف العين. تقول: قتر يقترو و يقترو - بكسر التاء، و ضمها - لغتان.

و اقتتر إقتاراً لغة.

و اختلفوا فى (السرف) فى النفقة، فقال قوم: كلما أنفق فى غير طاعة الله، فهو سرف، لقوله تعالى «إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ» «١».

و

قال على (ع): ليس فى المأكول و المشروب سرف و إن كثر.

و قال قوم: الإسراف فى الحلال فقط، لأن الحرام لا يجوز الإنفاق فيه و لو ذرة.

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ٢٧

ص: ٥٠٧

و من قرأ «يضاعف» فمن المضاعفة. و من شدد، فمن التضعيف ذهب الى التكنير، و المعنيان متقاربان. و من - جزم - جعله بدلا من جواب الشرط، لان الشرط قوله «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ» و جزاءه «يَلْقَ أَثَامًا» و علامة الجزم سقوط الالف من آخره. و (يضاعف) بدل منه و (يخلد) عطف عليه. و من - رفع - استأنف لان الشرط و الجزاء قد تم. و كان يجوز نصب على الظرف - فى مذهب الكوفيين.

و بإضمار (ان) على مذهب البصريين - و لم يقرأ به احد.

لما اخبر الله تعالى أن عذاب جهنم كان غراماً، بين بأنها «سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَامًا» أى موضع قرار و اقامة لما فيها من أنواع العذاب، و نصبها على التمييز.

ثم عاد الى وصف المؤمنين فقال «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا» أى لم يخرجوا عن العدل فى الإنفاق يقال: فلان مسرف على نفسه إذا أكثر من الحمل على نفسه فى المعصية، فشبّه بالمسرف فى النفقة «وَلَمْ يَقْتُرُوا» أى لم يقصروا عن العدل فى الإنفاق، و هو مأخوذ من القتر، و هى الدخان. و الإقتار مشبه به فى الامحاق و الإضرار. و فيه ثلاث لغات: قتر يقترو، و يقترو، و أقترو إقتاراً. و قال ابو على الفارسي: من قرأ «يقترُوا» بضم التاء أراد لم يقترُوا فى إنفاقهم، لان المسرف مشرف على الافتقار، لسرفه. و من فتح التاء أراد لم يضيقوا فى الإنفاق، فيقصروا عن المتوسطين، فمن كان فى هذا الطرف، فهو مذموم، كما أن من جاوز الاقتصاد كان كذلك مذموم. و بين ذلك بقوله «و كان بين ذلك قواماً» أى كان إنفاقهم بين ذلك، لا إسرافاً يدخل فى حد

التبذير، و لا تضييقاً يصير به في حد المانع لما يجب. و قال ابن عباس: الإسراف الإنفاق في معصية الله، قل او كثر، و الإقتار منع حق الله من المال. و قال ابراهيم: السرف مجاوزة الحد في النفقة، و الإقتار التقصير فيما لا بد منه. و القوام - بفتح القاف - العدل، و بكسرهما - السداد، يقال:

ص: ٥٠٨

هو قوام الأمر و ملاكه، و يقال: هي حسنة القوام في اعتدالها، قال الحطيئة:

طافت امامة بالركبان آونة
يا حسنها من قوام زان منتقباً^١

ثم زاد في وصفهم بأن قال «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» يوجهون عبادتهم اليه «وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» و النفس المحرمة هي نفس المسلم و المعاهد و المستثنى نفس الحربى، و من يجب عليه القتل على وجه القود، و الارتداد، و الزنا مع الإحصان (و لا يزنون) فالزنا هو الفجور بالمرأة في الفرج.

ثم قال (و من يفعل ذلك يلقى أثاماً) قال قوم: يلقى جزاء الاثام. و قال آخرون: الاثام العقاب، قال بلعا بن قيس الكناني.

جزى الله ابن عروة حيث أمسى
عقوقا و العقوق له أاثام^٢

أى عقاب. و قال ابن عمر، و قتادة: هو اسم واد في جهنم، و هو قول مجاهد و عكرمة. و قال اهل الوعيد: ان قوله (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) راجع الى كل واحد من المعاصى المذكورة. و قال اهل الارحاء انما يرجع الى جميعه، و يجوز - أن يكون راجعاً - الى الكفر وحده، لان الفسوق لا يستحق به العقاب الدائم و الا لأدى الى اجتماع الاستحقاقين على وجه الدوام. و ذلك خلاف الإجماع، لان الإحباط عندهم باطل، و الكلام على ذلك استوفيناه في كتاب الأصول.

ثم زاد في الوعيد، فقال (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ) جزاء اثامه و يضاعف له العذاب في كثرة الاجزاء لا انه يضاعف استحقاقه، لان الله تعالى لا يعاقب بأكثر من المستحق، لأن ذلك ظلم يتعالى الله عن ذلك. و قيل يضاعف عذابه على عذاب الدنيا، و بين تعالى أنه (يخلد) مع ذلك في النار (مهاناً) مستخفاً به.

ثم استنتى من جملتهم من تاب و ندم على معاصيه، و عمل عملاً صالحاً، فان الله تعالى (يبدل سيئاته حسنات) أى يجعل مكان عقاب سيئاته ثواب حسناته قال الشاعر فى التبديل:

بدلن بعد خرّه صريعاً
و بعد طول النفس الوجيعاً^١

و قوله تعالى (وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) أى ساتراً لمعاصي عباده إذا تابوا منها، منعماً عليهم بالثواب و التفضل.

قوله تعالى: [سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٧١ الى ٧٧]

وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً (٧١) وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (٧٢) وَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَ عُمِيَاناً (٧٣) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ يُلقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سَلاماً (٧٥)

خَالِدِينَ فِيهَا فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَاماً (٧٦) قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً (٧٧)

سبع آيات.

قرأ ابو عمرو و حمزة و الكسائي و خلف و ابو بكر إلا حفصاً «و ذريتنا» على

التوحيد، الباقون على الجمع. و قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً «و يلقون» بفتح الياء و سكون اللام و تخفيف القاف. الباقون بضم الياء و فتح اللام و تشديد القاف.

من وحد «الذرية» فلانه فى معنى الجمع لقوله «ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ»^١ و من جمع فكما تجمع الأسماء الدالة على الجمع، نحو (قوم، و أقوام) و قد يعبر بذلك عن الواحد، كقوله «هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً»^٢ و يعبر به عن الجمع كقوله «وَ لِيُخْشَى الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ»^٣ و من جمع فللازدواج.

و من شدد «يلقون» فعلى أن المعنى يلقون التحية و السلام مرة بعد مرة لان التشديد للتكثير، و شاهده قوله «وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُورًا» «٤». و من خفف أراد يلقون هم تحبة، كما قال «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» «٥» و قال بعضهم: لو كان بالتشديد لقال (و يتلقون) لأنهم يقولون تلقيته بالتحية، و (لقى) فعل متعد الى مفعول واحد فإذا ضعفت العين تعدى الى مفعولين، و قوله «تحبة» المفعول الثانى.

يقول الله تعالى «وَمَنْ تَابَ» من معاصيه و اقلع عنها، و ندم عليها و أضاف الى ذلك الاعمال الصالحات «فَإِنَّهُ يُتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا» أى يرجع اليه مرجعاً عظيماً جميلاً، و فرق الرمانى بين التوبة الى الله، و التوبة من القبيح لقبحه، بان التوبة الى الله تقتضى طلب الثواب، و ليس كذلك التوبة من القبيح لقبحه.

ثم عاد تعالى الى وصف المؤمنين فقال «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ» أى لا يحضرونه، و لا يكون بحيث يذكرونه بشيء من حواسم الخمس: البصر، و السمع،

(١) سورة الإسراء آية ٣

(٢) سورة آل عمران آية ٣٨

(٣) سورة النساء آية ٨

(٤) سورة الدهر (الإنسان) آية ١١

(٥) سورة مريم آية ٥٩

ص: ٥١١

و الانف، و الفم، و البشرة. و من لا يشهد الزور، فهو الذى لا يشهد به و لا يحضره لأنه لو شهد له كان قد حضره، فهو أعم فى الفائدة من أن لا يشهد به. و (الزور) تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. و قال مجاهد: الزور - هاهنا - الكذب. و قال الضحاك:

هو الشرك. و قال ابن سيرين: هو أعياد أهل الذمة كالشعانيين و غيرها. و قيل:

هو الغناء، ذكره مجاهد، و اهل البيت (ع).

و قوله «وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا» معناه: مروا من جملة الكرماء الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يجلون عن الاختلاط بأهله، و الدخول فيه، فهذه صفة الكرام. و قيل: مرورهم كراماً كمرورهم بمن يسبهم فيصفحون عنه، و كمرورهم بمن يستعين بهم على حق فيعينونه. و قيل:

هم الذين إذا أرادوا ذكر الفرج كنوا عنه.

ذكره محمد بن علي (ع)

و مجاهد. و اللغو الفعل الذى لا فائدة فيه. و ليس معناه أنه قبيح، لان فعل الساهى لغو، و هو ليس بحسن و لا قبيح - عند قوم - و لهذا يقال:

الكلمة التى لا تفيد لغو.

و قوله «و الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا» معناه انهم إذا ذكروا بأدلة الله تعالى التى نصبها لهم نظروا فيها، و فكروا فى مقتضاها. و لم يكونوا كالمشركين فى ترك التدبر لها حتى كأنهم صم و عميان عنها، ذكره الحسن.

و قيل معناه يخرون سجداً و بكياً سامعين لله مطيعين. قال الشاعر:

بايدى رجال لم يشيموا سيوفهم
و لم تكثروا القتلى بها حين سلت «١»

أى بايدى رجال شاموا سيوفهم، و قد كثرت القتلى، و معنى شاموا أغمدوا ذكره الزجاج.

(١) اللسان (شيم) نسبه الى الفرزدق، و لم أجده فى ديوانه (طبع - دار صادر - دار بيروت)

ص: ٥١٢

ثم وصف المؤمنين بأنهم يدعون «يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ» و معناه بأن نراهم مطيعين لله، فى قول الحسن. و «قُرَّةَ أَعْيُنٍ» يكون من القر، و هو بردها عند السرور، و يكون من استقرارها عنده.

و قوله «وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا» أى يسألون الله تعالى أن يجعلهم ممن يقتدى بأفعالهم الطاعات.

و فى قراءة اهل البيت (ع) و «اجعل لنا من المتقين إماماً»

و إنما وحد (إماماً) لأنه مصدر، من قولهم: أم فلان فلاناً إماماً، كقولهم: قام قياماً و صام صياماً. و من جمعه فقال: (أئمة) فلانه قد كثر فى معنى الصفة. و قيل:

إنه يجوز أن يكون على الجواب، كقول القائل: من أميركم؟ فيقول: هؤلاء أميرنا قال الشاعر:

ثم اخبر تعالى عن جمع هذه الأوصاف من المؤمنين بأن قال «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا» على طاعتهم التي ذكرها. و (الغرفة) في الجنة المنازل العالية ثواباً على ما صبروا في جنب الله، و على مشاق الدنيا و صعوبة التكليف، و غير ذلك و انهم «يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً» من الملائكة، بشارة لهم بعظيم الثواب.

و قوله «خَالِدِينَ فِيهَا» نصب على الحال أى هم في الجنة مؤبدين، لا يخرجون منها و لا يفنون. و أخبر أن الجنة مستقرهم. و انها «حَسَنَةٌ مُسْتَقَرًّا» من مواضع القرار، و موضع الإقامة و نصب على التمييز.

ثم قال لنبيه (ص) «قل» يا محمد لهؤلاء «مَا يَعْبُونَ بِكُمْ رَبِّي» و معناه ما يصنع بكم ربي - فى قول مجاهد و ابن زيد - و أصله تهية الشيء، و منه عبأت الطيب أعبؤه عباء، إذا هيأته، قال الشاعر:

(١) تفسير الطبرى ١٩ / ٣٢ و القرطبي ١٣ / ٨٣

ص: ٥١٣

أى تهية، و عبأت الجيش - بالتشديد، و التخفيف - إذا هيأته. و العبء الثقل. و ما أعبأ به أى لا أهىء به امرأ. و قال قوم: ما لا يعبأ به، فوجوده و عدمه سواء.

و قوله «لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ» قال مجاهد: معناه لولا دعاؤه إياكم الى طاعته، لم يكن فى فعلكم ما تطالبون به، و هو مصدر أضيف الى المفعول، كقولهم: اعجنى بناء هذه الدار، و خياطة هذا الثوب. و قال الزجاج: معناه لولا توحيدكم و ايمانكم، و قال البلخي: معناه لولا كفركم و شرككم ما يعبأ بعدابكم، و حذف العذاب و أقام المضاف اليه مقامه.

ثم قال «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ» يا معاشر الكفار بآيات الله، و جحدتم رسوله «فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَامًا» عليكم، و يكون تأويله، فسوف يكون تكذيبكم (لزاماً) فلا تعطون الثواب عليه، و تكون العقوبة لزاماً تلزمكم على ذلك. و قال مجاهد: معناه القتل يوم بدر و يكون الخطاب متوجهاً الى الذين قتلوا يوم بدر. و قيل (اللزام) عذاب الآخرة، و قال ابو ذؤيب - فى اللزام:

ففاجأه بعادية لزاماً

كما يتفجر الحوض اللقيف «٢»

لزام: كثيرة يلزم بعضها بعضاً، و لقيف متساقط متهدم، و قال صخر الغي - في اللزام:

(١) تفسير الطبري ٣٢ / ١٩ و القرطبي ٨٤ / ١٣ و اللسان (عباً)

(٢) اللسان (لزم)

ص: ٥١٤

فاما ينجوا من حنتف ارض

فقد لقينا حتوفهما لزاماً «١»

أى انه واقع لا محالة. و قال الضحاک: هو لزوم الحجة لهم فى الآخرة. و قال ابو عبيدة: معناه فيصلا.

و قوله «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ» قال الزجاج: الأحسن أن يكون خيراً ل (عباد الرحمن) «٢» فيكون قوله «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَاً» و ما بعده صفة له و يجوز أن يكون «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَاً» خبر، و ما بعده عطف عليه «٣» تم المجلد السابع من التبيان و يليه المجلد الثامن و أوله أول سورة الشعراء ربيع الاول سنة ١٣٨٢ هـ آب سنة ١٩٦٢ م

(١) اللسان (لزم)

(٢) آية ٦٣ من هذه السورة

(٣) هذه الثلاثة أسطر ملفقة من المخطوطة و المطبوعة